تاريخ
سواحل مصر الشمالية
عبر العصور

(أعمال الندوه التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار
بالمجلس الأعلى للثقافة، بالاشتراك مع كلية الآداب
جامعة الإسكندرية فى يومى ٢٢، ٢٣ أبريل ١٩٩٨م)

إعداد
د. عبد العظيم رمضان

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠١

رئيس مجلس الإدارة :

د. سمير سرحان

رئيس التحرير :

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير :

محمود الجزار

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الاشراف الفنى

محمــود الجــزار

تقـــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريـم هذا الكتاب عن « تاريـخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور » ويشمل أعمال الندوة التى أقامتهـا لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للتقافة ، بالاشتراك مع كلية آداب جامعه الاســكندرية فى يومى ٢٢ و ٢٣ ابريل ١٩٩٨ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية .

ويعد نشر أعمال الندوات العلمية التى نقيمها لجنة التاريخ والآثار ، من سياسة هذه السلسلة . فقد سبق لنا أن نشرنا أعمال الندوات العلمية التى أقيمت حـول « تاريخ المدارس فى مصر الاسـلامية » ، و « مصر وأفريقيا ، الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعصرة » ، و « الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ » وها نحن ننشر أعمال هذه الندوة عن « سواحل مصر الشمالية » وفى سبيلنا لنسر أعمال بقية الندوات الاخرى .

والكتاب الذى بين يدى القارىء يشتمل على ١٧ بحثا لكبار مؤرخى مصر ، وينقسم الى قسمين : القســم الأول وهو القســم التاريخى ، ويشمل الأبحـاث التى تتتبع تاريـخ ســواحل مصر الشماليــة من العصر الفرعونى حتى العصر الحديث . والقسـم الثانى ، ويشتمل على الأبحاث التى تتناول قضايا تاريخية متفرقة تمتد على تاريخ مصر .

وسوف يقرأ القارىء فى القسم الاول عددا من الأبحاث المهمة التى تناولت الموضـــوعات الآتيه : « سواحل مصر الشمالية فى العصر الفرعونى » ، للأستاذ الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف ، و « الاسكندرية البوابة الغربية لمصر » للأســتاذ الدكتور لطفى عبد الوهاب ، « وميناء الاسكندرية وخطوط الملاحة العالميـة فى العصرين البطلمى والرومـانى » ، للأســـتاذ الدكتــور مصطفى العبادى ، و « الأهمية العسكرية والتجارية لمدينه الاسكندريه فى العصر البيزنطى » للأستاذ الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ ، و « سواحل مصر الشمالية فى عصر الولاة » للأستاذة الدكتورة سيدة أسماعيل كاشف و « الاسكندرية قاعدة عسكرية فى القرن الأول من تاريخها العربى ، وموقعة الصوارى » للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد و « حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين » للاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران ، « وهجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى »، للأستاذة الدكتورة عليـة الجنزورى ، « والاســكندرية ووصايا المنصور قلاوون » للدكتور حسن عبد الوهاب حسين و « تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح وأثره على سواحل مصر الشمالية فى القرن السادس عشر » للأستاذ الدكتور فاروق أباظة ، و « الاسكندرية من الحملة الفرنسية الى الاحتـــلال البريطانى » للأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان .

كذلك سوف يقرأ القارىء فى القسم الثانى أبحاثا مهمة عن « المصادر التاريخية والأثرية لمدينة الاسكندرية المغمورة » للأستاذ الدكتور حسين الشيخ ، و « زلاقة السفن فى ترسانة الاسكندرية القديمة » للدكتورة منى حجاج . و « الرموز البحرية ودلالاتها فى الفن المسيحى المبكر » للدكتور عزت زكى حامد قادوس ، و « سواحل مصر الشمالية فى الفن الاسلامى »، للأستاذ الدكتور حسن الباشا، و « التراث الســـكندرى المغمور فى الادارة المتكاملة للمناطق

الساحلية » ، للأستاذ الدكتور حسن البنا عوض ، و « تأثير العوامل الطبيعية والبشرية على واجهة مصر البحرية » للأستاذ الدكتور يوسف حليم •

ولقد قمت بقراءة الأبحاث وترتيبها ترتيبا زمنيا وموضوعيا مغايرا للترتيب الذى ألقيت به أثناء الندوة ، وأعددتها للنشر بشكل علمى يتفق مع أهمية الموضوع • وأملى أن يجد القارىء المثقف والباحث المتخصص فى هذه الأبحاث ما ينشده من فائدة ومتعة •

والله الموفق

رئيس التحرير

أ•د• عبد العظيم رمضان

سـواحل مصر الشمالية
فى العصر الفرعونى

أ٠ د٠ أحمد عبد الحميد يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشـأناه خلقـا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) المؤمنون : ٢ ـ ١٤ ٠

صدق الله العظيم

وكذلك شاء رب العرش لمصر أن تخرج من سلالة من طين ، وأن يتم خلقها بما قسم لها فى قرار مكين ٠ اذ نشأت على الضفتين بين جفنين من جبال وتلال ، وتحرسها مفاوز الى الجنوب وفدافد من يمين وشـمال ٠ ويمتد اطـارا لها بحران عظيمان من شرق وشمال ٠ فهى بذلك كله فى مأمن بما اكتنفها وأحدق بها من عباب البحار وفيافى الرمال ٠ وتباعد بين الأفواج مما يقوى على اجتياز الصحراء الى الوادى فى العراء ، وفى غير عتام ولا خفاء ، وكذلك يمكن لأهلها رقابة من يركب البهم الأمواج فيتصدى له متحفزا للقـاء ٠

واذا بمصر تبلغ في مأمن وسلام أشدها، ونستوى على امتداد عصور تتغور في غياهب الزمان على عودها ، واذا بها بعد دربة ومران على الابحار في النهر العظيم تنطلق الى ما نسميه اليوم البحر الأحمر وسموه « واج ور » أي «الأخضر العظيم » كما تندفع الى الأبيض المتوسط وأطلقوا عليه « بايم عان خارو » أي بحر سوريا العظيم · كان عباب البحر ولجه وقاء لمصر منذ فجر تاريخها لا يكاد يمكن لدخيل ، ومع ذلك فقد حبي ذلك الساحل الشمالي بخصائص أوفرت يومئذ في نفس المصرى مزيدا من أمن وفضلا عن اطمئنان ·

كان هذا الساحل في واقع أمره ـ ومازال ـ سواحل ثلاثة ، يطل الشرقى منها على سيناء ، ويساحل الغربى رمال الصحراء ، وكلاهما لمن يهبط مهاجرا أو مهاجما لا يكفى سغبا أو ينقع غلة ، فضلا عن أن يلقى ترحيبا بله سكوتا من مملقين · أما ثالث الثلاثة حيث تمتد الدلتا وتنصب أمواهها فمن دونه مناقع شواسع وأحراج كثاف تشمل شمالها بأسره ، وتحول دون شرذمة من متسللين أو كثرة من مهاجمين · وفي أقدم أساطير المصريين أن ايسة ـ استخفاء من شر أخيها وعدوها ست ـ قد لجأت بجثمان زوجها وأخيها « أوسير » ـ اذ عادت به من جبيل ـ الى أحراج الدلتا حيث وضعت من بعد وليدها حور ، وتركته في حضانة حتحور ثم كان عند انبثاق الفجر ، كما هو معروف ، من تاريخ ذلك البلد الأمين أن نشأت المدائن ثم الامارات ، ومنها اتحدت لتؤلف مملكة الوجه البحرى · وكان المصرى بفطرته السليمة وحسن تقديره قد رأى منذ ذلك التاريخ السحيق أن يبتعد بمدائنه عن سيف البحر ، وكأنهم كانوا بذلك يستدرجون من عسى أن يبغى عليهم من المهاجمين أو طلائعهم الى البر فيسهل القضاء عليهم ، وذلك بفضل ارتداد المدينة عن الماء شيئا فلا تباشره ·

فكانت أقدم عواصم الوجه البحرى فى ب ودب وما عرف فيما بعد باسم بوتو فى موضع ابطو ابيو ٠

ومع ذلك ، فلم يكن لمصر الناشئة ـ بمقاييس حضارتها الراسخة ـ عن كفاية ما يعوزها فى غير أرضها من مناص ، ولا كان لها عما تفتقر اليه من صالح الخشب لسفائن تذرع بها البحر من محيص ، فكان اقتحامها عندئذ عبابه منذ عصور دلت عليه آثار حضارة نقاده وعصر بداية الأسرات ، فأقامت علائق متصلة مع رمران أى لبنان بلغتها وميناء كبن أى جبيل ، وذلك فضلا عما حملت من فنونها الى جزيرة كفتيو أى كريت ، وجزر بحر ايجه ٠

وحسبنا من دليل على اتصالها المنتظم الدائم القديم ما عرف منذ الدولة القديمة من طرز من سفن مصرية سميت الجبيلية كبنت ، وذلك بحكم انتظام الرحلات بين مصر وجبيل ، وما أقامت عليه مذ ذاك على امتداد تاريخها ٠

كان اهتمام مصر بفلسطين ـ ولم تكن بذات نتاج يغريها ـ اهتماما أمنيا استراتيجيا ، على حين كان اهتمامها بسوريا ولبنان اقتصاديا تجاريا ٠ ولذلك كان انقطاع الرحلات اليهما أو فتورها كارثة كبرى شكا منه أواخر الأسرة السادسة مع انحدار قوتها حكيم ذلك الزمان ايبوور ٠ وكذلك بلغ السهر على أمن مصر وسرعة تحرك الجيوش لاقرار النظام فى فلسطين أن لجأت الى الأسطول بما يوفر على الجيش المسير المرهق زحفا عبر سيناء اليها ٠

كان لمصر يومئذ نشاطها المدنى الاقتصادى والتجارى ونشاطها التعدينى والدفاعى ٠ ومما سجل خاصة على حجر بلرمو أن سنفرو رأس الأسرة الرابعة أنفذ أسطولا من أربعين سفينة

لجلب خشب الأرز من لبنان • وقد واكب تلك الرحلة ما انطلق عصرئذ فى مصر من حركة بناء كبرى أعوزتها الى مزيد من أخشاب رأينا منها شواهد وآثارا فى أهرام سنفرو ، ورأيناها فى سفينى خوفو وما يسميه بعضنا مراكب الشمس • ولاشك أن تلك الرحلة انما كانت لمحة من نشاط لمصر فى البحر المتوسط عظيم • فما كان لأسطول من أربعين سفينة أن ينفذ الى جبيل الا أنه يكون بنى وأعد من رحلات سابقة استوردت أخشابه من قبل • وكذلك ورد من أنباء الأسرة الخامسة ما صور من رحلات بحرية انطلقت أيام الملك ساحورع • وقد بلغ من قوة العلاقات مع جبيل ما برهنت عليه هناك أوان حجرية عليها أسماء كثرة من ملوك الدولة القديمة ، اذ كان المصريون يلقون بالترحيب حتى أوشكت أن تكون مستعمرة مصرية حيث قامت عبادة حتحور فى معبد هناك مقترنة بالربة عشتار •

ومن عهد عاهل الأسرة السادسة بيبى الثانى روى « أونى » أنه أنفذ لقمع الثوار من سكان الرمال فى حملات خمس كان أخطرها موقعة « شرت تب جحس » (بمعنى أنف رأس الغزال) عند جبل الكرمل فيما يظن ، اذ خرج فى حملة برية بحرية زحف فيها الجيش برا عبر صحراء سيناء وهاجمت السفن الشمال من أرض الثوار وذلك فى حصار محكم قضى فيه على الخوارج كافة • وقد طرب أونى لما أحرز من نصر فساق روايته شعرا حيث يقول :

وعاد الجيش هذا فى سلام ... ودمر أرض سكان الرمال
وعاد الجيش هذا فى سلام ... وسوى أرض سكان الرمال
وعاد الجيش هذا فى سلام ... وقد دك القرى ذات الحصون
وعاد الجيش هذا فى سلام ... بما حصدوه من كرم وتين
وعاد الجيش هذا فى سلام ... وبالنار ابتلى كل القصور

وعاد الجيش هذا في سلام وقد قتل المئين من الانوف
وعاد الجيش هذا في سلام وكم أسراه من جم غفير
فاجزل لى جلالته عليه ثناء فاق في كل الأمور

ولقد اتصلت الرحلات على مدى الدولة الوسطى بحيث ترامت الأنباء عن جالية كبيرة من المصريين في جبيل كان حاكمها يستعين بكثرة منهم حتى شاعت اللغة المصرية فيها . ولنا كذلك فيما عثر عليه من عهد الأسرة الثانية عشرة تحت معبد لها في الطود بصعيد مصر ــ فضلا عن تمائم من لازورد وأختام أسطوانية بالية ــ على ودائع من حلى الذهب والفضة وسبائك منهما في أربعة من صناديق الشبة عليها اسم أمنمحات الثانى ، وكانت بحكم طرزها الأيجية والبابلية انما تنطق عما كان لمصر من علائق قد تكون امتدادا لنفوذها على تلك البقاع .

فلما كانت الدولة الحديثة وعصر الامبرطورية أيام تحتمس الثالث ، اذا بالسواحل المصرية تشهد من النشاط ما لم تشهده من قبل ، وذلك بحكم ما كان ينطلق عاما بعد عام من حملات على سوريا ، وما لم يكن عنه غناء من نقل الأجناد ، بحرا الى مواقع الجهاد ، اذ توجت حملته السادسة عام حكمه الثلاثين بالقضاء على قادش ونهبها فيما عسى أن كان أول عملية برية بحرية كبرى في التاريخ ، وقد كان ذكر من قبل عن حملته الخامسة في عامه المنصرم أنه أسر طائفة من سفائن فينيقية عادت بغنائمه مع الحملة بحرا ، ولعله استفاد من ذلك في حملته السادسة كما قدمنا ، حيث كان ما أسر من سفن نواة ما أنشأ بعد ذلك من أسطول . وكان تحتمس الثالث ــ كما سجل في حولياته ــ حريصا في حملاته كلما هبط سوريا على اعداد كافة موانيها بكل ما قد تحتاج اليه الحملة من مؤن وسفن من طرز شتى ذكرت منها السفن الكريتية «كفتيو» والجبيلية

« كبنت » وحاملات الجنود « سكو » (التعبئة) وحاملات الماشية والخيـل (سـكت أهو) و (أهو مرو) ، وذلك فضـلا عن اخشاب الأرز التى لم يعد لمصر عنها بحكم بناء اسطولها وتدعيمه ووجوب صيانته من غناء • ولاشك بمفهوم المخالفة وما كان بديهيا أن يعنى بالموانى أو المرافىء المصريـة توطئـة للاقـلاع والمعـاد ، وضمانا للميرة والامداد •

كان ثمة مرافىء أو مراس ولا نقول مدن سـاحلية ، اذ لم يؤثر عن مصر الفرعونيـة ـ فى مبـلغ علمنا ـ مدن ساحليـة بمفهومنا كما المعنا فى أول هذا الحديث •

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت قاعدة الأسطول المصرى فى برونفر غير بعيده من منف وكانت تضم دارا كبرى لصناعة السفن وصيانتها ، حيث تولاها ـ بمن عمل فيها من مصريين ورهط من السوريين ـ أمنحتب ولى عهد تحتمس الثالث وخليفته من بعده ، يديرها ويرعاها ويزودها بالأخشاب وذلك مع ما كان يتولى من قيادة القوات المصرية هنـاك • ومن ثم كانت برونفر ميـنـاء مصر الرئيسى وقاعدة أسطولها ومنطلقه على عهد تحتمس الثالث ، وكذلك فى عهد أمنحتب الثانى فى أكبر الظن •

وكذلك كانت سـفائن التجارة تقبـل من سوريا على مصر فتواصل المسير فى النيل موغلة حتى « واسة » أو طيبة : ولدينا فى ذلك منظر حافل من مقبرة قنـامون اذ صورت فيها السـفن بركابها السوريين راسية عند سوق طيبة بائعين مبتاعين •

وقد يجدر بالذكر ما سجل فى معبد أمنحتب الثالث الجنزى من مواقع وشعوب أسيوية واغريقية تعاملت مصر معها بلغت ستة

وسبعين عددا نجتزىء منها على الأخص فى هذا المعرض موكيناى وكنوسوس وقد كتبتا فى الهيروغليفية موكينو وكانيوشا على الترتيب ، وذلك فضلا عما تكرر فى غير المعبد من ذكر الفنخو أى الفينيقيين فى أرجح الظن ٠

ولنا أن نتخيل ما كانت عليه السواحل المصرية منذ عصر الامبراطورية وما كانت عليه من حركة دءوب ونشاط لا يكاد يهدأ من سفن راسيات راحلات بين مصر وجبيل ، وبينها وبين كريت وقبرص أو بينهما وبين اليونان فى موكيناى أو شاخصة الى قلاع مصر عند أم الرخم والعلمين تذهب بالميرة والأوامر ، أو تحمل الجند والعاملين البدائل ، وتعود بالأخبار والتقارير والرسائل ٠

ثم كانت الأسرة التاسعة عشرة وانتقال العاصمة واسة (أو طيبة) الى بررعمسى ، ومن بعد فى الأسرة الحادية والعشرين الى جعن أو تانيس كما عرفت فيما بعد أو صوعن كما عرفت فى التوارة ونأنسها اليوم باسم صان الحجر ٠

كانت تانيس ــ كما وصفها كيس ــ فنيسيا مصر ، وكان اختيارها عن زكانة استراتيجية لا اقتصادية ، اذ شهدت تلك الحقبة من تاريخ مصر ــ مع ما شهدت ــ من موجات من عناصر هندوأوروبية طفقت تتدفق برا وبحرا على البحر الأسود والأناضول لتنثال على البلقان وجزر بحر ايجة ثم ليبيا تلمسا لموطن خصيب يطعمهم ويؤويهم مع من صحبوا من نساء وبنين ٠ وما كان لدى طلائعهم من بأس فى الدخول جندا مرتزقة فى طاعة من يكتريهم ، فكان منهم قبائل الشردانا من عساهم نزلوا ساحل الدلتا فى طلائع عهد رمسيس الثانى فانسلكوا فى حرسه بعد استسلامهم للأسر وحاربوا معه معركة قادش ٠

على أن خطر شعوب البحر المتوسط هؤلاء كما عرفوا قد ازداد مع الأيام حين خاب سعيهم نحو الدلتا فنزلوا ليبيا فتحالفوا مع أهلها فى سبيل هدفهم المنشود فى الوادى الخصيب • وقد كان ستى الأول ورمسيس الثانى قد تنبها لنذر الخطر فأقاما على الساحل الشمالى الغربى ـ حماية لمصر ممن عسى أن يغير من قبل البحر أو يهاجم من الغرب ـ سلسلة من قلاع يرى ـ أثر منها الآن بمتحف الاسكندرية ـ عضادة باب القلعة من أم الرخم وأخرى من العلمين عليهما أسماء رمسيس الثانى وألقابه •

ثم كان على مرنبتاح أن يواجه فى عام حكمه الخامس جموعا هائلة من شعوب البحر اندفعت تقاتل لملء بطونها ، كما وصفتها النصوص المصرية وعددت منها الأقايوشا والشكروشا والشردانا والترش وهم بلغتنا اليوم الأخيون والصقليون والسردانيون والاترسكيون ، اذ تحالفوا مع الليبيين بقيادة ملكهم مرياى فكانت ـ يوم التقى الجمعان واصطدم الجيشان ـ معركة هائلة انتزع المصريون فيها النصر المؤزر والنجح الأكبر •

ومع ذلك ، فقد شهد عهد رمسيس الثالث موجة بشرية عاتية غمرت الحيثيين واجتاحت بلادهم فانهار بذلك آخر سد كان يحمى سوريا وفلسطين ، وسرعان ما انتشر الغزاة فيهما ، كما باتت قبرص وفينيقيا فى أيديهم ، بحيث أصبح الخطر على مشارف مصر بل يدق بعنف أبوابها ويريد أن ينقض كالسيل العرم على سواحلها • وكان الليبيون آنئذ قد أعادوا تنظيم أنفسهم فاذا مصر بين شقى الرحى • وزاد من سورة الخطر المحدق ما كان تسرب الى الدلتا من جموع الأجانب أقبلوا لاجئين طعما فى كرم المصريين وان لم يلبثوا يثيرون القلاقل ويتحللون مما تعهدوا بأدائه من الضرائب والخدمة العامة •

وظاهر أن رمسيس الثالث قد أثار الليبيين - مع ما كانوا عليه من تحفز وطمع - بما أراد من تنصيب ملك شاب من جنسهم كان رباه في مصر، اذ آدركوا أنه ربيب مصر وصنيعتها وربيب رمسيس وصنيعه ولن يكون الا حاكما مصريا فرفضوه ٠

وقد نفذ الحلفاء الى مصر عند موقع لعله غير بعيد من فرع الدلتا الكانوبي وان لم يحقق المؤرخون مكانه ، اذ كانت نية الحلفاء الهجوم على منف مجتمعين ٠

كان على رمسيس الثالث آن يخوض الحرب في العام الخامس من حكمه ، اذ تعرضت الدلتا ومصبات النيل لتهديد عصابتين من الهندوروبين كانتا في سبيلهما الى الانقضاض عليها احداهما من البحر والأخرى من البر ، فأباد جيشهم ودمر أسطولهم ٠

ومع ذلك فقد كان عليه أن ينزل معهم في العام الثامن معركة أشد هولا ، اذ يحدثنا بأن شعوب البحر بعد أن قهرت بلاد ختا وكركميش وقبرص وفينيقيا قد تسربت في بلاد آمور ، وذلك في حلف تألف من البوراستي (الفلسطينيين) والثاكورا ٠٠٠

ولم يكن من مناص من حماية الحدود من قبل فلسطين وحماية شاطىء الدلتا الشرقي جميعا ، فقام عند مصبات النيل التي لابد من حمايتها جمع كبير من سفن قوية كانت محتشدة مستعدة تراصت كأنها السور المتصل العظيم ٠ ورابطت عند حدود جاهي خيرة المركبات والمشاة ، اذ تصدى المصريون للمهاجمين بوابل من سهام فدمروا سفنهم التي غرقت بمن فيها وما فيها من كنوز ٠ وقد صورت تلك المعارك في مناظر حية بمعبد الملك بمدينة هابو بالأقصر ٠

وقد غادر من تبقى من المهاجمين الا البوراستى (الفلسطينين) الذين اقاموا فى النطاق الساحلى بين غزة والكرمل ثم اضفوا اسمهم على ذلك الاقليم ٠

ولو قد نجحت شعوب البحر ، لما قامت قائمة لمصر ، ولاختفت دولة الفراعين وحضارة الفراعين كما اختفت دولة الحثيين ٠

ثم ترتد مصر الى الغمام ويرتد اليها الغمام ، فلا يتوافر من أخبارها فى عهد أعقاب رمسيس الثالث من الرعامسة الا ما انكشف أيام رمسيس التاسع ومن خلفه من تدهور السلطة وضياع الامبراطورية وانهيار الأمن وانحدار الأخلاق ، وان ظلت التجارة فى البحر المتوسط كما بدا من قصة أو تقرير ونامون — على أشدها ٠٠٠

ثم يكون حكم الليبيين ثم حكم النوبيين مصر ، ثم خضوعها للأشوريين وانقسامها بعد خروجهم بين اثنى عشر أميرا كان من بينهم أمير صا « بسمتيك » وفيما روى هيرودوت أنه فزع فى صراعه مع أنداده الى استلهام وحى الاله فى بوتو فأجابه بأن الانتقام آت من قبل البحر حيث ينبعث رجال من شبة ٠

ثم لم تمض مديدة حتى هبط الشاطىء غير بعيد من مقام بسمتيك قرصان من الاغريق والكاريين فى دروع ثقيلة من شبة رأى فيهم مصداقا الوحى فتلقاهم مرحبا ، رغم ما أحدثوا فى البلاد من قلاقل وشغب ٠

وما كان هؤلاء الا من مرتزقة الاغريق ممن أرسلهم جيجيس ملك ليديا ، وكان له حليفا على الأشوريين كل يتطلع الى الاستقلال

منهم • فتمكن بجيش منهم من القضاء على رصفائه الأولين والانفراد بحكم البلاد واعلان نفسه ملكا على مصر العليا ومصر السفلى فيما يعرف باسم الأسرة السادسة والعشرين أو العصر الصــــاوى • وجنح بسمتيك منذئذ للاعتماد على الاغريق وفتحت سواحل مصر وأبواب مصر على مصاريعها للاغريق •

واذا بالتجارة تشهد رواجا غامرا على الساحل بين مصر وبلاد اليونان • ولقد أدى ذلك بنكاو خليفة بسمتيك الأول الى التفكير فى وصـــل البحرين العظيمين برباط البحر الأحمر بالنيل (فيما يوازى الاسماعيليـــة الآن) لولا ما تلقى من وحى يتكهن له بأنه انما « يعمل للأجنبى » وقد قدر للأجنبى أن يستأنف ذلك المشروع فاستكمله دارا ملك الفرس •

وكذلك تحدث هيرودوت عن نكاو أنه أرسل أسطولا فينيقيا بحارته طاف فاستغرق ثلاث سنين حول أفريقيـــا • وقد تعجب هيرودوت مما هو دليـــل على نجـاح الرحلة اذ روى الملاحون أن الشمس كانت تشرق فى بعض مراحلهم عن أيامنهم •

وقد راود نكاو الأمل فى اعادة الامبراطورية المصرية بالتدخل فى فلسطين حيث انحسر عنها نفوذ آشور التى تدهورت سريعـا وتمزقت امبراطوريتها فيما بين بابل وميديا • فكان فى فلسطين أن دارت معركة بين فرعون مصر نكاو وبين يهوذا يوشيا قتل فيها يوشيا وخلفه يهواحاز ، فلم يلبث حكمه ثلاثة أشهر حتى وقع فى أسر نكاو الذى أرسله الى مصر واستبدل به على عرش يهوذا أخاه يهوياقيم ، وفرض جزية قدرها مائة وزنة ذهبا على أورشليم ، ثم أخضـــع نكاو ســـائر سوريـــا فى غير جهد حتى بلغ الفرات عنـــد قرقميش • وهناك ، أرســـل ملك بابل جيشا بقيادة نبوخذنصر

يعترض التقدم المصرى فدارت معركة انتهت بهزيمة الجيش المصرى وانسحابه الى الدلتا والى غير معاد

على أن نكاو مع ذلك لم يفقد الأمل فى العودة الى فلسطين ، اذ شجع ما قام ضده بابل من تحالف كان على رأسه صنيعته يهوياقيم ، فكان أن أرسل نبوخذنصر على يهوياقيم جيشا من كلدانيين وسوريين وموآبيين وعمونيين ، فسقطت أورشليم وهلك ملكها ·

ولم يجرؤ نكاو على التصدى فى معركة منظمة لملك بابل فرقا من هزيمة أخرى وان كان أمله الذى لم يتخل عنه فى استرداد فلسطين قد حمله على التفكير فى استردادها بحرا ، فحمل الكورنثيين على بناء أسطول حربى له كانت له به السيادة على البحر المتوسط والبحر الأحمر جميعا ، وذلك فضلا عن حمايته شواطىء مصر وتمكينها من جيش قوى كان خليقا أن يثأر من بابل لولا موت نكاو فخلفه واح ايب رع (حعع ايب رع) ومن بعده يعح موسى (أمازيس) ، الذى روى عنه هيرودوت أنه أخضع قبرص ·

ومع تدفق الاغريق على مصر فى عهده حتى ضاق بهم المصريون رأى امازيس أن يقر تجار الاغريق فى مدينة جعلت لهم وخصهم بها وجاملهم باسمها الاغريقى نوكراتس ، أى سيدة البحار ، وجعل لها ميناء أو مرفأ يستقبل ما يرد من اليونان من عروض هائلة أثروا منها ثراء فاحشا معجلا ·

وفى تلك العصور المتأخرة من تاريخ مصر نشأ ما قد نسميه الموانىء ، فكان فضلا عن برونفر وتانيس ، بايرامون وما عرف فيما

بعد باسم الفرما (بلوز) ودمياط فى أكبر الظن وان كانت موضع جدل من العلماء ... ثم رع قدت التى قدر لها أن تكون أساس عروس البحر المتوسط : **الاسكندرية** .

د/ احمد عبد الحميد يوسف

الاسكندرية : البوابة الغربية لمصر

د. لطفى عبد الوهاب

عرفت مصر على مدى تاريخها الطويل موقعين رئيسيين يشكلان منفذين أو بوابتين لها ، تقع كل منهما عند الخط الفاصل بين الصحراء والمنطقة الزراعية ذات الكثافة العمرانية ، واحدة الى الشرق والأخرى الى الغرب • وقد كانت هاتان البوابتان تمثلان بالنسبة لمصر نقطتى القوة والضعف فى الوقت ذاته ، فقد أثبتت أحداث التاريخ أن مصر استطاعت أن تتقى أى خطر أتى عن طريقهما اذا تعاملت معهما بما انبغى أن يكون عليه التعامل من استعداد كاف ، دفاعا أو هجوما حسبما يقتضى الظرف ، بينما تعرضت من خلالهما لخطر الغزو حين لم تصل استعداداتها الى المستوى المطلوب لرد هذا الخطر • كذلك أثبتت أحداث التاريخ صدق هذه المقولة أو هذا الوصف للبوابتين سواء فى المراحل التاريخية التى كانت مصر خلالها دولة مستقلة تملك زمام أمورها أم كانت ولاية تابعة تسيطر قوة أخرى على أرضها •

ويمثل البوابة الشرقية موقع الفرما أو تل الفرما ، المدينة التى عرفت فى العصور الكلاسيكية تحت اسم بلوزيون Pelouseon • أما البوابة الأخرى ، فتمثلها مدينة الاسكندرية منذ

تأسيسها عام ٣٣١ ق٠م٠ ، بينما يمثلها قبل ذلك التاريخ ، الموقع الذى قامت عليه المدينة عند تأسيسها ، وهو الموقع الدى كانت تقوم على قسم منه آنذاك قرية (أو مدينة) رع ـ قدت التى عرفها اليونان فيما بعد باسم راكوتيس Rhacotis بعد أن أصبحت تشكل حيا من أحياء الاسكندرية ، ثم أصبحت تعرف بعد ذلك باسم راقوده عنـد العرب ـ هذا من جهة بينما كانت تقوم على القسم الآخر من هذا الموقع جزيرة فرعون (أو فاروس Pharos حسب النطق اليونانى) الموازية لشاطىء راقوده من الجهة الأخرى ٠ الأخرى ٠

وقد وافتنا مراحل التاريخ المتعاقبة بما يفيد أن البوابتين الشرقية والغربية كانتا على نفس القدر من الأهمية ٠فالقوى الطامعة فى ثراء مصر وموقعها كانت متعددة على كل من الجانبين برا أو بحرا حسبما تكون الظروف ٠ ومن بين المناسبات التى تعرضت لها البوابة الشرقية فيما يخص المقولة التى أسلفت الاشارة اليها ، اقتحام الهكسوس (الحيـكاخاسوت حسب التسـمية المصريـة القـديمة) لأرض مصر خـلال النصف الأول من القرن الثـانى عشر ق٠م حين تدهورت أحوال مصر وسادها التفكك مع أواخر الدولة الوسطى ، ومن هنا كذلك دخل قمبيز ، الامبراطور الفارسى مصر عام ٥٢٥ ق٠م٠ بعد قتال غير متكافىء وفى ظل ادارة تنقصها الحيطة من الجانب المصرى ، وعن طريقها دخلت قوات العرب فى ٦٤٠ م ، كما دخل الاسرائيليون مرتين أحداهما فى ١٩٥٦ والثانية فى ١٩٦٧ ٠ وفى هذه الحالات الأربع لم تكن مصر (سـواء أكانت دولة مسـتقلة أم ولاية تابعة) على مسـتوى التعامل المتكافىء ، لسبب أو لآخر ، مع القوات الغازية ٠ وقد كان الأمر على عكس ذلك تماما حين اعتنى حكام مصر بتلك البوابة العناية الكافية ، فاتخذوا منها خط دفاع أساسيا عن مصر حتى لو استدعى ذلك

أن يتخذوا بعده خطا دفاعيا ثانيا فى بلاد الشام ، كما حدث — على سبيل المثال — حين وصل هذا الخط الدفاعى الثانى الى الحدود الشمالية لهذه المنطقة عند تخوم آسيا الصغرى على عهد الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة على أثر طرد الهكسوس من مصر ، أو على نحو ما حدث على عهد بطلميوس سوتير (٣٠٥ — ٢٨٣ق٠م) أول ملوك البيت الحاكم البطلمى الذى دفع بالخط الدفاعى الثانى عن مصر من الناحية الشرقية الى أواسط بلاد الشام ٠

واذا كانت المقولة المذكورة قد صدقت على الفرما بلوزيون ، البوابة الشرقية لمصر ، فانها قد صدقت كذلك فيما يخص الاسكندرية بعد تأسيسها ، (وفى حالة راقوده التى كانت تشغل جزءا من موقع المدينة قبل تأسيسها) بوصفها البوابة الغربية لمصر فعند هذه البوابة تصدت مصر خلال الربع الأخير من القرن الثانى عشر ق٠م ، فى زمن الدولة الحديثة ، لشعوب البحر التى هاجمت شواطئها فى عدد من المناسبات كانت احداها على عهد رمسيس الثالث وتمثلت فى معركة حسمت فيها القوات المصرية الموقف مع هذه الشعوب حوالى عام ١١٩٠ ق٠م٠ وهنا كذلك تصدى السكندريون لقوات يوليوس قيصر فى ٤٨ — ٤٧ ق٠م فى حرب شرسة مستطيلة ، اذا كانوا لم ينتصروا فيها فى النهاية الا أنهم كلفوا قيصر كثيرا قبل أن تنتهى المعركة لصالحه ، كما أنه لم يتمكن من الانتصار فى النهاية الا بعد أن انضمت الى قواته قوات أخرى محالفة من خارج مصر٠ وفوق التلال المتاخمة للشاطىء السكندرى ، فى المكان الذى عرف فيما بعد باسم نيكوبوليس Nicopolis أو « مدينة النصر » (منطقة مصطفى كامل حاليا) وضع القائد الرومانى أكتافيانوس نهاية لحكم البطالمة عام ٣٠ق٠م على عهد الملكة كليوباترة السابعة ٠ كذلك لم يستكمل العرب فتحهم لمصر الا عندما دخل عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فى

٢٩ سبتمبر عام ٦٤٢ بعد رحيل القوات البيزنطية عنها فى الثانى عشر من الشهر ذاته ٠ كذلك فان العرب لم يتبتوا هذا الفتح الا بعد معركة استعادوا فيها الاسكندرية فى صيف عام ٦٤٦ ــ وكان مانيويل ، القائد البيزنطى ، قد تمكن من استردادها من يد العرب فى بداية عهد عثمان بن عفان على أثر موت عمر بن الخطاب فى نوفمبر ٦٤٤ ٠ كذلك نزلت الحملة الفرنسية على شاطىء الاسكندرية فى أول يوليو ١٨٩٧ وهى بسبيل غزوها لمصر لتغادر البلاد من المكان ذاته فى أول أغسطس من عام ١٨٠١ ، بعد أن هزم الانجليز والأتراك القوات الفرنسية المحتمية بالمدينة ٠ ومن سفن الأسطول الانجليزى على الشاطىء السكندرى ، ضرب الأميرال سيمور فى ١١ يوليو ١٨٨٢ طوابى الاسكندرية لتكون هذه مقدمة الاحتلال الانجليزى لمصر الذى استمرت مقوماته العسكرية فى قناة السويس حتى صيف ١٩٥٤ ٠ وأخيرا فمن الاسكندرية غادر الملك فاروق الأول أرض مصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ بعد ثلاثة أيام مما عرف باسم حركة الجيش ، فمثلت اللحظة التى أقلعت فيها سفينة « المحروسة » من ميناء القصر الملكى بالاسكندرية من بعد ظهر ذلك اليوم ، النهاية الرسمية لعصر مضى والبداية الرسمية لعصر جديد ٠

وسوف أتطرق فى هذا الحديث الى مناسبتين لتصوير هذه المقولة : احداهما شهدها موقع الاسكندرية قبل أن تؤسس هذه المدينة بأكثر من ثمانية قرون ونصف القرن ، أما الثانية فقد شهدتها المدينة بعد تأسيسها بما يزيد عن قرنين وثلاثة أرباع القرن ٠ والمناسبة الأولى فى هذا الصدد هى الهجوم الذى تعرضت له مصر من جانب من عرفوا فى التاريخ المصرى القديم باسم شعوب البحر ، وهم أقوام مهاجرة كانت تجوب القسم الشرقى للبحر المتوسط خلال النصف الثانى من الألف الثالثة ق٠م٠ منطلقين فى أغلب الأحيان من جزره وسواحله الشمالية بهدف

الاستيطان على سواحله الشرقية والجنوبية ، اما امتزاجا أو تعايشا مع شعوبها أو اقتلاعا لها وحلولا محلها · وكانت جماعات من هذه الشعوب أو الأقوام قد دأبت على مهاجمة الساحل المصرى السمالى بشكل متكرر على مدى ما يقرب من نصف قرن (١٢٣٥ ـ حوالى ١١٩٠ ق·م) على عهد كل من مرنبتاح (خامس ملوك الأسرة ١٩) ورمسيس الثالث (ثانى ملوك الأسرة العشرين) بهدف الاستقرار فى منطقة الدلتا الخصيبة وان كانت ارهاصات هذا الخطر قد بدأت قبل ذلك ببعض الوقت كما استمر التوجس من تكراره لبعض الوقت بعد ذلك ·

ومن بين هذه المصادمات أتحدث هنا عن المعركة البحرية الحاسمة التى شبت بين قوات رمسيس الثالث وهذه الجماعات المهاجمة فى العام الثامن لهذا الفرعون (حوالى ١١٩٠ ق·م) وفى هذا الصدد فان نقشا موجودا على أحد جدران المعبد الذى أقامه رمسيس الثالث فى مدينة هابو يحدثنا فى قسم منه عن أن هذه المعركة نشبت عند مصبات نهر النيل ولكنه لا يسمى موقعا بعينه Pritchard : (ص ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣) ومع ذلك ، فاذا كان هذا النقش لم يحدد اسم المكان الذى دارت فيه المعركة فاننا نستطيع أن نتوصل الى أنها (هى ومعارك أخرى مع شعوب البحر) قد وقعت قبالة شاطىء راقوده ـ وذلك عن طريق مقارنة ما جاء فى هذا النص مع ما جاء فى الأشعار المنسوبة الى هوميروس والتى تمثل تراثا تقع بدايته الزمنية فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر ق·م· (الوقت الذى ينتمى اليه نقش رمسيس الثالث) من جهة ، ومع نص ورد عند كاتب كلاسيكى هو سترابون الجغرافى ، يتحدث فيه عن راقوده من الجهة الأخرى ·

ان نقش رمسيس الثالث يذكر أسماء خمس من الجماعات التى اتحدت مع بعضها لشن هذا الهجوم ، ومن بين هذه الأسماء

يرد اسم جماعة « دنين » ، وهو الاسم الذى اتفق الدارسون على أنه يشير الى شعب الدانائيين Danaoi · من جهة أخرى نجد أن هذا الاسم يرد فى مواضع عديدة من أشعار هوميروس ، سواء فى ذلك ملحمة الالياذة أو ملحمة الأوديسية ضمن التسميات التى أطلقت على اليونان فى العصور المبكرة قبل أن يستقروا على التسمية التى عرفوا بها بعد ذلك بشكل دائم وهى « الهللينيون » Hellenai (الالياذة ، نشيد ٢ : سطور ٤٠ ، ١١٠ ، ٢٥٦ ، ٤٨٥ ـ ٤٨٧ ونشيد ٤ : سطور ٦٧ ، ٨٥ · الأوديسية ، نشيد ١ : ٣٥٠ ونشيد ٤ : ٢٧٨ ، ٧٢٥ على سبيل المثال) · وهنا نجد أن سترابون ، الذى كان يضمن وصفه الجغرافى لكل منطقة يتطرق الى الحديث عنها نبذا واشارات الى ما ينمى الى علمه من تاريخها ، يفرد بابا فى كتابه « الجغرافية » للحديث عن مصر · وفى غضون هذا الباب يذكر لنا (باب ١٧ : ١ ، ٦) فى صدد حديثه عن الاسكندرية وعن مينائها الغربية أن « ملوك مصر القدامى ·· توجسا من أولئك الذين كانوا يجوبون البحر ، وعلى وجه التحديد من الهللينيين (اليونان) الذين كانوا يغيرون على أراضى غيرهم طمعا فيها بسبب ندرة ما لديهم من الأرض ـ أقاموا حامية عسكرية فى المنطقة المسماة راكوتيس وجعلوها مكانا لاقامتهم ، وهى التى تشغل الآن الحى الذى يقع أعلى الميناء ، بينما قدموا الأرض المحيطة بالقرية للرعاة ، وهم قوم شديدو المراس ، وعهدوا اليهم بصد المغيرين الذين يعتدون عليها » ·

وقد يبدو للوهلة الأولى أن حديث سترابون ربما كان بعيدا عن الدقة ، من حيث انه يأتى بعد المناسبة المذكورة بقرون طويلة تصل الى أحد عشر قرنا وثلاثة أرباع القرن (المعركة وقعت حوالى ١١٩٠ ق·م وسترابون اقام فى مصر من ٢٥ الى حوالى ٢٠ ق·م) · ولكن أى شك قد يخامرنا فى صحة ما ذكره هذا الكاتب لا يلبث

أن يزول اذا تذكرنا أن سبل التوصل الى المعلومات الدقيقة كانت مهيأة له ، فهو قد قضى في مصر خمسة أعوام كاملة أو ما يقرب من ذلك ليجمع مادتـه العلمية عن مصر عموما وعن الاسـكندرية بوجه خاص ، وهو يوضح منذ بداية الباب الذي يكتبه عن مصر أن اهتمامه بالاسكندرية يأتي في المقدمة حين يقول : « ومن حيث ان الاسكندرية وما جاورها تشكل القسم الأكبر والأكثر أهمية من هذا الموضوع فسوف أبدأ بالحديث عنها » • كذلك كانت تربطه بوالى مصر ، وهو ايليوس جاللوس ، صـداقة شـخصية تيسر له الوصول الى المعلومات في مظانها اذا كانت هناك آية صعوبات في هذا الصدد • وهكذا كان في امكان سترابون أن يستقى معلوماته ممن ترجى لديهم المعرفة التاريخية آنذاك ، وهـم الكهنة الذين كانوا يحتفظون في معابدهم بسجلات التاريخ المصرى القديم وعلى وجه التحديد فيما يخص الأعمال التى قـام بها الملوك ، والذين نعرف أن أحدهم وهو الكاهن مانيتون كتب باليونانيـة على عهد الملك بطلميوس الأول سوتير ، تاريخا لمصر القـديمة (لا يزال مؤرخو العصر الفرعونى يعتمدون على تقسيمه حتى الآن) معتمدا دون شك على هذه السجلات • والى جانب ذلك ، فقد كان في امكان سترابون أن يعتمد كذلك على المصـادر التى كانت موجودة في مكتبة الاسـكندرية التى عنى البطالمة بتزويدهـا بأكبر قدر من الكتب وبكافة الوسائل الممكنة •

وأول ما يسترعى الانتباه في نص سترابون هو أنه يشير الى الهللينيين ، « وهى التسمية الموحدة التى مر بنا أنها حلت محل التسميات العـديدة التى عرف بها اليونان في العصور المصرية المبـكرة ، على أنهم ضمن مجموعات شعوب البحر الذين اعتـادوا مهاجمة الشواطىء المصرية طمعا في الاستقرار على أرض مصر •

وقد سبق لنا أن رأينا أن « الدنين » أو « الدنائيين » (وهم الهللينيون كما رأينا) يشكلون مجموعة من المجموعات الخمس التي يذكر نقش رمسيس الثالث أن هذا الملك تصدى لها في موقعه عند مصبات فروع النيل · فاذا أدخلنا في اعتبارنا أن آخر هذه الفروع من ناحيه الغرب هو الفرع الكانوبي الذى كان يصب في كانوب (أبو قير الحالية) فانه يمكننا ، بالمقارنة مع نص سترابون ، أن نفترض ان المعركة أو أن الاشتباك الفاصل الذى حسم المعركة قد تم عند راقوده لمنع المهاجمين من الدخول بمراكبهم فى الفرع الكانوبي ، وهو هدفهم الأساسى حتى يصلوا الى عمق الدلتا حيث الاستيطان والاستقرار — ومن ثم لا يصبح هناك تجاوز كبير اذا ذكر ان المعركة كانت عند مصبات فروع النيل ، من حيث ان هذه المصبات كانت تشكل مركز الاهتمام المصيرى لكل من المهاجمين والمدافعين على السواء ، ومن ثم يصبح الحديث عن المعركة التى وقعت « عند هذه المصبات » أمرا واردا اذا كان مكان المعركة غير بعيد عنها — وهو ما يمكن أن ينطبق على المسافة بين مصب الفرع الكانوبي وبين راقوده · وفى الواقع ، فان سترابون لا يمكن أن يكون قد خلط بين كانوب (التى سمى فرع النيل المذكور باسمها) وبين راقوده ، فهو يخصص فقرتين مطولتين (١٧ : ١ ، ١٦ — ١٧) للحديث عن كانوب بالتفصيل ، هذا فضلا عن أن اليونان كانوا على معرفة بها منذ فترة مبكرة من تاريخهم فهى ترد فى أكثر من موضع فى الحديث عن تاريخهم وحكاياتهم الشعبية · والعامل الثانى هو أنه اذا كانت المعركة الحاسمة التى قامت بين المصريين وبين شعوب البحر قد نشبت عند كانوب (مصب الفرع الكانوبى) بالتحديد لكان الفراعنة قد أقاموا استعداداتهم الدفاعية العسكرية عند هذه المدينة استعدادا لأى هجوم محتمل من جانب شعوب البحر فى المستقبل ، ولكن سترابون لا يشير الى كانوب اطلاقا فى هذا

المجال وانما يتحدث بصراحه لا مجال للغموض فيها عن راقوده على أنها المكان الذى اختصوه بهذه الاستعدادات ·

ومما يدعم ما ذكره لنا سترابون من أن راقوده كانت هى التى تعرضت لهجمات شعوب البحر وكان بامكانها أن تتصدى لهذه الهجمات ، ما يذكره سترابون من أن الاسكندر عندما زار راقوده وجد أن موقعها « يتمتع بميزات » ولذلك أمر بتحصين (هذه) المدينة المطلة على الميناء » (١٧ : ١ ، ٦) ·ولا يذكر هذا الكاتب تفصيل هذه الميزات التى يتمتع بها الموقع ولكن نستطيع أن نتعرف عليها من تسلسل الحديث ، فهو ، الى جانب اشارته الى أن راقوده تطل على مواقع السفن ، نجد أن أغلب حديثه عنها يتخذ الصفة العسكرية الدفاعية · فهو يتحدث عما أمر به الاسكندرية من تحصينها بسبب ميزاتها ، فى استمرار لحديثه الذى أسلفت الاشارة اليه فيما يخص اقامة حامية عسكرية بها للدفاع عن الشاطىء المصرى من هجمات شعوب البحر ، والى تدعيم ذلك بتقديم الأراضى المحيطة بها للمساعدة فى هذا الدفاع ·

وفى الواقع ، فان راقوده كانت تمثل موقعا متميزا للدفاع عن المنطقة المجاورة والتصدى لأى هجوم عليها ، فقد كانت تحتوى على موقع مرتفع يجعل منها موقعا عسكريا قويا هو منطقة كوم الشقافة وعمود السوارى حاليا · وقد كان هذا الموقع بالفعل موضع اهتمام من جانب الدولة فى مصر القديمة قبل وبعد عهد رمسيس الثالث وتصديه لشعوب البحر ، فقد عثر فى المنطقة عام ١٨٩٤ على تمثال لرمسيس الثانى (حوالى ١٢٩٢ ــ ١٢١٥ ق·م) الملك السابق مباشرة للفرعون مرنبتاح ، الذى نشبت على عهده معركة كبيرة بين المصريين وشعوب البحر ، كما عثر كذلك فى ١٨٩٧ م على تمثال لرمسيس العاشر (حوالى ١١٢٣ ــ ١٢٢١ ق·م) وهو أمر يمثل

استمرارا للتوجس من هجمات هذه الشعوب بعد أكثر من أربعة عقود من المعركة الفاصلة ضدهم على عهد رمسيس الثالث ، كما يشير الى اهتمام الفراعنة بهذا الموقع ومن ثم إلى الدور المصيرى الذى كان منوطا بموقع راقوده الذى كان يشكل قسما من موقع الاسكندرية بعد تأسيسها ، من حيث كون هذا الموقع يمثل بوابة مصر الغربيـة ٠

وأصل الى نهاية الحديث عن راقوده بوصفها الموقـع الذى حدثت عنده المعركة الفاصلة بين القوات المصرية على عهد رمسيس الثالث وبين شعوب البحر المهاجمة للشاطىء المصرى الشمالى ، فى صدد المقاربة بين النقش المصرى والنص اليونانى ٠ وهنا نجد ان كلا منهما يشير فى توجهه الخاص وتفاصيله الخاصة الى الأهمية المصيرية لهذه المواجهة بين الطرفين ٠ وهنا نجد أن نقش رمسيس الثالث والصورة المرافقـة له يشيران الى شراسـة القتال بدرجة لا ينقصها الوضوح كما يشير النص الى مدى ما يعلقه الفرعون على نتائج المعركة ٠ فالنص (سطور ٢٣ ــ ٢٧) يتحدث عن اغراق سفن المغيرين ومتاعهم (معداتهم) كما يتحدث عن الرماح التى وجهت اليهم على الشاطىء من كل صوب (وهو أمر يشير الى أن المهاجمين نجحت أعداد منهم ، فى أثناء المعركة البحرية ، فى النزول الى الشاطىء والى أن القوات البرية المصرية نجحت فى القضـاء عليهم ، وعن أعداد كبيرة من جثث المهاجمين جمعها المصريون فى أكوام بعد قتلهم ٠ كما يذكر الفرعون عن نتيجة هذه المعركة أنه جعل البلاد (التى أتى منها المهاجمون) لا تجرؤ على مجرد ذكر اسم مصر (فضلا عن العودة الى مهاجمتها) كما جعلهم « لا يرون حدود مصر حتى لا يستطيعوا أن يفخروا بذلك أمام الأقواس التسـعة (أعداء مصر التقليديين) » ٠

وتشير الصورة المواكبة للنص الى شراسة المعركة بأكثر من طريقة : المهاجمون وقد حشدوا لهجومهم عددا من السفن ربما كان يزيد عن عدد السفن المصرية (رمز الفنان الى ذلك بتصوير خمس سفن مهاجمة فى مواجهة أربع سفن مصرية) ، والمصريون يقفزون من سفنهم الى سفن المهاجمين وينقضون عليهم ضربا وتقتيلا ، والهرج والمرج يسود قوات المهاجمين فى سفنهم ، والسهام المصرية وهى تخترق أجسادهم، واحدى سفن المهاجمين وقد انقلبت بهم ورؤوسهم الى أسفل ، وأحد المهاجمين وهو يسقط فى الماء فيسحبه المقاتل المصرى أسيرا (لعل المهاجم كان يريد الوصول الى الشاطىء ؟) ، كما يظهر أحد الأسرى وقد سلمه المقاتلون المصريون الى مقاتل ينتظر عند الشاطىء ٠

ان العرض المصرى يشير من خلال النقش والصورة الى قدر كبير من الشراسة ٠ ومن المرجح ، ان لم يكن من المؤكد ، أن هناك قدرا من المبالغة فى هذا العرض ، فمبالغة الملوك فى وصف انتصاراتهم أمر متكرر الحدوث فى سجلات الملوك الأقدمين فى مصر (وفى غيرها) ٠ ومع ذلك فان صفة « المصيرية » التى اتسمت بها هذه المعركة لا تفتأ تطل علينا من ثنايا كل من النقش والصورة، فحديث الفرعون يظهر منه أنه أراد أن يجعل من هذه المعركة نهاية المطاف بالنسبة لخطر هذه الشعوب المهاجمة ــ وهو أمر مفهوم ، فقد هاجمت هذه الشعوب مصر فى عهد الملك مرنبتاح كما هاجموا شواطىء مناطق سيطرتها فى بلاد الشام ، وقد نجح بعضهم فى التغلغل ، تسللا أو عنفا فى بعض الأحيان الى أجزاء من الدلتا ، وهو خطر « مصيرى » فى أغلب أحواله ، من حيث ان شعوب البحر كانوا يهدفون الى الاستيطان ومن هنا تصبح القضية قضية أرض ووجود اما للمغيرين أو لأهل البلاد ــ وهو أمر نراه فى المحاولة المستميتة من جانب المغيرين للنزول الى الشاطىء ، وانتظار القوات

البرية المصرية لاستقبالهم بوابل من السهام ، والحرص على قتلهم وتكويم أجسادهم • ولا تقل المناظر التى تظهر فى الصورة عن سطور النقش فى تصوير ضراوة هذه المعركة •

واذا كان نص سترابون لا يتحدث عن تفاصيل عسكرية للمجابهة بين المقاتلين المصريين والمغيرين من شعوب البحر على الشواطىء المصرية ، وانما يتحدث عن التدابير الدفاعية التى اتخذتها الدولة المصرية للتصدى لهذه الهجمات ، فاننا نستطيع أن نستنتج من هذه التدابير مدى ما كانت عليه هذه الهجمات من شراسة • وهنا نجد أن الملوك المصريين لا يكتفون بالانتظار حتى يحدث هجوم جديد أو حتى يستشعروا أن هجوما جديدا سيقع من جانب شعوب البحر ثم يرسلوا القوات لمجابهته ، وانما نجدهم يقيمون قوة عسكرية « دائمة » و « مقيمة » فى راقوده ، حتى تبدأ فى التعامل مع المهاجمين لحين وصول القوات المصرية الرئيسية لصد الهجوم ، وهم — مرة أخرى — لا يكتفون بهذا الخط الدفاعى الأول وانما يدعمونه بخط دفاعى ثان فيقدمون الأرض المحيطة براقوده الى الرعاة المشهود لهم بشدة المراس ، وفى تقديم هذه الأرض تثبيت لهؤلاء الرعاة فى الأرض يؤدى بهم الى الاستقرار ومن ثم الارتباط بها والانتماء اليها والحرص على الدفاع عنها ، بدلا من الوجود « الموسمى » والحياة « المتنقلة » التى هى شيمة الرعاة والتى تتراجع فيها قيم الارتباط بالأرض والانتماء لها •

هكذا ، اذن أثبتت راقوده ، التى كانت تشغل القسم الأساسى من الموقع الذى أسست عليه الاسكندرية فيما بعد عام ٣٣١ ق٠م ، أن هذا الموقع يشكل المنفذ الغربى أو البوابة الغربية لمصر وأن من يحسن الدفاع عنه أو يستطيع السيطرة عليه يملك المفتاح الغربى للأراضى المصرية • وأنقل الحديث الآن الى المناسبة

الثانية التي أسلفت الاشارة الى أني سأتطرق اليها في هذا الصدد·
وتتمثل هذه المناسبة في صدام عسكري كبير آخر حدث عند هذه البوابه وينتمي الى زمن كانت الاسكندرية فيه قد تم تأسيسها وسارت في طريق النمو ما يربو على مائتين وثمانين عاما واتخذت مكانها على خريطة البحر المتوسط وفي أكثر من مجال من مجالات نشاطه · والصدام العسكري الجديد ينشب في ظروف تختلف عن تلك التي احاطت بتصدى المصريين لشعوب البحر عند راقوده ، وتقع في سياق العقدين الأخيرين للحكم البطلمي في مصر وعلى وجه التحديد قبل ستة عشر عاما من نهاية البيت الحاكم على أثر انتحار كليوباترة السابعة آخر من حكم من هذا البيت ومن ثم دخول مصر الى دائرة الامبراطورية الرومانية في أول أغسطس من عام ٣١ ق·م·

في تلك المناسبة كان يجلس على عرش مصر كل من كليوباترة السابعة وأخوها بطلميوس الثالث عشر حسب وصية أبيهما بطلميوس الثاني عشر عام ٥١ ق·م· ولم يكونا على وفاق بينهما وكانت قواتهما في صراع مستمر عند بلوزيون على الحافة الشرقية للدلتا ليفصل هذا الصراع في أيهما سيكون العرش من نصيبه وحده · وفي الوقت ذاته كانت الحرب الأهلية على السلطة والنفوذ بين قائدين وسياسيين من قواد وساسة روما ـ وهما يوليوس قيصر وبومبيوس ـ تقارب نهايتها ، وكانت كفة قيصر هي الراجحة وهكذا نجده بسبيل مطاردة بومبيوس للاطباق على ما تبقى معه من قوات مقاتلة ووضع نهاية لقيادته العسكرية ونفوذها ونفوذ من كان يمثلهم في الساحة السياسية · وقد توجه بومبيوس وهو بسبيل مراوغة غريمه قيصر ، الى معسكر الملك البطلمي في بلوزيون وطلب اليه الاحتماء بالاسكندرية باسم الصداقة التي كانت تربط بين بومبيوس وبين والد الملك · ولكن الملك البطلمي

الذى أظهر الترحيب بالقائد الرومانى ، اغتال هذا القائد لاعتبار أو لآخر قبل وصول قيصر الى الاسكندرية · على أن قيصر لم يلبث بعد وصوله أن استعدى السكندريين بعدد من التصرفات الفوقية الاستفزازية التى أعطى نفسه من خلالها حقوقا سيادية جعلت السكندريين يتوجسون من وجوده هو وقوانه فى المدينة ويخشون على مدينتهم وعلى كل مصر من استمرار مقامه فيها ـ وهكذا نشب القتال بين الطرفين ليستمر قرابة سبعة أشهر منذ بوادر شتاء ٤٨ ق·م· الى نهاية ربيع ٤٧ ق·م وقد حاول كل من الطرفين خلال هذه الشهور السبعة أن يحصل على النصر بكل وسيلة وبأية وسيلة ، فكانت أطول وأشهر حرب شهدتها الاسكندرية على امتداد تاريخها · وقد وصلت الينا أخبار هذه الحرب بأدق تفاصيلها من خلال عملين : أحدهما كتبه يوليوس قيصر تحت عنوان « عن الحرب الأهلية » De Bello Civile (بينه وبين خصمه بومبيوس) ، وخصص فصوله السبعة الأخيرة (١٠٦ ـ ١١٢) للحديث عن بدايات هذه الحرب ، والعمل الثانى كتبه ، على أرجح تقدير ، هيرتيوس ، أحد القادة الذين عملوا تحت لواء يوليوس قيصر ويحمل العمل عنوان « عن الحرب السكندرية » de Bello Alexandrino ويخص هذه الحرب منه ٣٣ فصلا (طول الفصل فى كلا العملين لا يزيد كثيرا عن فقرة طويلة فى حدود ما بين نصف الصفحة وثلاثة أرباع الصفحة من القطع المتوسط بالخط الافرنجى) ·

وربما كان خير ما نبدأ به الحديث عن هذه الحرب هو أن كلا من الطرفين كان يدرك بشكل واضح من البداية أن الاسكندرية هى البوابة الغربية لمصر وأن من يستولى عليها يسيطر على مصر كلها ، فعندما يتحدث يوليوس قيصر عن اغتيال الملك البطلمى لبومبيوس (الحرب الأهلية = أ هـ : ١٠٤) يذكر ضمن أسباب ذلك أن المصريين كانوا يخشون أن يتغلغل بومبيوس بنفوذه

فى صفوف الجيش فى أثناء مقامه بالاسكندرية ثم يستولى على « الاسكندرية ومصر » ، بما يوحى به ذلك بأن الاستيلاء على مصر يترتب تلقائيا على الاستيلاء على الاسكندرية • ونحن نجد هذا المعنى يتكرر عندما يتحدث كاتب « الحرب السكندرية = أ س » (فصل ٢٦) عن أخيلاس ، قائد القوات السكندرية فى بداية المعركة ، فيذكر أنه (أى أخيلاس) كان يعرف معرفة جيدة أن « مصر يقوم بحمايتها حاجزان : أحدهما هو فاروس (الجزيرة التى أصبحت تشكل القسم الشمالى من الاسكندرية بعد تأسيسها) من ناحية البحر ، وبلوزيون من ناحية الحدود السورية » هذا ، بينما نجد هذا المعنى ، فيما يخص الاسكندرية ، واضحا كل الوضوح فى ذهن الطرف الرومانى كذلك حينما يقرن كاتب « الحرب السكندرية » انتصار قيصر فى نهاية هذه الحرب بسيطرته على مصر كلها حين يذكر فى صدد الحديث عن هذا الانتصار أن قيصر بدأ فى مباشرة مهامه الأخرى « بعد أن أصبح سيدا للاسكندرية ومصر » (أ س : ٣٣) •

لقد كان اقتناع كل من الطرفين بهذه القيمة التى اتسمت بها الاسكندرية كمفتاح أساسى أو كبوابة غربية لحماية مصر أو للسيطرة على كل مصر ، حسبما رأينا ، وهو الهاجس الذى سيطر ، دون شك ، على كل من السكندريين ويوليوس قيصر على امتداد الصدام الدموى بينهما ، وهو الذى أعطى هذا الصدام كل ما تميز به من شراسة وانتشار واستطالة ، وما كان من الطبيعى أن يؤدى اليه ذلك من الاهتمام الذى لا يكاد يعرف كللا أو فتورا لدى كل من الطرفين بكل ما من شأنه أن يسهم الاهتمام به فى أن يكون النصر الكامل من نصيب أحدهما بينما تكون الهزيمة الكاملة من نصيب الطرف الآخر •

وأول جانب نلمسه فى هذا الصدد هو اهتمام كل من الطرفين بحشد أكبر قدر من المقاتلين من أى مكان يمكن الوصول اليه ٠ وهنا نجد السكندريين ، الى جانب الجنود الذين كانوا موجودين بالاسكندرية لدى نشوب الحرب ، يستقدمون قوات مصرية كانت موجودة آنذاك فى بلوزيون عند الطرف الشرقى للدلتا (أ هـ : ١٠٨) كما يحصلون على مقاتلين : « من أى مكان كان يصل اليه نفوذ مصر ... بحيث أصبحت لديهم أعداد لا يمكن حصرها من المقاتلين » (أ س : ٢) والى جانب هذا فقد تركوا جموع الشعب السكندرى يشتركون تلقائيا فى الهجوم على قوات قيصر (أ هـ : ١٠٦) ٠ بل لقد عمدوا الى تجنيد كل من بلغ سن الرشد من العبيد حتى ينتفعوا بمجهودهم فى حراسة الأماكن فى أطراف المدينة ٠ وقد تبرع المواطنون الأثرياء بتقديم الغذاء اللازم لهؤلاء العبيد الى جانب تقديم أجر لهم على مجهودهم (أ هـ : ١١٠ ، أ س : ٢) ٠

ولم يكن قيصر بأقل من السكندريين حرصا على أن يزيد من أعداد قواته ، فهو حين قدم الى الاسكندرية لم يكن معه سوى ثلاثة آلاف ومائتى مقاتل ولكنه حين صار الصدام بين أهل الاسكندرية وبين قواته واستمر عدة أيام متتابعة سقط فيها عدد كبير من مقاتليه (أ هـ : ١٠٦) وأدرك بشكل واضح أن السكندريين يزمعون التصدى له بكل ما يملكون من قوة ، لم يلبث أن أرسل فى طلب تدعيم قواته الى كافة المناطق التى يستطيع أن يحصل منها على قوات برية أو بحرية ، فكان من بينها قوات من جزيرتى كريت ورودس ومن آسيا الصغرى وسورية الى جانب قوات من الفرسان أمده بهم مالخوس (مالك) ملك العرب الأنباط فى منطقة الأردن وشمال غرب الجزيرة العربية ، بل نجده ، خلال شوط من أشواط

الحرب ، يطلب المعونـه والرجال من مثراداتيس ملك برغـامه (أ هـ : ١٠٧ ، أ س : ١ ، ٢٥ ، ٢٦) ٠

والاهتمام ذاته يبدو واضحا لدى كل من الجانبين فيما يخص الأسلحة والعتاد ٠ وهنا نجد السكندريين يعدون كل ما يمكن اعداده فى هذا الصدد ، فهم يبنون أبراجا ثابتة ذات عشرة طوابق ليتحصنوا بها وليستخدموها كأماكن لاطلاق سهامهم النارية حيثما كان ذلك ممكنا، كما يبنون أبراجا مماثلة ولكنها متحركة على عجلات وتجرها الخيول ، منتفعين فى ذلك بشـــوارع الاسكندرية التى تميزت باستوائها (أ س : ٢) بل ان السكندريين لم يكتفوا بما كان لديهم أو ما كانوا ينتجونه فى هذا المجال ، وانما راحوا ، حسبما يذكر مؤلف « الحرب السكندرية » يقلدون كل ما رأوا من معدات لدينا (لدى الرومان) بمهارة متناهية ، بحيث بدا وكأن رجالنا هم الذى قلدوا (معدات) السكندريين » (أ س : ٣) ٠ وهنا ، كذلك ، لم يكن قيصر بأقل من السكندريين اهتماما بالسلاح والعتاد ٠ فقد رأينا رجاله منذ لحظة يصنعون العتاد « الذى قلده السكندريون) كذلك نجـده يقيم التحصينات فى كل مكان فى القسم الذى كان يسيطر عليه هو وجنوده من المدينة ، بل ان هذه التحصينات وصلت الى الأجنحة والمبانى الملحقة بالقصر الملكى الذى كان يقيم فى قسم منه (أ س : ٣) ٠

ولم يكن الأمر مقصورا على الجهود الدائبة المستمرة لدى الجانبين فى سبيل توفير ما يحتاج اليه القتال من عتاد واستحكامات، بل اتجه كل من الطرفين لتعويق مجهودات الطرف الآخر بكافة الوسائل ٠ وهنا نجد السكندريين يسدون الطرق التى يمكن أن تستخدمها قوات قيصر فى الوصول الى عمق المدينة وذلك باقامة جدران حجرية ثلاثية ترتفع الى أربعين قدما (أ س : ٢) ٠ كذلك

نجدهم يحاولون افساد مياه الشرب التى تصل الى الرومان بهدف احبـاط معنوياتهم . ويصور لنا كاتب « الحرب السـكندرية » ما فعله السكندريون فى هذا المجال ، ونجاحهم المبدئى فى التوصل الى ما أرادوا ، وذلك بتفصيل معبر حين يقول : « لقد اسـتطاع (القائد السكندرى) جافيميديس (عن طريق رجاله) ان يرفع كميات هائلة من مياه البحر عن طريق عجلات رفع المياه وعن طريق الأدوات الأخرى وأن يصبها فى القنوات (المتفرعـة من القنـاة الرئيسية) التى كانت تمد المناطق التى ينزل فيها قيصر وجنوده بالمياه العذبة . ونتيجة لذلك فان صهاريج المياه التى كانت فى أقرب المنازل (الى البحر) ما لبثت مياهها أن ظهر فيها قدر من الملوحة أكبر من المعتاد . وقد استغرب لذلك الرجال (الرومان) الذين لم يكن فى مقدورهم ادراك السبب فى ذلك ، بل انهم كانوا على استعداد لأن يكذبوا حواسهم حين أكد لهم أولئك الذين كانوا يقيمون فى بيوت أبعد (عن البحر) من بيوتهم انهم وجدوا طعم الماء على ما كان عليه من قبـل . وهكذا بدأوا يقارنون بين مياه الصهاريج المختلفة . وعن طريق التجربة استطاعوا أن يتحققوا من الفارق فى طعم المياه . ولكن ما لبث طعم الماء فى الصهاريج البعيدة حتى أخذ يتغير يوماً بعد يوم ، وقد أدى ذلك الى قدر كبير من الذعر (لدى القوات الرومانية) جعلهم يتصورون أنهم سينتهون عن آخرهم » (أ س : ٦ ـ ٧) .

أما من ناحية قيصر فانه ما لبث أن حل المشكلة بأن جعل جنوده يحفرون آبارا حصلوا منها ، من جديد ، على المياه العذبة اللازمة لهم (أ س : ٨) . على أننا نجده ، بدوره ، يقوم بتعويق جهود السـكندريين منـذ بداية القتـال حين أدرك أن أسـطول السكندريين بسفنه الكثيرة العدد من الممكن أن يكون عامل نصر سريع لهم فى أى اشتباك بين الطرفين ، ولذا بادر باشعال النار

بناء أسطولهم بما يقترب من تعويض ما فقدوه منه (أ هـ : ١١٠ ، فيه واحراقه في بداية الحرب ، ولكننا لا نلبث أن نجدهم يعيدون أ س : ١٤) • كذلك نجد قيصر يأمر رجاله بأن يسدوا بالصخور الفتحات الموجودة بالحاجز والتى كان باستطاعة السكندريين أن يحركوا من خلالها سفنهم الى المنطقة التي كانت توجد بها سفن قيصر ، ولكن السكندريين ينجحون في ازاحة هذه الصخور بحيث لا تعود وتشكل عائقا أمام سفنهم (أ س : ١٩ ، ٢١) •

هذا ، ولم تقتصر الحرب على مكان واحد فحسب ، بل امتدت لتشمل كل مكان يرى أحد الطرفين المتحاربين أنه من الممكن أن يخدم هدفه في تحقيق الانتصار على الطرف الآخر — ثم السيطرة على الاسكندرية في النهاية • وفى هذا الصدد فقد عرفت حرب الاسكندرية معارك في شوارع المدينة (أ هـ : ١١١) وفى الميناء وحول فاروس (أ س : ١٤ ، ١٧ — ٢٢) ، كما امتدت المعارك لتصل الى المنطقة الواقعة عند مدخل الفرع الكانوبى للنيل حين بدأت المساعدات تصل الى قيصر عن طريق البحر واعتقد السكندريون أن هذا هو المكان الذى قد تنزل فيه هذه المساعدات من الجنود والعتاد (أ س : ٢٥) ، كما انتقل ميدان القتال الى بلوزيون لمواجهة الملك مثراداتيس الذى دعاه قيصر لمساعدته ضد السكندريين ، فأسرعت القوات السكندرية الى هنـاك في محاولة لمنع قواته من الوصول الى قوات قيصر في الاسكندرية والانضمام اليها (أ س : ٢٦) •

على أن القتال بين السكندريين ويوليوس قيصر لم يقتصر على الجوانب العسكرية فحسب ، بل تجاوز ذلك الى استخدام الحيلة ورد فعلها كسلاح لدى كل من الطرفين • فعندما أحرزت قوات يوليوس قيصر بعض النجاح ، حاول السكندريون أن يلجأوا الى

الخدعة : حتى يطلق قيصر سراح بطلميوس ، الملك الشريك في الحكم والذى كان يقيم في المنطقة التى يسيطر قيصر وجنوده عليها ، متعهدين أن يقابلوا ذلك بالتحالف مع الرومان وأن يضعوا أنفسهم تحت حماية قيصر على أساس ان مثل هذا التعهد سوف يساند الشعب السكندرى اذا قدمه الملك البطلمى وهو فى وسط شعبه الذى يفضلة على كليوباترة ، شريكته فى الحكم (أ س : ٢٣) . ويذكر لنا كاتب « الحرب السكندرية » أن قيصر وازن بين الاحتمالات المترتبة على هذا العرض مدخلا فى اعتباره أن العرض السكندرى قد يكون مجرد حيلة من جانب السكندريين لاسترداد الملك (كقيمة رمزية لها وقعها الأدبى الايجابى بين صفوف السكندريين) ولكنه فكر فى الوقت ذاته أن احتمال امتنان السكندريين لقيصر بسبب اعادته لملكهم قد يؤدى بهم الى الوفاء بوعدهم ، فوجد أن التظاهر بتصديقهم والاستجابة لمطلبهم رغم أى اعتبار معاكس ، أمر لا يخلو من فائدة من حيث انه قد يساعده على الحصول على النتيجة التى يريدها دون مزيد من القتال . وهكذا أطلق قيصر الملك ولم يف السكندريون بعهدهم واستمروا فى الحرب بعد أن كسبوا هذا المكسب الأدبى وهو أن يكون ملكهم على رأس قواتهم المحاربة (أ س : ٢٨ ، ٢٩) .

ثم أصل الى آخر الجوانب التى نشط اليها كل من الطرفين فى محاولة الحصول على النصر فى هذه الحرب التى تميزت بالشراسة والاستطالة ، وهو الجانب الذى تمثل فى سلاح التعبئة المعنوية ، وهو سلاح تقابله فى الواقع من حين لآخر لدى كل من الطرفين . وهنا نجد كاتب « الحرب السكندرية » فى حديثه عن السكندريين بينما كانت الحرب لا تزال فى بدايتها أن « زعماءهم كانوا يرددون فى كل مناسبة أن الشعب الرومانى يحاول خطوة بعد خطوة أن يتملك مصر ، فقبل سنوات جاء جابنيوس (الحاكم

الروماني لسورية الذى ساند بطلميوس الثانى عشر لاستعادة عرشه) الى هنا بجيشه ثم جاء بومبيوس (خصم يوليوس قيصر) وهو بصدد فراره (من مطاردة قوات قيصر) ، والآن يوجد قيصر بينهم ومعه أعداد هائلة من المقاتلين ، وأنهم (السكندريين) ... ان لم يجدوا الوسائل لطرده فان المملكة المصرية سوف تتحول الى ولاية رومانية ، وأن عليهم أن يفعلوا ذلك (طرد قيصر) دون ابطاء ، فهو الآن مكتوف الأيدى فى الميناء بسبب عواصف هذا الموسم ، ومن ثم لا يستطيع أن يستقبل أية مساعدات عن طريق البحر (أ س : ٣) .

والشيء ذاته نجده على الجانب الآخر ، فقيصر لا يألو جهدا فى محاولاته لرفع معنويات جنوده بكافة وسائل الاقناع العقلى والعاطفى كما جد ظرف يؤدى الى شعورهم باليأس من النصر أو توقع الهزيمة . فعندما تدهورت روحهم المعنوية على أثر خلط السكندريين للمياه العذبة التى تصل اليهم بمياه البحر ، على نحو ما مر بنا توجه قيصر اليهم (الجنود الرومان) مبينا لهم أن « الانسحاب من المدينة أمر لا ينبغى أن يكون موضع تفكير على الاطلاق ، ليس من جانب الذين يهتمون بشرفهم (العسكرى) فحسب ، بل كذلك من جانب الذين لا يفكرون الا فى الابقاء على حياة أنفسهم » . ثم يمضى فى شرحه للأخطار التى سيتعرضون لها لو أقدموا على هذا الانسحاب ، من انقضاض السكندريين عليهم وهم بعيدون عن استحكاماتهم ومن ثم بدون حماية ، ثم ينهى حديثه معهم بأن يحثهم ، مرة أخرى ، على « ألا يفكروا فى الانسحاب ... وأن يضعوا كل آمالهم ، اذا أرادوا الحفاظ على حياتهم ، فى (شيء واحد هو) النصر » (أ س : ٨) .

وفى مناسبة ثانية يتحدث قيصر الى جنوده ، ويعيد حديثه فى أيام متتالية حين كان الموقف بيد السكندريين وكانت الآفاق

تبدو حالكة بالنسبة للرومان ، فيذكر لهم أن الهزيمة ان حلت بهم فانها سوف تحرمهم من الحصول على أية موارد أو امدادات عن طريق البر أو البحر (ومن ثم تكون نهايتهم) ، ثم يمضى فى حديثه مبينا لهم أن « أمان الكل يعتمد على تصرفات القلة ، فاذا تقاعس أى منكم فى العزم أو فى الجهد فان الدمار سيحيق بالجميع » ثم يستمر كاتب « الحرب السكندرية » فى روايته ليبين لنا عمق الأثر الذى تركه حديث قيصر المتكرر على جنوده ، فيذكر أن هؤلاء الجنود « قاتلوا بدرجة من التصميم (على الانتصار) لم يجد معها (فى ذلك الشوط من الحرب) ما كان لدى المصريين (السكندريين) من شجاعة أو حذق فى فنون القتال » (أ س : ١٦) ٠

ويبقى فى نهاية الحديث أن أذكر أن صراع الطرفين على الفوز بالنصر ومن ثم السيطرة فى النهاية على الاسكندرية لم يكن أمرا ميسورا بأية حال ، فقد استمرت الحرب ، على نحو ما رأينا فى مناسبة سابقة ، سبعة شهور كاملة من بوادر شتاء عام ٤٨ ق٠م٠ الى نهاية ربيع العام التالى ، واستعد لها الطرفان بكل ما كان لديهما من سلاح وعتاد وشجاعة ودأب لا يعرف الكلل وشراسة فى القتال ومحاولات من جانب كل طرف لتعويق مجهودات الطرف الآخر وتحطيم امكاناته ، وامتدت خلالها تحركات كل من الطرفين فى سبيل الاستيلاء على المدينة الى أماكن بعيدة بدرجات متفاوتة عن المدينة ، فوصلت الى المنطقة المتاخمة لمداخل الفرع الكانوبى عند النهاية الشرقية لخليج أبو قير (حاليا) كما امتدت الى بلوزيون بعد الحدود الشرقية للدلتا ٠ واذا كان قيصر قد انتصر فى النهاية ، فان هذا النصر لم يتيسر له الا بعد أن انضم اليه مثراداتيس ، ملك برغامه ، بجيش كامل ٠ واذا كان كل هذا الحرص على تحقيق

الانتصار من جانب كل من الطرفين يدعــو الى شيء من التأمل أو التساؤل ، فان هذا أو ذاك لا يلبث سببه أن يتضح اذا تذكرنا ما أسلفت الاشارة اليه في بداية الحديث عن هذه الحرب من أن كلا من الطرفين كان يدرك أن الاسكندرية هي مفتاح مصر أو بوابته الغربية وأن الذي يسيطر على الاسكندرية يسيطر على كل مصر ٠

Pritchard, James B. : Ancient, Near Eastern Texts, 2nd ed., Princeton University Press, 1955.

Homer : The Illiad, LCI (Loeb Classical Library). London, 1965.

Homer : The Odyssey, LCL, London, 1966.

Strabo : The Geography, LCL, London, 1949.

Caesar : The Civil War, LCL, London, 1955.

De Bello Alexandrino, LCL, London- 1956.

ميناء الاسكندرية وخطوط الملاحة العالمية في العصرين البطلمي والروماني

بقلم : مصطفى العبادى

كان الهدف الأساسى من تأسيس مدينة الاسكندرية هو أن تكون ميناء جديدا لمصر على ساحلها الشمالى ٠ فان الكتابات التاريخية المعاصرة للاسكندر الأكبر وما بعده مباشرة ، تؤكد أن مصر لم يكن لها ميناء صالح دائم على الساحل الشمالى (٦٦) ، لأن المراسى المعروفة عند مصبات بعض فروع دلتا النيل ــ وخاصة عند مصب الفرع البيلوزى شرقا والفرع الكانوبى غربا ــ كانت تتعرض لرواسب طمى فيضان النيل كل عام ٠ ولذلك كانت تطمر بالطمى كل بضع سنوات ، ويضطرون الى نقلها واعادة بنائها عند حافة تراكم رواسب الطمى ، حين كانت الدلتا تتقدم شمالا داخل البحر ٠ والميناء الدائم الوحيد الذى كان معروفا للملاحين اليونانيين من قديم ــ أو من زمن الأشعار الهومرية فى القرن التاسع أو الثامن ق٠م٠ على أقل تقدير ــ هو ميناء جزيرة فاروس الذى امتدحه هوميروس بأبياته المشهورة فى الأوديسية (٦٧) ٠ ولكن بسبب كونه على جزيرة فى البحر ، فلم يكن له اتصال مباشر بداخل مصر ، وكان الملاحون مضطرين الى الابحار ثانية من فاروس الى كانوب ليتمكنوا من الدخول من مصب الفرع الكانوبى للنيل ٠

هذا هو الوضع الذى كان معروفا لهوميروس ، ووصفه هيرودوت فى القرن الخامس ق٠م٠ (٦٨) ، كما يؤكده قرار الملك نكتانيبو الأول (٣٧٨ ـ ٣٦٠ ق٠م٠) الذى ينص على أن الرسوم الجمركيه كانت تجبى من السفن اليونانية عند كانوب (٦٩) ٠ ولعل هذا هو السبب فى أن اليونانيين أسسوا مستوطنتهم نقراطس على الفرع الكانوبى على مسافة مناسبة من مصبه فى نهاية القرن السابع ق٠م٠ (٧٠) ٠

هذا هو الوضع الذى وجده الاسكندر حين جاء مصر عام ٣٢٢ ق٠م ، ويبدو أن الملاحين والتجار اليونانيين لم يقنعوا بترك الوضع على حاله ، والاستمرار فى دخول مصر من كانوب ومنها الى نقراطس ٠ ولم يكن غريبا حين أراد الاسكندر أن يؤسس مدينة جديدة تسمى باسمه ، أن تكون ميناء جديدا أيضا لمصر ٠ ونظرا لأن اختيار الموقع المناسب للميناء يتطلب خبرة خاصة ومعلومات بظروف البحر والملاحة على الساحل الشمالى ، ولم يكن للاسكندر دراية بها ، وجدناه يشكل لجنة من الخبراء لدراسة الموضوع واقتراح أفضل الآراء ٠ وقد احتفظت مصادرنا بأسماء عدد من أعضاء هذه اللجنة ، مثل كليومينيس من نقراطس المهندس ورجل الأعمال المعروف ، دينقراطس من رودس المهندس المدنى المرموق فى ذلك الوقت ، نومينيوس المهندس المعمارى وأخيه هيبونوموس الذى يقال انه أشار على الاسكندر أن تقوم مدينته على أساسات حجرية وأن يجعل تحتها قنوات لامدادها بالماء ومجارى للصرف الصحى تصب فى البحر ـ ويضيف مصدرنا أن هذه القنوات أطلق عليها اسمه hyponomos نسبة اليه ، لأنه هو الذى أشار بها (٧١) ٠

من الواضح أن موقع الميناء الجديد يجب أن تتوافر له ـ ان أمكن ـ شروط أربعة :

١ - الحماية من آثار فيضان النيل ٠

٢ - الحماية من التيار البحرى من الغرب الى الشرق على طول الساحل ٠

٣ - الحماية من الرياح العكسية الجنوبيه الغربيه شتاء ، والرياح التجارية الشمالية الشرقية صيفا ٠

٤ - امكانية الاتصال المباشر بداخل مصر عن طريق أحد فروع النيل ٠

وكان من الطبيعى أن يتجه التفكير أولا الى موقع غربى الدلتا، لتجنب آثار الفيضان ، فاتجهت الأنظار الى موقع جزيرة فاروس والمنطقة الساحلية فى مواجهتها ، حيث كانت تقوم مجموعة من القرى المصرية أشهرها راقودة (٧٢) ، كما هو معروف ٠ فاذا أمكن رصف المنطقة من البحر الفاصلة بين الجزيرة والساحل ، تحققت للميناء الجديد الضمانات الثلاث الأخرى ٠ وهكذا تقرر بناء الجسر بين الجزيرة والساحل وعرف باسم « هبتاستاديوم » (Heptastadium) وهو مسافة ميل تقريبا، مع مراعاة عمل فتحتين بالقرب من طرفيه ، تسمحان بمرور القوارب من جانب الى آخر وهكذا نشأ ميناءان فى وقت واحد ، الميناء الكبير Portus mangus الى الشرق ، وميناء يونستوس Eunostus الى الغرب ، مع امكانية الانتقال بينهما عن طريق الفتحتين ، هذا مع بناء حواجز الأمواج اللازمة ٠ وبداخل الميناء الغربى على ساحله قرب الهبتاستاديوم تم حفر منطقة عرفت باسم « الصندوق » (kibotos) تدخل فيها السفن عن طريق بوابات تعمل بطريقة « الهاويس » ،

لتتمكن السفن أن تتحرك الى الداخل عن طريق قناة تتصل جنوبا ببحيرة مريوط التى كانت تصلها بالفرع الكانوبى للنيل مجموعة قنوات من ناحيــة الجنوب والشرق ، ثم تم انشـــاء ميناء آخــر للاسكندرية على شاطئها الجنوبى المطل على بحيرة مريوط . عن طريق هذه المجموعة المعقدة من الموانى والقنوات أمكن تحقيق النقل والاتصال المائى • فاذا ما أدركنا ان مستوى سطح الماء فى بحيرة مريوط كان أكثر انخفاضا من مستوى سطح البحر ، لعلمنا بمقدار الصعوبة والدقة البالغة اللازمة لتنفيذ هذا النظام ليستمر عمله بكفاءة عالية حتى وصفه سترابون فى نهاية القرن الأول ق٠م٠ وقال ان هذا التنظيم الدقيق هو الذى ميز الاسكندرية فوق أى ميناء آخر حتى أصبحت أعظم مركز تجارى فى العالم آنئذ (٧٣)٠

فى الواقع كان نمو الاسكندرية وازدهارها سريعا منذ البداية فما كاد المهندس دينوقراطس يفرغ من رســـم التخطيط العـام للمدينة ويعتمده الاسكندر ، حتى شرعوا فى التنفيذ الفورى • وقد كلف الاسكندر أيضا كليوميثيس المسئول عن مالية مصر ، أن يشرف على تأسيس المدينة ويدبر المال اللازم لها • ولم يدخر كليومينيس جهدا أو مالا فى سرعة بناء مرافق الاسكندرية ، فنعرف أنه أقام بها دارا لسك عملات الاسكندر الفضية الجميلة فى عام ٣٢٦ ق٠م ، كما اتخذها مقرا لادارة ما اشــتهر به من احتكار عالمى لتجارة القمح فى البحر المتوسط (٧٤) • وبالنسبة لمجموع السكان اللازمين للمدينة الجديدة ، أمره الاسكندر أن ينقل اليها يونانيين من نقراطس ومنف ومصريين من القرى القريبة على مسافة ثــلاثين ميــلا ، كما أمره بنقل المركز التجـارى « emporium » الذى كان فى مدينة كانوب (٧٥) •

وهكذا تأكدت أهمية الاسكندرية كمركز للتجارة العالمية منذ البداية ، وبعد وفاة الاسكندر فى ٣٢٣ ق٠م٠ وقيام دولة البطالمة

ازدادت هذه الأهمية أضعافا ، وأصبحت الاسكندرية مقصد رجال المال والتجارة . وقبل أن ينتصف القرن الثالث ، تمدنا الوثائق البردية بقرار أصدره الملك بطلميوس الثانى فى ٢٥٨ ق.م. يعكس لنا مدى الازدهار الذى بلغته السوق التجارية ، مما دعا الملك الى التدخل للتحكم فى العملات الأجنبية التى كانت تتدفق على المدينة .. ويذكر كاتب البردية القرار ، وهو ينص على « أن يلتزم جميع التجار باستبدال ما لديهم من ذهب وفضة ، بالعملات البطلمية الفضية الجديدة ليتم الشراء بها فى الاسكندرية وسائر مصر » ، وبعد كتابة نص القرار الملكى يضيف كاتب البردية أن تنفيذ القرار الملكى نتجت عنه مشكلة ، جعلت « ديميتريوس » مدير دار السكة يشكو « من أن الأموال من الذهب والفضة الأجنبية المطلوب استبدالها كانت تفوق كثيرا مقدار ما تصدره الدار من النقود البطلمية فى ذلك الوقت » (٧٦) . وهى ظاهرة تكشف عن شدة اقبال التجار الأجانب على السلع التى كانت تعرضها الأسواق فى الاسكندرية وسائر مصر .

هكذا كان الوضع فى القرن الثالث ق.م ، عصر القوة السياسية من تاريخ البطالمة ، حتى اذا كان القرن الثانى ق.م. يزداد ضعف الدولة سياسيا وعسكريا ، ويزداد خضوعها تدريجيا تحت نفوذ روما ، التى أصبحت تحتل مكان الصدارة بين دول البحر المتوسط . ولكن الغريب فى الأمر أن هذا التطور السياسى السلبى ، كان له رد فعل ايجابى على الحياة الاقتصادية فى الاسكندرية ، فوجدنا تجارا اسكندريين يسجلون أسماءهم فى نقوش منتشرة فى أرجاء البحر المتوسط ، وفى أماكن أبعد مثل الساحل الشمالى للبحر الأسود (٧٧) . ولكن تجارتهم أصبحت تسير فى الخطوط التى تفرضها روما . ويمكننا أن نتتبع هذه

الظاهرة في مجالين مختلفين : في شرق البحر المتوسط ، وفي البحر الأحمر .

في شرق البحر المتوسط ، كانت جزيرة رودس قد نمت نموا متميزا باعتبارها دولة تجارية قوية ، بسبب موقعها عند ملتقى خطوط الملاحة خلال القرنين الرابع والثالث ق.م. وقد احتفظت مع الاسكندرية بروابط قوية من الصداقة والمصالح التجارية المتبادلة منذ تأسيسها زمن الاسكندر ، حين اتخذ كليومينيس له مكاتب ومخازن في رودس ، كان لها دور فعال في ادارة شبكته التجارية (٧٨) . واستمرت هذه العلاقه قويه طيلة القرن الثالث ق.م. (٧٩) وليس أدل على ذلك من ان اهل رودس كانوا أول من مجدوا بطلميوس الأول وخلعوا عليه لقب « المنقذ المؤله » (سوتير Soter) في ٣٠٤ ق.م. (٨٠) . ولكن الموقف تغير تغيرا جذريا مع ظهور روما فجأة في القرن الثاني ق.م. على أنها القوة المسيطرة في حوض البحر المتوسط بعد إنتصارها على هانيبعل في ٢٠٢ ق.م. في الغرب . عندئذ انتهجت روما سياسة تهدف الى التوسع والسيطرة في الشرق . وتطبيقا لهذه السياسة الجديدة ، لم تعد روما تتحمل استمرار وجود رودس مزدهرة ومستقلة ، ولكنها لم ترغب في اللجوء الى استخدام القوة ضد جزيرة قوية نائية ، لذلك اتجهت الى فرض نوع من الحصار الاقتصادى عن طريق الضغط على الدول الأخرى لتوقف معاملاتها التجارية مع رودس، وتنقل وكالاتها وطرق ملاحتها الى جزيرة فقيرة مجاورة ، هي ديلوس . وكانت الاسكندرية من بين المراكز التجارية الهامة التي تعرضت للضغط من جانب روما ، واستجابت له ، فنقلت متاجرها ومخازنها من رودس الى ديلوس ، ولدينا أدلة متعددة من القرن الثاني ق.م. تشير الى العلاقة التجارية الوثيقة بين الاسكندرية وديلوس مع ظهور الدور الروماني بشكل واضح ،

ولعل من أشدها دلالة فى هذا الشأن نقشا كتابيا يتعلق بهبة دينية ، تقدم بها فى ديلوس « رؤساء إتحاد تجار الاسكندرية » (٨١) .

بالنسبة للمجال الثانى ، وهو البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فقد كان له تطور مختلف ، فمع زيادة الادراك فى روما بامكانات التجارة الشرقية والجنوبية الهائلة فى البخور والتوابل والطيوب والأحجار الكريمة والحرير (فيما بعد) ، اتجه رجال المال والأعمال الرومان لاستثمار المزيد من رأس المال فى هذا المجال من التجارة من خلال الاسكندرية • ونتيجة لذلك ، تدفق قدر كبير من رأس المال الرومانى على أسواق الاسكندرية ، وهو ما تؤكده مجموعة من الشواهد • فهناك بردية من منتصف القرن الثانى ق٠م (٨٢) تتضمن عقدا بتكوين شركة دولية لاستيراد الطيوب (aromata) من « بلاد البخور » ، فى جنوب البحر الأحمر وكان المصريون القدماء يسمونها « بونت » (حاليا الصومال) • وهى عبارة عن عقد بقرض للاستيراد عن طريق البحر وفيها نجد ١٢ اسما (بعضها غير مكتمل) تمثل أطراف العقد : دائن وصاحب بنك وخمسة مدينين وخمسة ضامنين ، وهؤلاء الأشخاص الاثنا عشر ينتمون الى سبع مدن مختلفة من أنحاء البحر المتوسط ، مثل روما وقرطاجة ومساليا وايليا وسالونيكا ومقدونيا • ولا يخلو من دلالة أن الرومانى الوحيد ، واسمه جنايوس Gnaeus ، هو صاحب البنك الذى تمت المعاملة المالية من خلاله • وفى نقش كتابى من أسوان يرجع الى عام ١٣٠ ق٠م نجد اهتماما باستيراد « أحجار كريمة ، بخور ، وأشياء رائعة أخرى » (٨٣) •

هناك من ديلوس أيضا نقوش كتابية أخرى من النصف الثانى من القرن الثانى ق٠م٠ تثبت أن الرومان والايطاليين كانوا قد ثبتوا أقدامهم فى سوق التجارة والعمل بالاسكندرية ، وبأعداد غير قليلة • وعلى سبيل المثال ، نجد احدى الهبات الدينية قدمها « ايطاليون بالاسكندرية » (Alexandreae Italicai) (٨٤) • وفى

نقش آخر نجد رومانا من أصحاب السفن والتجار يقدمون قربانا للاله أبوللو ، ويعلنون امتنانهم للملك بطلميوس الثامن وشخص يسمى لوخوس (أحد كبار رجال القصر الملكي بالاسكندرية) « بمناسبة استعادة الملك عرشه في الاسكندرية » (٨٥) ٠

ان هذه الفئة من الرومان والايطاليين لم يقتصر وجودهم في الاسكندرية ، بل عبروا أرض مصر الى اقصى جنوبها في جزيرة فيلة (قرب أسوان) ٠ ومن حسن الحظ أنه أمكن العثور مؤخرا في هذه الجزيرة على اقدم أربعة نقوش مكتوبة باللغة اللاتينية في مصر ، وهي تؤكد هذه الحقيقة (٨٦) ٠ النقوش الأربعة كتبها أربعة مواطنين رومانيين ، ذكروا أسماءهم باللاتينية ، وثلاثة أرخوا زيارتهم بالتقويم الروماني في ٢٦ أغسطس ١١٦ ق٠م٠ وليست هناك معلومات أخرى عن أشخاصهم أو الغرض من زيارتهم ، ولكن تاريخ زيارة هؤلاء الرومان، أضفى على زيارتهم أهمية خاصة٠ فنظرا لأن الملك بطليموس الثامن كان قد توفي قبل هذا التاريخ بشهرين فقط في ٢٨ يونية ١١٦ ق٠م ، فقد يبدو أن ثمة علاقة سياسية بين وفاة الملك وزيارة الرومان الأربعة ، مثل حرص روما على سرعة ارسال مندوبين لمتابعة انتقال العرش حسب رغبتها ٠ ولكن فترة شهرين أو أقل لا تسمح ــ بامكانات السفر والنقل قديما ــ بانتقال الأخبار من الاسكندرية الى روما ، وأن يجتمع السناتوس ويقرر ارسال مندوبين ، ثم سفر المندوبين من روما الى الاسكندرية ، وبعد ذلك يقومون برحلتهم جنوبا في النيل من الاسكندرية الى أسوان وفيلة ٠ بالاضافة الى استحالة السفر والانتقال على هذا النحو ، فليس هناك أدنى دلالة على أن لهؤلاء الأشخاص الأربعة أية صفة سياسية أو عسكرية ٠ والاحتمال الأكبر أنهم من فئة الرومان رجال الأعمال الذين أشرنا الى أمثلة منهم ، بمعنى أنهم حضروا الى مصر في زيارة عمل خاصة،

باستثماراتهم ، ولعلهم أيضا مثل « جماعة الايطاليين المقيمين » الذين التقى بهم ديودور الصقلي في مصر عام ٥٩ ق٠م ، ويبدو أنهم كانوا مشغولين بعقد صفقات مالية (٨٧) ٠

على أن عام ١١٦ ق٠م تاريخ هذه النقوش اللاتينية ، له دلالة خاصة ، وذلك لاقترانه بحدث له أهميته العالمية ، وهو تمكن ملاحين من الاسكندرية من اكتشاف الرياح الموسمية وامكانية استخدامها في الملاحة عبر المحيط الهندى صيفا وشتاء ٠ وأول من روى لنا قصة هذا الاكتشاف هو بوسيدونيوس الجغرافي (١٣٠ ـ ٥١ ق٠م٠) ، ونقلها عنه سترابون في نهاية القرن الأول ق٠م٠ (٨٨) ٠ ومجمل القصة كما أوردها سترابون ، أن ملاحا مغامرا يسمى يودوكسوس من كزيكوس Eudoxus of Kyzicus، كان يعمل في خدمة الملك بطلميوس الثاني في مجال الملاحة في مناطق النيل العليا ، عندما عثر المسئولون عن حراسة سواحل البحر الأحمر على ملاح هندى تحطمت سفينته وكاد أن يهلك ، فأحضروه الى الملك ٠ بعد أن تحسنت حالته ، رأى الملاح الهندى أن خير وسيلة ليفوز بعطف الملك أن يعده بأن يرشد من يختاره الملك من الملاحين في رحلة مباشرة الى الهند ٠ وفعلا استجاب الملك فورا لهذه الفكرة، وكلف يودوكسوس القيام بهذه الرحلة ٠ ويذكر بوسيدونيوس أن يودوكسوس قام برحلتين مباشرتين الى الهند ، الأولى في ١١٨ ق٠م٠ مع الملاح الهندى مرشدا ، وأنها كانت ناجحة وعاد يودوكسوس بحمولة من الطيوب والأحجار الكريمة ٠ الرحلة الثانية ، بقيادة يودوكسوس منفردا في ١١٦ ق٠م ، حينما كان الملك بطليموس الثامن قد توفي وزوجته الملكة كليوباترا الثالثة مازالت على العرش ٠

مصدرنا الرئيسي لهذه القصة هو سترابون ، الذى يرتاب فى صحتها ويرفض مصداقيتها ، لدرجة أنه يتهم بوسيدنيوس بانها من نسج خياله أو انه من السذاجة بدرجة أنه صدقها حين سمعها ، كما يرفض سترابون قصة الملاح الهندى من اساسها · ورغم اعتراضات سترابون ، فان الدراسات الحديثة لا تنساق وراء شكوكه وتقبل تاريخية وقائع رحلتي يودوكسوس (٨٩) · فالوقائع في جوهرها تتفق وما نعرفه من الظروف التى كانت سائدة فى المحيط الهندى حتى ذلك الوقت ، حين تحكم تجار الاسكندرية فى تجارة البحر الأحمر ، والأنباط والعرب الجنوبيون استأثروا بتجارة القوافل عبر الجزيرة العربية ، بينما احتفظ الهنود والعرب لأنفسهم بتجارة المحيط الهندى · ظل هذا التوازن الدقيق بين مصالح الفرقاء الثلاثة فى تجارة الشمال والجنوب محافظا عليه طيلة القرنين الثالث والثانى ق·م وخاصة من جانب العرب الجنوبيين ، الذين أفادت بلادهم وازدهرت طالما كانت أسواقهم ملتقى تجار الشمال والجنوب ليتبادلوا بضائعهم · كان تجار الاسكندرية وتجار الهند يلتقون فى بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) ليتبادلوا سلعهم الثمينة ، ولشراء ما ينتجه العرب الجنوبيون من أغلى أنواع البخور · ويمثل لنا هذا الوضع التجارى للجنوب العربى ، عبارة للمؤرخ ديودور الصقلى عن « الجزر المزدهرة بالقرب من بلاد العرب السعيدة التى كان يقصدها ملاحون من شتى الموانىء ، وخاصة من ميناء بوتانا (Potana) المدينة التى أسسها الاسكندر عند نهر السند » (٩٠) ·

ونجد تصويرا مباشرا لهذا الوضع فى نص معروف وبالغ الأهمية رغم تأخره الزمنى بعض الشيء ، وهو « كتاب الملاحة فى البحر الأحمر » الذى لا نعرف مؤلفه ، وربما كتب حوالى ٤٠ ميلادية · وفيه نقرأ « أن العربية السعيدة (يقصد بها ميناء عدن

حاليـا) كانت فيما مضى مدينة مزدهرة ، حينما لم تكن السفن من الهند تذهب الى مصر ، ولا كانت سفن مصر تجرؤ على أن تبحر الى بلاد وراءها ، ولكن تصل لهذا الميناء فقط » (٩١) • وأية محاولة تقوم بها سفن الاسكندرية للابحار وراء ميناء العربية السعيدة ، كانت تواجه بمقاومة شـديدة ، واذا ما حدث وأبحروا ، فكانوا يضطرون للملاحة مساحلة « والسير حول الخلجان » ، كما يقول كتاب « الملاحة » (٩٢) •

هذه هي الظروف التي سادت بالنسبة للتجارة الشرقية عن طريـق البحر الأحمر والمحيط الهندى الى أن اقتحـم المواطنون الرومانيون سوق المال في الاسكندرية حوالى منتصف القرن الثانى ق•م• كما سـبق أن ذكرنا • وما من شك أن زيادة الطلب فى أسواق البحر المتوسط على السلع الآتية من الشرق والجنوب ، حفز تجار الاسكندرية على أن يزيدوا نصيبهم في تجارة الشمال والجنوب • وكانوا يعلمون أن فرصـتهم الوحيـدة لتحقيق ذلك تتمثل فيما اذا تمكنوا من تجنب الارتباط بالموانى العربية وفى حرية الابحار مباشرة عبر المحيط الى أسواق الهند الغنية • ولقد أبدى بطلميوس الثامن ـ وهو حليف روما ـ وزوجته من بعده اهتماما شخصيا فى تحقيق هذا المشروع ، وأدركوا أن نجاحـه سوف يعود على الاسـكندرية وأصحاب رؤوس المال فيها بالخير العميم • وما من شك أن الاستعانة بملاح هندى ، له خبرة ومعرفة كاملة بأسرار الرياح الموسمية ومساراتها يكون عونا كبيرا لنجاح التجربة الأولى •

ان اكتشاف الرياح الموسمية وتمكن الملاحين الاسكندريين من استخدامها بعد ١١٨ ـ ١١٦ ق•م• ترك آثارا واضحة على الساحة المصرية بصفة عامة • فنجد منصبا جديدا له أهميته يظهر فجأة فى

وثائقنا ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والمحيط الهندى » وذلك زمن الملك بطلميوس الثانى عشر (٨٠ - ٥١ ق٠م٠) على الأرجح (٩٣) ٠ ويدل انشاء مثل هذا المنصب على ان استخدام الرياح الموسمية حقق زيادة كبيرة فى رأس المال المستثمر فى التعامل التجارى البحرى مع الهند ٠ ومما قد يكون له علاقة بهذه التطورات أيضا، أن مجلس السناتوس فى روما قرر فى ٥٥ ق٠م٠ ارسال جابنيوس على رأس جيش رومانى لاعادة الملك البطلمى الى عرشه ، والبقاء فى الاسكندرية لحماية الملك ضد أية حركة تمرد محتملة (٩٤) ٠ ويمكننا أن نستبين وراء هذه الخطوة الحاسمة من جانب السناتوس وجود مصالح مالية رومانية لها شأنها قد تتهددها أى تغيرات مفاجئة فى الاسكندرية معادية لروما ٠

ان هذه التطورات على الساحة المصرية خلال القرن الأخير من الحكم البطلمى يجب أن تنبهنا الى عدم قبول عبارة سترابون التى يقتبسها الدارسون الحديثون دون تردد ، والتى يمتدح فيها « الادارة الرومانية الرشيدة وأنه فى ظلها زادت تجارة مصر مع الهند وشرق أفريقيا (تروجلوديت) زيادة كبيرة جدا ٠ فى الزمن السابق لم تكن تجرؤ أكثر من عشرين سفينة على الابحار الى أقصى جنوب البحر الأحمر لتنظر فقط من خلال مضيق باب المندب ولكن الآن (خمس سنوات بعد ضمها لروما) فحتى الأساطيل الكبيرة تبحر الى الهند وأقصى أطراف اثيوبيا ، ومن هناك تجلب أغلى السلع الى مصر ، ومنها ترسل الى شتى الأقطار » (٩٥) ٠ لا شك أن فى هذه العبارة مبالغة واضحة قصد بها مجاملة الادارة الرومانية ، خاصة اذا ما تذكرنا أن سترابون كان صديقا شخصيا لوالى مصر فى ذلك الوقت ايليوس جاللوس ، ونزل عليه ضيفا ٠ ان عبارة سترابون هذه تتعارض كلية مع المعلومات المستفادة من النقوش السابق ذكرها ، ومع عبارة لها دلالتها وردت فى كتاب

« الملاحة في البحر الأحمر » ، والتى تشير الى أن التغير فى أساليب الملاحة والزيادة الهائلة فى التجارة كانا نتيجة مباشرة لاكتشاف الرياح الموسمية نصف قرن على الأقل قبل فتح أغسطس لمصر .

وفى موضع آخر يقول سترابون ، ان الفضل فى زيادة معلوماتنا عن البلاد الشرقية يرجع الى تجارة الاسكندرية ، اذ ان لهم ما يزيد على مائة وعشرين سفينة تعمل فى التجارة مع الهند (٩٦) . هذه العبارة تتحدث عن زيادة فى المعلومات الجغرافية ، وزيادة تبلغ ستة أضعاف عدد السفن السابقة ، مما يوحى بتحول تم على فترة ممتدة من الزمن ، وليس فجائيا كنتيجة مباشرة لتحول مصر الى ولاية رومانية .

ونظرا لارتباط الملاحة قديما بمواسم الرياح واتجاهاتها ارتباطا وثيقا ، فيمكننا أن نضيف كلمة مختصرة لايضاح كيف تعامل ملاحو الاسكندرية مع هذا الاكتشاف الجغرافى الجديد ، فبعد أن تعرفوا على نظام الرياح الموسمية ومواسم هبوبها صيفا وشتاء ، وظروف الملاحة على شواطىء الهند لخطورة الاقتراب والدخول الى الموانى وقت اشتداد العواصف الموسمية كما هو الحال فى أغسطس والنصف الأول من سبتمبر . وعلى ذلك نظم ملاحو الاسكندرية رحلاتهم الى الهند بحيث تبدأ من مصر خلال النصف الثانى من يوليو ، لتستفيد السفن من الرياح « الاتيسية » (التجارية الشمالية) فى الجزء الأكبر من البحر الأحمر ، لتصل الى باب المندب فى نحو ثلاثين يوما ، أى حوالى منتصف أغسطس . ومن ثم يدخلون فى منطقة الرياح الموسمية الصيفية (الجنوبية الغربية) المتجهة الى الهند : وتستغرق هذه الرحلة المباشرة عبر المحيط الهندى نحوا من عشرين أو خمسة وعشرين يوما . واذا ما سمحنا بعدد من الأيام للتوقف أو الانتظار فى بعض الموانى لأى

سبب طارىء ، فانهم يصلون موانئ شمال غرب الهند فى النصف الثانى من سبتمبر ، حينما تكون الرياح الموسمية الصيفيــة قد دخلت أيامها الأخيرة وهدأت حدتها ، وأصبح الرسو والدخول الى الموانىء الهندية آمنا • كذلك كان لابد من تجنب الملاحة فى أكتوبر حين تتحول اتجاهات الرياح الموسمية من الصيفية الى الشتوية (من الجنوبية الغربية الى الشمالية الشرقية) فلا تكون مستقرة ولا منتظمة بعد (٩٧) •

أما بالنسبة لرحلة العودة من الهند ، فيبدو أن اتقانها احتاج لمزيد من المعرفة والخبرة ، فنحن نعرف أن يودكسوس عند عودته من رحلته الثانية عام ١١٦ ق٠م٠ دفعته الرياح خارج مساره الى باب المنــدب ، وقذفت به الى بعض سواحل شرق أفريقيا (٩٨) مما يدل على أنه لم يكن على معرفة كافية بالرياح الشتوية (الشمالية الشرقية) التى تسود فى المحيط الهندى فيما بين ديسمبر ومارس، وربما كان يودوكسوس قد بكر أو تأخر قليلا عن الوقت المناسب للملاحة• وفى زمن لاحق بعد أن أتقنوا التعامل مع الرياح الموسمية الشتوية ، كان ملاحو الاسكندرية يبدءون رحلة العودة من موانى الهند خلال شهرى ديسمبر أو يناير على الأكثر وبذلك كانوا يتمون الرحلة ذهابا وايابا بين مصر والهند خلال العام نفسه ، وهو ما لم يكن ممكنا قبل اكتشاف الرياح الموسمية ، فقد كانت رحلة العودة تستغرق سنتين (٩٩) •

نقطة أخرى ينبغى أن نتناولها قبل أن ننتهى من هذه الدراسة، وهى مشــكلة تتعلق بتعارض المعلومات التى تضمنتها مصــادرنا القــديمة بالنســبة لاكتشاف الرياح الموسمية • مصــادر العصر الهللينستى التى أجملها لنا سترابون تنسب الاكتشــاف ــ كما ذكرنا ــ ليودوكسوس كما فعل الجغرافى بوسيدونيوس ونقل عنه

ويشكك فيه سترابون الذى عاش فيما بين نهاية العصر الهللينستى وبداية العصر الامبراطورى . ولكن حين ننتقل الى سائر كتاب العصر الامبراطورى ، نجدهم جميعا يقدمون صورة مختلفه كل الاختلاف فيما يتعلق باكتشاف الرياح الموسمية . وأسبقهم فى ذلك مؤلف كتاب (الملاحة فى البحر الأحمر » ، الذى نجهل اسمه - كما سبق أن ذكر - ويعتقد أنه كتب حوالى ٤٠ ميلاديه . هذا المؤلف لا يعرف شيئا عن يودوكسوس ورحلتيه الى الهند ، ولكنه يذكر شخصية أخرى ، لم نسمع عنها من قبل ، تسمى « هيبالوس» باعتباره أول ملاح تمكن من دراسة مواقع موانى التجارة ومسالك البحر واكتشف الطريق عبر المحيط » (١٠٠) ويضيف بعد ذلك أنه حتى الزمن الذى كتب فيه ، كانوا يطلقون على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى المحيط الهندى اسم هيبالوس فى تلك الأقاليم ، نسبة لاسم أول رجل اكتشف الرحلة عبر المحيط . هذه الرواية الجديدة نقلها أيضا اثنان من أهم مصادرنا فى العصر الرومانى وهما بلينيوس المتوفى عام ٧٠ ميلادية وبطلميوس الجغرافى من كتاب القرن الثانى (١٠١) .

ورغم أهمية كتاب « الملاحة فى البحر الأحمر » واشتماله على كثير من المعلومات التفصيلية القيمة ، فان اقحامه اسم هيبالوس باعتباره أول من اكتشف الرياح الموسمية ، خلق مشكلة ليس لها حل مقنع الى يومنا . فما من شك أن يودوكسوس من كزيكوس شخصية تاريخية ، وأن اكتشافه للرياح الموسمية فى ١١٨ و ١١٦ ق.م. ثابت ومسجل تاريخيا قبل كتاب « الملاحة » بما يزيد على قرن من الزمان على الأقل ، كما سبق أن بينا . وقد انقسم الرأى بين العلماء بشأن هيبالوس الى ثلاث فرق : فمنهم من اعتبره أحد رفاق يودوكسوس أو من جاءوا بعده مباشرة ، ومنهم من رأى أنه من مشاهير الملاحين زمن الامبراطور أغسطس أو بعده بقليل وفريق

ثالث يئس من تحديد هويته ، فاعتبروه شخصية خيالية تمثلت فيها ظاهرة الرياح الموسمية التى تعين الملاحين فى الرحلة عبر المحيط الى الهند (١٠٢) • ورغم الغموض الذى يكتنف هذه المشكلة ، فربما نجد بصيصا من ضوء لتفسيرها على الأقل فى التناقض الواضح بين المصدر الهللينستى المتمثل فى الفيلسوف والجغرافى بوسيدونيوس من أباميا (١٣٠ — ٥١ ق٠م) ، أول من سجل حادثة اكتشاف يودوكسوس للرياح الموسمية ؛ وسائر المصادر التى ترجع الى العصر الرومانى ، وأقدمها كتاب « الملاحة » ثم بلنيوس وبطليموس بعد ذلك ، الذين لا يعرفون شيئا عن يودوكسوس ، وينسبون الاكتشاف لهيبالوس ، هناك بين الموقفين المتناقضين موقف يمثله سترابون فى مطلع سنوات العصر الامبراطورى زمن أغسطس نفسه ، فنجده يشكك بشدة فى رواية بوسيدونيوس ، ولكنه لم يسمع بعد بقصة هيبالوس • هل هناك وراء هذا التحول فى الرأى دافع سياسى رومانى يحاول أن يسلب البطالمة واحدا من أمجادهم فى الكشف الجغرافى ، ونقله الى العصر الرومانى ؟ خاصة وهو مجال كان هناك احساس عام بأهميته بين رجال العلم والثقافة ، أكده سترابون فى أكثر من مناسبة (١٠٣) ، وكان يجد هوى فى نفس أغسطس نفسه • فلا يبعد أن أجهزة الدعاية الرومانية ، بدأت بالتشكيك فى خبر يودوكسوس ، كما فعل سترابون ، ثم وقعت على اسم هيبالوس الذى ربما ذاعت شهرته فى بداية العصر الامبراطورى فى تلك التجارة الشرقية التى يمولها كبار الرأسماليين من الرومان •

ما من شك أن تجارة مصر مع الهند استمر ازدهارها ونموها فى العصر الرومانى نتيجة لتطورات جديدة حاسمة • فمن الواضح أن المصالح الاقتصادية الرومانية التى ساندت وأعانت التجارة البطلمية الشرقية أن تقيم اتصالا مباشرا مع الهند عن طريق تجنب

العربية السعيدة وتجاوز موانيها، استمرت توجه سياسة أغسطس الخارجية فى ذلك الاقليم • فلم يكد يمضى على ضم مصر الى روما أربع ســنوات ، حتى وجدنا أغسطس فى ٢٦ ق٠م يكلف واليه على مصر ، ايليوس جاللوس بغزو جنوب الجزيرة العربية برا (١٠٤) • هذه الحملة البرية أنزلت بالســبأيين أضرارا بالغــة حتى مدينة مأرب ، ولكنها لم تقض تماما على النشاط التجارى للموانى العربيه المطــلة على المحيط • لذلك لم يقنع أغسطس بما حققتــه الحملة البرية ، وقرر بعد ذلك فى العام الأول الميلادى شن هجوم مدمر عن طريق البحر ، أدى الى تدمير الميناء الرئيسى للعربيــة الســعيدة (حاليا عدن) • وشل نشاطها التجارى بعد ذلك حتى أصبحت « مجرد قرية بعــد أن كانت مدينــة كبرى » ، حسب تعبير كتاب « الملاحة » (١٠٥) • بعد أن قضى نهائيا على أى دور فعال لميناء العربيه السعيدة استأثر ملاحو الاســكندرية فى العصر الرومانى بتحكم مطلق فى طريق التجارة البحرى الى الهند مما عاد على الاسكندرية ورجال المال بها بالثراء الكبير •

الهـــــوامش

(٦٦) Hecataeus of Abdera, apud Diod. 1.31 ; Eratosthenes, apud Strabo, 17.1.19.

(٦٧) ٤/٤٧٧ .

(٦٨) ٢/١٧٩ : أيضا ٢/١١٣ .

(٦٩) B.-C. Gunn, « Notes on the Naukratis Stele » JEA 29 (1943).

(٧٠) انظر للمؤلف : مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربى ، ص ٩ .

(٧١) Ps. Callisthenes, 1. 31.

(٧٢) ibid.

(٧٣) ١٧/١/٧ ـ ٩ و ١٢ .

(٧٤) انظر للمؤلف « كليومينيس وسياسته الاقتصادية » مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٧ (١٩٦٤) ٦٥ ـ ٨٥ .

(٧٥) [أرسطو] ، كتاب الاقتصاد ٢/٣٣ .

(٧٦) P. Cairo Zenon 59021 ; Cf. Cl. Preaux, L'Economie Royale des Lagides (1938), 271, n. 2.

(٧٧) Rev. Et. Gr. 52 (1939), p. 482 no. 235, from Callatis N.W. of the Black Sea) ;
BICIHI 5 (1881). p. 461 no. 1 (Delos) ; F. Durrbach. Choix d'Inscr. Delos. 108 (127-116 B.C.) : also cf. P. Roussel, Delos Colonie Athenienne. Paris (1916), 92-3.

(٧٨) (Demosthenes) 56.7 ff.

(٧٩) Diod. 20. 81,4 ; Cf. F.w. Walbank, Hellenistic World, Harvard U.P. (1981) 101.

(٨٠) Dior. 100, 4 ; Paus. 1.8.6 ؛ on amphorae of Rhodos found in Egypt, Cf. C.C. Edgar, Ann. des Services, 22 (1922) 6.

(٨١) Durrback. Choix, nos. 108 (127-116 B.C.) : and 105–7.

(٨٢) Dittenberger, OGIS, 132.

(٨٣) Sammelbuch no. 7169.

(٨٤) Durrbach, Choix, 1۶7.

(٨٥) Op. Citt., 105-106.

(٨٦) A. Roccati, Nuove epigrat grechi a latine da file Homagc Vermaseren Vol. 3, 988-996, esp. 994 ff. nos. 5-6 = Annee Epigrapnique (1977) 383-9 ; Supplementum Epngraphicum Graecum, 28 no. 1485.

(٨٧) ديودور : ١/٨٣/٨ ـ ٩ ، لتفسير هذه العبارة ، انظر :
Evan't Dack, « Les relotions entre l'Egypte Ptolemaique et l'Italie Egypt and the Hellenistic World, Sturia Helletistica 27 (Louvain 1983), 383-406, esp. 393-6.

(٨٨) سترابون ٢/٣/٤ ـ ٥ .

(٨٩) J. Thiel, Eudoxus of Cyzicus, Groningen (1966) Passim ;
W. Otto & H. Bengston, zur Geschichte des Niederganges des Ptolemaerreiches, Munchen (1938) 1-22.

(٩٠) ديودور ٣/٤٧/٩ .

(٩١) L. Casson ed. The Periplus Maris Erythraei, Princeton (1989) 26, lines 26-32.

(٩٢) الكتاب السابق ، الفقرة ٥٧ ، والشروح ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٩٣) Sammelbicch. 8036, Copto s'variously dated in 110/109 BC. or in 74-3.
B.C. ; 2264 (78 BC.) ; Inscr. Philae 52 (62 BC.), as in note 15 above.

(٩٤) قيصر : الحرب الأهلية ٣/١١٠ .

(٩٥) سترابون ١٧/١/١٣ .

(٩٦) سترابون ٢/٥/١٢ .

(٩٧) L. Cosson, Periplus, appendix 3, 283 ff.

(٩٨) سترابون ٢/٣/٥ .

(٩٩) بلينيوس ، التاريخ الطبيعي ٦/٢٦ .

(١٠٠) كتاب الملاحة ، ٥٧ .

(١٠١) بلينيوس ، التاريخ الطبيعي ٦/٢٦ ، بطلميوس : الجغرافيا ٤/٧/٤١ .

(١٠٢) Cf. Casson, op. cit., 224.

(١٠٣) سترابون ١/٢/١ ، ٢/٥/١٢ .

(١٠٤) سترابون ١٦/٤/٢٣ ـ ٢٤ .

(١٠٥) Periplus, 26 ; Plinius, N.H. 6. 32, 160 & 12.30.55 cf. H. Mac-Adam, Strabo, Pliny and Ptolemy of Alexandria, in Arabie Pre-Islamique, Strassbourg (1989) 284-320.

الأهمية العسكرية والتجارية لمدينة الاسكندرية في العصر البيزنطي

د . محمد محمد مرسي الشيخ

الأهمية العسكرية :

استمرت الاسكندرية في العصر البيزنطي كما كانت في العصرين الروماني والبطلمي حاضرة البلاد وأهم مدن القطر المصرى ، فلا زالت بعظمتها وفخامتها تحتل المكانة الأولى بين مدن مصر في ذلك العصر بفضل ما كان لها من ميناءين على البحر المتوسط من ناحية وميناء داخلي على بحيرة مريوط من ناحية أخرى ، وبما تميزت به من حركة عمرانية عظيمة .

فقد اشتهرت الاسكندرية بشوارعها المستقيمة الفسيحة المتقاطعة ودورها المؤلفة من طبقات عديدة تعلوها أبراج شاهقة ، فضلا عما اشتهرت به من آثار جميلة وأسوار منيعة ، وما زخرت به ضاحيتها من منازل رائعة وحدائق غناء . غير أن حصانة أسوارها الشاهقة وأبراجها القوية كانت مضرب الأمثال في ذلك العصر فضلا عما أقيم خارجها من حصون دفاعية قوية .

واهتمت الحكومة البيزنطية بتقوية الاسكندرية وتحصينها من ناحية وكفالة الأمن واقرار الهدوء فيها من ناحية أخرى ، اذ انها يمكن أن تتعرض للهجمات الخارجية من جهـــة ويمكن أن تتعرض للفتن الداخلية من جهة أخرى ، خاصة وقد اشتهر أهل الاسكندرية من قديم الزمن بسرعة الاثارة وعـدم الاكتراث بالسلطة والحكومة ونزوع سكانها الى الثورة والتمرد والميل الى الشغب ، يضاف الى ذلك اشتداد ميلهم الى المجادلات الدينية واحتدام النزاع بين الأحزاب المتنافسة المتعادية فى ذلك العصر ، من الوثنيين واليهود والأرثوذكس والمونوفيزتيين على اختلاف فئاتهم ، اذ طفح تاريخ الاسكندرية فى القرنين الخامس والسادس بالمعارك والمذابح واشتداد النضال ضد السلطات البيزنطية حتى مجىء العرب الى مصر ٠

لهذا اتخذت الحكومة البيزنطية بعض التدابير لحماية المدينة والدفاع عنها ضد الهجمات الخارجية ، بتقوية أسوارها وأبراجها والحصون خارجها وكذلك حفر قناة مياه حولها جعلت حصارها أمرا شاقا وزاد من منعتها ٠ وفى الوقت نفسه ، حشدت بيزنطة قوات عســكرية كبيرة وحامية قوية من الفرق العسكرية الثلاث التى اختصت بها مصر والتى حشدتها بيزنطة فى مصر فضلا عن القوات المساعدة الملحقة بها ٠

كما اهتمت الحكومة أيضا بمنافذ المدينة لا سيما مريوط التى كانت ملجأ وملاذا يهرع اليه دعاة التمرد ومثيرو الفتن بالاسكندرية للهرب من عمال الوالى ، فقـــد قررت الحكومة تعيين موظف خاص لملاحظة وحراســة هذه المواضع الخطرة ورد المجرمين ومراقبــة المشبوهين والقبض عليهم ، وتشـــير المصـــادر الى أن الامبراطور جستنيان أصدر أوامره للوالى الكبير فى الاسكندرية أن يبذل جهده للحفاظ على أمن الاسكندرية وسلامتها لأهميتها بالنسبة لبيزنطة

وزوده بسلطة حربية خاصة ليتمكن من قمع الفتن وكفالة الأمن في المدينـــة .

ومن التدابير التى اتخذت لزيادة أمن المدينة والدفاع عنها زمن جستنيان أن جعلت المنطقة الواقعة غرب الدلتـــا بما فيها مدينة الاسكندرية دوقية تنقسم الى أبروشيتين عين على رأسها ومدينة الاسكندرية دوق عهد اليه جستنيان بالسلطتين : المدنية والعسكرية، وصار يؤدى الأعمال المدنية كمـــا خضعت له قيادة جميع القوات المرابطة بالقسمين أو الأبروشيتين فضلا عن الاسكندرية واتخذ من أجل ذلك لقب « نائب قائد جند الشرق » ، وصار من مهامه المبادرة بقمع الثورات وحفظ الأمن بالاسكندرية بالاضافة الى التصدى لأى تهديد ، فكان الوالى الأوجستال أو الدوق الكبير للاسكندرية يجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية لشعور بيزنطة زمن جستنيان بالأهمية الخاصة لمدينة الاسكندرية عاصمة مصر .

ومن تلك التدابير أيضا أن جرى تسهيل حصول الاسكندرية على المؤن والزاد والسلاح والقوات المساعدة عن طريق البحـر من الأسطول البيزنطى الذى كان يرتاد شرق البحر المتوسط ويفرض سلطانه على الموانى الواقعة على ســـواحل هذا البحـر فى الشرق ويتصدى لأية قوة يمـــكن أن تهـدد تلك الموانى بمـــا فى ذلك الاســـكندرية .

ويؤكد المؤرخون ـ اعتمادا على البرديات والوثائق المحفوظة من هذا العصر ـ أن القوة المرابطة بمصر أو الجانب الأعظم منها والذى تكفل بالدفاع عن الاسكندرية تألف من المصريين وليس البيزنطيين فقد التزم ملاك الأراضى بتقديم عدد من الجنـــد بالجيش والخدمة العسكرية يتفق ومساحة أراضيهم ويجرى الاقتراع العســكرى فى مواطن هؤلاء المجندين تحت اشراف موظف خاص فيحصل كل مجند

على شهادة تثبت أنه تقرر تجنيده وتشــــتمل على أمر من الدولة باثبات اسم صاحب هذه الشهادة فى سجل الجيش وعندئذ يتقدم الشخص الى الفرقة التى ينتمى اليها بهذا الأمر . وهذه العملية أشارت اليها بردية الفنتين التى ترجع الى القرن السادس الميلادى فضلا عما كان يجرى من التطوع للخدمة العســكرية من المصريين والوراثة التى جعلت القوة المرابطة فى مصر أو الجانب الأعظم منها يتألف من المصريين سواء كانوا بالجيش النظامى أو جيش الأطراف. فكلتا الفئتين كان يجند عساكرها من أهل البلاد ، اما بالتجنيد الاجبارى واما بالتطوع واما بالالتزام المفروض على أبناء المقاتلة بأن يخلفوا آباءهم فى الخدمة الحربيـة . فتألف معظـم الجيش من المصريين ولم يكن به من الجنــد الآخرين الا قلة نادرة واشترطت السلطات البيزنطية أن يتفرغ الجندى للسلاح والجيش وممارسة التدريب المستمر تحت اشراف القادة وحرم عليه مزاولة عمل من الأعمال كالتجارة أو غير ذلك هذا بالاضافة الى من انضم الى الجيش من طوائف الجند المأجورين الذين انحازوا الى الجيش النظامى ، وتقاضوا من أجل ذلك ما كان مقررا من الرواتب .

ومن الثـابت أن الحكومة البيزنطية أقامـت فى مصر وفى الاسـكندرية بالذات قوة حربية هامة وفيرة العدد لأسـباب دعت بيزنطة لزيادة الاهتمام بتحصين الاسكندرية وجدية الدفاع عنها لحفظ الأمن من ناحية ورد المغيرين واللصوص من ناحيـة أخرى فضلا عن ما كان لهذه القوة من الأهمية فى جباية الضرائب وكفالة الأمن الداخلى خاصة عند انـدلاع المؤامرات والفتن والثــورات الداخلية بسبب الخلافات الدينية والمذهبية ، يضاف الى ذلك عناية الحكومة باظهار ما لها من سيادة مطلقة فى مصر لأهمية هذا الاقليم كمركز من المراكز الهامة لد الامبراطورية بالغلال التى كانت تشحن الى بيزنطة من ميناء الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى اهتمام بيزنطة بالاسكندرية التى تتاخم الحدود الغربية والتى تتعرض للاغارات

من قبل البربر والبدو ، فقد كان البربر من أخطر المغيرين على هذه الأطراف ، فقد أمعنوا فى اغاراتهم واختراقهم لأراضى مصر حتى وصلوا الى النيل زمن الامبراطور موريس ، كما تعرض رهبان وادى النطرون غربى الاسكندرية لغارات القبائل المغيرة من الغرب عبر الواحات الداخلة وهاجم البدو برقة وواحـة سيوة وأديرة وادى النطرون وآثاروا القلق والاضطراب فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ٠

لهذه الأسباب كلها اهتمت بيزنطة بأمن الاسكندرية والحدود الغربية وحشدت عددا كبيرا من الجند بمصر وبالاسكندرية بالذات لما لها من أهمية فى الدفاع عن الامبراطورية البيزنطية ٠

ويشير المؤرخون وتؤكد البرديات التى حفظت من ذلك العصر أن الاسكندرية تحولت الى حصن منيع ، وأحاطت بها القنوات من كل جانب فجعلت منها جزيرة حصينة فضلا عما أقيم حولها من الحصون الأمامية ذات الخنادق والأسوار الشاهقة الضخمة يضاف الى ذلك اتصال الاسكندرية بحرا بالعالم البيزنطى الذى يستطيع أن يوجه أساطيله الحربية لمساعدة الاسكندرية اذا تعرضت للخطر ٠

والدليل على حصانة مدينة الاسكندرية فى العصر البيزنطى وقوتها العسكرية أنه حين قدمت جيوش العرب المسلمين تحت قيادة عمرو بن العاص قرب منتصف القرن السابع الميلادى لفتح مصر وبعد أن فرغ عمرو بن العاص من حصن بابليون ومعـــركة هليوبوليس سنة ٦٤١ م/ ٢٠ هـ واتجه الى الاسكندرية لفتحها ، ألقى الحصار عليها دون طائل وطال حصاره لها دون أن يتمكن من اقتحامها على الرغم من تداعى القوة البيزنطية فى البلاد وسقوط حصن بابليون فى أيدى العرب ولولا أن هيأت الظروف فى هذه المرة حدوث مفاوضات بين عمرو بن العاص ومندوبى الوصية على العرش البيزنطى بعد وفاة الامبراطور هرقل لطال حصار العرب للمدينة ؛ غير أن المفاوضات

انتهت بدخول عمرو المدينة سـنة ٦٤٢ م / ٢١ هـ صلحا في هذه المرة ٠

وبعد سنوات قليلة أي في سـنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ وعلى عهد قنسطانز حين دبت أساطيل الروم في البحر المتوسط تبغي استعادة الاسكندرية ومصر وطرد العرب منها خاصة بعد عزل عمرو بن العاص عن حـكم مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، نجحت الحملة البيزنطية بقيادة مانويل في اقتحام الاسـكندرية وطرد الحامية العربية منها والتقدم تجاه رأس الدلتا حتى نقيوس ، وعندئذ ألح المسلمون في مصر على الخليفة عثمان بن عفان لاعادة عمرو بن العاص قائلين له : « ان له هيبة في قلوب الروم » ؛ فاضطر عثمان بن عفان الى اعادة عمرو بن العاص لقيادة جيوش المسلمين في مصر لطرد البيزنطيين من الاسـكندرية ، فقدم عمرو وقاد جيوشه لمحاربة البيزنطيين في ذلك العام ونجح في الحاق هزيمة قاسية بهم قرب نقيوس وألجأهم للاحتماء بأسوار الاسكندرية ٠

عندئذ ألقى عمرو الحصار على المدينة واشتد في حصارها حتى واصل الليل بالنهار في ذلك حتى انفجر فيه جندي أضناه القتال ونال منـه التعب قائلا : « لم نخلق من حجـارة أو حديد » لكن عمرو بن العاص لم يعبأ بذلك وواصـل ضرب المدينة بالمنجنيق وراح يشتد في حصارها محاولا اقتحامها وبعد مشقة بالغة وبعد أن أقسم في لحظة ضيق قائلا : « والله لئن ظفرت بالاسكندرية في هذه المرة لأجعلنها تؤتى من كل مكان » أي أنه سـوف يهدم أسوارها وأبراجها التي عاني كثيرا في حصارها وسوف يجعلها مشاعة يأتيها من كل جهة ٠

وفعلا نجح عمرو في النهاية في اقتحام الاسكندرية هذه المرة وبحد السيف فيما عـرف بالفتح الثـاني حيث نجح في طرد

البيزنطيين منها ، الذين سارعوا بالهرب عبر البحر الى سفن الأسطول التى كانت فى انتظارهم وصفت الاسكندرية لعمرو وللعرب وتم بذلك فتح مصر جعلها ولاية تابعة للدولة العربية الفتية .

وتدل هذه الأحداث على مدى حصانة الاسكندرية وقوتها العسكرية وكيف أولتها بيزنطة اهتماما فائقا جعل عمرو بن العاص يقف أمامها فترة طويلة قبل أن يتمكن من اقتحامها ويطرد البيزنطيين منها مستفيدا دون شك مما استجد فى موقف المصريين تجاه حملته وكيف انضم المصريون اليه بأفئدتهم كراهية لبيزنطة وانتقاما منها لطول اضطهادها لهم ، ومستفيدا أيضا من حماسة جنوده ورغبتهم فى فتح مصر ووضع قدم ثابتة للعرب فى شمال أفريقيا .

الأهمية التجارية :

ظلت الاسكندرية حتى القرن السادس الميلادى مدينة الترف والثراء واشتهرت بالرخاء الاقتصادى والانتعاش التجارى . حتى قيل ان هذه المدينة لا يعيش فيها متعطل أبدا ، فقد اتسعت تجارتها ونمت وتطورت صناعتها حتى عدت مدينة بالغة الثراء وافرة الرخاء وأصبحت أكبر سوق تجارية بمصر .

كما كانت مركزا تجاريا عالميا ، وأهلها موقعها الممتاز فى شرق البحر المتوسط لاحتلال هذه المكانة ؛ فضلا عن كونها منفذا طبيعيا لخيرات وادى النيل .

فقد تلقت الاسكندرية عن طريق القناة التى كانت تصل بينها وبين نهر النيل كل ما كانت تنتجه مصر ، ولا سيما القمح الذى كان يجرى تصديره الى البلاد الواقعة شرقى البحر المتوسط وبلاد العرب والى الغرب ، ولهذا كان ميناؤها الداخلى الواقع على بحيرة مريوط يستقبل السفن القادمة من أعالى البلاد محملة بخيرات مصر .

كما كان لها ميناءان صالحان على البحر المتوسط وانتظمت منهما طرق الملاحة بين مصر والقسطنطينية وبين مصر وايطاليا وتوغل التجار المصريون أيضا في البحر الأدرياتي ، وانتظمت العلاقات التجارية بين مصر وغالة (فرنسا الحالية) وبين مصر واسبانيا . وقدم تجار غالة واسبانيا الى الاسكندرية ، وامتدت خطوط الملاحة كذلك الى الجزر البريطانية .

وكان للكنيسة أسطول تجاري بلغ عدد سفنه أحيانا نحو ثلاثين سفينة تجارية كبيرة كان يرتاد موانى البحر المتوسط ويحمل التجارة الى كل الأنحاء متضمنة شحنات من الحرير والحبوب والمصنوعات المصرية من الأواني الفضية والتحف ، فضلا عن أوراق البردى التي احتكرت تجارتها الاسكندرية وانفردت بتصديرها الى سائر الأنحاء .

وكان التجار السكندريون يرتحلون من القلزم وهو أكبر ميناء على البحر الأحمر في الطرف الشمالي الغربي منه — يرتحلون الى جنوب شرق آسيا ، عبر الطريق الممتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر والذي ينتهي الى عدن الحالية بجنوب بلاد العرب يلتمسون البخور والمر والعطور من اليمن وبعض المتاجر التي كان يجلبها الصوماليون .

كما كانوا يرتحلون أيضا الى أفريقيا عبر الطريق الممتد على الساحل العربي للبحر الأحمر الذي ينتهي الى عدال أهم موانى الحبشة يلتمسون كل ما كان يرد من داخل أفريقيا من السلع والبخور والتوابل والزمرد والعاج والذهب فضلا عن الرقيق بل أوغل التجار الى أبعد من ذلك لأن عدال كانت مركزا يمكن الاتصال منه بشرق آسيا وقلبها عن طريق الخليج الفارسي ثم جزيرة سيلان (الحالية) والتي تقع في أقصى جنوب الهند وتعتبر أكبر مستودع لتجارة الشرق .

ولقد أشار التجار الذين ارتادوا جزيرة سيلان الى أهمية ذلك المستودع الكبير للسلع في الشرق اذ تجمع فيها الحرير والقرنفل وخشب الصندل ، فضلا عما كان يفد اليها من متاجر الهند من الفلفل والمسك والسمسم والعطور والقطن والنحاس وما كان يتوافر فيها من الأحجار الكريمة واللؤلؤ وغيرها .

وتشير النصوص الى أن الامبراطور جستنيان حاول بصفة خاصة أن يحول الى مصر كل ما كان يرد من سيلان من التجارة نظرا لما كان يقوم به الفرس من وساطة لجلب المتاجر من سيلان الى بيزنطة بفضل ما كان للفرس من جالية هامة في جزيرة سيلان فأراد جستنيان أن يحرم الفرس من القيام بهذه الوساطة ويحول هذه المتاجر الى مصر فأجرى مفاوضات مع الأحباش ليحلوا محل الفرس في تلك الوساطة .

وما نجح الأحباش في حمله من المتاجر كان لابد وأن يجتاز الاسكندرية قبل الوصول الى القسطنطينية ، فتقاضت الاسكندرية على تلك المتاجر رسوما كبيرة ، فضلا عما كانت تفرضه من رسوم كبيرة على ما كان يحمله التجار من السلع والمتاجر الأفريقية خاصة تلك التي كانت ترد من الحبشة فتقاضت الاسكندرية عنها رسوما كبيرة الأمر الذى بالغ في ثراء الاسكندرية فزادت بها المصارف ، حتى ضارعت عدد البيوت التجارية في المدينة .

ولهذا تميزت فئة من سكان الاسكندرية ومن بين الطبقات الاجتماعية في المدينة ، انها فئة من الأغنياء كان قوامها رؤساء البيوت التجارية والمصارف والأسرات العريقة من النبلاء المحليين وهي الفئة التي كان يجرى اختيار مجلس السناتو من بينها واتخذت منهم الحكومة عادة كبار موظفيها .

ولأهمية التجارة في الاسكندرية والملاحة ، كانت للملاحين نقابة من أشهر نقابات المدينة وأهمها تعكس حرص هؤلاء الملاحين واهتمامهم بالملاحة فانتظمت طرق الملاحة بين مصر وسائر الأنحاء شرقا وغربا ، وامتدت طرق الملاحة من الاسكندرية الى العاصمة البيزنطية ـ القسطنطينية ـ من ناحية ومن الاسكندرية الى دول أوربا الواقعة على البحر المتوسط والأدرياتي من ناحية أخرى فضلا عن الجزر البريطانية وأقصى شمال أوربا من ناحية ثالثة .

وانفردت الاسكندرية بتصدير أوراق البردى واحتكار هذا التصدير الى كافة الأنحاء وخاصة القسطنطينية ، وجرت عادة السكندريين في ذلك العصر على أن يكتبوا على رؤوس المطامير (أى رءوس قطع الورق أو فروخ الورق) عبارة التثليث أى الأب والابن والروح القدس . كرمز وعلامة صناعية وتجارية لأن صناع هذه الأوراق وتجارها كانوا من مسيحيى الاسكندرية . وظلوا يحرصون على ذلك حتى بعد أن دانت مصر والاسكندرية للدولة الاسلامية ، وظل الأمر على ذلك حتى عصر الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان ، الذى وجد أن ذلك لا يتفق مع مظهر الخلافة الاسلامية وأنه يسىء الى مشاعر المسلمين ، وأمر أن نستبدل بهذه العبارة الآية الكريمة : « قل هو الله أحد » .

ولما جرى تصدير هذه الأوراق وحملتها السفن الى بيزنطة ثار الامبراطور القائم حينئذ وهو جستنيان الثانى وأرسل الى الخليفة عبد الملك بن مروان يهدد بأنه سوف يكتب على الدنانير الذهبية التى كانت تسك فى بيزنطة ويتعامل بها المسلمون عبارات تسىء الى الاسلام وتسىء للاسلام والمسلمين . وعندئذ أمر الخليفة بسك أول عملة ذهبية اسلامية فى دمشق وهى التى سميت بالدنانير الدمشقية وأمر باستمرار تصدير أوراق البردى الى كافة الأنحاء تحمل الآية الكريمة دون تغيير .

غير أن الرخاء التجارى لمدينة الاسكندرية كثيرا ما تأثر بالاضطرابات السياسية والفتن التى كانت تحدث بين الحين والحين ؛ خاصة الفتن الدينية والخلافات المذهبية : فانخفض أحيانا سعر النقد وارتفعت أسعار المعيشة وألحق ذلك بتجارة الاسكندرية أضرارا بالغة ، فأثر ذلك على حالة المدينة اقتصاديا حتى حلت المقايضة أحيانا محل البيع والشراء ، وأدى ذلك أحيانا الى اضمحلال المدينة وتداعي ثرائها ابان هذه المحن السياسية والدينية ۰ لكن الاسكندرية كانت لا تلبث أن تعود الى حالتها والى ثرائها وازدهارها بمجرد انتهاء هذه الفتن والمحن السياسية ۰

ولقد أضفى رخاء المدينة وثرائها على حياة سكانها نوعا من البهجة والسعادة تمثلت في اهتمامهم بالاحتفال بالأعياد حيث يشيع الفرح وتعم السعادة ويحيا الناس حياة صاخبة ، وربما كان ذلك سببا فيما وجهه كلمنت السكندرى فى أواخر القرن الثالث الميلادى من نقد شديد الى نساء المدينة لاشتداد ميلهن الى استخدام المساحيق ، وما ينزعن اليه من ارتداء المنسوجات الحريرية والثياب الموشاة والثياب القصيرة التى تكشف عن الركبة كالتى اتخذتها فتيات اسبرطة ، وما اتخذته من الأحذية التى كتب على نعالها عبارات الحب ۰ ومن أجل ذلك اشتد كلمنت السكندرى فى لوم النساء لاهتمامهن بصبغ شعورهن ، واتخاذ الشعر المستعار أحيانا وجعله فى تراكيب هندسية بالغة التعقيد ۰

ولم ينصب نقد كلمنت السكندرى على تبرج النساء وتزينهن فحسب وانما تناول أيضا الاسراف فى الطعام والشراب ــ كدليل على رخاء وثراء ذلك العصر ــ فاعتبره من دلائل الانحلال الخلقى بالمدينة ، واعتبر الثراء الفاحش والحياة الوادعة والميل الى الكسل والخمول وحب الملاهى والشغف بالسيرك والولع بالزهور ــ وكلها

دليل الغنى والثراء ـ نوعا من الانحلال الخلقى كذلك ، هكذا كان ثراء الاسكندرية ومكانتها وأهميتها التجارية التى انعكست على أحوال سكانها وكل من أقام فيها ودلت على أن المدينة كانت فعلا مدينة الثراء والترف والمدينة التى قيل فيها بحق ، انها لا يعيش فيها متعطل أبدا .

ونصل فى نهاية هذه الورقات الى أن الاسكندرية حظيت باهتمام كبير من الامبراطورية البيزنطية بحكم كونها حاضرة لمصر وأعظم مدنها وأكبر موانيها فكان اهتمام بيزنطة بالاسكندرية بالدفاع عنها وتحصينها وحشد القوات فيها والأساطيل وحماية أمنها داخليا لتتصدى لأى تهديد خارجى من ناحية وتصمد أمام أية فتنة أو اضطراب داخلى من ناحية أخرى فضلا عن الاهتمام بها تجاريا لأن أهميتها التجارية فاقت كل حد باعتبارها أكبر موانى مصر وأشهر الموانى التابعة لها ، والمدينة التى يمكن أن تلعب دورا بارزا فى تجارة الدنيا بأسرها فى ذلك الوقت .

فلم تكن الاسكندرية مجرد مدينة تابعة لبيزنطة وانما كانت عاصمة لولاية عريقة وقطر يعتبر من أهم الأقطار التابعة لها ، فغدت فى ذلك العصر عاصمة القوة ومدينة الغنى وحاضرة الثراء ليس فى مصر فحسب ، وانما أيضا فى كل أنحاء الامبراطورية حتى نهاية العصر البيزنطى فى مصر .

سواحل مصر الشمالية فى عصر الولاة
(٢٠ ـ ٢٥٤هـ / ٦٤١ ـ ٨٦٨م)

أ د٠ سيدة اسماعيل كاشف

١ ـ اهمية موقـع مصر الجغرافى :

دخلت مصر في الفلك العربى الاسلامى منذ معاهدة بابليون الأولى فى أوائل سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ، وبعد معاهدة بابليون الثانية ، أو معاهدة الاسكندرية ، فى أواخر سنة ٢٠ هـ (أواخر سنة ٦٤١ م) ٠ وكانت المعاهدتان بين العـرب بقيـادة عمرو بن العاص وبموافقة الخليفة عمر بن الخطاب ، وبين المصريين ، وبين الروم ، الذين كانوا يحتلون مصر حينذاك ٠ أما بابليون (١٩٠) التى عقدت فيها المعاهدتان فلم تكن حاضرة مصر ، ولكنها كانت أهـم مركز فيها نظرا لموقعها على رأس الدلتـا ، وكونها على الطريـق الموصـــل الى الاسـكندرية ، عـاصمة مصر فى العصر اليونانى الرومانى ٠

وقد اهتم العرب عقب فتحهم لمصر بتأمين حدودها شرقـا وغربا وشمالا وجنوبا ، شأنهم فى ذلك شأن جميع البلاد التى

فتحوها • لكن مصر كان لها مكانتها الخاصة ، وسرعان ما تبوأت مركزا ممتازا فى الدولة العربية الاسلامية عقب الفتح العربى لها، وذلك لموقعها العالمى الممتاز ، ولثروتها وخيراتها الوفيرة • وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمر مصر أنهم كانوا يولونها أحيانا أبناءهم ، أو اخوتهم ، أو أفرادا من البيت الخليفى القائم بالحكم •

ونحن نهتم فى هذا البحث بسواحل مصر الشمالية التى كانت تمتد من العريش والفرما (١٩١) حتى برقة التى كانت تعرف باسم اطرابلس (١٩٢) •

فمصر يحيط بها شمالا البحر الأبيض المتوسط تتخلله البحيرات ومن أهمها بحيرة تنيس (١٩٣) والبرلس وادكو ومريوط، وذلك من حدود فلسطين الى حدود بلاد المغرب •

وفى تحديد لشمال مصر ذكره القضاعى ونقله المقريزى فى كتابه الخطط قال : « قال القضاعى : الذى يقع عليه اسم مصر الى آخر لوبية ومراقية • وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهى برقة » (١٩٤) •

وقد ذكر المقريزى أيضا أن « مراقية » اسم لحد مصر الغربى بينها وبين برقة (١٩٥) • أما ابن عبد الحكم فيقول : « لوبية ومراقية كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا ينالهما النيل » (١٩٦) •

هذا عن تحديد شمال مصر وسواحلها الشمالية •

أما عن الفترة التى سنؤرخ لها منذ أن فتحت مصر البيزنطية على يد العرب بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) فهى الفترة الأولى فى تاريخ مصر الاسلامية والتى تمتد أكثر من

قرنين وربع من الزمان من سنة ٢٠ هـ /٦٤١ م الى سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م • وقد اصطلحنا على تسميتها باسم « عصر الولاة » ، لأن مصر كانت حينذاك ولاية تابعة للخلافة العربية الاسلامية ، ويحكمها ولاة من قبل الخلفاء ، فكانت الخلافة تبعث بالولاة من مقرها فى المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين ، ومن الكوفة حين اتخذها على بن أبى طالب عاصمة له ، ومن دمشق عاصمة الأمويين ، وأخيرا من بغداد وسامراء زمن العباسيين • وقد أدرك الخلفاء منذ بداية الوجود العربى فى مصر ، أهمية موقع مصر وضرورة العناية بأمر حاميتها وجندها ، فمصر تقع فى منطقة يسهل منها التوسع جنوبا وغربا وشرقا بل وشمالا عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أى أنها قاعدة للفتوحات والتوسع مادامت محتفظة بقوتها ، أما اذا تطرق اليها الضعف فان العدو يهددها من هذه الجهات • فموقع مصر ينطلب السهر دائما على شئونها والعناية بالجيش والأسطول الذى يحميها • وسنرى أن سواحل مصر ستفرض على ولاة الأمر فيها العناية بالجيش والأسطول •

وليس غريبا أن نرى الرواة ينسبون الى الرسول صلوات الله عليه وسلامه أحاديث خاصة بهذا الشأن • فقد روى عبد الله ابن لهيعة عن حديث لعمرو بن العاص أنه قال : « حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض • قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » (١٩٧) •

وروى أيضا أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر : « واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم

ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » (١٩٨) .

وسنرى طوال عصر الولاة أن ولاة مصر ، فضلا عن الخلفاء ، يهتمون اهتماما كبيرا بحامية مصر وبجند مصر .

وكان بيد « والى مصر » الحرب ، أى الرئاسة على الجيش ، ولأهمية ذلك الأمر كان يقال أحيانا : « ولى فلان الحرب » كناية عن ولايته لمصر (١٩٩) . فكان والى مصر يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر ، وكان يقود بنفسه الجيش فى الحملات التامينيه لمصر ، أو لصد الأعداء أو يرسل من يقوده نيابة عنه (٢٠٠) .

ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى بعد الفتح ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس، كما أرسل عبد الله بن سعد بن أبى سرح لفتح النوبة .

كذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر (٢٤ — ٣٥ هـ / ٦٤٥ — ٦٥٥ م) على رأس الحملات التى سارت لغزو أفريقية والنوبة (٢٠١) .

وفى ولاية عتبة بن أبى سفيان (٤٣ — ٤٤ هـ/٦٦٣ — ٦٦٤ م) وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، عندما شكا قائد رباط الاسكندرية من قلة من معه من الجنود ، خرج عتبة ورابط فيها وذلك فى سنة ٤٤ هـ (٢٠٢) (٦٦٤ م) . وفى أثناء خلافة هشام بن عبد الملك ، خرج الحر بن يوسف فى ولايته على مصر مرابطا فى دمياط ثلاثة أشهر من سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) (٢٠٣) .

٢ ـ الجيش والبحرية في مصر ى عصر الولاية وديوان الجند :

(أ) الجيش وديوان الجند :

بعد ان تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش عربى مرابط . وقد حرم الخليفه عمر بن الخطاب على الجند العرب فى مصر وفى سائر الاقاليم المفتوحه الاشتغال بالزراعه ، لئلا يتركوا الجهاد والحرب ويركنوا الى الدعه والاستقرار .

ولم يشرك العرب المصريين فى هذا الجيش . ولم يرد فى صلح بابليون أية اشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجندية . وربما دعا العرب الى انتهاج تلك السياسة ، خوفهم من أن يحيى المصريون روح القومية المصريه على حسابهم ، وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فرأوا من الحكمة أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية ، وألا يتركوا لهم الا الأعمال المدنية . وربما كان العرب يشكون فى كفاءة المصريين الحربية ، اذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعبا يتقد حماسة وشجاعة ، ولم يكونوا قد أترفوا وتنعموا بعد ، وغمرتهم تلك الروح التى تغمر الشعوب حين تعتاد الترف والرخاء .

ويعزو المؤرخون تدوين الدواوين الى الخليفة عمر بن الخطاب ، حين اتسعت رقعة الدولة الاسلامية فى عهده ، فكان لابد من ضبط الأموال وتقرير العطاء المفروض للأجناد وأسراتهم وما الى ذلك مما تتطلبه أمور الدولة بعد اتساعها .

وقد أطلق اسم « الديوان » أيام عمر بن الخطاب على « ديوان الجند » فى المدينة لأنه كان حينئذ الديوان الوحيد فى المدينة

عاصمة الدولة العربية حينئذ . وقد قام النظام الديوانى مع قيام الدولة العربية نفسها . ولم يقتصر وجود الدواوين على مقر الخلافة ، بل كانت هناك دواوين محلية فى البلاد المفتوحة ، كانت استمرارا للدواوين التى كانت موجودة قبل الفتح العربى ، أو كانت فروعا للدواوين المركزية فى مقر الخلافة .

وتذكر المصادر أن « ديوان » كلمة فارسية معناها « الدفتر » أو « السجل » ، ثم استعملت الكلمة للمكان الذى تحفظ فيه سجلات الدولة .

وكان فى مصر « ديوان للجند » تدون فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم . وأول من دون ديوانا للجند فى مصر هو بطل فتحها عمرو بن العاص . ولما ولى مصر عبد العزيز ابن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) دون تدوينا ثانيا (٢٠٤) . ودون قرة بن شريك والى مصر زمن الوليد بن عبد الملك (٩٠ ـ ٩٦ هـ/٧٠٨ ـ ٧١٤ م) التدوين الثالث ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ ـ ١٠٢ هـ/٧١٩ ـ ٧٢٠ م) فى خلافة يزيد بن عبد الملك التدوين الرابع (٢٠٥) .

ونلاحظ أن الجيش العربى فى مصر قد زاد عدده بعد الفتح زيادة كبيرة . ومر بنا أن جيش الاسكندرية أو رباطها كان اثنى عشر ألفا فى سنتى (٤٣ ـ ٤٤ هـ/٦٦٣ ـ ٦٦٤ م) ، ولكن قائد هذا الرباط ، كتب الى عتبة بن أبى سفيان « والى مصر » أيام معاوية ابن أبى سفيان ، يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم .

ونستطيع أن نلمس هذه الزيادة الكبيرة اذا تذكرنا ان الجيش الذى قدم الى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاما كان كله بين ١٢ ألفا و١٥ ألفا من الجنود ٠

ولاشك أن هذه الزيادة المطردة للجند العربى فى مصر عامة ، وفى الاسكندرية خاصة ، كان لابد منها لحماية سواحل مصر ضد البيزنطيين (الروم) الذين كانوا يتحينون الفرص للاغارة على سواحل مصر بقصد استردادها من العرب ٠ وكذلك كانت كثرة عدد الجند عنصرا هاما لحماية حدود مصر الشمالية والجنوبية والغربية، فضلا عن مشاركة جيوش الخلافة فى التوسع غربا٠ ولم تكن مصر مركزا للعمليات الحربية البرية فحسب ، بل كان على العرب أن يعنوا بسواحلها ٠ وأثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين فى ذلك ، فكثيرا ما أغار الروم (البيزنطيون) على الاسكندرية أو غيرها من الثغور ٠ ويذكر ابن عبد الحكم (٢٠٦) والسيوطى (٢٠٧) أنه لما استقامت البلاد وفتح المسلمون الاسكندرية جعل عمرو بن العاص ربع الجند لرباط (٢٠٨) الاسكندرية صائفة يقيمون ستة أشهر ٠٠٠ ويعقبهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضا ٠٠٠ ويقال ان عمر بن الخطاب كان يبعث فى كل سنة جندا من أهل المدينة ليرابط بالاسكندرية ، وكان يكاتب الولاة قائلا : « لاتغفلها ولا تكشف رابطتها ولا تأمن الروم عليها » ٠ وكذلك اتبع الخليفة عثمان بن عفان سياسة عمر بن الخطاب فى المحافظة على الاسكندرية من هجوم الروم ، وكاتب عبد الله بن سعد فى هذا الشأن يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية وقد نقضت الروم مرتين فالزم الاسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » (٢٠٩) وربما كان تغيير الحاميات ونقلها يقصد به العرب تجنب تعويد الجند الاقامة فى مكان واحد، كما يتبع فى جيوش العصر الحديث ٠

وكان الجند فى مصر عربا حتى نهاية الدولة الأموية · أما فى زمن الدولة العباسية فقد دخل فى الديوان عناصر أخرى مثل الخراسانية والفارسية · وما لبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصرين العربى والفارسى ، وهم الجند الترك الذين استكثر منهم الخليفة المعتصم بالله العباسى (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) وأثبتهم فى الديوان · بل ان المعتصم أمر واليه على مصر ، كيدر نصر بن عبد الله ، باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم وذلك فى سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ م (٢١٠) ·

وقد اشترط على أهل مصر بعد الفتح ايواء الجند وضيافتهم اثناء انتقالهم من جهة الى أخرى فى أنحاء مصر ، فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام (٢١١) · وكانت الضيافة توفر على الجند كثيرا من العناء عند انتقالهم من جهة الى أخرى فى أنحاء مصر · وكان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة ، وربما كان أساسها أهل مصر الذين كانوا فى الجيش أثناء الفتح العربى لها · وهذا لا يخالف ما ذكرناه من أن العرب أبعدوا المصريين عن الاشتراك فى الجيش ، اذ ان هؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش وفى أوقات الضرورة · ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ، ولم يثبتوا فى الديوان ، انما كان عطاؤهم من الصدقات · فيذكر الكندى (٢١٢) أن مواحيز (٢١٣) مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل (٢١٤) التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة فاذا جاء شهر أبيب فرق القاضى أموال السبيل التى جمعت من الأحباس على المطوعة ، ومن كان فقيرا من أهل الديوان الذين يشغلون مواحيز مصر من العريش الى لوبية ومراقية (٢١٥) ·

ويجدر بنا أن نشير الى أنه حدث تغير هام في ديوان الجند في البلاد المفتوحة بعد وفاة عمر بن الخطاب بنحو اربعين عاما وقبل قيام الدولة العباسية بنحو ستين عاما • وقد حدث هذا التغير فى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد عبد الملك (٦٥ ـ ٩٦ هـ / ٦٨٤ ـ ٧١٥ م) • ذلك أن قواد العرب اخذوا يشركون أهل البلاد المفتوحة في الجيش ، فجند الحجاج بن يوسف الثقفي الموالى في العراق وايران مع الجيش العربى في فتوحات المشرق • وأشرك قتيبـة بن مسـلم الباهلي أهل بلاد ما وراء النهر مع العرب في فتوحاتهم هناك • وجند موسى بن نصير آلافا من البربر فى شمال أفريقية لاستكمال فتوحات بلاد المغرب • كما أن فتح بلاد الأندلس قام في معظمه على عاتق البربر (٢١٦) •

ونحن لا نستبعد أن فريقا من المصريين قد دخل منذ ذلك الحين فى ديوان الجند تمشيا مع سياسة الأمويين فى اشراك أهل البلاد المفتوحة في الجيش ، هذا فضـلا عن فريق المطوعة الذى أشرنا اليه من قبل (٢١٧) •

(ب) البحرية في مصر في عصر الولاة :

لم تكن مصر مركزا للعمليات الحربية البرية فحسب، بل كان على المسـلمين أن يعنوا بحمايـة سواحلـها ضـد غزوات الروم (البيزنطيين) بصفة خاصة ، والتى استمرت طوال عصر الولاة بل طوال العصور الوسطى كلها •

وقد مر بنا أن عمرو بن العاص ، قائد فتح مصر ، والخليفة عمر بن الخطاب الذى تم على يديه فتح مصر والفتوح العظام ، اهتما برباط الاسكندرية وبحاميتها • وسار على نهج عمر بن الخطاب

وعمرو بن العاص ، الخليفة عثمان بن عفان وواليه على مصر عبد الله ابن سعد بن ابي سرح • بل ان الاهتمام بالبحر وبالحروب البحريه اصبح اشد واقوى نبعا لغزوات وغارات الروم المستميته لانتزاع مصر ثانية من أيدى العرب •

واذا كان المصريون بعد الفتح العربى قد أبعدوا عن الاشتراك فى جيش بلادهم ، باستثناء فريق المطوعه ، أو ربما اشتركوا فى الجيش الى حد ما فى العصر الأموى تمشيا مع سياسة الدولة الأموية منذ خلافة عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ، فى تجنيد أبناء البلاد المفتوحة كما مر بنا ، الا أن هذا الحال اختلف تماما فيما يخص البحرية • فان المصريين كان لهم الدور الأول فى بحرية مصر ، وفى المساهمة بنصيب وافر فى انشاء الأساطيل الاسلامية الأولى والمراكب البحرية ، وفى كسب المعارك البحرية الشهيرة ، وفى حماية سواحل مصر ضد أى عدوان وخاصة العدوان البيزنطى على الاسكندرية ودمياط وتنيس وغيرها من السواحل المصرية ، بل امتد نشاط المصريين البحرى الى سواحل الشام والى سواحل أفريقية غربا (٢١٨) •

وقد اهتم العرب بعد فتحهم لمصر مباشرة بمدينة الاسكندرية ـ العاصمة السابقة لمصر أيام الدولة البيزنطية ـ فاهتموا بحاميتها وبرباط الجند فيها كما مر بنا •

وكانت الاسكندرية قبل الفتح العربى عاصمة لمصر ، كما كانت مركزا هاما فى الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية ، فضلا عن أنها كانت مدينة عظيمة تحميها الحصون المنيعة والغياض والبحيرات وترعة الاسكندرية •

وقد أعجب بها عمرو بن العاص بعد الفتح كما أعجب بها حين زارها في الجاهلية قبل الإسلام • وذكرت المصادر انه فكر في اتخاذها عاصمة وقاعدة للعرب ، واستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك ولكن الخليفة نهاه عن ذلك لما علم أن الماء يحول بينه وبين المسلمين ، فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط بعد أن كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص : « انى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف » •

ووقف الخليفة نفس هذا الموقف مع سعد بن أبي وقاص، حين نزل في العراق بمدائن كسرى ، فتحول سعد من المدائن الى الكوفة (٢١٩) •

ويذكر المؤرخون أن قوما من العرب نزلوا في الاسكندريه عقب الفتح • على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط كخطط الفسطاط ، وانما كانت « أخائذ » أى من أخذ منزلا نزل فيه • ويقال ان الزبير ابن العوام ـ أحد أبطال فتح مصر ـ اختط بالاسكندرية (٢٢٠) •

٣ ـ العرب والمصريون والغزو في البحار :

لم يكن البحر يركب للغزو في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام أو في خلافة أبي بكر الصديق • وقيل ان أول من ركب البحر للغزو في الاسلام ، العلاء بن الحضرمي ، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب ، اذ ندب أهل البحرين ـ وكان أميرا عليها ـ الى غزو فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة ، فغرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء وأمر بتأمير سعد بن أبي وقاص عليه (٢٢١) •

وتحدثنا الروايات التاريخيه المختلفة عن خوف عمر بن الخطاب من البحر وأنه كان لا يحب أن يفصل الماء بينه وبين جنوده كما مر بنا ٠

والحق ، ان عمر بن الخطاب كان حذرا في تردده وخوفه من حرب البحار ، ومع ذلك فقد رأيناه يعنى عناية كبيرة بحامية الاسكندرية ٠

والحق ، ان اتخاذ العرب الفسطاط حاضرة لهم في مصر ، لا يعني خوفهم من البحر ، وانما كان ذلك لأن الاسكندرية لا يمكن أن تكون قاعدة مناسبة للعرب في مصر كما كانت في العصر البيزنطي ٠ فالاسكندرية بحكم موقعها هي والدولة البيزنطية على البحر المتوسط كانت تتصل بالدولة الحاكمة بسهولة ويسر ٠ وكانت الاسكندرية حين فتح العرب مصر مدينة بيزنطية (أي رومية أو يونانية) فكان معظم سكانها من الروم وكان يسيطر على مجتمعها العادات والتقاليد والثقافة اليونانية ٠

وهذا يفسر لنا اعجاب العرب بمدينة الاسكندرية ثم رفضهم اتخاذها عاصمة لهم في مصر ٠ وسرعان ما اختط العرب مدينة الفسطاط التي تتوسط الوجهين البحري والقبلي ٠ وبينما كانت الفسطاط مدينة عربية اسلامية وسط المحيط المصري القبطي ، كانت الاسكندرية مأهولة بسكانها من الروم واليهود والأقباط ٠

والحق ، ان البيزنطيين لم يتركوا للعرب فرصة طويلة للتردد في اقتحام البحر والغزو فيه ٠ وبدأت معارك العرب البحرية الأولى منذ خلافة عثمان بن عفان (٢٤ ـ ٣٥ هـ/٦٤٤ ـ ٦٥ م) وذلك للدفاع عن سواحل مصر ، وعن الاسكندرية ، وعن مصر نفسها ٠

وخاض العرب في الاسكندرية ـ ومعهم المصريون ـ معركتين بحريتين بنجاح كبير ، أشار اليهما عثمان بن عفان في كتابه الى عبد الله بن أبى سرح ـ واليه على مصر ـ ومشيرا أيضا الى اهتمام عمر بن الخطاب بحامية الاسكندرية قائلا : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فالزم الاسكندرية رابطتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » (٢٢٢) ٠

كانت الاسكندرية ومصر هدفا للبيزنطيين الذين حاولوا استرجاعها من العرب ٠ فلم يتمسك البيزنطيون بمعاهدة الاسكندرية (أو بابليون الثانية) سنة ٢٠ هـ/٦٤١ م طويلا ٠ ويبدو ان المعاهدة كانت حلا مؤقتا لجأ اليه الروم ريثما تنتهى مشاكل العرش البيزنطى ٠ اذ نقض الروم معاهدة الاسكندرية ، وأرسل الامبراطور قنسطانز الثانى (٢٢٣) ـ حفيد هرقل ـ أسطولا كبيرا الى الاسكندرية هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما ؛ وذلك فى سنة ٢٥ هـ(٦٤٥ م) ٠ وقد تم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية ، وزحف من بعدها الى ما يليها من بلاد مصر السفلى ٠ وتحرج مركز العرب فى مصر ، وكان واليها حينذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان ٠ وفى هذه المرة نرى المصريين يتكاتفون للابقاء على العرب وطرد الروم٠ وتذكر المصادر القديمة أن أهل مصر بعثوا الى الخليفة عثمان بن عفان يسألونه أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم ٠ وقد تم اجلاء البيزنطيين عن مصر على يديه ، واستولى عمرو بن العاص فى هذه المرة على الاسكندرية عنوة ثم صالح أهلها ، كما قتل قائد جيش الروم ٠ وتم فتح مصر النهائى واستخلاصها من أيدى البيزنطيين فى سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ م (٢٢٤)٠ ونحن نرجح أن الأقباط وقفوا من وراء راعيهم ، البطرك بنيامين

يشدون أزر العرب ضد الروم في غارتهم على الاسكندرية سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ٠

ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التي كانت تخشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب ، استطاعت في مدة وجيزة ان يكون لها شان كبير في الغزو في البحار ٠ فمنذ خلافة عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر في البحر المنوسط ٠ ورأينا أن مصر استطاعت أن ترد عدوان أسطول الروم الذي جاء الى الاسكندرية لاستردادها بل واسترداد مصر كلها وذلك في سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ م ٠ وبعد تسع سنوات من هذا الغزو استطاعت مصر في خلافة عثمان بن عفان أيضا ، وفي عهد الامبراطور قنسطانز أيضا ، أن تهزم الروم حين قدموا لغزو الاسكندرية وذلك في موقعة ذى الصوارى البحرية في سنة ٣٤ هـ/٦٥٥ م (٢٢٥) ٠ وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صوارى السفن التي التحمت في القتال فيها ٠ وتسمى في الكتب الأوربية واقعة فونيكه Phoenicus ، وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غربى الاسكندرية ٠ ويرى معظم المستشرقين أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى على ساحل ليسيا Lycia بجوار ثغر فينكس Phoenix (فنكى اليوم) ٠ وقد تقدم العرب في حروبهم البحرية بعد ذلك بسبب انتصارهم على البيزنطيين في الموقعة البحرية الذائعة الصيت والتي أسماها العرب معركة « ذى الصوارى » ٠ وفي هذه المعركة البحرية ربط العرب السفن العربية الى السفن البيزنطية بالسلاسل واقتتلوا بالسيوف وقلبوا قتال البحر الى قتال بر ٠ وكانت هذه المعركة البحرية نصرا بحريا كبيرا للمسلمين ٠ ووصفها المؤرخ اليوناني ثيوفانس Theophanes بانها كانت « يرموكا » ثانيا على الروم ٠

ويقال ان مراكب الروم فى معركة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ/٦٤٥ م كانت ألف مركب أو سبعمائة ، أما المسلمون فقد لقوهم فى مائتى مركب ، وكان نصر المسلمين فى هذه المعركة البحرية الذائعة الصيت أشبه بالمعجزة (٢٢٦) لكننا لا نستطيع ازاء هذا النصر الا أن نذكر أيضا بسالة المصريين البحرية وتقدمهم فى حروب البحار • واذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع الى أهل البلاد التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن ، فلنا أن نقول غير مبالغين ان الفضل الأكبر والأول يرجع الى مصر والمصريين • وستؤكد الأوراق البردية التى سنشير اليها فيما بعد قولنا هذا، فضلا عن المصادر المختلفة التى نوردها فى هذا البحث• وفيما يختص بمعركة ذى الصوارى ينفرد المؤرخ ابن عبد الحكم (٢٢٧) برواية مؤداها أن هذه الغزوة كانت فى سنة ٣٥ هـ/٦٥٥ م وأن ريحا شديدة فرقت الروم •

ولعل هذه الغزوة التى انفرد ابن عبد الحكم بروايتها كانت تالية لمعركة ذى الصوارى الشهيرة ، وكانت نتيجتها الفشل أيضا •

٤ ـ تتابع هجمات البيزنطيين على السواحل المصرية طوال عصر الولاة :

لم تكن هزيمة البيزنطيين فى الاسكندرية أمام العرب والمصريين رادعا لهم ، بل اننا نرى تتابع هجماتهم على السواحل المصرية كلها طوال عصر الولاة • ففى امرة مسلمة بن مخلد على مصر ، وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، نزل الروم بالبرلس فى سنة ٥٣ هـ/٧٦٣ م ، فخرج المسلمون اليهم برا وبحرا ، واستشهد فى تلك الغزوة ، وردان ، مولى عمرو بن العاص (٢٢٨) •

ثم نزل الروم على دمياط في سنة ٩٠هـ (٧٠٩م) في خلافة الوليد بن عبد الملك (٢٢٩) • أى أن غزوتهم هذه كانت فى أوائل ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ ـ ٩٦ هـ/٧٠٩ ـ ٧١٥ م) ، أو فى أواخر ولاية عبد الله بن عبد الملك (٢٣٠) (٨٦ ـ ٩٠ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧٠٩ م) •

وكذلك نزل الروم فى تنيس فى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ ـ ٧٢٠ م) فى امرة بشر بن صفوان ، وقد تكون فى آخر خلافة عمر بن عبد العزيز ، أو أوائل خلافة يزيد بن عبد الملك • وقتل فى تلك الغزوة أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى (٢٣١) فى جمع من الموالى • وفيهم يقول الشاعر :

ألم تربع فتخبرك الرجال بما لاقى بتنيس الموالى (٢٣٢)

أما « الموالى » التى جاءت فى النص وفى بيت الشعر ، فنحن نرى أن معناها أهل البلاد من المصريين الذين كان لهم شأن كبير فى صناعة السفن وفى المعارك البحرية • وفى خلافة هشام بن عبد الملك ، نزل الروم دمياط فى ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر فى ثلاثمائة وستين مركبا فقتلوا وسبوا ، وكان ذلك فى سنة ١٢١ هـ (٧٣٩ م) (٢٣٣) •

ونلاحظ هنا أن البيزنطيين ، برغم انهزامهم فى معظم المعارك البحرية ضد العرب والمصريين ، والتى خاضوها على السواحل المصرية ، الا أنهم الحوا فى اقتحام وغزو السواحل المصرية طوال عصر الولاة •

وليس من شك في انه كانت لهم عيون في مصر وفي أنحاء العالم الاسلامى • ويذكر المقريزى (٢٣٤) انه لما قامت الفتنه بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المامون ، وما استتبع ذلك من الفتن في مصر ، طمع الروم في هذه البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين (أى في السنوات الأولى من القرن التاسع الميلادى) •

كذلك أغار الروم على مصر في ولاية عنبسة بن اسحاق ، في خلافة المتوكل على الله العباسى • وكان عنبسة آخر وال عربى على مصر في عصر الولاة ٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ(٢٣٥) / ٨٥٢ ـ ٨٥٦ م • وقد نزل الروم في دمياط سنة ٢٣٨ هـ/٨٥٢ م وملكوها ، وقتلوا وسبوا عددا كبيرا منها ، ثم مضوا الى تنيس وأقاموا بأشتومها (٢٣٦) •

ويظهر أن غزو الروم في تلك المرة كان شديدا ، ولذلك نرى الخليفة المتوكل على الله العباسى يأمر ببناء الحصون في دمياط وتنيس والفرما ، فأنفقت في ذلك الأموال العظيمة ، وبدىء في بناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ /٨٥٣ م (٢٣٧) •

٥ ـ الصناعة في مصر والبحارة المصريون من خلال المصادر ، والنقوش الأثرية ، والأوراق البردية :

كان طبيعيا أن يستخدم العرب في حروبهم البحرية شعوب البلاد التى فتحوها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم • وفي مصر أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية أيما افادة • اذ اصبحت مصر عقب الفتح مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة ، كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين • وأصبح اسم « الصناعة » في مصر يدل على المكان الذى

تبنى فيه السفن الحربية • وقد عقد المقريزى فى كتابه الخطط (٢٣٨) فصلا فى ذكر المواضع المعروفة « بالصناعة »، كما اشار فى مواضع أخرى من هـذا الكتاب (٢٣٩) الى ان الصناعـة كانت بجزيرة الروضة ، وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ (٦٧٤ م) • ويبدو أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس فى سنة ٥٣ هـ (٦٧٣ م) والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين • وقد سميت « جزيرة الروضة » حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحيـانا « جزيرة مصر » وقد وردت هذه التسمية فى نقوش أثرية نشرها المستشرق الفرنسى جاسـتون فيت (٢٤٠) • ونحن نرجـح أن « الصناعة » أنشئت فى مصر الاسلامية قبل هذا التاريخ ، وأنها كانت استمرارا لما كان موجودا فى مصر منذ القدم •

ويذكر البلاذرى (٢٤١) أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) هاجم الروم السواحل الاسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا •

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ ــ ٨٦ هـ/٦٨٤ ــ ٧٠٥ م) بعث الى حسان بن النعمان عامله على أفريقية يأمره باتخاذ صناعـة بتونس لانشـاء الآلات البحرية • وكتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ، ألف قبطى بأهله وولده ، لانشـــاء دار صناعـة فيها • أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا الى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصـنع المراكب (٢٤٢) • ويظهر من هذا النص أن أقباط مصر هـم الذين أنشأوا الصناعة فى تونس • ولاشك أن اهتمام عبد الملك بن مروان بالقوة البحرية اهتماما شديدا يرجع الى ما نالته الدولة العربية على يد بحرية البيزنطيين • اذ ثار البربر فى وجه العرب واستندوا الى مساعدة البيزنطيين

البحرية الذين ظلوا يهددون العرب من البحر ، الى أن نجح حسان ابن النعمان في تخريب قرطاجنة وانشاء قاعدة بحرية أمينة فى تونس (٢٤٣) ٠

والواقع انه منذ ولاية حسان بن النعمان الغسانى على أفريقية (٧٣ ـ ٧٩ هـ/٦٩٣ ـ ٦٩٩ م) وفي امارة عبد العزيز ابن مروان على مصر (٦٥ ـ ٨٦ هـ/٦٨٤ ـ ٧٠٥ م) ، أصبح شمال أفريقية مركزا بحريا ثالثا أضيف الى المركزين العربيين فى مصر والشام (٢٤٤) ٠

وقد أظهرت أوراق البردى العربية واليونانية التى كشفت في كوم اشقاو (٢٤٥) والتي ترجع الى عهد الوليد بن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة (٢٤٦) ، وفي القلزم (٢٤٧) (السويس الحالية) وفي الاسكندرية (٢٤٨) ٠ وكشفت تلك الأوراق البردية عن مهارة المصريين فى تلك الصناعة ، ومهارة الملاحين والبحارة المصريين ، وتقدير الدولة العربية الاسلامية لتلك المهارة ، ومدى استغلالها على يد الأمراء والولاة المسلمين ٠

وتبين تلك الأوراق البردية أن والى مصر ، قرة بن شريك ، كثيرا ما كان يطلب من صاحب كورة اشقوة ، أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة ، والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى ٠ كما تشهد تلك الأوراق بأن والى مصر ، قرة بن شريك ، كان يتفق مقدما على أجور العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى (٢٤٩) ٠ كما كان يفرض (٢٥٠) على الكور قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى

لإعداد الأسطول (٢٥١) . ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الأسطول المصري ، بل كان والي مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب (٢٥٢) ، أو أسطول المشرق (٢٥٣) والمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية .

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة في مصر في عصر الولاة . ويذكر المقريزى (٢٥٤) أنه بعد أن نزل الروم دمياط في سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) في خلافه المتوكل وفي ولاية عنبسة بن اسحق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشواني (٢٥٥) برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البـــر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الاسطول غشيم ولا جاهل بأمـــور الحـــرب . هذا ، وللناس اذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله واقامة دينه ، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأســطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريـــخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا : ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطير الاسلام بلاد العدو فانها كانت تسير من مصر والشام ومن افريقية » .

وأشار المقريزى في هذه المناسبة الى تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين والى افتداء الأسرى المسلمين في بلاد الروم .

خاتمـــة :

ولم تكن السفن التى تصنع في مصر وغيرها من بلاد الدولة الإسلامية معدة للحرب والجهاد فقط ، بل كانت هناك سفن بحرية

معدة للتجارة الخارجية ، فضلا عن السفن النيلية والنهرية التي كانت تستخدم كثيرا للنقل والتجارة (٢٥٦) . وأصبح العرب الذين يطلون على شواطىء البحر المتوسط في أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر التاسع الميلادى) في مأمن من أى غزو لأول مرة منذ عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . وكان الذى كشف ضعف بيزنطه البحرى بعد صراعها المرير مع مصر ودول البحر المتوسط الاسلامية من أجل الاحتفاظ بالسيادة في البحار ، جماعة من الأندلسيين كانوا قد خرجوا من وطنهم مطرودين في عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨هـ (٨١٤ م) ، ونزل فريق منهم بالاسكندرية وكان عددهم حوالى ١٥٫٠٠٠ شخص فيما عدا النساء والأطفال (٢٥٧) . وأنشأ هؤلاء الأندلسيون في الاسكندرية جمهورية شبه مستقلة مستغلين الفوضى في مصر حينذاك أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون، وما تلا قتل الأمين من فوضى عمت أنحاء الدولة الاسلامية. ولما نجح قائد المأمون ـ عبد الله بن طاهر ـ في القضاء على النزعات الاستقلالية التى ظهرت في مصر حينذاك وفي اعادة مصر الى حظيرة الخلافة ، سار الى الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ليتم نصره على مصر كلها ، وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا . فخرجوا الى جزيرة اقريطش (كريت) وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر البلوطي ، وملكوها دون كبير مقاومة من البيزنطيين . وكانت كريت قد تعرضت لغزو العرب في دور الفتوح الأول، لكن فتحها تم على يد هؤلاء الأندلسيين (٢٥٨) .

ولا يسعنا فى ختـام هذا البحث الا أن نشير الى أن الأمر انتهى بأن أصبحت الدولة الاسلامية سيدة فى البحر المتوسط وان نشير الى النص الذى ذكره ابن خلدون فى ذلك الأمر فى المقدمة (الفصل ٣٤) عن عظمة المسلمين فى هذا البحر ٠

أ٠د٠/سيدة اسماعيل كاشف

استاذة كرسى التاريخ الاسلامى والوسيط

كلية البنات ـ جامعة عين شمس

الهـــــوامش

(١٩٠) حصن بابليون : هو الحصن الذي بناه الامبراطور الروماني تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م) وكان يسميه العرب : قصر الشمع ، أو الحصن ، أو القصر ، أو باب اليون ، أو اليونة • ولا تزال بقاياه عند المتحف القبطي في حي مصر القديمة في القاهرة •

(١٩١) الفرما : هي مدينة بلوزيم القديمة Pelusium وكانت على ساحل البحر الأبيض المتوسط شرقي بورسعيد الحالية •

(١٩٢) سار عمرو بن العاص عقب الانتهاء من فتح مصر مباشرة الى برقة (انطابلس) وفتحها وفرض عليها الجزية ، ثم غزا طرابلس (اطرابلس) وفتحها في سنة ٢٢ هـ /٦٤٢ م وقيل في سنة ٢٣ هـ /٦٤٣ م (انظر : ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٧١ م) : فتوح مصر وأخبارها ص (١٧٠ ـ ١٧٣) طبعة توري Torrey ـ نيوهافن ١٩٢٢ م •

(١٩٣) تنيس : بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة وسين مهملة : جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين دمياط والفرما في شرقيها (انظر : ياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ /١٢٢٩ م) : معجم البلدان : ج ١ ص ص ٨٨٢ (طبعة ليبزج ـ ٦ أجزاء ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣ م) • وهي عند بحيرة المنزلة الآن • ويقول المقريزي (ت ٨٤٥ هـ /١٤٤١ ـ ١٤٤٢ م) في الخطط ج ١ ص ١٨١ (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار : جزءان ـ مطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) : « وما زالت تنيس مدينة عامرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ولا أحصن من عماراتها الى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب في سنة أربع وعشرين وستمائة فاستمرت خرابا » •

وانظر أيضا : دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاســـلام هامش (٦) ص ٨٥ : الطبعة الأولى : القاهرة ١٩٤٧ م •

(١٩٤) انظر : المقريزي : الخطط : ج ١ ص ١٦ ، ودكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام هامش ٥ ص ٧٩ •

(١٩٥) انظر : المراجع السابقة •

(١٩٦) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها : ص ١٧٠ (طبعة توري) •

(١٩٧) انظر : خطط المقريزى ج ١ ص ٢٤ ، ودكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٨٠ .

(١٩٨) انظر : خطط المقريزى ج ١ ص ٢٦ ، ودكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٨٠ .

(١٩٩) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ١٧٨ ، (وطبعة هنرى ماسيه Henri Masse المعهد العلمى الفرنسى ـ القاهرة ١٩١٤ م) ص ٧٨ .

(٢٠٠) دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢ ـ ٢٣ وما ذكرته من مراجع .

(٢٠١) انظر : الكندى (ت ٣٥٠ هـ /١٩٦١ م) : كتاب الولاة وكتاب القضاة (بيروت ١٩٠٨ م) ص ١٢ ، ودكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢٠٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٦ .

(٢٠٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧٤ ، ودكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٣ .

(٢٠٤) فى كتاب الولاة والقضاة يذكر الكندى أنه تدوين عمر عبد العزيز ابن مروان (ص ٧١) ؛ ولكن المقريزى يذكر أنه تدوين عبد العزيز بن مروان وهو الصحيح (خطط المقريزى ج ١ ص ٩٤) .

(٢٠٥) الكندى : الولاة والقضاة : ص ٧١ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٢٠٦) فتوح مصر وأخبارها : ص ١٩١ ـ ١٩٢ (طبعة تورى) .

(٢٠٧) السيوطى (ت ٩١١ هـ /١٥٠٥ م) حسن المحاضرة ج ١ ص ٧١ (طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ) .

(٢٠٨) الرباط : المكان الذى يرابط فيه الجيش ، والجمع ربط .

(٢٠٩) انظر أيضا : دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : عبد العزيز بن مروان ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وما ذكرته من مراجع (أعلام العرب ـ ٧٠ ـ القاهرة ، أكتوبر ١٩٦٧ م) .

(٢١٠) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٣ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٢١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها : ص ٦٤ (طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة) . والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٢ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١ .

(٢١٢) انظر : الولاة والقضاة ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

(٢١٣) الماحوز : المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم ، وهو من استعمال أهل الشام . ويذكر دورى Dozy أن الماحوز فى سوريا معناه الحدود (انظر : (Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes .

(٢١٤) أحباس السبيل : الأوقاف التى توقف فى سبيل الله .

(٢١٥) انظر أيضا : دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٧٨ ـ ٧٩ وما ذكرته من مراجع .

(٢١٦) انظر : دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ١٧٠ ـ ١٧١ (أعلام العرب ـ ١٧ ـ القاهرة ١٩٦٣) .

(٢١٧) انظر : دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : تاريخ مصر الاسلامية ص ٧٣ ـ ٧٤ (ضمن موسوعة تاريخ مصر عبر العصور) سلسلة تاريخ المصريين ـ ٦٣ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٣ م .

(٢١٨) انظر : الدكتور/ زكي محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٣٥ ـ ٣٦ (القاهرة ١٩٤٢ م) .

(٢١٩) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٩١ (طبعة تورى) ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ ، والسيوطى : حسن المحاضره ج ١ ص ٥٧ (طبعة القاهرة ، ١٣٢٧ هـ) .

(٢٢٠) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ . (طبعة تورى) ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٨ ، ودكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٤٨ .

(٢٢١) انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك : ج ٤ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ (الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية) .

(٢٢٢) انظر : دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : عبد العزيز بن مروان ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وما ذكرته من مراجع ، وسيدة اسماعيل كاشف : العرب والبحار (بحث فى حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ـ العدد الرابع ـ يوليو ١٩٦٤ م) .

(٢٢٣) يذكر مؤرخو العرب أن هذه الحملة كانت فى عهد قسطنطين بن هرقل ، ولكنها فى الواقع كانت فى عهد قنسطانز الثانى (٢١ ـ ٤٨ هـ / ٦٤١ ـ ٦٦٨ م)

حفيد هرقل وابن قسطنطين • أما قسطنطين بن هرقل ، فقد توفى فى مايو ٦٤١ م (٢٠ هـ) •

(٢٢٤) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) ص ١٧٥ ـ ١٧٨ ، والبلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٨٩٣ م) : كتاب فتوح البلدان : ص ٢٢١ (طبعة ليدن ١٨٦٦ م) ، واليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : تاريخ ج ٢ ص ١٨٩ (طبعة هوتسما ـ ليدن ١٨٨٣ م) ، والكندى : كتاب الولاة ص ١١ ، وابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٦٢ (١٢ جزءا ـ ليدن ١٨٦٦ ـ ١٨٧٤ م) ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ ، وابو المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ ـ ١٤٧٠ م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٦٦ ـ طبعة دار الكتب ١٩٢٩ م •

(٢٢٥) دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : العرب والبحار ص ٦٨ وما ذكرته من مراجع •

(٢٢٦) راجع عن موقعة ذى الصوارى : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٦٨ ـ ٧٠ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٩ والمراجع التى فى هامش « مصر فى فجر الاسلام » ص ٩٤ ، وهامش « العرب والبحار » ص ٦٨ •

(٢٢٧) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٩١ (طبعة تورى) •

(٢٢٨) انظر : الكندى . الولاة والقضاة ص ٣٨ ، وخطط المقريزى ج ٢ ص ١٩٠ ، ودكتورة / سيدة أسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٨٥ •

(٢٢٩) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ •

(٢٣٠) انظر : دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٨٥ •

(٢٣١) فى الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٠ يقول انه « ابن أحمر بن مسلمة المرادى » •

(٢٣٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٠ ، وخطط المقريزى ج ١ ص ١٧٧ •

(٢٣٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢١٤ •

(٢٣٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٢ ، وخطط المقريزى ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأبو المحاسن ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٣٠٠ (طبعة دار الكتب المصريه ١٩٣٠ م) •

(٢٣٥) المقريزى : الخطط : ج ١ ص ٢١٤ •

(٢٣٦) الأشتوم : بالضم ثم السكون ثم الضم : موضع قرب تنيس : انظر : ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ /١٢٢٩ م) : معجم البلدان : ج ١ ص ٢٧٦ ــ طبع ليبزج ٠

(٢٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ١٨٠ ــ ٢١٤ ٠

(٢٣٨) انظر : المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨٩ ٠

(٢٣٩) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠١ ٠

(٢٤٠) Maspero et Wiet (G.) : Materiaux pour servir a la Geographie d'Egypte, p. 68;
et Wiet (G.) : Corpus Inscriptonum Arabicarum. Egypte II. pp. 197-199.

(٢٤١) البلاذرى : كتاب فتوح البلدان : ص ١٧٧ (طبعة ليدن ١٨٦٦ م) ٠

(٢٤٢) أبو عبيد البكرى (ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م) : ص ٣٨ ــ ٣٩ ٠ وراجع ايضا مقال الأستاذ فيت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣ ــ ٣٤ من كتاب « فى مصر الاسلامية » الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى وآخرون (القاهرة ١٩٣٣ م) ٠

(٢٤٣) انظر : ابن عذارى المراكشى (ت حوالى نهاية القرن السابع الهجرى/ نهاية القرن الثالث عشر الميلادى) : البيان المغرب فى أخبار المغرب : ج ١ ص ٢٣ ــ ٢٤ (مكتبة صادر بيروت) ، ودكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ (القاهرة ١٩٤٧ م) ، ودكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : العرب والبحار ص ٧٠ ٠

(٢٤٤) دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف والبحار ص ٧٠ ــ ٧١ ، ودكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : عبد العزيز بن مروان ص ١١٦ ــ ١١٧ وما ذكرته من مراجع ٠

(٢٤٥) عرفت كوم اشقاو فى أوراق البردى العربية باسم « اشقوه » كما عرفت فى الأوراق البردية اليونانية باسم « أفروديتوبوليس » ٠ وكوم اشقاو كانت كورة الصعيد ، وتقع بين أبو تيج وطهطا فى محافظة أسيوط الآن ٠ وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الأوراق البردية العربية واليونانية التى ألقت شعاعا من النور على حكم قرة بن شريك فى مصر ٩٠ ــ ٩٦ هـ / ٧٠٩ ــ ٧١٥ م) من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ٠

(٢٤٦) Bell (H.I.) : Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum (Dar Islam. Band IV 1913), p. 92.

(٢٤٧) Bell : Op. Cit., (Band II 1911), p. 277.

(٢٤٨) Bell : Op. Cit., (Band II), p. 280.

(٢٤٩) Bell : Op. Cit., (Der Islam, Band II), pp. 271-272, 279, 280.

(٢٥٠) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات والأفراد كلها من آثار الليتورجيا Leiturgia أو الالتزامات الاجتماعية التي عرفت في العالم القديم .

(٢٥١) Bell : Op. Cit., (Band II) : pp. 277, 279 & (Der Islam Band XVII 1928), p. 8.

(٢٥٢) Bell : Op. Cit., (Band II), p. 279.

(٢٥٣) Bell : Op. Cit., (Band XVII), p. 6-8.

(٢٥٤) المقريزى : الخطط : ٢ ص ١٩١ .

(٢٥٥) الشونة : المركب المعد للجهاد في الحرب ، والجمع شوان .

(٢٥٦) دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : العرب والبحار ص ٧١ ــ ٧٢ .

(٢٥٧) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج ٦ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٨ ،

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne T. 1, pp. 296-300 (Lyde, 1932).

(٢٥٨) انظر : دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٦٧ ــ ١٧٦ وما ذكرته من مراجع ، وأرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (ترجمة أحمد عيسى) ص ١٦٩ ــ ١٧٠ ، د. نقولا زيادة : صور من التاريخ العربي : ص ٤٤ ــ ٤٥ (دار المعارف بمصر ١٩٤٦ م) ، ودكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف : العرب والبحار ص ٨٦ ــ ٨٧ .

الاسكندرية قاعدة عسكرية
فى القرن الأول من تاريخها العربى
وموقعة الصوارى

أ • د • سعد زغلول عبد الحميد

تمهيد :

عندما دخل عمرو بن العاص مصر في بداية الفتوح الاسلامية (١٨ هـ / ٦٤٠ م) باندفاع القائد الشجاع من جانبه فى مقابل التردد الحكيم من جانب الخليفة عمر بن الخطاب ، لم يلق مقاومة أيا كانت على الحدود الشرقية في العريش • أما فى شرق بورسعيد حيث كانت مدينة الفرما التى عرفت باسم بيلوز اليونانية وباسم برمون بالقبطية فلم يواجه العرب فيها الا مقاومة ضئيلة وكذلك الأمر فى عين الشمس (هليوبوليس) • والحقيقة أنه اذا كان فتح العرب لمصر قد تم بشكل أسهل ، وفى مدة أقصر من غيرها من البلدان ، مثل الشرق العجمى أى الايرانى التركى أو المغرب أى الشمال الأفريقى البربرى البيزنطى ، فان هذا لا يعنى أن فتح مصر كان نزهة عسكرية بالنسبة للعرب • واذا كان من المعروف ان القوات العربية قد واجهت مقاومة شديدة فى بابليون : حيث التقاء كل من الصعيد والدلتا ، فى الموضع التقليدى للعواصم المصرية ،

من منف (ممفيس) وعين الشمس (هليوبوليس) الى بابليــون (الفارسية) التى صارت « فساطوم » الرومانية قبل ان تتحول الى الفسطاط العربية ، وهى مصر (القاهرة) القديمة ، الأمر الذى تطلب امدادات عربية جديدة أتت تترى من الحجاز وعلى رأســـها بعض كبار القواد مثل الزبير بن العوام الذى ينسب الى شجاعته استسلام حصن بابليون دون اراقة كثير من الدماء · أما المقاومة الشديدة حقا فقد لقيها العرب أمام الاسكندرية عاصمة مصر منذ ألف عام ، وثانى مدائن الامبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية ، والتى ربما كانت وقتئذ أجملها بناء وأعظمها تحصينا ، سواء من جهة البحر (الكورنيش) شمالا أو من جهة قناة تراجان (المحمودية ، وباب السدرة : الشــجرة) جنــوبا ، حيث مدافن العمود : عمود السوارى ، من حيث كان طريق القوافل التجارية ، والمراكب الملاحية النيلية الواردة من العاصمة والصادرة اليها ·

والى جانب ذلك واجه العرب مقاومة محسوسة فى عدد من المواضع ، سواء فى الدلتا كما حدث فى نقيوس (شمال بابليون) ، وفى سخا (شمال طنطــا) ثم فى سنطيس قرب دمنهور (بين كرمون وكوم شريك) حيث خط الدفاع عن الاسكندرية ، أو فى الصعيد كما فى البهنسا (غير بعيد من الفيوم) التى اعتبرت من مواطن الشهداء · وكذلك الأمر على حدود مصر الجنوبية فى أسوان وحدود السودان حيث كان الضرب بالنبال فى العيون مباشرة ، أى فى السوادة كما يقال ، الأمر الذى جعل معاناة القتال فى بلاد البجاة (البشارية) والنوبة ــ فى نظر بعض المحاربين هنــاك ــ هولا من الأهوال ·

فتح الاسكندرية :

وهكذا لم يكن فتح مصر أمرا هينـــا ، تمـاما كما كان فتح الاسكندرية أمرا شاقا ، من حيث كانت الموقعة الفاصلة بالنسـبة لتمام فتح مصر • والحقيقة ان معاناة العرب في فتح مصر يمكن ان تلخص بشكل واضح امكانية نجاح القوة الصغيرة ، ذات الامكانات المحدودة في مواجهة قوات العدو المتفوقة كما وكيفا أي عددا وتقنية ، الأمر الذي يظهر بشكل أوضـــح بين العـــرب والروم في حرب الاســـكندرية •

فتسليح العرب كان تسليحا خفيفا مما يناسب تقنيات حربهم في الميادين المفتوحة المعروفة « بالكر والفر » ، بمعنى حرب الفرسان المزودين بالسيوف أو الرماح ، وخاصـة النبال ، والتي تتلخص فكرتها الأساسية في مبدأ « اضرب واهرب » ؛ بمعنى أن تصيب الخصم ولا تمكنه من اصابتك ــ فان الالحاح على العــدو بالضرب وحرمانه من الثأر حتى في حروب الحصار ينتهي باعيائه وضعف معنوياته ، ومن ثم استسلامه • انها حرب الكر والفر التي تمثل تقنيات جماعات فرسان البدو من ركاب الخيل ــ خاصة في بلاد المغول والترك في أواسط آسيا أصلا • أنها الحرب التي هيـأت التفوق للبدو على سكان المدن منذ استخدام الحصان والنبل في الحرب في العصور القديمة ، ومن ثم في العصور الوسطى ، وحتى القرن السادس عشر عندما تم اختراع المدفع الذي يحقق بالضرب المباشر عن بعد ما لا يحققه القوس والنبـل • فكان التفوق لأهل المدن ، ومن ثم سيطرة الحضر على أهل البـــادية بشكل نهائي ــ فلم يعد لأهل الصحارى قبل بمواجهة أهل الحواضر •

الاسكندرية قاعدة عسكرية :

هكذا توقف عمرو بن العاص ورجاله الذين لم تكن لهم خبرة بحرب الحصار دهشين ، أمام أسوار الاسكندرية الحصينة في سنة ١٩ هـ / ١٩٤١م ، بعد أن توقفوا لعدة شهور أمام حصن بابليون ، قصر الحاكم البيزنطي (المقوقس أو قيروس) بمصر القديمة . ويقرر البحث الحديث انه عندما ظهر العرب المسلمون لأول مرة أمام الإسكندرية ، لم يكن حصن بابليون قد سقط بعد بين يدي عمرو بن العاص الذي رأى بعدما اكتسبه من الخبرة في حرب البيزنطيين في الشمال في بلاد الشام ، ألا ينهك قواه في حرب الحصار ، وأن يكون البدء بالسيطرة على الأقاليم المفتوحة في كل من الدلتا والصعيد — الأمر الذي يؤدي بحكم الضرورة الى سقوط المواقع المحصنة مع مرور الوقت دون كبير عناء . وبطبيعة الحال ، فان تحقيق هذا الأمر كان يتطلب أعدادا كبيرة من الجند العربي تصل الى ٢٥ الف رجل ، وهو مايفوق العدد الذي تسجله المصادر الاسلامية الأولى التي تقول أن قواتها الفاتحة القليلة العدد نجحت في تحقيق الانجازات الباهرة .

ومن الواضح أيضا أن عمرو بن العاص عرف كيف يستغل التناقضات القائمة بين القبط المصريين من المينوفيزية (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الالهية) وبين البيزنطيين من رجال الحكم والادارة أو قواد العسكر أو رجال الدين أصحاب مذهب القسطنطينية (مذهب الطبيعتين : اللاهوت والناسوت) . كما كان الحال مع بطريق الاسكندرية قيروس (المقوقس) الذي كان يجمع الى سلطاته الدينية اختصاصات واسعة في شئون الادارة وفرض الضرائب والجباية . وهكذا أمكن للقيادة العربية ، عن طريق حسن الاتصال بالمقوقس ، وعرض شروطهم المعتدلة ، من الدخول في حزب المسلمين

أو قبول دفع ضريبة الرأس وزكاة المال بالنسبة للقادرين عليها ، ان يحققوا اتفاقية سلام متوازنة ، تراعى مصالح الطرفين المتعاقدين، من العرب والبيزنطيين ، وتنسحب شروطها على من يلوذ بكل منهما ، سواء كان من القبط أو اليهود أو الروم ممن يبقون بأرض مصر .

ومن الحقائق الهامة أيضا أن نجاح العرب فى تسلق حصن بابليون فى غفلة من المسئولين عن تأمينه ، ودخوله الذى كان مفاجأة للروم ، كان من الأسباب التى عجلت باتفاقية السلام بين العرب والبيزنطيين ، والتى طبقت شروطها على الاسكندرية أيضا مع اضافة بعض البنود الخاصة بواقع الحال فى الاسكندرية ، الأمر الذى تطلب أن تختلف ضريبة الاسكندرية من حيث كانت تصاعدية حسب مقتنيات الفرد من الأرض والثروة بينما كانت ضريبة « القاهرة القديمة » التى طبقت على كل البلاد موحدة على الرؤوس فقط . هذا ، بينما كان لضريبة الأرض نظامها الجماعى الخاص ، الذى يلتزم بتطبيقه كبير الناحية أو عمدة القرية . وهنا لابأس من الاشارة الى أن الإسكندرية كانت محاطة فى الغرب وفى الجنوب بمناطق زراعية خصبة ، بعضها يروى بماء المطر والبعض بماء الترعة النيلية . فمنطقة مريوط عرفت بغناها الزراعى ، وخاصة فيما يتعلق بانتاج الفاكهة التى كانت تميز بها المدينة . أما غرب الاسكندرية وحتى برقة فكان عامرا بالزراعة ، كثير النخل والأراضى الخصبة ، وكان الطريق الى البلاد الليبية سالكا دون عوائق .

ومن المهم الاشارة الى أن ضريبة الأرض فى مصر كانت مرتبطة وقتئذ بفيضان النيل الذى كان يقام له عيد سنوى ، طالما بلغ ارتفاع الماء فى المقياس ١٦ ذراعا فأكثر ، حيث تجب ضريبة الأرض السنوية كاملة ، والا اقتطع منها نسبيا بقدر النقص ، ان لم يتم رفعها تماما اذا كان نقص ماء الفيضان خطيرا يهدد بالقحط والمجاعة . وهى

الأمور التي استوعبها عمرو بن العاص وحرص على تنفيذها بما تستحق من الرعاية •

بنود معاهدة الصلح :

وفيما يتعلق بشروط معاهدة السلام التي تمت بين العرب والروم في نوفمبر سنة ٦٤١ م ، والتي اعتبرت من وجهة النظر البيزنطية الرسمية بمثابة استسلام من تدبير قيروس (المقوقس) فقد حوت البنود الآتية :

١ ـ يدفع الجزية كل من دخل في العقد من : الروم والقبط واليهود •

٢ ـ تتوقف الأعمال الحربية خلال هدنة تمتد ١١ شهرا (أحد عشر شهرا) تنتهي في أول شهر بابه القبطي (٢٢ سبتمبر ٦٤٢ م) •

٣ ـ ترحل حامية الاسكندرية الرومية بحرا ، ولجنودها الحق في حمل أموالهم وأمتعتهم •

٤ ـ من يرحل برا منهم يدفع ضريبة الراس الشهرية ما بقي في أرض مصر •

٥ ـ لايعود أي جيش للروم الى أرض مصر أو يحاول استرداد الاسكندرية •

٦ ـ ان يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ، وألا يتدخلوا في شئونهم الخاصة •

٧ ـ يسمح لليهود بالاقامة فى الاسكندرية ٠

٨ ـ يقدم الروم رهائنهم (١٥٠ رجلا من الجند و ٥٠ من غيرهم) ، ضمانا لانفاذ العقد ٠

هذا ، واذا كانت الروايات تقرر أن جملة الجزية (اى ضريبة الرأس) التى فرضت بواقع ٢ دينار على كل من يجب عليهم دفعها قد بلغت ١٢ مليون دينار (اثنى عشر مليون دينار) ، فان هذا الرقم مبالغ فيه من غير شك ، اذ لو صح لبلغ عدد سكان بلاد مصر وقتئذ ٢٤ مليون نسمة ، على أساس اعفاء النساء والشيوخ والأطفال من دفع تلك الضريبة ـ والأمر المقبول ألا يزيد سكان مصر فى ذلك الزمان عن ٣ أو ٤ ملايين نسمة ، بمعنى ألا تتجاوز الضريبة مبلغ المليون دينار فى أحسن الظروف ـ دون حسبان ضريبة الأرض ٠

البيزنطيون يخرقون صلح الاسكندرية :

والمهم ان قيادات الروم فى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية التى شهدت نوعا من عدم الاستقرار بوفاة الامبراطور هرقل الذى يرى بعض الكتاب أنه مات كمدا لسقوط الاسكندرية ، قلعة الامبراطورية من حيث الحصانة ، وأبهى مدنها من حيث التخطيط واستقامة الطرق ذات البوائك البديعة ، وكثرة عمادها من مدورة كعمود السوارى (عمود دقلديانوس) الذى مازال شامخا على ربوة السيرابيوم ، ومربعة فى شكل المسلات التذكارية التى تنسب الى الملكة كليوباترا ، والتى كانت تقع شرق الكنيسة المرقصية فى حى محطة الرمل ٠ وفوق ذلك كانت الاسكندرية جوهرة تاج الامبراطورية ـ بصفتها مقر العلوم ـ التى لم ينطفىء نورها ، وان اعتراه بحكم الزمان شىء من الضعف ٠

لكل ذلك لم يكن من السهل على هرقل الثاني ومن حوله من رجال البلاط وكبار القواد قبول ضياع الاسكندرية الذى ألقيت تبعته على المقوقس (قيروس) الذى خان الأمانة . هذا ولا بأس ان كان للموتورين من أهل النخبة من السكندريين ، من أصحاب المصالح القديمة ، من : التجار ورجال الدين وبقايا الجند ، الذين تضرروا من اتفاقية الصلح - كان لهم دورهم فى اثارة البلبلة ، ليس فى الاسكندرية فقط ، بل وفى مركز الامبراطورية التى لم تنقطع صلتهم بها عبر الاتصالات البحرية ، وعن طريق الجواسيس .

وهكذا يقول بعض المعاصرين ممن عايشوا الغزو الفارسى لمصر قبل ذلك بحوالى ربع قرن : ان وقوف الفرس أمام تحصينات الاسكندرية وأسوارها (سنة ٦١٧ م / ٥ ق.هـ .) بقى زمنا طويلا مع ما كانوا عليه من بصر بأمور الحصار . هذا ، وقد أراد الله أن تقوم تلك الأسوار مرة أخرى وهى راسية قوية تجاه جيوش العرب ، حتى استطالت بها مدة الحصار .

وهكذا يرى بعض الباحثين المحدثين أنه لابد أن أسوار الاسكندرية كانت خطا حصينا من القلاع والأبراج ، وأنه لو أتيح لها جند عاهدوا أنفسهم على الدفاع يدا واحدة لكان لها ان تثبت حتى يكلل المحاصرون وتنفد قوتهم ، ولاستطاع جندها عند ذلك أن يسحقوهم وقد أنهكت قواهم أو أن يرغموهم على رفع الحصار ، وترك المدينة ، لاسيما وقد كان البحر من ورائها تأتى منه الامدادات ، حيث كان الروم سادة الى ذلك الحين . ولكن أنى لها ذلك وأهلها أخلاط يكرهون بعضهم بعضا (بتلر ، ترجمة أبو جديد ، ص ٦٥) - هذا وان كان صاحب تلك المقالة لا يجهل ان الأيام دول وأن دولة

والمهم ان النفوس المضطربة فى الجانب البيزنطى كانت مهياة لنقض اتفاقية الصلح مع العرب ، وساعد على ذلك أن الأمور لم تكن قد استقرت أيضا ، ليس فى الاسكندرية وحدها ، بل وفى مصر وبخاصة فى تخوم الدلتا القريبة · وهكذا لم يكن من المستغرب ان تضطرب الاسكندرية بعد أقل من خمس سنوات من عقد الصلح مع العرب (سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م) · وذلك بمجرد ظهور طلائع الأسطول البيزنطى الوافد من القسطنطينية ، وعلى ظهره جيش برى قوى تحت امرة القائد مانويل ·

نجاح العودة الرومية : الأسباب والنتائج :

وتعزى اسباب نجاح البيزنطيين فى استعادة الاسكندرية الى عدة أسباب ، أولها : أن الفتح العربى لمصر لم يكن قد استقر بعد وهو الأمر المقبول ، اذ كان اقرار الأمن فى طول البلاد وعرضها يتطلب القيام بأعمال عسكرية تفرض سلطان العرب فى الأقاليم ، كما فى المناطق الساحلية الشمالية شرق الاسكندرية من رشيد الى دمياط عبر البرلس · والحقيقة أن عمرو بن العاص كان قد بدأ القيام بذلك عقب صلح الاسكندرية سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م ·

وكان هذا الأمر يتطلب بطبيعة الحال تخفيض حامية الاسكندرية بشكل كبير ، اذ لم يترك بها الا قوة رمزية ، كما يقال ، لم يزد جنودها على ١٠٠٠ (ألف) رجل ، الأمر الذى كان يجعل من الاسكندرية ، مدينة مفتوحة كما يقال ، أمام الروم العائدين ·

وبالاضافة الى ذلك فقد كان الجيش العربى قوة برية فقط ، فلم يكن للعرب على طول السواحل المصرية سفينة حربية واحدة فى مقابل الاسطول البيزنطى حتى ذلك الحين • فكأن الأمور لم تكن قد تغيرت بعد على المستوى العسكرى ، وان كانت قد بدأت تتغير بشكل ملموس فى مركز الخلافة بالحجاز ، حيث كانت وفاة عمر بن الخطاب (٢٣ هـ / ٦٤٤ م) وولاية عثمان بن عفان التى تعتبر على عكس ما يرى البعض ، مرحلة حاسمة فى تطور دولة الخلافة نحو الأفضل • فقد أخذت الدولة الاسلامية الناشئة تستوعب حضارات البلاد المفتوحة ، بفضل المدن العربية التى أقيمت فى تلك البلاد مثل : البصرة والكوفة فى العراق ، والفسطاط التى حلت محل الاسكندرية كعاصمة للبلاد المصرية ، وان كانت قد أقيمت أصلا كمدينة عسكرية أو قاعدة حربية عربية ـ مثل سابقتيها العراقيتين ـ هدفها تثبيت الفتوح الاسلامية ، ليس فى مصر فقط بل وفى تخومها الغربية ، حيث ولاية برقة (بنتابوليس : المدن الخمس) ، والتى كانت تابعة للادارة المصرية • وهكذا فتح عمرو بن العاص كلا من برقة وطرابلس سنة ٢١ ـ ٢٢ هـ / ٦٤٢ م ، عقب صلح الاسكندرية ، كما فتح الأقاليم الساحلية فى الدلتا ـ حيث تم تأمين الطريق العسكرى التاريخى الممتد من برزخ السويس نحو الاسكندرية وشمال أفريقية (طريق ايلات ـ العلمين المعاصر) •

والمهم انه فى الوقت الذى كان يتم فيه صلح الاسكندرية كانت بلاد الحجاز تتعرض لفترة قحط ومجاعة صعبة ، بدأت فى السنوات الأخيرة من خلافة عمر بن الخطاب (اعتبارا من ١٨ هـ / ٦٣٩ م) ، الأمر الذى دعا الخليفة عمر الى طلب المدد من قواده فى الشام ومصر ـ وكان الالحاح على قمح مصر شديدا • وهو الأمر المقبول

من حيث شهرة مصر كأهراء القمح في العالم القديم ، وحيث شخصت في المصورات قديما حسبما تنص بعض الروايات وسط بلاد العالم وكلها تمد اليها أيديها ، يعني تطلب منها الطعام (القمح) . وامام الحاجة الملحة في اسعاف الحجاز وقتئذ ، اضطر عمرو بن العاص - على غير رضاه - ان يخرق اتفاق الصلح بمصر والاسكندرية وان يزيد مقدار الضريبة المحددة في الصلح . وفي ذلك تقول الروايه انه قال لبعض زعماء القبط ، عندما طلب منه ان يخبرهم - بما على كل واحد منهم من الجزية حتي يستعد لتدبيرها - (قال له عمرو) : « انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عليكم » وهكذا كانت زيادة الضرائب التى لم يكن يتوقعها أهل الاسكندرية ، الأمر الذى أثار خواطرهم ، الى حد تشجيع الروم منهم على مكاتبة المسئولين فى القسطنطينية وحثهم على العودة الى المدينة المفتوحة - بحريا على الأقل .

وهكذا ، وعلى حين غرة وصل الأسطول البيزنطى فى سنة ٢٤ هـ / أواخر ٦٤٥ م - بينما كان عمرو بن العاص فى المدينة يفاوض الخليفة عثمان من أجل بقائه فى ولاية مصر ، من قيادة عسكرية الى ادارة مالية دون مشاركة عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كانت له جباية الضرائب - الذى بلغت عدته ٣٠٠ سفينة (ثلاثمائة سفينة) الى شواطىء الاسكندرية ، وأنزل رجاله الذين رحب بهم الروم من أهلها وغيرهم من الساخطين الذين تحولوا الى أنصار للامبراطورية وثوار ضد العرب الذين غابوا تماما عن الساحة . فكانت العودة الى الاسكندرية أشبه بنزهة عسكرية بالنسبة للقوات البيزنطية من برية محمولة وبحرية . ولا شك أن عملية الانزال العسكرى السهلة هذه أطمعت مانويل قائد الأسطول البيزنطى فى توسيع نطاق أهداف الحملة من استعادة الاسكندرية « جوهرة التاج الامبراطورى » الى استعادة البلاد المصرية كاملة ، فهى « أهراء القمح » التى لا تستغنى عنها القسطنطينية .

وعندما وصلت أنبــاء نزول الروم بساحل الاسكندرية الى المدينة لم يتردد الخليفة عثمان فى الاستماع الى نصح مستشاريه باعادة عمرو بن العاص الى مصر حتى يفــرغ من قتــال الروم ، « فان له معرفة بالحرب وهيبة فى العدو » . ولكن عندما وصل عمرو بن العاص الى الفسطاط كان مانويل قد سيطر تمــاما على الاسكندرية وخرج منها فى الطريق الى الفسطاط على طول فرع النيل الغربى (فرع رشيد) وهو طريق الدلتا الذى يوازى طريق اسكندرية ـ القاهرة ، الصحراوى حاليــا . ورأى عمرو أنه من الحكمة ألا يرهق رجــاله (من حاميــة الفسطاط) فى المسير نحو الاسكندرية للقاء العدو البيزنطى ، بل أن يتخذ له مواقع حصينة أمام مدينة نقيوس الواقعة على النيل غير بعيد من مدينة منوف ، تاركا للعسكر البيزنطى مشقة الطريق ، ومعاناة قتال خصوم الروم من القبط المصريين الذين لم يرحبوا بزيادة أعبائهم بضيافة الروم ، حيث كانوا ينكرون عليهم تخريب قراهم عند نزولها « فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها ، وينهبون ما مروا به » . وفى نقيوس وقعت معركة برية نهرية عنيفة كانت الحرب فيها سجالا ، قبل أن تنتهى بمقتل مانويل (الخصى) وفرار العسكر البيزنطى فى البر وفى النيل فى المراكب نحو الاسكندرية .

وعندما وصل عمرو الى مشــارف الاسكندرية وجد الروم يعتصمون بأسوار المدينة التى وقفت تتحداه للمرة الثانية خلال أربع سنوات فقط ، الأمر الذى جعله يندم على أنه لم يهدم تلك الأسوار عندما دخلها فى المرة الأولى . ورغم ماتقوله الرواية من أن عمرا اقتحم أسوار الاسكندرية عنوة فى هذا الفتح الثانى ـ على عكس ماكان عليه فتحها فى الصــلح الأول الذى احترم العرب شروطه ، فمن الواضح ان آلة العرب الحربية لم تكن قد تطورت خلال السنوات الأربع السابقة بما فيه الكفاية التى تسمح للفاتحين

باجتياح سلسلة القلاع والأسوار والابراج التى كانت تنصب عليها راجمات الحجارة من المجانيق • وبناء على ذلك ، فمن المقبول أن يكون عمرو قد استخدم بعض الجواسيس في شراء حراس بعض أبواب المدينة (باب سليمان قرب القنطرة) •• وكانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لرجال الحامية الذين أخذت السيوف برقاب كثير منهم ، أثناء المطاردة التى لم ينج منها نحو مراكبهم الا العدد القليل • وعندما فشا القتل فيهم فى وسط المدينة وسأله بعضهم الرحمة ، أمر عمرو بايقاف الملحمة ، وذلك فى الموضع الذى بنى فيه مسجدا أطلق عليه اسم مسجد الرحمة تخليدا لذكرى تلك الموقعة ـ وذلك فى المكان الذى كان يعرف بسيدى عمرو ، فى طرف حديقة الشلالات ، غير بعيد من تلك القطعة القديمة من الباب الشرقى الموجودة فى سور الملعب البلدى (الاستاد) ، غير بعيد من ضريح سيدى الزهرى الآن •

وكان من نتائج المطاردة الهوجاء يوم فتح الاسكندرية الثانى هذا أن اندلعت بعض الحرائق التى راحت ضحيتها كنيسة القديس مرقص • وربما كان ذلك الحريق السبب فى اختلاق قصة حريق مكتبة الاسكندرية القديمة فى ذلك اليوم • أما ما قام به عمرو فهو الأمر بهدم بعض مواضع من تحصينات الاسكندرية وأسوارها ، وذلك فى النواحى الشرقية والجنوبية ـ دون البحرية من غير شك ـ حتى لا تقف حائلا بين العرب ودخول المدينة اذا ما عن لأهلها العصيان مرة أخرى ، الأمر الذى يعنى ان العرب كانوا لا يجيدون حتى ذلك الوقت الا معارك الميادين المفتوحة حيث يكون الكر والفر ـ دون حروب الحصار •

وفيما يتعلق بثغر الاسكندرية أى مدينة الدفاع البحرى ، فان حاميتها كانت وقتئذ برية تماما ، بل وتعسكر بعيدا عن شاطئ

البحر خلف الأسوار الجنوبية . وهنا يمكن القول إن الثغرات التى أحدثها عمرو بن العاص فى الأسوار بعد طرد الروم سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م ، لم يكن الهدف منها معاقبة المدينة وأهلهـا حسبما تقول الرواية انه أراد أن يجعلها كبيت الغانية يأتيه الناس من كل مكان ، بل المنطقى ان تكون تلك الثغرات قد أحدثت بشكل أستراتيجى يسمح بتحرك الحامية العربية المقيمة بعيدا عن البحر فى الجنوب الى داخل المدينة عندما يتهددها خطر الغزو دونما عوائق ، فضلا عن الانسحاب المنظم من منطقة باب السدرة حيث الطريق الى الفسطاط اذا ما تطلبت العمليات العسكرية ذلك . هذا ' كما كان هناك نظام انذار مبكر ــ كما يقال الآن ــ عن طريق برج التحذير المتمثل فى منار الاسكندرية القديم لتنبيه حاميـة المدينة التى كانت تخترقها ترعة الماء الآتية من فرع رشيد (المجمودية) ، والتى كانت تحف بها المزارع على الضفتين وتنتشر فيها القصور الريفية التى كان قد تركها أصحابها من الروم ، فسكنها العرب ، والتى كانت تقدم من قبل أصحابها لضيافة العرب ــ حسبما كانت تقضى بنود الصلح الأول ــ وذلك فى وقت الرباط صيفا .

والحقيقة ان معظــم العمليات العسكرية وقتئذ أو الحروب بشكل عام كانت تتم صيفا ــ وهو الأمر الدارج حتى العصر الحديث ــ ولهذا أطلق على حروب العرب المسلمين اسم « الصوائف » ، اذ كانت الجيوش تخرج بعد راحة الشتاء التى يقضيها العسكر فى بيوتهم ، والخيل ــ عصب الحرب فى تلك العصور القديمة ، كما هو الحال بالنسبة للعربات المدرعة السريعة الحركة فى الحروب الحديثة ــ فى مرابعها (من مراعى الربيع الشتوية) الى ان تحين تباشــير فصل الصيف ، فيكون التجمع من أجل « الصائفة » .

وهكذا كان التوسع الاسلامى الذى قام به العرب فى المشرق والمغـرب عبــارة عن سلسلة من الحروب الصغيرة التى تسمى

صوائف ، والتى كان يمكن ان تتخللها بعض الحملات الشتوية التى تسمى « الشواتى » ، والواحدة منها تسمى « شاتية » ٠

والمفروض أن الحملة الشتوية (الشاتيـة) كانت لا تخرج الا لأسباب استثنائية للأخذ بالثأر أو لزيادة النكاية فى العـدو ، الأمر الذى كان يسمح للقيادة فى بعض الأحيان بالأمر باستمرار القتال وتحويل الصائفة الى شاتية ، وهو ما كان يعتبر بمثابة عقوبة صعبة لرجال الصائفـة ـ أشـبه بعقوبة النفى منـه بالحبس (اصطلاحا) بمعنى الحرمان من العودة الى الديار أو الوطن ٠

وبعد هذا النصر ، ترك عمرو بن العاص قيادة القوات العربية الى مساعده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، مدير الادارة المالية ، الذى ستئول اليه ولاية مصر ، والذى سيكون له جهده فى مكافحة البيزنطيين فى البر والبحر جميعا ٠

الاسكندرية العربية ثغرا ورباطا :

باجهاض مؤامرة استرداد الروم للاسكندرية سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م ، وطرد الأسطول البيزنطى من مينائها قطعت الاسـكندرية صلتها بماضـيها اليوناني الروماني ٠ وبدأت تأخذ طابع المدينـة الشرقية العربية الإسلامية ، حيث بدأت مآذن المساجد تجلل هامات مبانيها ، كما أخذت العمائم تجمـل كالهـالات رءوس المارة فى شوارعها ، وان تميزت المدينة رغم ذلك ، وعلى مر القرون بطابعها الهيللينستى العريق ، بفضـل بقـايا مبانيهـا الجميلة وآثارها العجيبة ما بين المنار القديم فى جزيرة فاروس فى أقصى الشمال (البحرى) وعمود السوارى فى أعلى تلة السيرابيوم ، مشرفا على باب السدرة فى أقصى الجنوب ٠ والحقيقة أن حيا عربيا جديدا كان قد بدأ ينمو على ذلك الطرف الجنوبى من الاسكندرية بعيدا نسبيا

عن البحـــر حيث خطر الأســـطول البيزنطى وغير بعيد من الحى الوطنى ٠

وأهم البقايا القديمة التى تحدد بعض معالم أول حى عربى بالاسكندرية تتمثل فى جامع عمرو العتيق بالاسكندرية ، والذى مازال بحيى ذكراه « الجامع العمرى » ، غير بعيـد مـن ضريـح سيدى أبى الدرداء رفيق عمرو بن العاص فى فتح الاســكندرية ، على ناصية الشارع الذى يحمل اســم ذلك الصحابى الجليـل ٠ وأغلب الظن ان بيت عمرو وســكن الصحابى عبادة بن الصامت رفيقه فى حرب الاسكندرية ، كان قريبــا من تلة عمود السوارى التى تشرف على مدافن الاسكندرية الرئيسية التى تعـرف باسـم العمـــود ٠

والحقيقة ان حى الجامع العمرى وضريح أبى الدرداء كانا قد بدآ يتكونان مع دخول العـــرب الأول الى الاســـكندرية بنــاء على معاهدة الصلح ٠ أما بعد الثورة واقتحام العنوة الثانى وفتح ثغرات فى تحصينات المدينة وفى الأســوار الجنوبية مما يسمح بدخول العرب وخروجهم ، بدأت الاسكندرية تتخذ لقب الثغر الذى يعنى مدينة الدفاع الحدودية ٠ والبحر هنا هو الذى يمثل الحدود مع العدو ، وهو ما أعطى كل المدن الواقعة على سواحل البحر المتوسط سواء فى الشام أو فى مصر والشمال الافريقى أو فى ســـواحل الأندلس اسم الثغر بمعنى الموقع العسكرى الحدودى منذ ذلك الوقت المبكر ، حيث كان الأسطول البيزنطى يمثل خطـرا داهما بشكل دائم ، على سواحل المسلمين التى أصبحت ثغورا أى جبهات قتال دفاعية فى مواجهة العدو البحرى ٠

نظـام الرباط :

والحقيقة ان نظام الحرب المؤقت أو الدورى الذى يتبادل فيه المحاربون أماكنهم ما بين الصيف والشـتاء هو الذى عرف بنظام الرباط ، نسبة الى رباط الخيل فى الثغور (أى طلائع الحراسة على الحدود) الذى تشير اليه الآية الكريمة التى تقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» ؛ وهكذا كانت كلمة الرباط تعنى العسكرة على الحدود سواء كانت برية أو بحرية على وجه الخصوص فى تلك الفترة المبكرة من صدر الاسلام ، حينما كانت السيادة فى البحر المتوسط (بحر الروم) للأسطول البيزنطى ، كما صار اليه الحال ، بعد ان فقد العـرب والمسلمون السيطرة على ذلك البحر ـ الذى كان بحيرة اسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، كما يقول ابن خلدون ـ اعتبارا من القرن السادس الهجرى / ١٢ م ، حيث اعتبرت الاسكندرية خير رباط تحسن الاقامة فيه للجهاد ، وان بدأ الرباط منذ ذلك الحين يأخذ شكل الخلوة أو مكان الاعتكاف للعبادة ، أكثر منه معسكرا للجهاد فى سبيل الله ، وذلك مع زيادة انتشار الحركة الصوفية ، حيث غلب الميل الى الزهد فى الدنيا والتوكل على الله ـ وكأنه حركة هروب من مواجهة الواقع الصعب المتمثل فى نزول الخط البيانى الذى يرمز للقوة الى أسفل فى مقابل صعوده عند المنافسين الى أعلى ٠

هكذا كانت رابطة الاسكندرية ـ التى كان عدد رجالها يبلغ ربع عدد القوات العسكرية المصرية جميعا من الدلتا الى الصعيد ، كما كان يساوى نصف عدد القوات المنتشرة فى الأقاليم الساحلية من شمال شرق الدلتا الى شمالها الغربى ، بمعنى ان القوات التابعة للقيادة الشمالية التى كانت الاسكندرية تشغل منها مركز الوسط أو القلب فى ذلك الوقت كانت تعادل ربع قوات البـلاد المصرية

جميعا • وهذا يعنى أن الاسكندرية ، وان فقدت مركزها كعاصمة سياسية للبلاد ، فانها لم تفقد أهميتها العسكرية حيث بقيت جبهة دفاع حربية فى مواجهة البيزنطيين ، وبشكل معتمد منذ تجربة سنة ٦٤٥ م ، حيث زادت الحامية واستقرت قواعد الرباط بشكل ثابت • فحامية الاسكندرية كانت ترابط فى الثغر فى فصل الصيف وهو الوقت الذى كانت تسمح فيه الأحوال الجوية لمراكب تلك العصور بالتجوال فى البحر بأمان • فكانت الحامية أو الرابطة تقيم فى المدينة ستة أشهر ، اعتبارا من بداية الصيف حيث تحضر احتفال خميس العهد (أو العدس) فى شهر أبريل ، وتغادر معسكراتها الى الريف فى داخل الدلتا مع قدوم شهر أكتوبر ، لكى تحل محلها حامية شتوية صغيرة العدد لمدة ستة أشهر •

ولما كانت الحامية الشتوية لاتشغل الا بعض تلك القصور الريفية ، فقد كان يسمح لغير العرب من الروم أو غيرهم بالسكنى فى الأماكن الشاغرة من تلك القصور نظير ترميمها ، فكأن الترميم بدل الأجرة • هذا ، ولو ان الأمر انتهى بتمليك أولئك الجند ما كانوا ينزلون فيه من البيوت حتى تضمن القيادة صيانتها وعدم تلفها ــ الأمر الذى أثار بعض المشاكل الفقهية أو القانونية عندما أراد البعض بدوره بيع ما آل اليه منها ، حيث أدت الاستشارة الى الفتوى بعدم جواز تأجيرها أو بيعها أو توريثها ، من حيث كونها من الأملاك العامة ، لا يقصد من السكنى فيها الا الرباط أى العسكرة •

وعلى عهد خلافة معاوية فى دمشق زادت العناية برباط الاسكندرية ، منذ ان آلت ولاية مصر الى عقبة بن أبى سفيان أخى معاوية ، فعهد بولاية الاسكندرية الى علقمة بن يزيد الغطيفى ، أحد أبطال موقعة الصوارى • فقد كانت حامية الاسكندرية فى ذلك

الوقت تتألف من ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل من الجيش النظامى (أهل الديوان) • ولما كان علقمة الغطيفى من المتمرسين بحرب الروم ، فانه سعى لدى معاوية حتى زاد رابطة الاسكندرية ١٠(عشرة) آلاف رجل من أهل الشام و ٥ (خمسة) آلاف رجل من أهل الحجاز ، فصار عدد الرابطة وقتئذ ٢٧ (سبعة وعشرين) ألف رجل ، الأمر الذى كان يعنى زيادة تعريب الثغر ، كما يفسر زيادة عمران المدينة وشهرتها بكثرة مساجدها • هذا ، كمـــا قام الغطيفى أيضا بعدة اصلاحات عسكرية فى نظام الحامية ، من ذلك : بناء قصر للامارة بالاسكندرية بداخل الحصن القديم ، واقامة حامية من ٤ (أربعة) آلاف فارس فى منطقة الرملة (الرمل) من شرق المدينة ، يكونون على أهبة الاستعداد لنجدته بمجرد الاشارة اليهم •

أما عن واجب جماعات المرابطين ، فكان مرتبطا بحراســـة البحر التي كانت تتم من أعلى منار الاسكندرية القديم ، ومكانه حاليا قلعة قايتباى التى كانت حاميـــة مدخل الميـنـــاء الشرقى ، كما كانت قلعة سيدى العجمى حاميـــة مدخـل الميناء الغربى • والمنارة التى كانت تقوم بارشاد اسفن منذ القديم ، توصف بأنها برج شاهق الارتفاع ، مكون من ثلاثة طوابق ، أولها مربع الشكل ، والثانى مثمن ، والثالث مدور تعلوه قبـــة • واذا كانت الرواية الشعبية تقول انه كان فى رأس المنار تمثال عجيب يشير الى الشمس أينما كانت ، فأغلب الظن أن الأمر يتعلق بجهاز بيان اتجاه الريح مما يستخدم حاليا فى الموانىء البحرية والمطارات الجوية • ومن المهم الاشارة الى ان الصعود الى أعلى المنار كان يتم فى طريق لولبى يدور حول نواة مركزية ، ويمكن ان تصعده الدواب من حيث انه ليس بدرج ، كما هو المعتاد •

وكان على حراس البحر فى أعلاه اذا رصدوا العدو البحرى أن يوقدوا النار التى يظهر دخانها نهارا أو شعلة لهيبها ليـــلا ، وعندئذ يأخذ رجال الحامية أهبتهم لمدافعة المهاجمين • ومن المهم أيضا الاشارة الى أن هذا النـوع من الاتصـال عن بعد تطور فى العصور التالية الى ما يمكن أن يشبه بالتخاطب باشـارات مورس الضوئية ، وذلك ما بـين الاســكندرية ومنارات المحارس وهى مآذن المحارس أو الأربطة ، المنتشرة على طول الساحل الغربى ، حتى قيل — بشىء من المبالغة من غير شك — ان الرسالة الضوئية كانت تصل من الاسكندرية الى طنجة على مدخل المحيط الاطلنطى فى الليـــلة الواحـــدة •

وهكذا اشتهر ربـاط الاســكندرية منذ بداية انشائه ، فاهتمت به الخلافة حيث كانت ترسل اليه الحاميات من أهل المدينة ومن أهل الشام ، كما اهتم به ولاة مصر فكانوا يسهرون على ان تكون الحامية مقيمة بالاسكندرية على أتم استعداد دائما • هذا ، كما كانوا يرعون أهل الحامية فيصرفون لهم مرتباتهـــم بانتظام ، ويجددون الأفراد ، كما كان متبعا كل ستة أشهر حتى يتجدد نشاط الناس ، وكذلك حماسهم ، مما كان يعمل على رفع معنوياتهم وحبهم لعملهـم •

الاسكندرية قاعدة بحرية :

واذا كانت الاسكندرية قد تطورت من رباط أو ثغر برى الى قاعدة حربية متطورة مما سبقت الاشارة اليه ، فان بداية التطور هذا ترجع الى عهد خلافة عثمان بن عفان الذى يرجع اليه الفضل فى العناية بالبحرية الاسلامية ، كما هو معروف • والدارج عند الكتاب ان معاوية بن أبى سفيان والى دمشق وبلاد الشام هو الذى

بدأ العناية بركوب البحر من أجل غزو بعض جزر البحر القريبة من الساحل الشامي مثل جزيرة أرواد المقابلة للاذقية، أو جزيرة قبرص كبرى جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط • وذلك استنادا الى الخبرات البحرية المتوافرة في سواحل الشام والموروثة من المدن الفينيقية القديمة ، والتي كان ينبغي على معاوية حمايتها مما يتهددها من أخطار الاسطول البيزنطي • هذا ، ولو ان الروايات ذات الطابع الأسطوري الخاصة بدوافع غزو الجزر القريبة من الساحل الشامي مثل : سماع صياح ديكتها أو نبـــاح كلابها ، وربما أيضـا قصة اصطحاب غزاة البحر الأوائل من أهل الشام (وكذلك مصر) مثل : معاوية وأعوانه لنسائهم في تلك الفترة المبكرة ، لا ترقى من غير شك الى مستوى أخبار العمليات البحرية التي قام بها الأسطول البيزنطي في الاسكندرية سواء في جلاء سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م أو في هجوم سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م •

الأمر الذي جعل الخليفة عمر بن الخطاب ــ قبـل عثمان بن عفان ــ يتساءل عن طبيعة البحر وكيفية ركوبه ، بمعنى التساؤل عما اذا كان يمكن للمسلمين اتخاذ ســلاح البحرية الذي كانوا يجهلون استخدامه وقتئذ • واذا كان رد والي مصر عمرو بن العاص على الخليفة عمر يعطي صورة رهيبة عن ركوب البحر حيث يقول : « اني رأيت البحر خلقـا كبيرا يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ، ان ركد حزن القلوب وان زل أزاغ القلوب ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا بـرق » (علي فهمي ٢٧٩) ــ فان ذلك يدخل في مجال التنافس بين رجلي الدولة الكبيرين معاوية والي الشام وعمرو والي مصر في محاولة الفوز بالانجاز الكبير : ريادة صناعة الأسطول •

ومع اعترافنا بالفضل لكل من الرجلين فى مجال انشاء أول بحرية عربية اسلامية فى كل من الشام ومصر ، نرى ان ظروف والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أخى الخليفة عثمان فى الرضاعة ، كانت أفضل بالنسبة للسرعه فى انجاز بناء الأسطول ٠ والأمر فى نظرنا لا يتعلق بالصفات الشخصية لكل من رجلى الحرب والادارة ، ولكن بظروف بناء الأسطول فى كل من بلديهما : الشام ومصر ، وهو الأمر الذى تندر المعلومات عنه ٠

وهنا نقول انه اذا كانت بلاد الشام مهياة لبناء الأسطول بفضل موانيها العريقة وتوافر الأخشاب الجيدة اللازمة لبناء المراكب البحرية ، فان مصر عرفت الملاحة منذ فجر التاريخ بفضل النيل الذى كان يغمر البلاد جميعا بالفيضان ، فلا تتم المواصلات بين القرى ــ فى البلاد التى تصبح وكأنها درة بيضاء ــ الا فى القوارب ٠ وهكذا كانت صناعة السفن النيلية صناعة تقليدية أزلية فى مصر ٠ وكانت الفسطاط العاصمة الجديدة المواجهة لجزيرة الروضة البعيدة عن مكان الأسطول البيزنطى ، والتى كانت تمد من غير شك الأسطول البحرى بالسفن الحربية ، الى جانب انتاج دار صناعة السفن بالاسكندرية ، التى بدأت الانتاج بعد ان اطمأنت الأحوال بالمدينة ، عقب طرد الروم سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م ٠

وهكذا ، وبفضل الولاة العاملين فى كل من دمشق والفسطاط ، وبعد نظر عثمان بن عفان فى كل من مجالات الثقافة والحرب والادارة ، قدر للأسطول العربى ان ينشأ خفية ويتطور فى صمت قبل ان يظهر عملاقا دون سابق انذار ٠ وعلى نفس النسق اهتم الخليفة عثمان بالاسكندرية فكتب الى واليه عبد الله بن سعد يأمره بالعناية بالثغر ، ويطلب منه رعاية الحامية بالانتظام فى دفع رواتبها وتنشيطها بالتجديد المستمر دوريا فى الصيف وفى

الشتاء ، كما جرت العادة حتى يضمن أن تكون دائمـــا على أهبـة الاســتعداد ٠

وبفضل هذه السياسة الرشيدة ، لم تمض على ولاية عبد الله ابن أبى سرح الا أقل من عشر سنوات حتى ظهر الأسطول المصرى ـ فضلا عن الشامى ـ وكأنه العملاق الأسـطورى الذى يخـرج من القمقم ـ وتتم المفاجأة ، ويميل توازن القوى فى البحـر المتوسـط سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م على أواخر عهد عثمان ، الى جانب العرب ـ وتصبح الدولة العربية ندا بحريا قويا للامبراطورية البيزنطية فى المتوسط ـ لاتدافع عن الحمى فقط بل وتهزم المعتدى أيضا ٠

موقعة الصوارى البحرية ٣٤ هـ / ٦٥٤ م :

والحقيقة انه يمكن اعتبار نقض القسطنطينية لاتفاق الصلح مع العرب ومحاولة استرداد الاسكندرية بفضل الأسطول البيزنطى الذى حاول الوصول فى النيل الى الفسطاط أيضا ، وبالتالى استرداد دار صناعة السفن هناك ، والتى كانت قد بدأت تعمل لحسابهم من غير شك ـ البداية الحقيقية لاهتمام العرب بصناعة السفن فى مصر ٠

فلقد كان للسفن النيلية دور مشهود فى الانتصار فى معركة نقيوس البرية النهرية ، حيث انهزمت القوات البيزنطية من بحرية ومشاة أمام قوات عمرو البرية التى كانت تساندها قوات بحـرية نيلية فى مواجهة السفن البيزنطية الصاعدة فى فرع رشيد نحو الفسطاط والجيزة ٠

وهنا يمكن التأكيـــد على ان تلك المراكب النيلية المقاتلة فى صفوف العـرب ـ فى ذلك الوقت المبكر ـ كانت بقيـــادة مصرية

قبطية ، الأمر الذى تؤيده معركة الصوارى البحرية التى نجتهد فى التعريف بها ٠

والحقيقة انه رغم اعتبار معركة الصوارى من المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر المتوسط ، فان الغموض مازال يحيط بكثير من تفاصيلها ، ليس بالنسبة لمكان الصوارى فقط ، أو بالنسبة لتحديد تاريخ الموقعة الدقيق فقط ، بل بالنسبة للأبطال المنتصرين وهم أهل الشام بقيادة معاوية وأهل مصر (الفسطاط) بقيادة عبد الله بن سعد خليفة عمرو وقريب عثمان ٠

واذا كان عدد من الكتاب قد أخذوا بالحل الوسط فيما يتعلق بالتنازع على القيادة ، وهل هى لمعاوية أم لابن سعد ، فجمعوا الأسطولين الشامى والمصرى تحت القيادة المشتركة لكل من الرجلين ، فان ذلك الحل المغرى بفض الاشتباك بين الأطراف المتنازعة على القيادة هو الذى يوقع الشك فى الأهداف المنشودة فى الموقعة ، الأمر الذى يؤدى الى الاختلاف حول مكانها ٠ أما عن الاختلاف فى التوقيت فهو أمر معتاد بالنسبة للنزاع المستمر فى الحرب السنوية ، حرب الصوائف والشواتى ، حرب الاستنزاف الطويلة المدى التى تتشابك فيها الأحداث وتتكرر بشكل نمطى ٠

وفيما يتعلق بالتوقيت ، فالمهم أن موقعة الصوارى تمت فى أواخر عهد عثمان وبوارد الفتنة الكبرى على الأبواب ٠ وذلك أن الدعوة الاسلامية كانت تتحول الى دولة كبرى نتيجة حتمية للتوسع الاقليمى الكبير ، وتدفق الأموال من البلاد المفتوحة على المدينة عاصمة الخلافة ، وبالتالى كانت بداية التحضر الذى لقى معارضة قوية من جماعة المتمسكين بالتقاليد الأولى سواء فى الحكم والسياسة أو فى أسباب الحياة اليومية ، الأمر الذى أدى الى الفرقة ونشأة

المذاهب الدينية السياسية المختلفة من سنة وشيعة ومعتزله ، الأمر الذى أدى الى معارضة قوية لسياسة عثمان بن عفان ــ حتى الدينية منها ــ كاهتمامه بجمع نسخة صحيحة من المصحف الشريف · ولما كان الخلاف يؤثر على فتوح البلدان ، ولما كانت مصر من أهم مواطن المعارضة ضد خلافة عثمان كان لذلك أثره على الفتوح فى المغرب التى وقع عبؤها على كاهل والى مصر عبد الله بن سعد ·

والحقيقة ان الفضل يرجع الى ابن سعد فى مواصلة النضال مع البيزنطيين عقب فشل حملة مانويل القصي على الاسكندرية سنة ٢٤ هـ / ٦٤٥ م · فبعد أن رتب أمور ولايته على مصر التى استخلصها لنفسه دون عمرو بن العاص ، كان على ابن سعد ان يواجه البيزنطيين فى افريقيا التونسية ٢٧ هـ / ٧٤٧ م ، ويحقق نصرا حاسما على القائد الثائر جريجوريوس فى موقعة سبيطلة Sufetula ، غير بعيد من القيروان ، حيث تم الصلح على خضوع البلاد التونسية لدفع الجزية · وفى طريق العودة كانت المغانم من الكثرة بحيث تطلب الأمر الاتصال بنائب ابن سعد وهو عقبة بن عامر فى مصر ليرسل المراكب الى طرابلس لتقوم بحملها والعودة بها ، ولا بأس أن يكون صدور تلك المراكب من الفسطاط فى النيل الى الاسكندرية ومنها الى طرابلس (الغرب) ·

وتكرر نقض الصلح فى البلاد التونسية بعد حوالى اربعة أعوام أى فى سنة ٣١ هـ / ٥١ م عندما رفض الامبراطور قنسطانز بن هرقل اعفاء أهل البلاد من دفع الجزية بعد ما دفعوه للعرب ، بل قرر على العكس من ذلك زيادتها · وهكذا اتصل بعض الساخطين من قواد افريقيا التونسية بالعرب ، الأمر الذى أثار سخط القسطنطينية فقررت ارسال حملة لمعاقبة الثوار · والواضح أن أخبار حشد الأسطول البيزنطى الذى كان عليه القيام بعملية الردع

هذه كانت تصل أولا بأول الي العرب في مصر والاسكندرية ، فكان عليهم ان يستعدوا بدورهم ، الأمر الذى دعا كلا من الطرفين الى بذل طاقته في الحشد .

وفى ذلك تقول الرواية العربية ــ بشيء من المبالغة على ما نظن ــ ان الروم حشدوا ألف سفينة بينما حشد عبد الله بن سعد مائتى سفينة ، وهو العدد الجيد الذى يعنى أن دار كل من صناعتى الفسطاط والاسكندرية كانت تعمل دون انقطاع ، على كل حال .

والمهم ان العرب كانوا يظنون في البداية أن هدف الأسطول البيزنطى ربما يكون مهاجمة دار صناعة الأسطول بالثغر وما يوجد فيه من سفن ، وبناء على ذلك حشدوا أسطول الاسكندرية وخرجوا يعترضونه . ولكن عندما تيقنوا من أن هدف الروم هو انزال قواتهم المحمولة بحرا في البلاد التونسية ، غيروا من خططهم .

وهكذا أنزل نصف رجال الأسطول (حوالى عشرة آلاف رجل) ، وعهدوا بقيادتهم فى البر الى القائد بسر بن أرطأة ، الذى عرف بخبرته فى حرب الروم بالمغرب ، وهى الحملة التى تؤرخ بسنة ٣٣ هـ / ٦٥٣ م . وهذا الأمر يؤكد ان الموقعة البحرية الكبرى التي تمت بين الأسطولين العربى والبيزنطى فى السنة التالية ، وهى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م ، والتى انتهت لصالح الأسطول العربى معلنة تحول الدولة العربية الى قوة بحرية فى المتوسط ، كانت تتم فى اطار الفتوح العربية فى شمال افريقيا ، وكانت دار صناعة السفن فى الاسكندرية القديمة هى المهد الذى تم فيه وضع الأسطول العربى المصرى الوليد بفضل رعاية عمرو بن العاص ، القائد المتمرس فى الحرب والذى لم تكن لتغيب عنه أهمية الأسطول بالنسبة لفتوح بلاد المغرب ذات السواحل الممتدة غربا الى اسبانيا وشواطىء المحيط الأطلسى على طول آلاف الأميال .

وهنا نرى ان حملة مانويل البيزنطية التى كانت تهدف الى استرداد الاسكندرية ومصر أيضـا كانت بمثابة تحذير لاعـادة الاسكندرية العربية قوة بحرية يعتد بها فى البحر المتوسط ، كما كان عليه الحال منذ نشأتها الأولى ٠

وهذه الحقيقة التاريخية لا تمنع بطبيعة الحال من تزامن نشأة الأسطول العربى الشامى فى موانىء المدن الفينيقية العريقة ، وذلك بفضل سياسة معاوية الذكية ٠ واذا كان الدارج لدى قدامى الكتاب ان معاوية هو صاحب الفضل فى بناء الأسطول العـربى فى بـلاد الشام ، وهو الأمر الذى يستحقه داهية العرب الذى نجح فى نقل مركز حكم امبراطورية الخلافة الناشئة الى الشـام ، وعمل على توسيعها غربا وشرقا كما سار خلفاؤه من آل البيت الأموى على نفس السياسة حتى بلغت حدود دولة الاسلام على أيامهم الى أقصى اتساعها من حدود التركستان الصينية بوسط آسيا الى اقليم البواتو فى قلب فرنسا ، وذلك بفضل القوات البرية ومعاونة القوات البحرية ، فانه من العدل ألا يغمط دور عمرو بن العاص فى احياء دار صناعة الأسطول فى مصر والاسكندرية ، الأمر الذى أكده ابن سعد رفيقه فى فتح مصر ، والذى سـار عليه بقوة ولاة الخلافة قبـل عصر الاسـتقلال ٠

والقرينة على دور عمرو فى ارساء قاعدة أول أسطول عربى فى مصر ، ما تقوله الرواية من أنه (أى عمرو) كان بمثابة المستشار البحرى لعمر بن الخطاب بالنسبة لمشروع بناء القوة البحرية الذى كان معاوية قد تقدم به اليه ٠

واذا كان رد عمرو الى الخليفـة يعبر عن الخوف من ركوب البحر حيث يقول فى خطابه الذى لا ندرى مدى صحته ، وان صار

من عيون الأدب ، مما سبقت الاشارة اليه ، حيث الناس فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق ، فمن الجلى انه كان اجابة مناسبة على تساؤل ولى الأمر المتردد في اقتحام غير محسوب لميدان التجديد العسكرى ، والذى كان يخشى من أن يقطع فيضان النيل الطريق الى الاسكندرية ، ففضل أن يكون فسطاط العرب على الضفة الشرقية للنيل مقر الحكومة الجديدة ، الأمر الذى كان يرجحه أنه الموضع التقليدى للعاصمة المصرية .

والمهـم هنـــا ان خليفة عمرو بن العاص فى حكم مصر وهو عبد الله بن سعد كان يقود حملة الغزو البحرى فى مواجهة الأسطول البيزنطى ، بل ويتحول من موقف الدفاع الى موقف الهجوم .

والنصوص المعتبرة الخاصة بالحملة وأهمها كتاب ابن عبد الحكم المصرى ، أقدم وأكمل رواية عربيـــة معتمدة فى : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لا تتحدث الا عن أســـطول مراكبه صـــناعة مصرية ، وان لم تكن جميعها من انشاء « ترســـانة » الاسكندرية البحرية ، بمعنى امكانية بناء جزء كبير أو صغير منها فى « الترسانة النيلية الكبرى بمصر الفسطاط » . وفيما يتعلق برجال الأسطول ، فهناك ذكر لبحارة العرب المصريين المعارضين لخلافة عثمان بن عفان ، والمؤيدين لنقل الخلافة الى على ، ومنهم محمد بن أبى بكر ــ أول المخالفين على عثمان ــ ومحمد بن أبى حذيفة الذى كان من أوائل من اظهروا عيوبه .

واذا كانت الرواية تنص على أن هؤلاء لم يسـتـــمح لهـم فى الركوب فى سفن القادة مع عبد الله بن سعد حتى اضطروهم الى الصعود فى مراكب القبط ليس معهم غيرهم ، فان هذا يعنى فى واقع الأمر أن يكون الأقباط المصريون نسبة كبيرة من رجال الأسطول ،

ان لم تكن لهم الأغلبية على الأقل فيما يتعلق بتسيير قطع المراكب بالمجاديف أو الأشرعة ، وكذلك فى المناورات التكتيكية الخاصة بتحركات السفن أثناء ادارة المعركة ٠

أما عن خطة القتال أو تكتيك المعركة ، فكانت أشبه بالمعارك البرية ، واغلب الظن ان تلك كانت خطط المعارك البحرية فى ذلك الوقت المبكر الذى لم تكن فيه النار الاغريقية قد استخدمت على نطاق واسع على الأقل ٠ فعندما اقتربت المراكب من بعضها البعض ، بدأ القتال تراشقا بالنبل والنشاب والحجارة المحمولة فى المخالى ٠ وعندما تم الالتحام ألقيت المخاطيف بالسلاسل المتينة ، وكان العرب أسرع من خصومهم فى النزول الى مراكبهم ، الأمر الذى يعنى أنهم كانوا قد تمرسوا بالحرب البحرية فى فترة قصيرة ٠

وهكذا كان على السيوف أن تقرر مصير المعركة فى مواجهة حاسمة ، بينما كان كل من الامبراطور الرومى وأمير مصر يوجه الرجال فى مركب قيادته ٠ وأظهر العرب والقبط المصريون شجاعة مبهرة وحماسا لا مزيد عليه فى القتال ، وفى ذلك قيل ان الفضل يرجع الى القائد البحـــرى علقمة بن يزيد الغطيفى فى انقـــاذ القائد الأعلى عبد الله بن سعد أثناء المعركة ، وذلك عندما كادت احدى مراكب الروم الكبيرة ان تجتر مركبه ٠ وانتهى الموقف بهزيمة الأسطول البيزنطى ، الذى انسحب فى نوء عاصف لم يكن مواتيا لخط سيره فغرقت معظم المراكب ٠ وبذلك تمت الهزيمة على الروم ٠ وكان من حسن حظ الامبراطور قنسطانز ان افلت من الأسر لاجئا الى جزيرة صقلية ، الأمر الذى يؤكد أن المعركة كانت قريبـــة من ســواحل المغرب ، موضوع النزاع وقتئذ بين العرب والروم ٠

هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ فتوح العرب للمغرب ، وفى تاريخ البحر المتوسط فى مطلع تاريخ الخلافة الاسلامية ، يطلق

عليها البعض إسم « ذات الصوارى » نسبة الى كثرة صوارى السفن التى التقت فى المعركة • ولكن مؤرخنا المعتمد ابن عبد الحكم المصرى يعطيها الاسم الذى نراه صحيحا حقا وهو « ذو الصوارى » بمعنى نسبة المعركة الى المكان ذى الصوارى ، وليس الى المعركة ذات الصوارى أو السفن • وهكذا اتجهت الأنظار الى الاسكندرية بصفتها ذات الصوارى ، الأمر الذى يشهد عليه عمود دقلديانوس ، الذى مازالت الاسكندرية تفخر به فى حيها الشعبى المعروف بكوم الشقافة •

ولكنه لما لم تكن الاسكندرية هى هدف الأسطول البيزنطى بل الأقاليم التى فتحها العرب من غرب مصر فى برقة وطرابلس ، كانت أفضل الأماكن المناسبة للوصف بذات الصوارى ، هى ضاحية مدينة طرابلس الغرب المعروفة باسم لبدة Leptis Magna حيث المسرح المدرج الفخم ببقايا عمده التى ترفع بعض السقائف ، وذلك ما تؤيده بعض الأبحاث الجديدة ، التى تبحث عن مكان المعركة فى ذلك الموضع المعروف بفوينيكوس Phoenicus الذى حدده البعض قرب بلدة زوارة الطرابلسية القريبة من الحدود التونسية •

هذا ولا بأس من الاشارة الى الرواية البيزنطية التى ترجع الى المؤرخ تيوفانس الذى حدد موضع المعركة التى حملت نفس اسم فوينكس بساحل جنوب آسيا الصغرى ، على اعتبار ان بعض الروايات تنسب قيادة الأسطول الى معاوية مشاركة مع عبد الله بن سعد ، وان كانت تقول ان الاسطول البيزنطى كان يقصد سواحل المغرب لاجهاض عملية الغزو العربى لتلك الأقاليم • وساعد على هذا التصور تلك الرواية التى تنسب الى معاوية غزو جزيرة قبرص فى سنة ٣٣ هـ / ٦٥٣ م ، فكان انقاذ قبرص كان هدف الأسطول البيزنطى فى مسيرته للدفاع أو للثأر لغزو العرب لقبرص • وبناء على ذلك رأى المحدثون الذين أخذوا برواية تيوفانس بأن موضع

فوينكس كان مكسوا بأشجار الصنوبر التى بدت كالصـــوارى أو الأعمدة من بعيد • ونحن اذ نقر بصحة رواية ابن عبد الحكم المصرية التى تربط بين غزوة الصوارى البحرية بفتوح المغرب ، الأمر الذى يشكك فى صحة الرواية الشامية التى تنسب الى معاوية المشاركة فى تلك الغزوة التى لا يعرف عنها تيوفانس كثيرا • ومع ذلك فهذا لا يمنع من أن يـكون معاوية مؤسس البحرية العربية الشامية ، كما لا يمنع من ان يكون للأسطول الشامى فى نفس وقت غزوة الصوارى بالاسـكندرية ، نشـــاطه فى غزو جزر الحوض الشرقى للمتوسط ، والتصدى أيضا لهجمات محتملة لسفن حربية أخـــرى ، فى ذلك الوقت الذى كانت تهتز فيه خـــلافة عثمان بالمدينــــة •

صناعة الاسكندرية بناءة أساطيل المغرب :

والمهم ان الانتصـــار على الأسطول البيزنطى فى الصـــوارى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م ، أعطى دفعة قوية للاسكندرية التى أصبحت على أواخر أيام معاوية فى دمشق ، عاصمة ثانية لمصر منذ ان بنى فيها الغطيفى قصر الامارة • هذا ، كمـــا ازدادت أهمية الاسكندرية كمقر للأسطول الذى آلت قيادته الى والى « مصر الفسطاط » الذى أصبح « أميرا للبحر » (أدميرال) ، الأمر الذى سمح لبعض مساعديا مثل صاحب الشرطة بأن يلى منصب القيادة البحرية العليا ، كما حدث على عهد الوالى مسلمة بن مخلد • والمهم ان تقلد كبار رجال الحكم والادارة للقيادات البحرية يعنى تقدم دار صناعة السفن فى الاسكندرية ، التى ستصبح بعد عقود قليلة من انتصار الصوارى أم صناعة الأساطيل البحـــرية ، ليس فى مدينـــة تونس الوليدة سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م التى حلت محل قرطاجنة (قرطاج) العريقة بل وكل سـواحل افريقية التونســـية ، وحتى المغـــرب الأوسط والجزائر •

والحقيقة ان فتح العاصمة الافريقية قرطاجنة مر بنفس الدور الذى عرفته الاسكندرية ، فلقد تم للقائد الشامي حسان بن النعمان بجيشـــه الكبير الذى بلغ عدده اربعين ألف مقاتل تم أعدادهم في مصر ، أن يفتحها صلحاً سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م ، ولكن الاســـطول البيزنطى نجح فى استعادتها اثر هزيمة الجيش العربى أمام بربر المغاربة وانسحابه الى طرابلس • وعندما عاد العرب سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م ليدخلوا قرطاجنة مرة ثانية ، رأوا ان يهدموها حتى لا يطمع الأسطول الرومى فى استعادتها ثانية • وأقام حسان بن النعمان مدينة تونس لتحل محل قرطاجنة ، كنافذة تطل منها على عالم البحر المتوسط (الرومى) ، ولكن بشىء من الحذر ، بعيدا عن الشاطىء ، حيث يكون الوصول الى الميناء عبر قناة طولها ١٢ ميلا يمكن اغلاقها بالسلاسل درءا لخطر العدو البحرى •

وفى بناء تونس تقرر ان تكون قاعدة للأسطول تتم منهـــا الغارات على ســـواحل العدو الرومى فينشغل عن بـلاد افريقيـة وعاصمتها القيروان • والمهم ان قبط مصر عمروا دار صناعة المراكب بها ، ومنها انتشروا الى بقية سواحل المغرب يقيمون صناعة المراكب المصرية العريقـــة •

وهكذا بقيت تونس معمورة من ذلك الوقت ، فكان المسلمون يغزون منها بلاد الروم ، ويكثرون فيهـــم النكاية • وعلى عهـد موسى بن نصير اهتم بعمران تونس ، وتوسيع ترسانتها • ومن تونس كان خروج المراكب الحربية لتقوم بغزو جزر المتوســـط اعتبارا من صقلية القريبة وحتى سردينيا وكورســـيكا وسواحل البروفانس الفرنسية ، الأمر الذى كان يمهد حقيقة لتحقيق أعظم الغزوات الاسلامية فيما وراء البحار ، غزو شبه جزيرة ايبريا •

المصادر والمراجع

١ ـ ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر والمغرب والأندلس .

٢ ـ الكندى ـ الولاة والقضاة .

٣ ـ البلاذرى ـ فتوح البلدان .

٤ ـ ابن دقماق ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

٥ ـ عبد اللطيف البغدادى ـ الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر .

٦ ـ على مبارك ـ الخطط التوفيقية .

٧ ـ بتلر ـ فتح العرب لمصر (ترجمة محمد فريد أبو حديد) ، حنا النقيوسى .

٨ ـ سيدة الكاشف ـ مصر فى عهد الولاة .

٩ ـ جمال الدين الشيال ـ تاريخ الاسكندرية .

١٠ ـ عبد العزيز سالم ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الاسلامى .

١١ ـ على محمد فهمى ـ البحرية الاسلامية فى شرق المتوسط (كتاب تاريخ البحرية المصرية ـ نشر جامعة الاسكندرية ١٩٧٣) .

١٢ ـ تاريخ الاسكندرية من الفتح العربى الى قيام الفاطميين فى مصر (كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ـ ط . محافظة الاسكندرية ١٩٦٣) .

حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين في مدينة الاسكندرية (٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م)

د. محمود سعيد عمران

ترجع أسباب هذه الأحداث الى محاولة الصليبيين السيطرة على مصر ، فبعد ما تمكنت القوى الصليبية من السيطرة على الساحل الشامي في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي / أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري ، أحسوا بما لمصر من قوة تهدد بقاءهم في الأراضي التي استولوا عليها . ولعل ما قامت به مصر من الدفاع عن بيت المقدس، ومساندة مدينة طرابلس ، واحتفاظها بمدينة عسقلان حتى عام ١١٥٣ م/٥٤٨ هـ (٤٧٨) ، خير دليل على أن مقاومة مصر للحركة الصليبية لم تتوقف .

ومن هنا كانت أطماع الصليبيين في مصر وبدأوا يعملون على رصد حركاتها حتى واتتهم الفرصة بضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، الأمر الذي دفع الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤ ـ ١١٦٢ م) لاعلان تهديده بغزو مصر في عام ١١٦٠ م / ٥٥٥ هـ . ولضعف الخلافة في مصر كان المال

هو البـديل لرد هذا التهديد فعرضت مصر دفـع جزية سنوية للصليبيين ، ومات بلدوين دون أن يغزو أو يتسلم الجزية (٤٧٩)٠

وتولى بعـد بلدوين أخـوه عمورى الأول Amalric I (١١٦٢ ـ ١١٧٣ م) ، وفى هذه الفترة ظهر الصراع على السلطة فى مصر بين الوزير شاور والوزير ضرغام ، وفى الوقت نفسه كان فى الموصل قوة اسلامية تمثلت فى عماد الدين زنكى (ت ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م) ، الذى تمكن من بسط نفوذه على حلب وحماه وغيرهما من البلاد المجاورة ، وبات يهدد الأملاك الصليبية خاصـة فى أعالى الشام ، وسار على نهجه ابنه نور الدين من بعده ، الذى استولى على دمشق عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م ، واتخذها مقرا لحكمه ليواصل الجهاد ضـد الصليبيين ٠

ولما اشتد الصراع بين شاور وضرغام على السلطة فى مصر ، بدأ صراع آخر بين نور الدين والملك عمورى على امتـلاك مصر ، وتجـلى هذا الصراع فى حملة صـليبية على مصر عام ١١٦٣ م / ٥٥٨ هـ ، وحملة أخرى فى العام التالى ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ ٠ وقد قام نور الدين بدور كبير فى هذه الأحداث وأرسل قواته بقيادة أسد الدين شيركوه لمقاومة التدخل الصليبى ، كما قام نور الدين أيضـا بالاغارة على الممتلكات الصليبية فى الشـام ، لذلك كله فشـل عمورى فى احراز نصر داخل البـلاد المصرية واضـطر الى الانسحاب الى بلاده (٤٨٠) ٠

تجددت الأحـداث مرة أخرى فى عام ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ ، عندما بدأت قوات نـور الدين فى التحـرك الى مصر حتى لا تقع فريسة فى يد الصليبيين ، الأمر الذى دفع شاور الى الاستنجاد بالصليبيين لمساندته فى الاحتفاظ بمركزه فى مصر (٤٨١) ٠ واذا

كان الباحث قد عبر بسرعة كل هذه الأحداث لأن البحث ينصب على حصار الصليبيين والجيش الفاطمى لصلاح الدين فى مدينه الاسكندرية ، فان هذا الحصار يقع ضمن أحداث حملة ١١٦٧ م. ويمكن تقسيم أحداث هذه الحملة الى حدثين رئيسيين ، هما معركة البابين وحصار الاسكندرية • وسوف يكتفي الباحث فى هذا الموضع بالبحث فى تاريخ معركة البابين باعتباره تاريخا يستفاد منه فى بداية حصار مدينة الاسكندرية نظرا لتضارب الآراء حوله فى المصادر والمراجع على السواء ، ثم أحداث الحصار ، وأخيرا الصلح بين شاور وعمورى من ناحية ، وشيركوه وصلاح الدين من ناحية أخرى •

وترجع معركة البابين الى أن الجيش الصليبى بقيادة الملك عمورى تحرك من مدينة عسقلان حسب رواية المؤرخ الصليبى وليم الصورى فى الثلاثين من ينــاير ١١٦٧ م (٤٨٢) / السادس من ربيع الآخر عام ٥٦٢ هـ • أما فى المصادر العربية ، فقد ذكر ابن شداد أن توجه القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه كان فى أثناء ربيع الأول ، وفى نسخة أخرى فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ ، وكان وصولها الى البلاد المصرية مقارنا لوصول الافرنج اليها (٤٨٣) • كما ذكر ابن الأثير فى كتابه التاريخ الباهر أن أسد الدين عاد الى مصر فى ربيــع الآخر سنة ٥٦٢ هـ وانه وصل الى الديار المصرية ونزل بالجيزة وأقام بها نيفا وخمسين يوما ، ثم أدركه الفرنجة عند البابين فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى فى السنة ذاتهــا (٤٨٤) • كما ذكر ابن الأثير مرة أخرى فى كتابه الكامل أن أسد الدين تجهز وسار فى ربيع الآخر عام ٥٦٢ هـ ، وانه نزل بالجيزة وأقام نيفا وخمسين يوما ، ثم اتجه الى الصــعيد وحدثت معركة البــابين فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة (٤٨٥) •

أما أبو شامة فقد ذكر أن أسد الدين عاد الى مصر تاسع ربيع الآخر، وانه جد فى السير على البر وترك بلاد الفرنجة على يمينه، ووصل الديار المصرية ونزل بالجيزة وأقام بها نيفا وخمسين يوما، ثم سار الى الصعيد، وأضاف أن الفرنج أدركوا أسد الدين وجيشه فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى، ثم عاد أبو شامة مرة أخرى وذكر أن أسد الدين توجه فى ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ قاصدا الديار المصرية (٤٨٦) . كما روى ابن واصل أن نور الدين سير شيركوه الى مصر فى ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ، وانه سار بالعساكر فى الصعيد الى أن بلغ الى مكان يعرف بالبابين يقع فى جنوب مدينة المنيا، فسار الفرنج والمصريون خلفه، فأدركوه فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة (٤٨٧) .

هذا ما ورد فى المصادر العربية، أما المؤرخ الصليبى وليم الصورى فلم يذكر تاريخا لمعركة البابين، ولكنه روى أن الصليبيين لاحقوا أسد الدين وقواته فى صعيد مصر لمدة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع حيث كان يوم السبت الذى يسبق يوم الأحد الذى تنشد فيه أنشودة هللى يا أورشليم (Leatare Hierusalem) Regoice Jerusalem كان الصليبيون على مقربة من قوات أسد الدين . وعلى ذلك عقد الصليبيون مجلسا سريعا وقرروا على أثره الدخول فى المعركة . وقد ذكر المترجم لكتاب وليم الصورى أن أنشودة هللى يا أورشليم تغنى فى الأحد الرابع للصوم الكبير وحدد تاريخها فى الثامن عشر من مارس لسنة ١١٦٧ م (٤٨٨)، وهو التاريخ الذى رجعت اليه معظم المراجع الحديثة (٤٨٩) . ولما كانت معركة البابين وقعت بعد الثامن عشر من مارس فيمكن اتخاذ الخامس والعشرين من جمادى الأولى تاريخا لهذه المعركة وهذا ما أورده كل من ابن الأثير وأبى شامة ضمن ما ذكرا، وهذا التاريخ يعادل التاسع عشر من مارس ١١٦٧ م .

وبعد ما خلصنا الى هذه النتائج نوجز ونقول ، ان القوات النورية انتصرت على القوات الصليبيه فى معركة البابين وقتلت وأسرت الكثير ، وكان من بين الاسرى بعض القاده الفرنج من بينهم صاحب قيسارية (٤٩٠) ، وكان يدعى هيو Hygh ، واضاف اليه وليم الصورى أرنولف Arnulf صاحب تل باشر (٤٩١) ، سابقا .

وبعد هذه الأحداث جمع أسد الدين شيركوه قواته وسار سرا عن طريق الفيوم عبر الصحراء دون أن يشعر به الصليبيون حتى وصل الى مدينة الاسكندرية ، وخلال سيره قام بجمع الأموال من أهالى البلاد ليستعين بها على نفقات الحملة (٤٩٢) .

والجدير بالذكر أن تحرك شيركوه الى الاسكندرية لم يكن عشوائيا ، بل كان بترتيب سابق ، فقد كتب شيركوه - قبل معركة البابين وقبل أن تعرف نتائجها - الى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على الفرنج وشاور ، فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال (٤٩٣) ، الذى كان قد لجأ الى الاسكندرية مستخفيا وظهر فى هذه الفتنة ، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل ان أهل الاسكندرية كتبوا الى شيركوه أنهم يمدونه بالسلاح والحديد وجهزوا اليه خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه طاهر ابن عوف ، وقد حمل هذه الرسالة الى شيركوه الشريف الادريسى (نزيل حلب) ، الذى كان بالاسكندرية فى هذه المرحلة (٤٩٤) .

وليس من العجيب بعد ذلك أن تتفق المصادر العربية والصليبية على أن أهل الاسكندرية سلموا المدينة الى أسد الدين طائعين وبدون قتال (٤٩٥) . ويوجه بعض المؤرخين اللوم الى أسد الدين لعدم توجهه الى القاهرة خلف قوات الملك عمورى

وشاور ، فقد ذكر أبو المحاسن أن الفرنج طلبوا القاهرة ولو « أن أسد الدين خلفهم في الحال ملك القاهرة وانما عدل الى الاسكندرية » (٤٩٦) .

والمهم هنا أن أسد الدين ومعه صلاح الدين والقوات النورية وصلوا الى الاسكندرية ومعهم أسرى الفرنج عقب معركة البابين مباشرة ، وعندما وصلوا نزل أسد الدين فى القصر (٤٩٧) ، ولعله قصر مكين الدولة أبى طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد الذى عمل قاضيا بالاسكندرية ، فقد كان قصره أشهر قصور الاسكندرية فى العصر الفاطمى (٤٩٨) .

وقد اتخذ أسد الدين من هذا القصر مقرا واودع فيه أسرى الصليبيين ، ومما يذكر فى هذه الأحداث أنه كان بالاسكندريه نجم الدين بن مصال الذى أشرنا اليه من قبل ، كما كان بالمدينه أيضا القاضى الرشيد بن الزبير الذى تولى أمر ديوان المدينة ، فأمد أسد الدين بالأموال (٤٩٩) ، وقواه بالسلاح ، هذا بالاضافة الى الفقيه طاهر بن عوف . كما ساند أهل الاسكندرية جميعا أسد الدين شيركوه ، ولعل ذلك يرجع الى سببين ، أولهما أن أسد الدين كان قد كتب يستنجدهم على شاور لادخاله الفرنج فى دار السلام وتضييعه أموال المسلمين (٥٠٠) ، وثانيهما أن أهل الاسكندرية كانوا يميلون الى المذهب السنى الذى يعتنقه شيركوه وصلاح الدين ويكرهون شاور الذى كان يدين بالمذهب الشيعى ، وهو ما عبر عنه ابن واصل بقوله : « لميلهم الى مذهب السنة وكراهتهم لرأى المصريين » (٥٠١) .

ولما علم الملك عمورى بانسحاب شيركوه وقواته الى الاسكندرية استدعى على الفور كبار مستشاريه وانضم اليه شاور

ـ الذى اشار اليه وليم الصورى باسم السلطان ـ ونبلاء مصر ، وتشاور عمورى مع هؤلاء فيما يجب عمله ، وبعد مناقشة طويلة كما هى العادة فى مثل هذه الأمور تقرر وضع بعض السفن فى نهر النيل عند القاهرة ، كما يفهم من النص ، تكون عائقا فى النهر بهدف وضع الاسكندرية تحت انحصار الاقتصادى، لأن الصليبيين كانوا يرون أن المدينة ليس حولها ما يكفيها من الغذاء ، وانما تعتمد كلية على ما يأتى اليها بالسفن من الصعيد (٥٠٢) .

وكانت الخطوة التالية هى قيام عمورى بجمع كل ما معه من جند وتقدم عاقدا العزم على الوصول الى الاسكندرية ، ولكنه عندما وصل الى المنطقة الواقعة بين دمنهور وتروجه ، أقام معسكره فى هذه المنطقة . ويضيف وليم الصورى أن الملك عمورى أرسل من موقعه هذا بعض الكشافين للتعرف على حقيقة الأوضاع فى الاسكندرية وحولها ، كما أن الملك عمورى عمل على منع وصول أى مساعدات لمدينة الاسكندرية ، وانه اعترض سبيل كل الرسل الذين خرجوا من المدينة لطلب المساعدة من الخارج ، وحتى يطمئن عمورى الى مزيد من الاحتياط فقد أمر أسطوله بمنع أى مرور فى النهر حتى أصبح واضحا لدى الجميع أن المرور يعنى الكثير من المعاناة (٥٠٣) .

ويتضح من ذلك أن عمورى ومن معه من القوات أقاموا معسكرهم فى منطقة تبعد عن الاسكندرية بأكثر من ستين كيلو مترا ، وهذا يعنى عدة أمور ، اما أن الملك عمورى خاف من التقدم الى أبعد من ذلك حتى يأتى الكشافون بحقيقة الأوضاع فى الاسكندرية ، أو أن قلة المياه فى خليج الاسكندرية منعت ما معه من سفن أن تتقدم الى أبعد من ذلك (٥٠٤) . لأن تحرك عمورى جاء بعد معركة البابين أى بعد الثانى من أبريل ، وفى هذا

الشهر تكون كمية المياه قليلة عن المياه فى اشهر الفيضان ، دما انه بعد هذا الشهر وحتى اشهر الفيضان تبدأ المياه فى النقصان ، ولعله خشى أن يتقدم أبعد من ذلك لأنه مع مرور الوقت تقل المياه فى الخليج ويتعذر على السفن التى معه العودة الى القاهرة ، أو أن عمورى اعتقد أنه وصل الى مشارف الاسكندرية فتوقف فى هذه المنطقه لأن وليم الصورى قدر المسافة بين معسكر عمورى ـ الذى أقامه بين دمنهور وتروجه ـ وبين الاسكندرية بحوالى ثمانية كيلو مترات (٥٠٥) .

مر حوالى شهر منذ وصول عمورى الى موقعه هذا ، ويضيف وليم الصورى أن الاسكندرية لم تتلق اية معونة من الخارج وان التذمر بدأ يسود المدينة ، وأن المدينة لم يعد لديها ما يكفيها من المؤن (٥٠٦) . ولكن واقع الحال كان غير ذلك ففى خلال هذه المدة كان أسد الدين قد اطمأن الى مساندة أهل الاسكندرية ، وكان عليه أن يتصرف بدلا من بقائه وقواته محصورين داخل المدينة ، وهذا ما عبر عنه أبو شامة عندما ذكر أن أسد الدين « خاف أن يقصده شاور وعمورى فيحاصرانه فى المدينة فيصاب وقواته بالمدينة بأذى كبير » (٥٠٧) .

طلب أسد الدين شيركوه من صلاح الدين البقاء فى الاسكندرية وترك معه جماعة من العسكر قدرها المؤرخ وليم الصورى بحوالى ألف فارس (٥٠٨) ، كما ترك أيضا بالاسكندرية من به مرض أو جراح أو ضعف ، وزيادة فى الاحتياط استحلف شيركوه لصلاح الدين وجوه أهل الاسكندرية وأوصاهم به ورحل فى « أقوياء عسكره » (٥٠٩) .

كان انسحاب شيركوه من الاسكندرية ليلا عبر الصحراء ، ورغم أنه مر بالقرب من القوات الصليبية الموجودة بين تروجه

ودمنهور ، الا أن الصليبيين لم ينتبهوا اليه واتجه الى صعيد مصر ، والواضح أن شيركوه لم يبق في مدينة الاسكندرية طويلا بدليل ما ذكره وليم الصورى ، أن أسد الدين شيركوه عاد الى الصعيد وهي المنطقة التى أتى منها منذ وقت قريب • وحول هذا الانسحاب يروى وليم الصورى أن أسد الدين نجح فى الهرب الى صعيد مصر (٥١٠) • وواقع الحال ، ان انسحاب شيركوه لم يكن هروبا بل كان انسحابا على أساس خطة عسكرية اتبعها شيركوه ، لأن وجود القوات النورية كلها فى الاسكندرية يسهل مهمة الصليبيين فى حصارها ، بينما انقسام الجيش الى قسمين وتولى شيركوه أمر قيادة أقوياء عسكره يعنى أن شيركوه عاد بالجيش الرئيسى ليقوم ببعض العمليات العسكرية بدلا من الانتظار فى الاسكندرية حتى يحاصره الصليبيون، ومن هنا كان انسحاب شيركوه شاغلا للقوات الصليبية والقوات الفاطمية فى جبهتين تفصلهما مئات الكيلو مترات • وهناك نقطة نود الاشارة اليها وهى أن انسحاب شيركوه من مدينة الاسكندرية دون تعرض الصليبيين له يعنى أن المدينة لم تكن تحت مراقبة القوات الصليبية وأن عمورى اكتفى بالبقاء في موقعه قرب دمنهور انتظارا لما تنجم عنه الأحداث •

وعلى أية حال ، فعندما انسحب شيركوه من الاسكندرية اصطحب معه كبار أسرى الصليبيين (٥١١) ، وعندما علم عمورى بذلك أصدر أوامره الى جيشه بالعودة الى القاهرة لملاحقة شيركوه ، وفى القاهرة أعاد عمورى تنظيم قواته ، وانضم اليه جيش شاور ، « وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا » ، ولكن القوات المتحالفة لم تتجه الى الصعيد بل عادت الى الاسكندرية (٥١٢) • ومرجع ذلك الى أنه أثناء وجود عمورى فى القاهرة تقدم اليه شخص أسماه وليم الصورى « ابن اركارسل » Ben Ercarselle

ووصفه بأنه أحد أمراء مصر الأقوياء ، وأخبر عمورى أن الاسكندرية تعانى من المجاعة ، وذكر أن له أقرباء بالمدينة لهم نفوذ قوى ، وأن بامكان هؤلاء أن يثيروا شعب الاسكندرية الى الحد الذى تسقط فيه المدينة فى يد الملك عمورى ويستسلم صلاح الدين ومن معه (٥١٣) • ولعل ابن اركارسل هذا اسم محرف لأبى القاسم وهو القاضى الأشرف أبو القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا الذى عينه شاور ناظرا على الأموال فى مدينة الاسكندرية بعد انتهاء هذه الأحداث (٥١٤) •

تشجع عمورى بما سمعه من ابن اركاسل فاستدعى مستشاريه ليقرروا ما يرون عمله ، اما بالسير خلف أسد الدين الى الصعيد أو العودة الى مدينة الاسكندرية ، وقد اتفقت رغبات المستشارين مع رغبة عمورى وقرر الجميع العودة الى مدينة الاسكندرية (٥١٥) • ولعل مرجع ذلك الى أنه من الأفضل عسكريا محاصرة المدينة وهى منطقة محدودة بدلا من السعى وراء شيركوه فى منطقة مفتوحة فى الصعيد ، كما أن شبح هزيمة الصليبيين فى البابين كان لازال يخيم عليهم •

سار الجيش الصليبى بقيادة عمورى وقد بلغت قواته حوالى خمسمائة من الفرسان وأربعة أو خمسة آلاف من المشاة ، وظلت بعض القوات لحماية القاهرة (٥١٦) ، كما سار شاور على رأس قواته واتجه الجميع الى مدينة الاسكندرية وألقوا الحصار عليها ، واذا بحثنا فى تاريخ وصول قوات عمورى وشاور الى الاسكندرية، يمكن القول انه كان فى منتصف شهر رجب ٥٦٢ هـ / السادس من مايو ١١٦٧ م تقريبا ، لأن المصادر لم تشر الى هذا التاريخ ولكن المصادر العربية تتفق فى أن الحصار فى هذه المرحلة ظل ثلاثة أشهر (٥١٧) ، ولما كان تسلم الاسكندرية بعد هذا الحصار

كان فى منتصف شوال ٥٦٢هـ/ الرابع من أغسطس ١١٦٧م(٥١٨).
فيكون ما أوردناه أقرب الى الصواب ، وربما يؤيد أن بداية الحصار كانت فى شهر رجب ما هو معروف عن نور الدين من الاغارة على ممتلكات الصليبيين بالشام لتخفيف الضغط على قواته فى مصر ، فقد قام نور الدين بالاغارة فى شهر رجب على قلعة المنيطرة القريبة من طرابلس ، وقلعة آكاف بالبرية (٥١٩) .

واذا كانت أخبار الحصار قد وصلت الى مسامع نور الدين فضرب بعض أماكن الصليبيين ، فان الأخبار نفسها قد وصلت أيضا الى مسامع الصليبيين فى الشام ، لذلك أخذهم الحماس وحملوا السفن بالمؤن الضرورية وأبحروا الى الاسكندرية ، وكان من بين من حضر معهم فريدريك أف فرى Frederick of Ferry (٥٢٠) رئيس أساقفة مدينة صور (١١٦٤ ـ ١١٧٩ م) (٥٢١) ، وعلى هذه الصورة تم حصار المدينة من البر والبحر (٥٢٢) .

شرع الصليبيون والقوات الفاطمية فى اعداد المنجانيقات لضرب المدينة ، وقد حصلوا على الأخشاب من الأشجار التى كانت موجودة خارج مدينة الاسكندرية ، فقد ذكر وليم الصورى أنه كان يوجد حول المدينة حدائق أشبه ما تكون بغابة مماوءة بالأشجار المثمرة والنباتات الطيبة ، وكان منظرها جميلا يدعو المارة الى دخولها والاستراحة بها ، ولكن الصليبيين دخلوا هذه الحدائق للحصول على الأخشاب لاعداد آلات الحصار ، ولم يكتفوا بالحصول على الأخشاب ولكنهم أنزلوا بها التلف حتى أصبحت المنطقة أثرا بعد عين (٥٢٣) .

والمهم هنا أن القوات المحاصرة للاسكندرية استولت على الأخشاب اللازمة للمعدات ، ثم قام المسئولون والفنيون باعداد برج

مرتفع حتى يمكن مشاهدة ما بداخل المدينة من أعلاه ، كما نصبت المنجانيقات التى ألقت الحجارة الضخمة بأعداد كبيرة على الأماكن الاستراتيجية داخل المدينة فأصيبت بعض الأسـوار ، وقد سبب ذلك ضررا كبيرا داخل المدينة (٥٢٤) ، ورغم هذا كله فضلا عن قلة الطعام ، فقد صمدت المدينة بفضل أهل الاسكندرية الذين ساندوا صلاح الدين ووقفوا معه ضد الوزير شاور والملك عمورى (٥٢٥)٠

زاد الصليبيون والجيش الفاطمى فى شدة حصار المدينة من أجل اسقاطها أو اجبارها على التسليم ، وقد أفاض وليم الصورى فى وصف حالة المدنية فى هذه المرحلة ، وروى أن القوات المحاصرة للمدينة استخدمت كل الطرق لالحاق الأذى بالمدينة ، وأن الغارات تواصلت يوميا لعدم اعطاء الفرصة للمدافعين عن المدينة للراحة ، وأن أهل المدينة وهم أهل تجارة وليسوا أهل حرب قد ضجوا من شدة الحصار (٥٢٦) ٠واذا جاز لنا أن نصدق هذه الحالة فمعنى ذلك أن من دافع عن المدينة صلاح الدين ومن معه من القوات التى كانت حوالى ألف فارس ، وقد أشار اليها وليم الصورى فى هذا الموضع بأنها كانت قليلة العدد (٥٢٧) ٠ وليس من المعقول أن يتولى الدفاع عن المدينة مثل هذا العدد لمدة ثلاثة أشهر على التوالى٠ وواقع الأمر أن هذه الحالة مبالغ فيها الى حد ما ، فمما لا شك فيه أن شعب الاسكندرية قد ساهم فى مساندة صلاح الدين بأى شكل من الأشـــكال حتى صـــمد داخل المدينة طوال هذه المدة دون أن يستسلم ، وأن الموقف كان فى صـــالح صلاح الدين رغم حصاره أكثر ما كان فى صالح القوات الصليبية والقوات الفاطمية ، وأن الحصار لم يكن شاملا لكل أنحاء المدينة ، وان السفن الصليبية التى وفدت الى شواطىء الاسكندرية لم تستغل عسكريا فى حصار المدينة من جانب البحر ، فلم تشر المصادر الى أى نشاط عسكرى قامت به البحرية الصليبية فى تلك الأحداث ٠

وعلى أية حال لم تفتر همة صلاح الدين ومن معه فى الدفاع عن المدينة ، فقد نجح صلاح الدين فى طمأنة أعيان المدينة وكافة الشعب السكندرى وأبلغهم بأنه سيدافع عنهم وعن زوجاتهم وأولادهم حتى الموت وحثهم على التمسك والتفاخر بعادات وتقاليد أسلافهم من المسلمين ، وطمأنهم بأن عمه أسد الدين شيركوه سوف يصل الى المدينة عن قريب ومعه عدد كبير من القوات (٥٢٨) ٠
ومما لاشك فيه أن صلاح الدين قد تيقن فى هذه المرحلة من وقوف الشعب السكندرى الى جانبه وتماسكه أكثر من ذى قبل ٠ ولعل ذلك ما دفع شاور الى محاولة استقطاب زعماء الاسكندرية الى جانبه ، فقد وعدهم بأن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطيهم الخمس اذا سلموه صلاح الدين فأبوا « وألحوا فى قتاله » (٥٢٩)
ومما يشرف مدينة الاسكندرية فى هذه المحنة أن شعب الاسكندرية (٥٣٠) بكل طوائفه من مسلمين وغير مسلمين قد ساندوا صلاح الدين وعلى رأسهم آباء الكنيسة المصرية (٥٣١) ٠

وبعد ما فشل عمورى وشاور فى استقطاب أهل المدينة بدآ يعملان على المزيد من الحصار ، فقامت القوات الصليبية والقوات الفاطمية بشن مزيد من الغارات على المدينة ، وقام شاور بنشاط ملحوظ فى هذه المرحلة ليدفع أهل المدينة الى اليأس والاستسلام ، فكان يتجول بين قواده ويشجعهم على اعداد الآلات ، كما أطلق المال بسخاء ودفع المرتبات المجزية للعمال واعتنى عناية خاصة بالحرس، وزاد من عطائه للجنود الذين قاموا بدور كبير فى الحصار (٥٣٢) ٠

ومما لا شك فيه أن المدينة قد عانت الكثير من جراء الحصار ولكنها لم تيأس ٠ كما أن هذه الأخبار قد وصلت الى نور الدين فى دمشق ،فبادر بالهجوم كعادته على قلاع الصليبيين بالشام ، ففى شهر رمضان ٥٦٢ هـ (٢١ يونية ــ ٣٠ يوليو ١١٦٧ م)

اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين وساروا الى بلد الفرنج فخربوا هونين (٥٣٣) فى شهر شوال (٥٣٤) . والأرجح أن هذا الهجوم قد وقع فى بدايات شهر شوال كما يتضح من شروط الصلح (٥٣٥) ، كما أنه من الواضح أن الغرض من مثل هذه الغارات كان تخويف عمورى على ممتلكات الصليبيين فى الشام فيضطر للعودة الى بلاده .

صمدت الاسكندرية بفضل أهلها من المسلمين والمسيحيين على السواء لصلاح الدين ، ومما هو جدير بالذكر فى هذه المرحلة أن الأجانب الذين كانوا بالمدينة ساندوا صلاح الدين وتعاونوا فى الدفاع عن المدينة بكل اخلاص حسب تعبير المؤرخ وليم الصورى (٥٣٦) . وليس عجيبا أن يدافع الأجانب عن مدينة الاسكندرية ، فالمدينة بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم ويؤمها التجار من ممالك العالم كافة ، وقد عدها الرحالة بنيامين التطيلى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) الذى زار مدينة الاسكندرية وذكر أنها حوالى تسع وأربعين دولة ومدينة ، نذكر منها ، الدانمرك وانجلترا ورسيا والحبشة والهند ، فضلا عن دول البحر المتوسط (٥٣٧) . ولم تكن مساندة هؤلاء التجار الأجانب لصلاح الدين على سبيل المجاملة بل كان دون شك نتيجة حسن معاملة صلاح الدين لهم وتأمينهم على أموالهم وأرواحهم .

وبينما كانت الاسكندرية تحت حصار الصليبيين والقوات الفاطمية ، ظل أسد الدين شيركوه فى صعيد مصر حتى صام شهر رمضان ٥٦١ هـ (٥٣٨) (٢١ يونية ـ ٢٠ يوليو ١١٦٧ م) . فلما بدأ شهر شوال بلغه ما نزل بالاسكندرية وأهلها من البلاء وقلة الأقوات وانها قاربت أن تؤخذ (٥٣٩) ، فرحل من مدينة قوص ومعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد . وبلغت هذه التحركات الوزير شاور « فرحل هو والفرنج واضطر الى الصلح على

أن يحمل الى أسد الدين جميع ما غرمه فى هذه السفرة ، ثم يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار ، ويعود كل منهم الى بلاده » (٥٤٠) .

ويفسر هذا النص نص آخر ورد به أن شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين كانوا مع أسد الدين بالدنانير (٥٤١) ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم الى ذلك وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن تعاد الاسكندرية الى المصريين • فأجابوا الى ذلك واصطلحوا وعاد الى الشـام (٥٤٢) •

وبعلل ابن شداد سبب قبول أسد الدين للصلح بضعف عسكره بسبب مواقعة الافرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وما عاينوه من الأهوال (٥٤٣) • ويفهم مما أوردته المصادر العربية أن شاور وعموري هما اللذان قاما بعرض الصلح أولا على أسد الدين شيركوه فقبله الأخير •

أما المؤرخ وليم الصورى فقد أورد رواية مطولة لتقرير الصلح نوجزها بأن أسد الدين أحس وهو بالصعيد أن مركز ابن أخيه صلاح الدين أصبح فى منتهى الحرج داخل الاسكندرية ، لذلك قام بجمع بعض الأموال واتجه الى القاهرة حيث وجد الصليبيين قد وضعوا قوة حراسة بداخلها بقيادة هيو أف أبلين Hugh of Ibeline ، وهنـا أحس أسـد الدين أن الأمور تسـير عكس ما توقعها، لذلك استدعى هيو صاحب قيسارية (١١٥٤ ـ ١١٦٨م) الذى كان أسيرا لديه منذ معركة البابين وطلب منه التوسط فى الصلح• وعرض شيركوه أنه يود العودة الى بلاده بشروط مناسبة، وهى أن يسلم شيركوه ما لديه من الأسرى مقابل تسليم عمورى

ما لديه من الأسرى ورفع الحصار عن مدينة الاسكندرية ، وأضاف وليم الصورى أن شيركوه قال انه عندما يوافق الملك ويعطيه ضمانا بعدم تعرض الصليبيين له في الطريق ، فانه على استعداد للرحيل فورا . اقتنع هيو بالشروط التي قدمها شيركوه واعتقد أن بالامكان عقد الصلح على هذه الشروط ، ولكنه خشى تفسير قيامه بالوساطة الى أنه يسعى للحصول على الخروج من أسر أسد الدين ، لذلك طلب هيو من أسير آخر هو أرنولف الذى قرن اسمه بأنه صاحب تل باشر للقيام بهذه المهمة . وقام الأخير على رأس وفد واتجه الى عمورى ، وعرض عليه رسالة تحوى شروط الصلح . وقد رحب الجميع بشروط الصلح وعلى رأسهم الملك عمورى والوزير شاور وأعلنوا رضاءهم لابعاد خطر أسد الدين عن مصر ، وأضاف انه تم وضع اللمسات الأخيرة لشروط المعاهدة وانتهى الأمر الى نهاية مرضية (٥٤٤) .

وتفيد رواية وليم الصورى أن أسد الدين هو الذى بدا باقتراح عقد الصلح على الصليبيين وأن الشروط تضمنت جلاء قوات أسد الدين ولم تتعرض لجلاء القوات الصليبية ، وأن القادة الصليبيين والوزير شاور قد قبلوا هذه الشروط بكل ترحاب .

وحول المادة التاريخية التي قدمتها لنا المصادر العربية والصليبية يمكن القول ، ان مدينة الاسكندرية قد عانت الكثير من جراء حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لها مدة ثلاثة أشهر متواصلة ، وأن توجه أسد الدين الى الصعيد بعدما ترك صلاح الدين داخل المدينة لم يقدم أية معونة للقوات المحاصرة أو للحملة بأكملها ، وأن النصوص لم تشر الى قدوم نجدات من دمشق الى قوات شيركوه في مصر ، وأن اعتماده كان على ما قدمه الأهالى من معونات سواء بالاسكندرية أو بالصعيد . ومثل هذه

المعونات مهما كان قدرها لا تستطيع الصمود طويلا أمام الجيش الرسمى للدولة وهو الجيش الفاطمى ومن معه من القوات الصليبية · وعلى ذلك يمكن الأخذ بما أورده وليم الصورى بأن شيركوه هو الذى بادر بعرض الصلح على عمورى وشاور ·

أما الشروط التى وردت بالمعاهدة فيمكن القول ، انها تضمنت تبادل الأسرى وفك الحصار عن مدينة الاسكندرية وعودة قوات شيركوه والقوات الصليبية الى بلادها· وهو ما اتفقت عليه المصادر عدا الشرط الخاص بعودة القوات الصليبية الذى لم يورده وليم الصورى · ولكن الباحث يستطيع أن يؤكد انه لم يكن هناك شرط ينص على بقاء القوات الصليبية فى مصر ضمن المعاهدة التى وقعها شيركوه مع عمورى وشاور · وان بقاء القوات الصليبية فى مصر كان باتفاق بين شاور وعمورى ، وقد أورد وليم الصورى فقرة حول هذا المعنى فى موضع آخر عن مكانه وبعيدا عن أحداث الحملة ، فقد ذكر أن شاور أرسل الى نور الدين سرا فى مرحلة لاحقة ، يقول انه عقد معاهدة سلام مع الصليبيين ، وكان ذلك بدون رغبته وانه يود أن ينسحب من هذه المعاهدة عندما يتأكد من مساعدة نور الدين له (٥٤٥) ·

وأوردت المصادر العربية ما يفيد هذا المعنى وذكرت : وأما الفرنج فقد استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من ارسال عساكره الى مصر ، ويكون للفرنج من دخل مصر مائة ألف دينار كل سنة » · وقد جرى هذا كله والخليفة الفاطمى العاضد (٥٥٥ ــ ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ــ ١١٧٢ م) ليس له فى الأمر شىء ، ولا يعلم بما حدث « فقد حكم عليه شاور وحجبه » (٥٤٦) ·

وعلى أية حال ، فاذا كان أسد الدين راغبا فى الصلح للظروف التى أحاطت به بعد أن ظل بمصر أكثر من ستة أشهر ، فان القوات الصليبية هى الأخرى كانت راغبة فى العودة وهذا ما جعلها توافق على شروط أسد الدين ، ولعل ذلك مرجعه الى ما ذكره ابن شداد الذى روى أن سبب عودة الفرنج يرجع الى أن نور الدين جرد العساكر الى بلاد الفرنج وأخذ المنيطرة ، ولما علم الافرنج بذلك خافوا على بلادهم وعادوا (٥٤٧) .

وما يعنينا فى هذا البحث مدينة الاسكندرية التى تم الاتفاق على جلاء صلاح الدين وقواته عنها ، فبعد توقيع المعاهدة تم اعلان بنودها الى كافة الأطراف ، ونشر مرســـوم يحذر أى اعتداء على مدينة الاســكندرية وخرج صــلاح الدين وتوجه الى الملك عمورى وظل فى معسكره استعدادا للرحيــل ، وقد عومل بكل احترام وأحيط بحراســـة خاصــة لحمايته من أية اهانة يمــكن أن تلحق به (٥٤٨) . وانفرد المقريزى بذكر رواية أثناء وجود صلاح الدين فى معسكر عمورى فقد أورد أن شاور ألح على الملك عمورى ليسلمه صلاح الدين ولكن عمورى لم يوافقه على طلبه (٥٤٩) . وهنا يمكن لقول ، ان الملك عمورى كان أكثر التزاما بالمعاهدة من الوزير شاور ، وأن عمورى بتصرفه هذا قد أهدى صلاح الدين للأمة العربية .

وعلى أية حال ، فبعد هذه الأحداث سار الوزير شاور على رأس قواته الى الاسكندرية فى موكب عسكرى كبير ، ودخلهـــا دخول المنتصرين على أصوات الطبول والمنشدين . وكان دخول شاور فى الخامس عشر من شوال ٥٦٢ هـ / الرابع من أغسطس ١١٦٧ م ، وانزعج السكان لدخول شاور على هذه الصورة خشية معاقبتهم لمساندتهم صلاح الدين . وقد نجح نجم الدين بن مصـال والى المدينة فى الفرار حتى وصل الشام (٥٥٠) ، كما تمكن القاضى الرشيد بن الزبير من الخروج من المدينة والوصول الى رشيد ،

أما الطاهر بن عوف فقد لجأ الى منارة الاسكندريه ومعه جماعة كثيرة وطلبوا العفو من الوزير شاور فعفا عنهم ، كما قبض على القاضى ابن الحباب وعاقبه حتى افتداه أهله بالمال • كما قبض شاور أيضا على جميع من ساند القوات النورية من أهل مصر (٥٥١) ، ولما كان ما قام به شاور يعتبر خرقا للمعاهدة فقد شق ذلك على صلاح الدين وأبلغ الأمر الى الملك عمورى الذى طلب من شاور الافراج عن الجميع ، ورغم ذلك فقد خاف هؤلاء من عودة شاور الى التنكيل بهم فعزموا على الرحيل الى الشام ، ولكن شاور خرج اليهم وطمأنهم وحلف لهم بأنه سوف لا يتعرض لهم بسوء فمنهم من اطمأن ومنهم من رحل (٥٥٢) • ولم يكن بوسع شاور أن يفعل غير ذلك لأن التمادى فى عقاب هؤلاء الأمراء ليس فى صالح الوزير شاور ويزيد من أعدائه • كما أن خروجهم من مصر فيه خطر عليه اذا لحقوا بنور الدين، أما وجودهم فى مصر فهو أخف الأمور ضررا باعتبارهم تحت بصره ونفوذه •

ومع استعداد صلاح الدين للرحيل ، فانه لم ينس المرضى والضعفاء من رجاله الذين كانوا بداخل الاسكندرية ، فقد طلب من الملك عمورى أن يرسل اليه بعض السفن لنقل هؤلاء الرجال فوافق عمورى وأرسل له عدة مراكب (٥٥٣) ، ومن الواضح أن هذه السفن كانت ضمن السفن التى قدمت الى الاسكندرية عندما علمت بحصار الصليبيين لها • وقد وصلت هذه السفن الى عكا ، وتحفظ الصليبيون عليهم فى معصرة للقصب (٥٥٤) حتى عاد الملك عمورى من مصر فأمر باطلاق سراحهم (٥٥٥) ، فاتخذوا طريقهم الى دمشق (٥٥٦) •

استعادت مدينة الاسكندرية عافيتها بعد قليل من هذه المحنة ، وقبل رحيل الصليبيين كانت المدينة قد عاودت نشاطها التجارى وحياتها العادية بصورة تدعو للاعجاب • وقد صور المؤرخ

وليم الصورى حالة المدينة عندما زارتها القوات الصليبية قبل رحيلها وذكر أن أهل الاسكندريه بعد ما عانوا الكثير من الضيق قد انتشروا فى شوارعها مسرورين وقد خفت متاعبهم ، وأصبح لديهم المؤن الكافيه واستأنفوا عملهم التجارى وكرسوا أنفسهم لاستعادة عافيتهم (٥٥٧) ٠

عاد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين والقوات النوريه بعد ذلك الى دمشق فوصلوا فى الثامن عشر من ذى القعدة ٥٦٢ هـ (٥٥٨) الخامس من سبتمبر ١١٦٧ م ، كما عادت القوات الصليبية بعد ما تركت لها حامية بالقاهرة فوصلت عسقلان وعلى رأسها الملك عمورى فى الحادى والعشرين من أغسطس ١١٦٧ م (٥٥٩) ، الثالث من ذى القعدة عام ٥٦٢ هـ ٠ ولم ينته الأمر عند هذه المرحلة فالصراع على مصر بين القوات النوريه والقوات الصليبية ظل قائما ، وقد نجحت القوات النورية فى النهاية ونجح أسد الدين ومن بعده صلاح الدين فى دفع الصليبيين عن مصر والقضاء على شاور ، وقامت الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين لتنزل بالقيادة الصليبية أشد الضربات ٠ ولم ينس صلاح الدين ما قدمته له الاسكندرية عندما حوصر بداخلها فزارها عدة مرات وأولاها عناية خاصة ودعم نظم دفاعها البرية والبحرية ، وأنشأ المدارس ودور العلاج وعمر الخليج ، وغير ذلك (٥٦٠) ٠

ومن النتائج التى يمكن استخلاصها من هذا البحث ، أن مصر كانت هدفا للصليبيين منذ تأسيس الامارات الصليبية فى بلاد الشام ، كما أن البحث يوضح أنه كان يحيط بالأسكندرية غابة كثيفة بها الكثير من أنواع أشجار الزينة والأشجار الطبية ، وقد استغل الصليبيون أخشاب هذه الأشجار فى عمل السلالم وبعض أنواع آلات الحصار الأخرى بهدف اسقاط المدينة ٠ يضاف الى ذلك أن خليج الاسكندرية الذى يمتد من فرع رشيد الى المدينة كان يمدها

بالمياه ، بالاضافة الى أنه مجرى ملاحى للأعمال التجارية التى ترد الى الاسكندرية من داخل الأراضى المصرية ومن خارجها ، وأن هذا الخليج كان يتأثر بحجم مياه الفيضان ، وانه كان لا يصلح لملاحة السفن الحربية فى أيام التحاريق ٠

ويتضح من البحث أيضا أن شيركوه كان ينحرك داخل الأراضى المصرية بخطط عسكرية ، وأنه انتقل من الصعيد الى الاسكندرية بناء على دعوة من كبار رجالهـا وبالعكس طبقا لما اقتضته الظروف العسكرية ، وانه استغل الأسرى الصليبيين الذين وقعوا فى أسره خلال معركة البابين فى المفاوضات التى جرت بينه وبين الصليبيين ، يضاف الى ذلك صمود صلاح الدين داخـل الاسكندرية رغم قلة قواته العسكرية بفضل حصانة المدينة وأسوارها المنيعة أمام القوات الفاطمية والصليبية ، ووقوف أهل المدينة بكل طوائفهم من مسلمين ومسيحيين فى وجه القوات المعتدية ٠ وليس ذلك فحسب ، بل ان التجار الأجانب الذين كانوا بالاسكندرية أثناء الحصار قد ساندوا صلاح الدين ، وهذا ما جعل صلاح الدين يهتم بأمر المدينة عندما تولى حكم البلاد المصرية فى المرحلة اللاحقة ٠

ومن النتائج أيضا أن الملك الصليبى عمورى كان أكثر التزاما من الوزير شاور بالمعاهدة التى عقدت بين أسد الدين شيركوه من جانب والقوات الصليبية والفـاطمية من جانب آخر ، وأن الملك عمورى لم يوافق على تسليم صلاح الدين الى الوزير شاور عندما طلب منه الأخير ذلك لما فى ذلك من خرق للمعاهدة ، كما أن شاور أساء معاملة كبراء أهل الاسكندرية مناقضا بذلك شروط المعاهدة بعد أن دخل المدينة ، والى جانب ذلك اتضح أن المعاهدة كان تقضى بجلاء قوات أسد الدين شيركوه والقوات الصليبية ، ولكن شاور خدع شيركوه وعقد معاهدة منفصلة مع عمورى تقضى ببقاء حامية صليبية بالقاهرة ٠ وأخيرا يمكن القول ، ان ما حدث فى الاسكندرية

كان له أكبر الأثر على نهاية حكم وحياة الوزير شاور فى العام التالى (١١٧٨ م) ، والخلافة الفاطمية فى السنوات القليلة التى تلت هذه الأحداث ، وقيام الدولة الأيوبية التى رفعت راية الجهاد ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام ·

ملحق رقـم (١)

ذكر وليم الصورى أن صلاح الدين ناشـد الآباء والشعب Fathers and People وسجلت الكلمات بالحروف الصغيرة(٥٦١) ·

وبالبحث فى أسـلوب الكاتب ، تبين أنه اسـتخدم نفس الطريقـة عند كتـابة بعض الأحداث المتعلقـة بالآبـاء المقدسـين اثناسـيوس وكـيرل Holy fathers Athanasius and Cyril كما اسـتخدم وليم كلمة « مسيحيون » Christians ويعنى بهـا « الصليبيون » (٥٦٣) · ويذكر أيضا أنه أثنـاء حصـار مدينة الاسكندرية حدث شيء عجيب يفوق كل ما حدث ، وهو أن جيشـا صغيرا (يقصد قوات صلاح الدين) استطاع أن يغلق أبواب المدينة بعد ما انضـم اليه جيش كبير من السـكان الى جانب العديد من الأجانب الذين تعاونوا جميعهم معه بكل اخلاص من أجل الدفاع عن المدينة (٥٦٤) ·

وسجل وليم الصورى فى مواقـع متفرقـة عن أهل مدينـة الاسكندرية وذكر بعض الكلمات منها public in general (٥٦٥) وكلمة people (٥٦٦) ، وكلمة « المواطنون » citizens (٥٦٧) ·

ومن ذلك كلمة يتضح أن كلمة fathers وهى فى النصف اللاتينى patrum يقصد بها آباء الكنيسة ، وأن أهل الاسكندرية جميعهم من مسلمين ومسيحيين وتجار أجانب قد تعاونوا جميعهم مع صلاح الدين للدفاع عن مدينة الاسكندرية ·

المصـــادر والمراجع العربية والمعربة

١ ـ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م)

(أ) الكامل فى التاريخ ـ ١٢ جزءا وفهرس ـ بيروت (دار صادر) ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ٠

(ب) التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكيـــة فى الموصـــل ـ تحقيق عبد القادر أحمـد طليمات ـ القـاهرة ـ دار الكتب الحديثة ١٩٦٣ م ٠

٢ ـ ابن أيبك (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

كنز الدرر وجامع الغرر ـ ٩ جـ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٦٤٣ تاريخ ٠

٣ ـ ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م)

سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوســفية ـ تحقـيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م ٠

٤ ـ ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)

تاريخ أبى يعلى حمزة بن القــلانسى ، المعروف بذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ـ (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م ٠

٥ ـ ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)

كتاب قوانين الدواوين ـ جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية ـ القاهرة (مطبعة الجمعية الزراعية) ١٩٤٣ م ٠

٦ ـ ابن واصل (٦٩٧ هـ /١٢٩٨ م)

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ١ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة (مطبعة جامعة فؤاد الأول) ١٩٥٣ م ٠

٧ ـ أبو شامة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م)

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ـ الجزء الأول ، القسم الثانى ـ تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة (وزارة الثقافة والارشاد القومى) ١٩٦٢ م ٠

٨ ـ أبو المحاسن بن تغرى بردى (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٢٤٨ ـ ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ ـ ١٩٤٢ م ٠

٩ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ـ دار المعارف بالاسكندرية ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٩ م ٠

١٠ـ بنيامين التطيلى : (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م)

رحلة بنيـامين ـ ترجمها عن الأصـل العبرى وعلق على حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد ـ بغداد ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

١١ـ حسن حبشى (دكتور)

نور الدين والصليبيون « حركة الافاقة والتجمع الاسلامى فى القرن السادس الهجرى ـ القاهرة ـ (دار الفكر العربى) ١٩٤٨ م .

١٢ـ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

الحركة الصليبية « صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى » ٢ جـ ـ القـاهرة ـ طبعة أولى (مكتبة الأنجلو المصرية) ١٩٦٣ م .

١٣ـ العماد الأصفهانى : (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م)

سنا البرق الشامى ـ تحقيق فتحية النبراوى ـ القـاهرة (مكتبة الجانجى) ١٩٧٩ م .

١٤ـ الكنيسـة القبطية :

ترتيب أسبوع الآلام ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثـة (مكتبة المحبـة) ١٩٧٥ م .

١٥ـ محمد مختـار :

كتاب التوفيقات الالهامية فى مقـارنة التواريـخ البحرية بالسنين الافرنكيـة والقبطية ـ القـاهرة (بـولاق) ١٣١١ هـ .

١٦ـ محمد مصطفى زيادة : (دكتور)

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ـ القاهرة ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٦١ م .

١٧ـ محمود سعيد عمران (دكتور)

الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دى برين على مصر) (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ فرع الاسكندرية) ١٩٧٨ م .

١٨ـ المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م)

(أ) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ـ ٤ جـ ـ القاهرة (مطبعة النيل) ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦ هـ .

(ب) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ جـ ٣ ـ تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ـ القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

١٩ـ ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)

معجم البلدان ـ ٥ جـ وفهرس ليبزج ١٨٩٠ م .

٢٠ـ ويستنفلد

جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ـ ترجمة الدكتور عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان ـ القاهرة ـ (مكتبة الأنجلو المصرية) طبعة أولى ١٩٨٠ م .

المصادر والمراجع الأجنبية

21. Eneyctopedia - Cathotic.

22. Grousset, R.,
    Historic des Croisades et du Royaume Franca de Jerusatem. 3 vol. Paris, 1936.

23. Haig.
    Comparative Table of Muhammadan and Christian Dates. London 1932.

24. Omran, M.S.,
    King Amalric and the Siege of Alexandria, 1167. in Crusade and Settlement, cardiff 1985, pp. 1915.

25. Runciman, S.
    A History of the Crusades 3 Vol. Cambridge 1954.

26. Schlumberger, G.
    Campagnes du Roi Amaury I de Jerusalem en Egypte, Paris, 1906.

27. William of Tyre,
    A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vol. tran. and annotated by emily Atwater Babcock and A.C. Krey, New York, 1943.

الهـــــوامش

(٤٧٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢
وانظر أيضا :

William of Tyre, History of Deeds, New Rork, 1943, II, pp. 220 ff.

(٤٧٩) ابن الفلانسى : المصادر السابق ـ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ٠

(٤٨٠) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس الناسع على مصر ـ القاهره ـ ١٩٦١ م ـ ص ١٢ ـ ١٤ ٠

(٤٨١) عن هذه الأحداث ، راجع : محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية ـ ١٩٧٨ م ـ ص ٣٨ ـ ٥٣ ٠

(٤٨٢) William of Tyre, Op. cit., II, p. 314.

(٤٨٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٤٧ وحاشية ٥ ٠

(٤٨٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣ م ص ١٣٢ ٠

(٤٨٥) ابن الأثير : الكامل ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ ١١ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ٠

(٤٨٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ، وزاره الثقافة والارشـــاد القومى ، ١٩٦٢ م ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٦٤ ، ٤٢٤ ـ ٤٢٥ ٠

(٤٨٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، (مطبعة جامعة فؤاد الأول) ، ١٩٥٣ م ، جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٥٠ ٠

(٤٨٨) William of Tyre, Op. cit., II, p. 311 and n. 1.

(٤٨٩) Runciman, A History of Crusades, Cambridge, 1945, II, p. 374;
Schlumberger compagnes ru Roi Amoury l'Paris, 1906, p. 136.
ويروى جروسيه أن المعركة وقعت فى ١٧ أو ١٨ مارس ٠ انظر :
Grorusset Histoire des Croisades II, Paris, 1936, p. 489.
وفى المراجع العربية فى شهر مارس ١١٦٧ ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٦٩٠ ، وفى ١٨ أبريل ١١٦٧ ٠ انظر : حسن حبشى : نور الدين والصليبيين ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١١٤ ٠

(٤٩٠) ابن أيبك : كنز الدرر ٠ وجامع الغرر (مخطوط) ج ٦ ، ورقة ٣٠ ٠

(٤٩١) William of Tyre, op. cit., II, p. 340.

ويلاحظ ان تل باشر لم تكن تحت حكم الصليبيين فى هذه المرحلة ، فقد عادت الى الحكم الاسلامى فى عام ٥٤٦ هـ/١١٥١ م ٠ انظر ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣١٥ ٠

(٤٩٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٢٦ ٠

(٤٩٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ ٠

(٤٩٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ٠

(٤٩٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ص ٤٢٦ ، انظر أيضا
William of Tyre, Op. cit., II, p. 334.

(٤٩٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٩ ـ ١٩٤٢ م ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٦٩ ٠

(٤٩٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ ٠

(٤٩٨) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ـ دار المعارف ـ اسكندرية ـ ١٩٦٩ م ، ص ٢١٦ ٠

(٤٩٩) كان بالاسكندرية دار لصك النقود وهى الثانية بعد القاهرة ابن مماتى : قوانين الدواوين ، مطبعة الجمعية الزراعية ، القاهرة ، ١٩٤٣ م ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ ٠

(٥٠٠) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٢٦ ٠

(٥٠١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥١ ٠

(٥٠٢) William of Tyre, Op. cit., II, p. 334.

(٥٠٣) كان لدى الصليبيين معرفة عن النيل ومواعيد الفيضان ٠ انظر :
William of Tyre, Op. cit., II, p. 302.

(٥٠٤) Ibid., p. 334.

(٥٠٥) Idim.

(٥٠٦) Idim.

(٥٠٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ ، انظر أيضا : العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٢٠ ٠

(٥٠٨) William of Tyre, Op. cit., II, p. 335.

ويلاحظ أن القوات التى أتت مع شيركوه من الشام كانت حوالى الفى فارس ·
انظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٢ ·

(٥٠٩) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ ·

(٥١٠) William of Tyre, Op. cit., II, p. 335.

(٥١١) William of Tyre, Op. cit., II, p. 340.

(٥١٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٦ ·

(٥١٣) William of Tyre, Op. cit., II, p. 335.

(٥١٤) المقريزى : الخطط ، القاهرة ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦ هـ ، جـ ١ ص ١٧٥ ·

(٥١٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 335.

(٥١٦) Ibid, p. 342.

(٥١٧) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ ، المقريزى :
اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٨٤ ·

(٥١٨) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٨ ·

(٥١٩) ابن شداد : المصدر السابق ـ ص ٣٨ ·

(٥٢٠) William of Tyre, Op. cit., II, p. 337.

(٥٢١) Grousset, II, p. 494 n.I.

(٥٢٢) William of Tyre, Op. cit., II, p. 337.

(٥٢٣) راجع أيضا ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ورقة ٣١
William of Tyre, Op. cit., II, p. 337.

(٥٢٤) William of Tyre, Op. cit., II, p. 337.

(٥٢٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ص ١٧٤ ·

(٥٢٦) William of Tyre, Op. cit., II, p. 338.

(٥٢٧) Idim.

(٥٢٨) Idim.

(٥٢٩) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ص ١٧٤ ·

(٥٣٠) يقدر المؤرخ وليم الصورى انه كان بالاسكندرية فى هذه المرحلة حوالى
خمسين الف قادرين على حمل السلاح · انظر :
William of Tyre, Op. cit., II, p. 342.

(٥٣١) William of Tyre, Op. cit., II, p. 338.

(٥٣٢) William of Tyre, Op. cit., II, p. 339.

(٥٣٣) قلعة تقوم على صخرة واحده تشرف على أراضى الحولة الواسعة وتمتد الى بلدة . بانياس لى سترانج : فلسطين فى العهد الاسلامى ، ترجمة محمود عما يرى ، عمان ١٩٧٠ ، ص ٤٩٤ .

(٥٣٤) ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٥٣٥) انظر ما يلى ، ص ١٣ .

(٥٣٦) William of Tyre, ip. cit., II, p. 342.

(٥٣٧) بنيامين التطيلى : الرحلة ، بغداد ، ١٩٤٥ م ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ . وقد قدم لنا المؤرخ وليم الصورى ، مادة طيبة عن دور الاسكندرية التجارى ومركزها العالمى فى هذه المرحلة . انظر : William of Tyre, Op. cit., II, p. 336-7.

(٥٣٨) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٥٣٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ، ص ٢٨٥ .

(٥٤٠) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٥٤١) العماد الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٥٤٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٢٦ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ، ص ٣٦٦ .

(٥٤٣) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٥٤٤) William of Tyre, Op. cit., II, pp. 339-341.

(٥٤٥) William of Tyre, op. cit., II, p. 350.

(٥٤٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ ، أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٥٤٧) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٥٤٨) William of Tyre, Op. cit., II, pp. 339-342.

(٥٤٩) المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

(٥٥٠) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

(٥٥١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ، ص ٢٨٦ .

(٥٥٢) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٨ ٠

(٥٥٣) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٧ ٠

(٥٥٤) هذه معلومة فى غاية الأهمية توضح مدى استفادة الصليبيين من الحضارة العربية فى مجالى الزراعة والصناعة ٠

(٥٥٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٦ ٠

(٥٥٦) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٢٨ ٠

(٥٥٧) William of Tyre, Op. cit., II, p. 341.

(٥٥٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٦ ٠

(٥٥٩) William of Tyre, Op. cit., II, p. 343.

(٥٦٠) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٤٢ وما بعدها ٠

(٥٦١) William of Tyre, II, 338.

(٥٦٢) Ibid, II, p. 336.

(٥٦٣) Ibid, IIU, p. 317, 337, 341-3.

(٥٦٤) Ibid, II, p. 342.

(٥٦٥) Ibid, II, p. 341.

(٥٦٦) Ibid, II, pp. 338, 342-3.

(٥٦٧) Ibid, 11, pp. 342-3.

هجمات الروم البحرية على شـواطىء مصر الاسـلامية في العصـور الوسـطى

د٠ علية عبد السميع الجنزورى

كانت سواحل مصر طوال فترة العصور الوسـطى هدفـا لهجمات متتالية شنها الروم أو البيزنطيون ٠ وهنا نتساءل عن سبب هذا الاصرار على الهجمات البحريـة بالذات على السواحـل المصرية آنذاك ، وماذا كان مصيرها ، وما موقف المصريين منها ؟

هل كان ذلك الاصرار راجعا الى أن الروم أدركوا أن العرب قوم مراكبهم الخيول وانهم يجهلون ركوب البحر ؟ وبعبارة أخرى هل استغل الروم نقطة الضعف فى حركة التوسع العربية ابان الدور الأول من أدوارها وهى عدم وجود أسطول قوى يحمى فتوحات العرب البرية ، لذا شـددوا هجمـاتهم البحرية خاصـة على مصر ؟ (٢٥٩) وربما أيد هذا الرأى ما قيـل عن الخليفة عمر بن الخطاب عندما ألح عليه معاوية بن أبى سفيان فى غزو قبرص ، أنه كتب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولاتها المسلمين « أن صف لى البحر وراكبه فكتب اليه : أنى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ان ركد خـرق القلوب وان تحرك أراع العقول ٠٠٠

وهم فيه كدود على عود٠٠٠ » فلما قرأ عمر الخطاب كتب الى معاوية « والله لا أحمل فيه مسلما أبدا » (٢٦٠) ٠

أم كان ذلك راجعا الى اهتمام الروم بالبحر المتوسط « بحر الروم » والى أن يظلوا دائما سادته ؟

الراجح أن العاملين تضافرا في اصرار الروم على استمرار هجماتهم على سواحل مصر ولو أن نلك الهجمات الدائبة كانت تعني لدى الروم شيئا آخر أهم وأعمق وهو أنهم كانوا يعتبرون مصر « مخزن قمح القسطنطينية » (٢٦١) ٠

فاذا أضـفنا الى ذلك أن مدينة الاسـكندرية كانت تلى فى المكانة القسطنطينية مباشرة وربما تكون قد فاقتها فى أهميتها كمركز تجارى (٢٦٢) ، وانها كانت بها أعظم كنائس الروم حتى ان هرقل امبراطور الروم (٦٠١ ــ ٦٤١ م) عندما علم بتوجه العرب بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر قال : « لئن ظفرت العرب على الاسكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم ؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية » (٢٦٣) ٠

الروم والسواحل المصرية حتى موقعة ذات الصوارى :

والحقيقة ، انه عنـــدما فتح العرب حصن بابليون فى أبريل ٦٤١ م (٢٦٤) ٢٠ هـ (٢٦٥) كانت الاسكندرية العاصمة (٢٦٦) ، هى الجزء الوحيد الذى تبقى للروم فى مصر (٢٦٧) وهو ما عبر عنه الواقدى على لسان المقوقس عندما قال للعرب الفاتحين عندما تقـدموا نحو الاسكندرية : « ٠٠٠ وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف ، وقد بقى فى أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعوكم فيما أخذتموه منا ٠٠٠ » (٢٦٨) وهذا يوضح لنا ان الروم كانوا

يدركون جيداً أهمية الاسكندرية التجارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيداً أنه ان لم يتم استيلاء العرب على الاسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها وتظل الاسكندرية شوكة فى جانبهم (٢٦٩) ٠

لكن سرعان ما تقدم عمرو بن العاص لفتح الاسكندريه وحاصرها مدة تزيد على الشهر حتى أتاه خطاب من الخليفة عمر ابن الخطاب يستحثه فيه على فتحها وأوصاه أن يكون ذلك « عند الزوال يوم الجمعة » وأن يقدم خيرة رجاله لحرب الروم ففعل عمرو ذلك ونصره الله (٢٧٠) ٠

والحقيقة ، ان أحوال الاسكندرية نفسها ساعدت على فتح المسلمين لها وذلك بسبب سوء حالة الجيش الرومى بها لتنازع القواد ولانقسام الرأى السكندرى أثناء حصار العرب للمدينة وكانت كراهية الناس لبيزنطة السبب الرئيسى للتخاذل والضعف فتخلوا عنها ، اذ اشتد سخط السكان لما جرى من فساد الحكم وثقل وطأة الضرائب وكثرة أنواعها والاضطهاد الدينى والاضطراب والفوضى الناشبة فى البلاد (٢٧١) ٠

يضاف الى ذلك كله اضطراب أمور دولة الروم نفسها بعد موت هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١م / ٢٠ هـ (٢٧٢) « صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤنته » (٢٧٣) وبذلك « كسرت بموته شوكة الروم (٢٧٤) ووهن أمرهم » فقد رجع جمع كثير ممن كان قد توجه الى الاسكندرية (٢٧٥) ٠

بل قيل ان من أهم العوامل التى ساعدت على عقد معاهدة بين المسلمين والروم أن الفوضى التى سادت العسكريين أدت الى

تفكك قيادة الجيوش الرومية المدافعة عن مصر ، وغدا الاستبسال في الدفاع عن مصر ضد الجيوش الاسلامية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذاك وكان من بين القواد الذين قاوموا الجيوش الاسلامية مقاومة عنيفة (القائد مانويل) الذى صمد لحصار عمرو ابن العاص للاسكندرية • وما ان توفى هرقل حتى عم الاضطراب في القسطنطينية ويئس مانويل من وصول امدادات تشد أزره في الدفاع عن الاسكندرية وانسحب منها بحرا في الوقت الذى منحت مارتينا ــ صاحبة النفوذ الأعلى في دولة الروم آنذاك ــ المقوقس سلطه مفاوضة العرب في مصر (٢٧٦) وبالفعل قام بعقد المعاهدة التي عرفت بمعاهدة الاسكندرية أو معاهدة بابليون الثانية (٢٧٧) وذلك في ٨ نوفمبر ٤١ م (٢٧٨) والتي كانت أهم شروطها :

١ ــ عقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهرا تنتهى في التامن والعشرين من شهر سبتمبر ٦٤٢ م •

٢ ــ ان ترحل حامية الاسكندرية في البحر ، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم • على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل ، على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى من أرض مصر في رحلته •

٣ ــ ألا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردها (٢٧٩) •

ويقال انه بعد فتح عمرو بن العاص للاسكندرية هرب الروم في البر والبحر ، فخلف عمرو بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى هو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر

راجعا ، ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله فتح عليهم الاسكندرية « عنوة بغير عقد ولا عهد » (٢٨٠) .

دخل عمرو بن العاص الاسكندرية فى ٢٩ سبتمبر ٦٤٢ م/ ٢١ هـ بعد أن غادرها الأسطول الرومى (٢٨١) الذى استمرت قواته بهـا عشرة قرون من الزمان (٢٨٢) ، واتجه الأسطول بعد مغادرته للاسكندرية الى جزيرة رودس (٢٨٣) .

واذا كانت مصر كلها بعد فتح العرب تدفع للفاتحين جزية عن الرأس تقدر بدينارين ، وخراجا يقدر بما يتوسع فيه الفرد من الأرض والزرع فـان أهـل الاسـكندرية كانوا يؤدون الخراج والجزية « على قدر مايرى من وليهم » ؛ لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة (٢٨٤) .

والحقيقة ، ان تلك النقطة كانت أحد الأسباب التى أدت الى نقض أهالى الاسكندرية لما عاهدوا عليه العرب الفاتحين فقد قيل ان (صاحب اخنا) قدم على عمرو وقال له : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فرد عليه عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انمـا أنتم خزانة لنـا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » اذا غضب صاحب اخنا وخرج الى الروم وأثارهم ضد المسلمين فقدموا الى الاسكندرية لمحاربتهم وبذلك نقضوا العهد الذى كان بينهم (٢٨٥) .

نضيف الى أسباب نقض الروم لعهدهم عدة نقاط أخرى منها أنه بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان ، عزل عمرو بن العاص عن مصر سنة ٢٥ هـ فانتهزت دولة الروم تلك الفرصة لتقوم بهجوم مضاد ضد مصر (٢٨٦) .

بل قيل ان بعض زعماء الاسكندريه ارسلوا الى الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ ــ ٦٨ م/٢١ ــ ٤٨ هـ) يسألونه القدوم لمساعدتهم •

وشرحوا له انه ليس بالاسكندرية الا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع جيش الروم فأثرت تلك المكاتبات فى الامبراطور الذى لم ينس ما لحق دولته من ضرر بضياع مصر (٢٨٧) •

ومهما اختلفت الآراء فقد أرسل الامبراطور قنسطانز (٦٤٥م/٢٥ هـ) أسطولا كبيرا ، هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما ، بقيادة (مانويل الخصى) واجابهم من بها من الروم (٢٨٨) ولم يكن بالمدينة الا ألف رجل من العرب للدفاع عنها ، فتغلب عليهم الروم وقتلوهم الا عددا قليلا (٢٨٩) •

والحقيقة ، ان انتصار الروم فى ذلك الوقت كان « نصرا مؤقتا (٢٩٠) ، وكان والى مصر آنذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان فطلب أهل مصر من الخليفة اعادة عمرو بن العاص اليهم ، لان له خبرة ودراية بمحاربة الروم فنفذ طلبهم (٢٩١) وهكذا قدم عمرو الى مصر وقام بمحاربة الروم وانتصر عليهم وقتل قائدهم مانويل وأعدادا كبيرة منهم (٢٩٢) فى صيف ٦٤٦ م (٢٩٣) ٢٥ هـ وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور ؛ لأنه كان قد أقسم انه اذا نصره الله على الروم وأجلاهم عن الاسكندرية فى تلك المرة ، أن يهدم سورها ويجعلها مثل بيت الزانية يؤتى من كل جانب (٢٩٤) •

التى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره البلاذرى « دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية » (٢٩٥) . أما ابن عبد الحكيم فيذكر « ان عمرو فتحها عنوة وقسرا » (١٩٦) ، فى حين يكتفى الكندى بالقول « بأن الاسكندرية فتحت الفتح الثانى عنوة سنة خمس وعشرين » (٢٩٧) بينما اكتفى المؤرخ (ألفريد بتلر) بالقول بأن لاسكندرية تم الاستيلاء عليها نهائيا بالقوة (٢٩٨) .

هنا نود أن نلفت النظر الى نقطة هامة وهى ان الأقباط فى مصر ساعدوا العرب الفاتحين ضد الروم ، واستسلموا لحكمهم مما يثبت أنهم « فضلوا الخضوع للعرب على الخضوع لبيزنطة » (٢٩٩) أما عمرو بن العاص فلم يستمر فى ولاية مصر بعد فتح الاسكندرية الثانى سوى شهر واحد عزله بعده عثمان بن عفان وولى عبد الله بن سعد (٣٠٠) .

والواقع انه بعد فتح العرب الاسكندرية للمرة الثانية ، استمرت مصر بصفة دائمة تحت الحكم الاسلامى (٣٠١) . ولقد كانت أهمية مصر بالنسبة لدولة الروم ، وعدم قدرتهم على التسليم بضياعها هو الدافع وراء المحاولات الدائبة التى قامت بها دولة الروم لاستعادتها لكن المصريين لم يستسلموا أبدا لرغبات الروم وظلت مصر دائما وأبدا شوكة فى حلقهم تؤرقهم وتنغص عليهم حياتهم .

لم تمض سوى بضع سنوات ، حتى اشتبك الروم وعبد الله ابن سعد أبى سرح والى مصر وأمير البحر الثانى فى الاسلام (٣٠٢) وذلك فى موقعه ذات الصوارى التى اختلفت المصادر والمراجع فى تحديد تاريخها (٣٠٣) كما اختلف أيضا على أسباب حدوثها (٣٠٤)

ولو ان البعض جعل السبب المباشر لها هو استيلاء العرب على الاسكندرية فطالبوا امبراطور الروم بانتزاعها منهم « أتترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى (٣٠٥) ٠

كما اختلفت المصادر والمراجع أيضا فى تحديد المكان الذى دارت رحاها عليه ٠ أنشبت عند فونيكس قرب شواطى ليكيا بآسيا الصغرى ؟ أم بالقرب من ثغر فونيكس غرب الاسكندريه ؟

نحن نميل الى اعتبار ان تلك الموقعة حدثت بالقرب من شاطىء ليكيا بآسيا الصغرى ، وذلك لأن الطبرى مثلا يذكر فى خلال سرده التاريخى لها أن عبد الله بن سعد « ركب فى مركب وحده ما معه الا القبط حتى بلغوا ذات الصوارى فلقوا جموع الروم » (٣٠٦) ، أما ابن كثير فقد دون فى تاريخه أن عبد الله بن سعد « أقام بذات الصوارى أياما ثم رجع مؤيدا » (٣٠٧) ٠

هنا نود أن نؤكد نقطة هامة هى كل ما نود أن نبرزه عن هذه الموقعة ونحن بصدد كتابة موضوعنا ، وهى أنها كانت دليلا واضحا على ان الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، فقد خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح بأسطول مصر لقتال الروم قرب سواحل آسيا الصغرى ليحمى سواحل مصر من خطر الروم ٠

كان النصر حليف المسلمين فى تلك الموقعة ، وقتل من الروم عدد لا يحصى ولم ينج منهم « الا الشريد » (٣٠٨) ٠ واذا كانت بعض المصادر قد أكدت مقتل أمبراطور الروم قنسطانز بواسطة أهل صقلية الذين استكبروا أن يهزم ويلجأ اليهم ليحتمى بجزيرتهم من المسلمين (٣٠٩) ، فان الكتابات البيزنطية توضح أنه نجا بأعجوبة بواسطة تضحية شخصية بطولية لأحد الجنود

البيزنطيين الصغار (٣١٠) . ونحن نؤيد الرأى الثانى ؛ لأن فترة حكم قنسطانز امتدت من ٦٤١ ـ ٦٦٨ م/٢١ ـ ٤٨ هـ ، وانه « قتل فى حمامه بواسطة أحد حجابه فى ١٥ سبتمبر ٦٦٨ م » (٣١١) .

وهكذا كانت موقعة ذات الصوارى نصرا بحريا كبيرا للمسلمين ، وقد « وصفها المؤرخ اليونانى « تيوفانس » بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم » (٣١٢) بل ان بعض المؤرخين يعتبروها أعظم موقعة حربية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد (٣١٣) .

استفادت مصر فائدة كبرى من وراء ذلك النصر فقد استولت على كثير من سفن الروم وكانت تلك السفن نواة للأسطول المصرى الذى اعترف بفضله فى النضال الذى قام فيما بعد بين الأمويين والروم (٣١٤) .

اهتم خلفاء عبد الله بن سعد فى مصر بأمر الأسطول ، خاصة ان الهجمات الرومية البحرية لم تنقطع على سواحل مصر ، ولو أن الطابع الغالب على تلك الهجمات كان طابع القرصنة فقد « تعرضت المدن الساحلية دائما لغارات من البحارة والقراصنة البيزنطيين » (٣١٥) .

الروم والسواحل المصرية حتى الحملة الصليبية الأولى :

تعرضت مصر فى تلك الفترة لهجمات مستمرة من الروم نجحت بعضها حينا واخفقت أحيانا ، وسنحاول فيما يلى أن نستعرضها بشيء من الايجاز .

نزل الروم بالبرلس فى ٥٣ هـ/٦٧٣ م (٣١٦) وكان والى مصر آنذاك مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى وليها من قبل معاوية

أما فى سنة ٩٠ هـ/٧٠٩ م فقد هاجم الروم دمياط (١١٦) وكان والى مصر حينئذ قرة بن شريك (٣٢٠) وذلك فى عهد الخليفة الوليد الاول (٣٢١) فاسروا خالد بن كيسان امير البحر وذهبوا به الى امبراطور الروم فاهداه الى الخليفه الوليد من اجل الهدنه التى كانت بين الروم وبينه (٣٢٢) ٠

ثم هاجم الروم تنيس فى رمضان ١٠١ هـ/٧٢٠ م ، وكان والى مصر فى ذلك الوقت بشر بن صفوان الكلبى فى خلافة يزيد ابن عبد الملك ؛ فقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى وجمعا من المــــوالى (٣٢٣) ٠

أما فى ١٢١ هـ/٧٣٩ م فقـد قـام الروم بهجوم ناجح على دمياط للمرة الثانية (٣٢٤) ونزلوها فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من ثلاثمائة وستين مركبا (٣٢٥) ، فقتلوا وسبوا (٣٢٦) ٠ ومن المرجح أن ذلك الهجوم أحرز نجـاحا جزئيا ؛ نتيجة للظروف الداخلية التى كانت عليها مصر آنذاك عنـدما قام الأقباط بثورة كبرى ، بالاضافة الى هجوم أقباط النوبة على مصر من الجنوب (٣٢٧) وهنا يذكر (كانار) ان تحطيم الروم لأحد الأســاطيل المصريــة بالقرب من جزيرة كربت ٧٤٧ م /١٢٩ – ١٣٠ هـ « أثر فى البحرية المصرية تأثيرا شديدا فأنقصها وزاد من ضعفها فى المائة سنة التالية » (٣٢٨) ٠ والواقع أن هجمات الروم على مصر اتصفت بطابع « الانتهازية » (٣٢٩) ، فبمجرد شعور الروم

بأى اضطراب في مصر كانوا يسارعون بالهجوم عليها . من ذلك ما حدث عندما امتدت آثار الفتنه بين الاخوين محمد الامين وعبد الله المأمون ابني الرشيد الى مصر « طمع الروم في البلاد وغاروا دمياط في اعوام بضع ومائتين » (٣٣٠) . فقد استغل الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ ــ ٨٢٠ م) تلك الظروف الصعبة وارسل اسطولا حوالى ٨١٧ م/٢٠٢ هـ لمهاجمه دمياط (٣٣١) .

ثم مرت حوالى ست وثلاثين سنه قبل ان يهاجم الروم السواحل المصريه عامه ودمياط خاصه . حدثت خلالها عده تقلبات بين الجانبين الاسلامي والبيزنطي بصفه عامه . واذا كنا قد اشرنا من قبل الى أن المصريين استخدموا أسلوب الهجوم من أجل الدفاع في موقعه ذات الصوارى ، فان الروم انتهجوا نفس الاسلوب في حملة دمياط ٢٣٨ هـ/٨٥٣ م . ولتوضيح ذلك بصورة موجزه ، نذكر أن اللاجئين الذين قدموا من قرطبــة اســتقروا في الاسكندرية ، ثم تمكنوا من الاستيلاء على جزيرة كريت ٨٢٧م/١١٢ هـ ، وفشلت محاولات الروم في استعادتها بحملتى ٨٢٨ م/٢١٣ هـ (٣٣٢) .

ولما كان العرب الأندلسيون في كريت لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر بحر ايجة وشواطئه بالقرصنة ، لذلك أمرت الامبراطورة ثيودورا أرملة الامبراطور ثيوفيل ٨٢٩ ــ ٨٤٢م/٢١٤ ــ ٢٧٧هـ والوصية على ابنها ميخائيل الثالث (٣٣٣) بالاغارة على ســواحل مصر لتخريب ما فيها من دار صــناعة بحرية هامة ــ ترسانة لصناعة السفن ــ كانت تزود عرب كريت بالسفن والعتاد وأحيانا بالرجال (٣٣٤) .

والمعروف ان كريت تتبع أحيانا الروم وأحيانا اخرى كانت تتبع الخلافة العباسية ، وفي فترات تبعيتها للطرف الأخير كانت

تتبـــع من ناحيــة التقسـيم الادارى للدولـة العباسـية اقليم مصر (٣٣٥) .

كانت كريت تمد مصر بعسل النحل والجبن (٣٣٦) وكانت تصدر الى مصر وسوريا الأخشاب وزيت الزيتون (٣٣٧) والراجح أن مصر استخدمت الأخشاب فى دار صناعتها لصـناعة السفن ، التى كانت ترسل منها عددا الى كريت كما كانت تمدهـا أيضـا بالسلاح والعتاد الحربى (٣٣٨) وكل ما يدعم حكامها (٣٣٩) .

قيل ان السبب المباشر لتوجيه حملة الى سواحل مصر فى ذلك الوقت (٨٥٢ م/٢٣٨ هـ) ، هو ما وصــــل الى المسئولين الروم من ان هناك كمية من السلاح موجودة بمدينة دمياط ، أراد المصريون حملها الى كريت « الى أبى حفص صاحب اقريطش »(٣٤٠) ، وعلى ذلك كان هدف تلك الحملة هو قطع الاتصال والمعونة البحرية التى قامت بين مصر ــ مقر الترسانة ــ وجزيرة كريت التى غدت خطرا جسيما يهدد قواعــد الروم البحريــة فى آســيا الصغرى ويهاجمها باستمرار وبانتظام (٣٤١) .

وهكذا هاجـــم أســطول رومى دميــاط فى ٩ ذى الحجـة ٢٣٨ هـ (٣٤٢) / ٢٢ مايو ٨٥٣ م (٣٤٣) وهو تاريخ يدل على ذكاء حـــكام الروم ، وكان والى مصر آنذاك هو عنبســة بن اسحاق (٣٤٤) ، آخر وال عربى تقلد أزمة الحكم فى مصر ، وذلك فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (٣٤٥) .

وهكذا تصادف ذلك الهجوم مع خلو دمياط من حاميتها وقد علل ذلك بسببين : الأول أن عنبسة بن اسحاق أمر الجند الذين بدميــاط أن يحضروا الى الفسطاط عندما اقترب العيد ليتجمل

بهم (٣٤٦) ، والسبب الثانى أن عنبسة أراد ظهور والديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح واحتفل بتلك المناسبة احتفالا كبيرا حتى بلغ به الأمر أن أرسل الى ثغر دمياط وتنيس والاسكندريه وأحضر كل من كان بهم من الجند (٣٤٧) .

هاجم الروم دمياط فقتلوا من أمكنهم قتلة من الرجال وأسروا عددا كبيرا وأخذوا الأمتعة والسلاح وأحرقوا خزانة القلوع وهى شرع السفن ، وأحـرقوا المســجد الجامع بدميــاط وأحرقوا الكنائس (٣٤٨) عنـدئذ هرب الأهــالى « فغرق فى البحر نحو ألفين » (٣٤٩) .

ورغم ما أبداه بعض أهالى دمياط من شجاعة نادرة فى قتال الروم الا ان ذلك لم يغير من النتيجة فقد رجحت كفة الروم (٣٥٠).

هنا تعطينا المصــادر آراء مختلفــة عن مقاومة المصريين لتلك الحملة ، فبينما يذكر (الكندى) ومن اخذ عنه مثل (المقريزى) أن عنبسة بن اسحاق نفر اليهم فى جيشه ونفر معه كثير من الناس فلم يدركوهم ، ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة (٣٥١) أما (ابن تغرى بردى) فيرجع رحيل الروم بالدرجة الأولى الى استماتة أهالى دمياط فى الدفاع عنها (٣٥٢) بينما يعطينا ابن اياس رأيا آخر يؤكد فيه أن المصريين جميعا وقفوا صفا واحدا أمام تلك الحملة حتى أجلوها عن البلاد (٣٥٣) .

أما عن مصير تلك الحملة بعد مغادرتها دمياط فقد اتجهت شرقا لمهاجمة تنيس ، وهى جزيرة فى بحيرة المنزلة تقع بين الفرما ودمياط لكن التيار أفسد خطة الروم الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها ، خشية أن تجنح سفنهم فى الرمال ، ومن ثم اتجهوا الى أشتوم

التى لا تبعد كثيرا عن تنيس ، وكانت مركزا حصينا له سور وأبواب حديدية كان المعتصم قد اقامه فاقتحم الروم ذلك الحصن وخربوا معظمه (٣٥٤) وأحرقوا ما كان به من الالات الحربيه « المجانيق العرادات » (٣٥٥) وأخذوا بعض الأبواب الحديديه وابحروا عائدين الى بلادهم قبل ان تصل الامدادات الاسلاميه من داخل البلاد (٣٥٦) « فلم يعرض لهم أحد » (٣٥٧) .

والحقيقة ، ان الحملة البيزنطية على دمياط حققت هدفها فى الانتقام من مسلمى كريت ، وفوتت عليهم فرصه الاستفاده من اى سلاح أو معدات قد يحصلوا عليها من مصر (٣٥٨) هذا من الجانب الرومى .

أما رد الفعل الاسلامى فقد أمر الخليفة المتوكل ببناء حصن دمياط فى رمضان ٢٣٩ هـ (٣٥٩) الموافق فبراير ٨٥٤ م (١٦٠) كما أمر بتشييد حصنين آخرين احدهما فى الفرما والآخر فى مدينة تنيس (٣٦١) .

فما كان من الروم الا أن أعادوا أسطولهم من جديد الى دمياط لتعويق بناء السفن وأعمال الصيانة التى أمر بها الخليفة ومكثوا فى دمياط حوالى شهرين ينهبون كل ما يقع تحت أبصارهم أو تصل اليه أيديهم (٣٦٢) . عاود الروم مهاجمة دمياط بحملة ثالثة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م ' وكان والى مصر آنذاك يزيد بن عبد الملك بن دينار ، فخرج يزيد الى دمياط مرابطا فى المحرم سنة خمس وأربعين (٣٦٣) وأقام بها مدة « لم يلق حربا » (٣٦٤) فرجع الى الفسطاط فى ربيع الأول من نفس السنة ، لكن بمجرد وصوله الى بنها بلغه أن الروم نزلوا الفرما فرجع بجيشه « فلم يلقهم » (٣٦٥) .

أما فى عهد الطولونيين ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/٨٦٨ ـ ٩٠٥ م(٣٦٦)، فقد كانت مصر قاعدة لقوة عسكرية مستقله وقوة سياسيه مرموقة (٣٦٧) • ومنذ اللحظة الأولى لتولى أحمد بن طولون شئون مصر سنة ٢٥٤ هـ/٨٦٨ م اتجه الى دعم قونه البحرية ليدفع عن نفسه وولايته محاولات الخلافة العباسية استرداد نفوذها المطلق عليها • ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون أسطول مصر (٣٦٨) مما دفع باسل الأول (٨٦٧ ـ ٨٨٦ م (٣٦٩) ٢٥٣ ـ ٢٧٣ هـ) ، امبراطور الروم الى ارسال وفد يطلب ود ابن طولون وحمله بالهدايا القيمة (٣٧٠) •

وما ان وصلت الدولة الطولونية الى مرحلة الشيخوخة حتى بدأ الروم يوجهون أبصارهم اليها من جديد ، وبدأوا يستأنفون هجماتهم البحرية على سواحلها (٣٧١) •

ففى ٣٠٧ هـ/٩١٩ م هاجم الروم دمياط بأسطول مكون من مائتى مركب وأقاموا حوالى شهر يثيرون الفساد والاضطراب على الساحل « ويقتلون ويأسرون » فالتحم المصريون معهم فى عدة معارك (٣٧٢) وعاد الروم لمهاجمة دمياط مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م فدخلوا المدينة وأخذو من فيها وما فيها (٣٧٣) •

أسس محمد بن طغج الاخشيد الدولة الاخشيدية فى ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، فعنى بانشاء المراكب الحربية وعندما انشغل الروم بالحرب مع سيف الدولة الحمدانى وذلك فى الأربعينات من القرن العاشر الميلادى / الثلاثينات من القرن الرابع الهجرى ولكى يحموا أنفسهم من ذلك العدو الجديد اضطروا للدخول فى علاقات ودية مع خلافة بغداد ومع الاخشيديين فى مصر (٣٧٤) ؛ لذلك لم نقرأ عن حملات للروم وجهت الى مصر فى تلك الفترة •

لكن كدأب الروم دائما كلما لمحوا بادرة صغيرة من بوادر الضعف في شئون مصر سارعوا بارسال حملة بحرية اليها فقد انتهز الروم الفتن التى سادت مصر بعد وفاة كافور الاخشيدى (٣٧٥) ، وهاجموا دمياط فى ١٠ رجب ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م فى أكثر من عشرين مركبا فقتلوا وأسروا عددا من أهلها (٣٧٦) ٠

بقيام الدولة الفاطمية كان اهتمام الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ/٩٥٢ ـ ٩٧٥ م) بالبحر شديدا حتى ان أهالى جزيرة كريت استنجدوا به ضد تهديدات الروم (٣٧٧) ٠

هذا وقد وصلت البحرية المصرية فى عهد الخليفة العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ/٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) درجه كبيرة من التقدم مكنته من اعداد حملة بحرية لغزو بلاد الروم ؛ غير أن تلك الحملة لم تحقق الغرض الذى كانت تجهز من أجله لاحتراق مراكبها (٣٧٨) عندئذ أرسل امبراطور الروم باسل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م/٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ) رسله الى الخليفة العزيز لطلب الصلح وحملهم بالهدايا فوافق الخليفة على الصلح (٣٧٩) لكن الهدنة لم تستمر طويلا بسبب الصراع الفاطمى الحمدانى الذى تحول الى صراع فاطمى بيزنطى بسبب استنجاد ولاة حلب الحمدانيين بالبيزنطيين (٣٨٠) ٠

تلت ذلك فترة تأرجحت فيها العلاقات المصرية الرومية بين العلاقات الودية والعلاقات العدائية حتى دخلت دولة الروم فى مرحلة حرجة من تاريخها « بدأ فيها موكب الغروب ليسجل بداية النهاية لتلك الدولة »، وهى الفترة الممتدة من ١٠٥٧ـ١٢٠٤م(٣٨١) ٠ ويكفى للتدليل على مدى الهزات التى أصيبت بها دولة الروم آنذاك أن نذكر هزيمتهم فى موقعة مانزيكرت ١٠٧١ م/٤٦٣ هـ ، على يد

السلاجقة وما ترتب على تلك الموقعة من نتائج خطيرة بالنسبة لدولة الروم ذلك انها لا تقل عن معركة اليرموك ، لأن مانزيكرت قررت مصير آسيا الصغرى واليرموك قررت مصير الشام • فلقد كانت خسارة دولة الروم لولايات شرق آسيا الصغرى دليلا وبرهانا على قرب موت دولتهم ، أو بداية النهاية لحياتها (٣٨٢) •

والواقع انه بعد موقعة مانزيكرت طلبت دولة الروم النجدة من الغرب الأوربى ، لأن الموقعة كانت دليلا على عدم مقدرة الروم على الدفاع عن بوابة أوربا الشرقية وهى القسطنطينية وتكرر نفس الطلب على عهد الامبراطور الكسيوس كومنين ١٠٨١ ـ ١١١٨ م (٣٨٣) •

لم تلبث الأحداث أن تطورت بسرعة وبدأ وصول الحملة الصليبية الأولى الى الشرق وعقدت اتفاقية ١٠٩٧ م بين البيزنطيين والصليبيين (٣٨٤) ، فماذا كان موقف دولة الروم من مصر وسواحلها آنذاك ؟ خصوصا بعد أن لمسنا مدى حرص دولة الروم باستمرار على عدم التفريط فى مصر •

هنا يشير (رنسيمان) الى أن الامبراطور الكسيوس كومنين نصح الصليبيين أثناء وجودهم بالقسطنطينية بالوصول الى شىء من التفاهم مع الفاطميين فى مصر وبالفعل أرسلت سفارة صليبية لهذا الغرض من نيقية (٣٨٥) •

وقبل أن نسترسل فى تتبع تلك السفارة ونتائجها نود أن نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على هدف الكسيوس كومنين الحقيقى من وراء نصيحته تلك • وهنا لن نجد تفسيرا أصدق مما دونته ابنته الأميرة المؤرخة آنا كومنينا نفسها عندما قالت :

« انه عندما كان يتصارع عدوان للروم بعضهما مع بعض ، كان من الضرورى أن يساعد الامبراطور والدها ـ الأضعف ولم يكن هدفه من وراء ذلك أن تزداد قوته لكن لكى يتغلب على خصمه الآخر ثم بعد ذلك يستطيع الامبراطور أن ينتزع البلد من المنتصر ويجعلها ضمن ممتلكاته ويتلو ذلك أن يأخذ بالتدريج بلدا بعد آخر » (٣٨٦) والحقيقة ان ذلك كان الهدف البعيد الذى رمى اليه الكسيوس كومنين من وراء نصيحته للصليبيين ان صح تسليمنا بها • وعلى ذلك يتحالف الصليبيون والفاطميون ويقضى الحليفان على الأتراك السلاجقة ، عندئذ تسنح الفرصة لالكسيوس فيسهل عليه استعادة ممتلكات الروم من أيدى السلاجقة ، ثم يأتى بعد ذلك دور الفاطميين بعد أن تزداد قوته وسطوته والراجح أن ذلك كان السبب فى عدم وجود أى احتكاكات رومية مصرية فى ذلك الوقت •

وثمة رأى يذكر أن الوزير الفاطمى الأفضل نظر الى الصليبيين على أنهم « جنود مرتزقة لامبراطور الروم » (٣٨٧) ، وعليه فقد دخل معهم فى مفاوضات للتحالف ضد السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين وهذا يوضح لنا أنه حدث فى ذلك الوقت تقارب بين كل من أولى الأمر فى مصر وبين امبراطور الروم ومما يعضد ذلك الرأى أن ثمة اتفاقا سريا تم بين امبراطور الروم وبين الفاطميين فى مصر ، وقد شاء سوء الحظ أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الامبراطور الى الوزير الأفضل فى أيدى الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة (٣٨٨) •

التحالف بين الصليبيين والروم ضد مصر :

ظلت العلاقات المصرية الصليبية والمصرية الرومية مستتبة الى حد ما فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، الثانى

عشر الميلادى ، فقد ذكر المؤرخ ابن ميسر أنه فى ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م « وصل رسول الفرنجة يطلب الصلح ورسول من صاحب القسطنطينية يطلب مراكب نجدة له على صاحب صقلية » • وعندما خرجت القوات المصرية فى البر والبحر فى تلك السنة عادت بكثير من الأسرى منهم شقيق صاحب جزيرة قبرص فأكرمه الصالح ـ طلائع بن رزيك وزير مصر آنذاك ـ وسيره الى امبراطور الروم (٣٨٩) •

كما ظل الاتصال مستمرا بين مملكة بيت المقدس ودولة الروم أثناء حكم بلدوين الثالث وعمورى الأول ، بل ان علاقات الروم مع الصليبيين ظلت حسنة طيبة حتى نهاية عهد الامبراطور مانويل • وتزوج كل من بلدوين وعمورى من بيت كومنين ، كما تزوج مانويل من ماريا أميرة أنطاكية وابنة ريموند (٣٩٠) •

لم يلبث بلدوين الثالث أن هدد بغزو مصر حوالى ١١٦٠ م (٣٩١) / ٥٥٦ هـ أو ١١٦١ / ٥٥٧ هـ (٣٩٢) منتهزا فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز ٥٥٥ هـ لكن الفاطميين استطاعوا أن يثنوه عن محاولته مقابل دفع ضريبة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار (٣٩٣) •

استفاد بلدوين الثالث من حملته تلك على مصر بأن أحيط علما بفكرة حقيقية عن مدى ضعفها وأيضا بمدى أهميتها الاستراتيجية • وقد جهز نفسه لعملية سياسية وعسكرية لاسترجاع غزة وأخذ عسقلان • وقد اتبعت تلك السياسة خلال السنوات العشر التالية ، أى خلال فترة حكم أخيه وخليفته عمورى الأول (٣٩٤) •

فبوفاة بلدوين الثالث واعتلاء أخيه عمورى عرش مملكة بيت المقدس ، وبالتحديد فى مستهل حكمه ، تذرع بعدم وفاء الفاطميين

بوعدهم بدفع الضريبة السنوية وغزا مصر في سبتمبر ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م ، لكن المصريين نجحوا في اجباره على الانسحاب (٣٩٥) .

كان أخطر ما يخشاه عموري آن نقع مصر في قبضة نور الدين محمود السني ، وبذلك تطوق الامارات الصليبية ، هذا بالاضافة الى أهمية مصر وميناءها العظيم الاسكندرية . ولقد كان ذلك هو سبب أصرار عموري فيما بعد على الاندفاع جنوبا (٣٩٦) .

بينما أثارت جرأة عموري في مهاجمة مصر مخاوف نور الدين محمود ، الذي كان قد استولى على دمشق ١١٥٤ م/٥٤٩ هـ وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لاتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحيــة واحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبيــة من ناحيتي الشمال والجنوب من ناحية أخرى (٣٩٧) .

هنا تدخل القدر ليسرع بتحقيق رغبات كل من نور الدين وعموري في مصر . وذلك عندما قام الصراع بين شاور وضرغام ، وتغلب الأخير على الأول وقتل ولده ، تولى الوزارة مكانه (٣٩٨) فخرج شاور الى بلاد الشام مستصرخا ومستنصرا بنور الدين(٣٩٩) فأرســل أســد الدين شيركوه الى مصر « قضــاء لحق الوافــد المستصرخ » (٤٠٠) ويقال ان شاور كان قد وعد نور الدين في مقابل ذلك أن يكون له حصته في مصر « ويكون شاور متصرفــا تحت أمره ونهيه واختياره » (٤٠١) .

أما ضرغام فانه اتجه لطلب النجدة من الصليبيين في نفس الوقت ، وتعهد لعموري بأن تصبح مصر تابعة للصليبيين ، مقابل مساعدته ضد شاور (٤٠٢) .

لكن الأحداث تطورت بسرعة وجاءت الرياح بعكس ما تشتهى السفن ، فقد قتل ضرغام بواسطة جيش أسد الدين شيركوه مبعوث نور الدين (٤٠٣) وعاد شاور لكرسى الوزارة وتنكر لكل وعوده لنور الدين ، بل انه استنجد بالصليبيين ضده (٤٠٤) وخوفهم من نور الدين وأنه ان ملك مصر فلن ينعموا بالاستقرار (٤٠٥) وهكذا تقدم عمورى بحملة جديدة الى مصر مستعينا فيها بجموع الصليبيين الكثيرة التى وفدت لزيارة بيت المقدس فى ذلك الوقت (٤٠٦) .

لكن ما ان وصلت الى مسامع الصليبيين أخبار استيلاء نور الدين على حارم حتى راسلوا أسد الدين فى الصلح وتسليم ما بيده من البلاد للمصريين فوافق لعدم معرفته « بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل » (٤٠٧) وقلة الأقوات معه (٤٠٨) ، بالاضافة الى احساسه بالعجز فى ذلك الوقت « عن مقاومة الفريقين فصالحهم » (٤٠٩) .

وهكذا انتهت تلك الجولة وعاد الجميع وكلهم رغبة فى العودة ثانية الى مصر فقد كان عمورى يطمع فى العودة الى مصر لينعم بثرائها وموقعها الممتاز ، أما نور الدين فكان أشد ما يخشاه الخوف من تحالف بين الروم والصليبيين يضعه بين فكى الكماشة ، يضاف الى ذلك رغبته الملحة فى ضم مصر الى حظيرة المذهب السنى والسيادة العباسية .

بالفعل أمر نور الدين أسد الدين شيركوه بالتوجه الى مصر ، فما كان من شاور الا أن عاد الى الاستنجاد بالصليبيين . وكان أسد الدين قد وصل بجيشه بسرعة واتجه الى صعيد مصر وانتصر فى معركة البابين على القوات المصرية والصليبية فى جمادى الأولى ٥٦٢ هـ (٤١٠) مارس ١١٦٧ م (٤١١) وهكذا رجع شاور والملك

عمورى الى القاهرة « فى أنحس الأحوال » (٤١٢) . أما أسد الدين ، فقد سار الى الاسكندرية وتسلمها من أهلها واناب عنه بها ابن أخيه صلاح الدين (٤١٣) . فلما تبعه الصليبيون حشد له أسد الدين « العموم والخصوص... فرحلوا عن الحصار (٤١٤) . وعاد شيركوه والصليبيون الى بلاد الشام بعد عقد صلح بينهم وبين المصريين أواخر ١١٦٧ م /٥٦٢ هـ (٤١٥) .

كان الملك عمورى الأول ، فى بداية حكمه يرى فى الروم عدوا لا يقل خطورة عن المسلمين ، وعليه فقد بنى آماله على لويس السابع ملك فرنسا، الا أنه بمرور الوقت اتضح له أنه من الواجب عليه الا ينتظر أى نجدة من فرنسا (٤١٦) .

لم تلبث العلاقات بين الصليبيين والروم أن دخلت فى دور ايجابى فعال عن طريق اتمام بعض الزيجات بين الجانبين ، وعن طريق العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين . فقد تزوج بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من حفيدة الامبراطور مانويل كومنين بينما تزوج مانويل من أخت بوهيموند . كذلك تزوج الملك عمورى من مارى ابنة حنا كومنين ، فى كنيسة صور فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧م ، وذلك بعد رجوع عمورى من حملته الثالثة على مصر مباشرة (٤١٧) .

هكذا دعمت تلك الزيجات الروابط بين الصليبيين والروم ، وشجعت الجانبين على الدخول فى علاقات دبلوماسية تزيد من تقوية تلك الروابط ولو لفترة محدودة .

ومما لاشك فيه أن عمورى كان قد أدرك بعد احتكاكه عن قرب بمصر أكثر من مرة أنه فى حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء عليها ، بل وفى المحافظة على مركزه بها ، الى جانب القدرة على مواجهة نور الدين المتكررة(٤١٨) .

لذلك لم يتوان عن الزواج من مارى كومنين · أما أباطرة الروم فلم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية ، وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول حول الفوز بمصر ، لذلك لم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ م/٥٦٣ هـ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك ، بحيث تقوم القوات الرومية الصليبية بفتح مصر ، على أن يأخذ الامبراطور فى مقابل ذلك جزءا من مصر ، فضلا عن أنطاكية (٤١٩) وقد أورد المؤرخ (وليم الصورى) نصا لتلك الرسالة التى بعث بها الامبراطور الى الملك عمورى (٤٢٠) ·

وسواء أكان الملك عمورى هو الذى بدأ المفاوضات من أجل مصر (٤٢١) أم أن الامبراطور نفسه هو الذى بدأها (٤٢٢) فان الملك عمورى أرسل بعثة من قبله الى القسطنطينية ، كان أحد أعضائها المؤرخ المشهور (وليم الصورى) رئيس أساقفة صور (٤٢٣) ·

نجحت السفارة فى مهمتها ووافق الامبراطور على كل بنود المعاهدة التى عرضت عليه وبدأ وليم ورفاقه رحلة العودة الى بيت المقدس وذلك « فى اليوم الأول من أكتوبر » ١١٦٨ م (٤٢٤) · واذا كان (وليم الصورى) لم يذكر لنا تفاصيل المعاهدة التى تم الاتفاق عليها ، فان (بريبة) قد ذكر لنا باختصار أنها نصت على « اقتسام مصر » (٤٢٥) ·

ومهما يكن من أمر فانه قبل أن تعود البعثة الملكية من عند امبراطور الروم الى بيت المقدس ، كان الملك عمورى قد خرج فى حملته الرابعة على مصر ، والتى بدأت فى آخر أكتوبر ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ (٤٢٦) ، والتى كان المحرك الأول لها رئيس الاستبارية (٤٢٧) ·

اذا كانت الآراء قد تضاربت حول التحرك المفاجيء لعموري بتلك الحملة ، فالبعض ذكر أنه رفض أن يشاركه الروم في اقتسام مصر (٤٢٨) والبعض الآخر ذكر انه اثير بواسطة الاشاعات التى انتشرت فى مملكة بيت المقدس والتي تفيد ان شاور كان لايزال يناشد نور الدين سرا لمساعدته ضد الصليبيين (٤٢٩) .

والحقيقة أن الملك عمورى تردد بعض الشيء فى توجيه تلك الحملة ، وعندما ألح عليه الحزب المتطرف المؤيد للحرب (٤٣٠) رد عليهم بأنه لا يريد أن يتوجه اليها ، لأن أموالها تساق اليهم فيتقوون بها على نور الدين ، أما اذا صمموا على قصدها « فان صاحبها وعسكره وعامة أهل بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها » (٤٣١) أو يسلمونها الى نور الدين وفى ذلك هلاك الصليبيين (٤٣٢) ؛ لكن تحت وطأة الضغوط الشديدة وافق عمورى « على كره شديد » (٤٣٣) على التوجه بالحملة .

هكذا جاء الصليبيون الى مصر تلك المرة « ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا فى البلاد » (٤٣٤) واذا كانت تلك الحملة ذات سمات مميزة عما سبقها من حملات للملك عمورى على مصر ، باعتبارها تحركت بأهداف تخص الصليبيين وحدهم دون استنجاد من داخل مصر ، ولأنها كانت ترمى الى السيطرة على مصر لا حمايتها ، لذا كانت أصداء اخفاقها كبيرة لذا أفاضت المصادر العربية فى ذكر ما استحقته تلك الحملة من الازدراء والشماتة (٤٣٥) ، فقد أبرز ابن الأثير مدى ضيق عمورى من نتيجة الحملة بقوله : « وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر » (٤٣٦) .

تلا ذلك تخلص أسد الدين شيركوه من شاور ، عن طريق ابن أخيه صلاح الدين ، وذلك بعد أن أحس بكثرة مماطلاته

وبالفعل قتل شاور شيركوه الوزارة (٤٣٧) لكنه لم يستقر فيها سوى شهرين وخمسة أيام حتى توفى فى آخر جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ (٤٣٨) / آخر مارس ١١٦٩ م (٤٣٩) ٠

والحقيقة أنه كرد فعل لتولى شيركوه الوزارة فى مصر وبالتحديد فى بداية ١١٦٩ م ، تكونت سفارة أرسلت من بيت المقدس الى أمراء الغرب المسيحيين مدفوعة ــ وفقا لتعبير وليم الصورى ــ « بهول المحنة » التى كانت المملكة ترزح تحتها آنذاك ٠

وحمل السفراء رسائل من الملك ومن القساوسة الى امبراطور ألمانيا وملوك كل من فرنسا وانجلترا وصقلية بل لكل النبلاء والأمراء البارزين فى الغرب ، لكن ما ان أبحرت تلك البعثة حتى هبت عاصفة شديدة كادت تغرق سفينتهم فعادوا بصعوبة بعد ثلاثة أيام ٠ عندئذ تكونت سفارة أخرى من رئيس أساقفة صور وأسقف بانياس وبالفعل نجحت فى الوصول للغرب ، لكنها لم تحقق أى نجاح (٤٤٠) ٠

هكذا لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى دولة الروم وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها ٠ وكان امبراطور الروم لا يزال تواقا لانجاز ما تعهد به فى الاتفاق الذى عقده من قبل مع وليم الصورى فى سبتمبر ١١٦٨ م (٤٤١) ٠ وعلى ذلك وجد الملك عمورى فى التعاون الذى وعد به الامبراطور مانويل كومنين ضالته المنشودة (٤٤٢) على عكس ما كان يظن ، خصوصا بعد موقفه المتسرع من حملته الرابعة كما أوضحنا من قبل ٠

وبالفعل أرسل امبراطور الروم أسطولا كبيرا للصليبيين ، أعطانا وليم الصورى وصفا تفصيليا له ، تحرك الأسطول فى ١٠ يوليو ١١٦٩ م (٤٤٣) ، وفى أواخر سبتمبر ١١٦٩ دخل الأسطول

الرومى ميناء صور ثم نقدم الى عكا ليكون تحت تصرف ملك بيت المقدس (٤٤٤)٠

والحقيقة أننا اذا نظرنا الى تاريخ تحرك أسطول الروم من موانيه الأصلية حتى دخول ميناء عكا نجد أنه تأخر عن القيام بمهمته حوالى شهرين ، يقال ان عمورى أعاد فيهما المفاوضات من جديد مع الروم وكان مترددا خلالها (٤٤٥) ٠

هكذا اجتمعت القوات الرومية والصليبية على شواطىء بلاد الشام استعدادا للهجوم على مصر التى كانت تمثل فى نظرهم بؤرة الخطر على الوجود الصليبى فى ذلك الوقت ، خصوصا بعد تولى صلاح الدين الأيوبى ـ الذى كان يعشق الجهاد ـ الوزارة فى مصر (٤٤٦) ٠

بعد أن اطمأن عمورى على شئون المملكة ، أمر « كل الجيش الصليبى والرومى » بالاجتماع فى ١٥ أكتوبر ١١٦٩ م فى عسقلان، وكان أسطول الروم قد أبحر قبل ذلك بعدة أيام واتجه نحو مصر (٤٤٧) ٠

ويقال ان قائد الأسطول الرومى كان غاضبا أشد الغضب لتأخر تحركهم الى مصر وأنه عرض على عمورى أن ينقل معظم قوات الجيش الصليبى بواسطة سفنه ولكنه قوبل بالرفض ٠ ومن المرجح أن غضب قائد الأسطول كان راجعا الى أن التموين الذى كان قد زوده به الامبراطور كان يكفى فقط لمدة ثلاثة أشهر ، ظنا منه أنها حملة قصيرة ، لكن لم تلبث الأشهر الثلاثة أن قاربت على الانتهاء دون أن يتخذ الملك عمورى أى خطوة ايجابية بالنسبة للحملة المرتقبة (٤٤٨) ٠

وصل الجيش البرى الى دمياط فى ٢٧ اكتوبر ١١٦٩م (٤٤٩) أوائل صفر ٥٦٥ هـ (٤٥٠) وبدأ فى حصار المدينة ، لكنه لم يبدأ الهجوم انتظارا لوصول الأسطول الرومي الذى تأخر وصوله ثلاثة أيام بسبب « هبوب رياح عاتية » أعاقت حركته بعض الشيء وفى النهاية هدأت الأمواج ووصل الأسطول عند مدخل النهر (٤٥١) ٠

ما ان حاصر المهاجمون دمياط ، حتى دعا حاكم المدينة « شمس الخواص » ياروقتاش صلاح الدين لنجدته وأقفل مدخل الميناء بواسطة الأواصر الحديدية الثقيلة (٤٥٢) ٠ وكان أهالى دمياط قد أصابهم اليأس فى بادىء الأمر ، لكن صلاح الدين أرسل اليهم ابن أخيه تقى الدين وخاله شهاب الدين (٤٥٣) كما أرسل القوات فى النيل « وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر » (٤٥٤) ٠

كما تابع صلاح الدين فى نفس الوقت ارسال رسله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف وأنه « ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وان سار اليها خلفه المصريون من مخلفيه ومخلفى عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه » (٤٥٥) ٠

هنا يجدر بنا أن نقول ، انه يكفى دمياط بل مصر كلها فخرا أن جيوش الحليفين الكبيرين ، الصليبيين والروم ، بكل ما جهزوا وأعدوا وخططوا ودبروا ، وجدوا أنفسهم منذ اللحظة الأولى فى شدة الحاجة الى اعادة النظر فى خططهم العسكرية ٠

ويبدو أن المهاجمين لم تكن تعوزهم المعدات والقوات الاضافية فقط بل كان ينقصهم أيضا البراعة والذكاء الحربى المطلوب فى مثل تلك المواقف ٠ وذلك بشهادة مؤرخيهم أنفسهم ،

فقد كتب (وليم الصورى) : « ان قواتنا أظهرت قلة براعة ودكاء عن المعتاد . فقد أمر القادة بوضع احد الابراج الجديدة بجوار سور المدينة فى مكان غاية فى الحصانه ، فى الوقت الذى كان هناك أماكن عديدة من السور أقل تحصينا وكان من الممكن أن تكون أسهل فى السقوط لولا وضع البرج المتحرك فى البقعة الأكثر تحصينا ، وفى مكان ملىء بالصعوبات عن أى مكان آخر ، لذا كان التخريب أكثر على كنيسة الأم المقدسة فقط التى كانت ملاصقة للسور ، لا على الأهالى ومساكنهم » (٤٥٦)

فاذا أضفنا الى التردد وعدم البراعة فى فن القتال عنصرا جديدا تمثل فى نقص المؤن بين رجال الأسطول الرومى ، الذى سبق أن أشرنا الى أنه كان مجهزا بمؤن تكفيه لمدة ثلاثة أشهر فقط ، نجد أن الروم بدءوا يعانون من المجاعة ويتساقطون ، ودون أن يوفر لهم حلفاؤهم الصليبيون أى مصدر تموين (٤٥٧) .

هنا لا يملك (وليم الصورى) الا أن يدافع عن أتباع الملك من الصليبيين فيعطى تبريرا لعدم تقديمهم المؤن لحلفائهم الروم بقوله انه : « كان لدى الصليبيين مصدر كاف من الخبز والمواد الغذائية الأخرى ، ولكن اليقظة للمستقبل جعلتهم يقتصدون فيما لديهم رغم قلته ، لأنهم لو أسرفوا فى اقتسام تلك المؤن مع هؤلاء المعدمين ــ يقصد الروم ــ فسوف يكون ذلك خطرا عليهم ، لأنهم سيصبحون حتما يوما ما فى شدة الحاجة » (٤٥٨) .

ووسط ذلك الجو المشحون بعدم الاخلاص والتنافر بين الروم والصليبيين (٤٥٩) ظهر عامل جديد ليوسع شقة الخلاف بين الطرفين بل ليضرب بعرى التحالف الصليبى الرومى عرض الحائط ، فقد هطلت الأمطار بشدة بسبب هبوب الرياح العاتية فأضافت

عاملا جديدا من عوامل القلق والازعاج وأغرقت جميع خيام الصليبيين (٤٦٠) .

اذا كان ذلك هو وضع الجيش الصليبي الرومي ، فماذا كان وضع المصريين عامة وأهالي دمياط خاصة ؟

كان صلاح الدين يرسل من القاهرة المدد بعد الآخر ، ورغم تشديد المهاجمين للحصار ، الا أن الأهالي صبروا « وصابروا وتآزروا وأمسوا على القتال وأصبحوا وتاجروا وربحوا وهددوا بنيان الكفر المرصوص وأهلكوا بعشرات الألوف ... » (٤٦١) .

فطن المصريون الى خطة ناجحة أسرعت بوضع الفصل النهائي وانزال الستار على تلك الحملة . وذلك أنهم استفادوا من سرعة جريان مياه النيل بسبب هبوب رياح جنوبية قوية فأخذوا قاربا ذا حجم عادي مملوء حتى نهايته بالأخشاب الجافة والقار وقذفوا عليه بعض المواد المشتعلة ، فاشتعل على صفحة النهر وحملته الأمواج الشديدة في اتجاه الأسطول الراسي عند مصب النهر في البحر المتوسط ، عندئذ اشتعلت النار بسرعة وامتدت الى المواد القابلة للاشتعال التي كان القارب محملا بها ثم أبحر القارب المشتعل في اتجاه الأسطول فشبت النار في سفنه المتراصة (٤٦٢) .

بمرور الوقت وتأزم الموقف ، قرر قائد أسطول الروم ضرورة القيام بهجوم سريع على دمياط مهما كان في الأمر من مخاطر ، بالرغم من أنه أرسل في بادىء الأمر ليكون تحت امرة عموري . هنا بدأ قادة الجيش الصليبي يتهامسون فيما بينهم ،

بأن حماس قائد أسطول الروم يرجع الى انه كان يرغب في ان يجعل دمياط جزءا من غنائم الامبراطورية (٤٦٣) ٠

وعليه فقبل أن ينفرد قائد الأسطول بهجومه على دمياط ، وصلتـــه أخبـار مفـاوضات الملك عمورى من أجـــل الصـــلح والانسحاب (٤٦٤) وتم بالفعل توقيع معاهدة للسلام والصلح بين الجانبين ، الصليبي والمصرى ، ووافق الروم على شروطهـــا (٤٦٥) وهكذا استمر حصار الصليبيين والروم لدمياط حوالى شهرين من نهاية أكتوبر حتى نهاية ديسمبر ١١٦٩ م (٤٦٦) ٠

هكذا رحل الصليبيون والروم خائبين خاسرين « وحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم » (٤٦٧) ، ويقال انه عند عودة الصليبيين الى بلادهم وجدوها خاوية خربة وأهلها بين قتلى وأسرى ، فانطبق عليهم المثل القائل : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » (٤٦٨) ٠

أما القوات الرومية فقد أبحرت عائدة فى حالة من الاضطراب والفوضى الشديدة (٤٦٩) ٠ والراجح أن ذلك كان راجعا بالطبع الى سوء حالتهم الصحية ، الى جانب انخفـاض روحهم المعنويـة أيضا٠ وفجأة هبت ريح عاتية أدت الى تحطيم غالبية قطع الأسطول الباقية ، وقذفت بحطامها على الشـــاطيء « وهكذا غرق كل شيء تقريبـــا » (٤٧٠) ٠

هكذا جاء تعليق (لين بول) أصـــدق ما يكون على ما لحق الأسطول الرومى من ضرر فى ذلك الوقت حين قال : « ألقيت جثث موتى الروم على الشـــاطيء الذى قـــدموا من أجـــل الاســـتيلاء عليه » (٤٧١) ٠

والواقع ، انه بقدر ما كشفت حملة الصليبيين والروم على دمياط ٥٦٥هـ/١١٦٩م من فرقة وتنافر في الاتجاهات بين الحليفين، بقدر ما أبرزت مدى الترابط بين المسلمين في الشرق ، ولو في ذلك الوقت على الأقل ، فقد تناسى الجميع الى حد ما خلافاتهم المذهبية وجعلوا الدفاع عن الاسلام هو هدفهم الأسمى ، فهاهو نور الدين السني لم يبخل بارسال كل ما من شأنه أن يعلي كلمة الاسلام والمسلمين في مصر ، دون النظر الى وضع مصر آنذاك ضمن دائرة الخلافة الفاطمية الشيعية ٠

نعود مرة أخرى الى الملك عمورى بعد وصوله الى مملكته في أواخر ديسمبر ١١٦٩م ، هل عاوده الحنين الى الدخول في مخاطرة جديدة على أرض مصر ؟ وماذا كان موقف الروم من مصر بعد تلك الحملة التى ذاقوا فيها الأمرين ؟

عاود عمورى الاتصال بالغرب الأوربى من جديد « ليتوسل اليهم أن يرسلوا حملة صليبية جديدة » (٤٧٢) الى الشرق لانه لم يجرؤ فى ذلك الوقت بالذات ان يطلب النجدة من امبراطور الروم ؛ لأن النفوس لم تكن صافيـة تماما بسبب ظروف حملتهما المشتركة على دمياط ٥٦٥ هـ/١١٦٩ م ٠

لكن كل ما عادت به سفارته من الغرب ١١٧١ م هو « وعود مبهمة غامضة عن ارسـال نجدات (٤٧٣) دون أن تنجز شـيئا ايجابيـا » (٤٧٤) ٠

لذا لم يلبث عمورى أن وجد نفسه مرة ثانية فى حاجة ملحة الى الالتجاء الى امبراطور الروم (٤٧٥) وبالفعل غادر المملكة بنفسه فى ١٠ مارس ١١٧١ م (٤٧٦) متجها الى دولة الروم ٠ وهناك تم

الاتفاق مع الامبراطور على أن الأخير سيتكفل بالمساعدة البحرية والماليـــة فى أية حملة مقبلة ضـــد مصر ، وهكذا غادر الملك القسطنطينية فى ١٥ يونية وكله أمل فى المستقبل (٤٧٧) ٠

لكن مهما كانت الشروط ومهما كان الاختلاف فى مدى نجاح تلك السفارة ، فان ما نود أن نؤكده هنا هو أنه لم ترسل حملات مشتركة ـ صليبية روميـة ـ بعـد ذلك ضـد مصر ، وان حملة ١١٦٩ م كانت آخر حملة من ذلك النوع ٠

هكذا توقف المد الرومى على مصر من جهة البحر المتوسط ، فلم نعثر فى ثنايا المصادر العربية والأجنبية على مجرد اشارة لأية حملة على السواحل المصرية ٠ والراجح أن ذلك يرجع الى العلاقات الودية التى دخلت فيها مصر مع دولة الروم فى عهد صلاح الدين الأيوبى ٠ ولو أن الود لم يثمر بالمرة على حد تعبير صلاح الدين فى احدى رسـائله للخليفة العباسى فى بغداد « والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضر أن يكون عدوا » ٠

المصـادر والمراجـع

(أ) المصادر العربية

ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٢ م) .

أبو الحسن على بن أبى الكرم محمـد بن عبـد الكريم بن عبد الواحد

(أ) الكامل فى التاريخ ، ج١ بيروت ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م .

(ب) التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد .

٢ ـ ابن اياس : (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) .

أبو البركات محمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، من سلسلة كتاب الشعب ، ج ١ .

٣ ـ ابن أيبك الدوادارى : (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .

أبو بكر عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع . الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .

٤ ـ ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) ٠

جمال الدين أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٠

٥ ـ ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٢٤ م) ٠

بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ، تحقيق د : جمال الدين الشيال ، سلسلة تراثنا الطبعة الأولى ١٩٦٤ ٠

٦ ـ ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م) ٠

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، فتوح مصر وأخبارها طبعة ليدن ١٩٣٠ ٠

٧ ـ ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) ٠

عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية فى التاريخ تحقيق ومراجعة محمد عبد العزيز النجـــار ، الرياض ٠

٨ ـ ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م)

محمد بن على بن يوســـف بن جلب : أخبـــار مصر / ج٢ مطبوعات المعهـــد الفرنسى الخاص بالعاديات الشرقيـــة بمصر ١٩١٩ ٠

٩ ـ ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) ٠

جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب فى أخبـــار بنى أيوب ، ج١ تحقيق د٠ جمال الدين الشيال ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ ٠

١٠ ـ أبو شامه : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) ٠
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل : الروضتين فى أخبار الدولتين ، رواية الامام مجد الدين أبى المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى ، ج١ ، ٢ دار الجيل بيروت ٠

١١ ـ البلاذرى : (ت حوالى ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ٠
أبو العباسى أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، حققه وشرحه عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، بيروت ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م ٠

١٢ ـ البندارى : (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) ٠
قوام الدين الفتح بن على : سنا البرق الشامى ، تحقيق الدكتور رمضان ششن ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧١ ٠

١٣ ـ السيوطى : (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)
جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ٠

١٤ ـ الطبرى : (ت ٣١٠ هـ/١٩٢٢ م)
محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، ص ٤ ، ٥ ، دار المعارف بمصر ٠

١٥ ـ الكندى : (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)
أبو عمر محمد بن يوسف : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ٠

١٦ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ٠

تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ٠

١٧ ـ الواقدى : (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)

أبو عبد الله بن عمر : فتوح الشـــام / ج ٢ دار الجيـــل مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م ٠

١٨ ـ اليعقوبى : (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)

أحمد أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح : تاريخه ، المجلد الثانى ، بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م ٠

(ب) المراجع العربية والمعربة

١ ـ ابراهيم أحمد العدوى (الدكتور)

الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنـــة البيان العربى ٠

٢ ـ أرنست باركـر :

الحروب الصليبية ، نقله الى العربية الدكتور السيد الباز العرينى ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية بيروت لبنان ٠

٣ ـ أسد رستم (الدكتـــور)

الروم ، سياستهم وحضارتهـــم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ج١ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٥ ٠

٤ ـ اسمت غنيم (الدكتورة)

الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المجمع العلمي بجده ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٥ ـ السيد الباز العريني (الدكتور) .

مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦١ .

٦ ـ حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)

تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ .

٧ ـ حسنين محمد ربيع (الدكتور)

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٨ ـ زامبور : (المستشرق)

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ .

٩ ـ سعاد ماهر (الدكتورة) .

البحرية في مصر الاسلامية وآثارها ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

١٠ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)

(أ) بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ .

(ب) الحركة الصليبية ، ج١ ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٣ .

١١ ــ سيدة كاشف (الدكتورة)

(أ) مصر في فجر الاسلام ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ .

(ب) مصر في عصر الاخشيديين ، الطبعة الثانية ١٩٧٠

(ج) العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى ، كلية البنات بالرياض للعام الجامعى ٩٥/١٣٩٦ هـ .

١٢ ــ عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٠ .

١٣ ــ على ابراهيم حسن : (الدكتور)

مصر فى العصور الوسطى : الطبعة الخامسة ، مطبعة السعادة ١٩٦٤ .

١٤ ــ وسام عبد العزيز فرج (الدكتور)

العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الاسكندرية ١٩٨١ .

(ج) المصادر والمراجع الأجنبية

1. **Anna Comnena**

The Alexied, translated by Elizaabeth As Dawas London. **1967.**

2. Brehier (L.) Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.

3. Batler (A.J.) D. Litt, F.S.A.
The Arab conquest of Egypt and the last thirty years of the roman dominion Oxford 1902.

4. Canard (M.) « Byzantium and the muslim world to the Middle of Eleventh Century », Cambridge Medieval History. V. VI, Byzantine Emfire, part 1, Chapter XVII.

5. Fahmy (A.M.) (Doctor) :
Muslim sea-power in the Eastern Mediterranean From the seventh to the Tenth Century A.D., National Publication printing house Cairo U.A.R.

6. Grégoire (H.) : The Amorians and Macedonians 842-1025 » Cambridge Medieval History, V. IV Part. Chapter IV.

7. Grousset (R): l'Empire du Levant, Paris 1949,

8. Lane poole (s) : Saladin and the fall of the Kingdom of jerusalem, G.P. putnan's Sons New York, London.

9. Lemerlē (P.) : le monde de Byzance Histoire et Institutions, Variorm reprints, London, 1987.

10. Lewis (B.) The Arabs in History, Hutchinson of London.

11. Moss (L.B.) « The Formation of the East Roman Empire 330-717 », Cambridge Medienal History VIV. Part 1., Chapter 1.

12. Ostrogorsky (G) : History of the Byzantine State Translated by joan Hussy, Oxford, 1968.

13. Prawer (J.) Histoire du Royaume Latin de Jerusalem Tome 1, Paris 1969.

14. Runciman (S.) A history of the Crusades Volume, 1, 2, 1952.

15. Setton (k.M.) : A History of the Crusades Volume 1 Edited by Marshall W. Baldwin the University of Wisconsin Press, Madison, London, 1969.

16. Stevenson (W.B.) The Crusaders in the East Cambridge University Press.

17. The Cambridge History of Islam volum 1, edited by PM. Holt, ANNK S. Lambton Bernard Lewis Cambridge At the University Press. 1970.

18. The Cambridge Medieval History (Cam Med Hist) V. IV The Byzantine Empire Part, 1 Byzantine and its Neighbours, Cambridge, the University press, 1966.

19. The Chronography of Gregory Abul Faraj Commonly Known as Bar Hebraeus Translated by Ernest A. Wallis Budge Volume 1, Oxford University Press London 1932.

20. William H. McNeill : A World History New Edition Oxford University 1979.

21. William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea Volume 1,2. Translated and Annotated by Emily Atwater Babcock and A.C Krey New York, 1943.

الهـــــوامش

(٢٥٩) عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٧١ ٠

(٢٦٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد المجيد ، مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى ، ١٣٧١ هـ /١٩٥٢ م ، ص ١٥٥ ٠

(٢٦١) Moss (L.B.) The Formation of the East Roman Empire, 330-717. Cambridge, Medieval History V. IV part 1, chapter 1, p. 19 « Egypt was the granary of constantinople ».

(٢٦٢) د٠ سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ص ٥٢ ٠

(٢٦٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، طبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٣ مكتبة المثنى ببغداد ص ٧٦ ٠

(٢٦٤) كان ذلك يوم عيد الفصح يوم الاثنين ١٩ ابريل (د٠ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤١٨) ٠

(٢٦٥) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٨٠ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ص ٩ ، أما الطبرى : تاريخ الرســل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضــل ابراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ج ٤ ، دار المعارف بمصر فيذكر أنها فتحت اما سنة « ست عشرة أو عشرين »٠

(٢٦٦) د٠ السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ٤١٢ ، د٠ ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربى ص ٤٩ ٠

(٢٦٧) Lewis ; (B.) The Arabs in History, Hutchinson of London, p. 54.

(٢٦٨) الواقدى : فتوح الشام ح ٢ ، دار الجيل طبعة المطبعة العامرية العثمانية ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ ، ص ٨٣ ٠

(٢٦٩) د٠ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ ص ١٢ ـ ١٣ ٠

(٢٧٠) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٣ ، ٧٩ ٠

(٢٧١) د٠ الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٤٢٨ ٠

(٢٧٢) د٠ سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٣ ، د٠ الباز العريني : المرجع السابق ص ٤١٧ ٠ اختلف فى تاريخ وفاة هرقل فالبعض يذكر انها سنة تسع عشرة هجرية والبعض الآخر يذكر انها كانت سنة عشرين هجرية ٠

انظر : (ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٦ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ طبعة بولاق ١٢٧٠ ، ص ٣٠٦ السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ج ١ الطبعة الأولى ١٩٦٧ ـ ١٣٨٧ هـ ، ص ١١٩) ٠

(٢٧٣) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٦ ، السيوطى حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١١٩ ٠

(٢٧٤) المقريزى ٠ الخطط ج ١ ص ٣٠٥ ٠

(٢٧٥) ابن عبد الحكيم : المصدر السابق ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٦ ، السيوطى ٠ حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٥ ٠

(٢٧٦) ابراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٥١ ٠

(٢٧٧) د٠ سيدة كاشف : المرجع السابق ص ١٣ ـ ١٤ ٠

(٢٧٨) د٠ الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ٤٢٥ ٠

(٢٧٩) عن بقية الشروط والتفاصيل انظر د٠ سيدة كاشف : المرجع السابق ص ١٤ ، د٠ الباز العرينى : المرجع السابق ص ٤٢٦ ،

عن حنا النقيوسى

Bulter : The Arab conquest of Egypt, p. 320 Johan Nikiou

(٢٨٠) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٢١ ٠

(٢٨١) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussy, Oxford, 1968, p. 115.

(٢٨٢) Lemerale (P.) Le Monde de Byzatce. Histoire etinsti-tutions variorum reprints London, 1978, p. 354.

(٢٨٣) Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٢٨٤) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٨٢ – ٨٣ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٩ ٠

(٢٨٥) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٦ – ١٧٧ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢١٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٥٩ ٠

(٢٨٦) Ostrogonsky : Op. cit., p. 115.

(٢٨٧) د٠ الباز العرينى : المرجع السابق ص ٤٣٢ ٠

(٢٨٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٥ ، المقريزى ، الخطط ج ١ ، ص ٢١١ السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ، ص ٣٦٠ ٠

(٢٨٩) د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٧٧ ، د٠ ابراهيم العدوى المرجع السابق ص ٥١ ٠

(٢٩٠) Lewis B. : Op. Cit., p. 54 ; Ostrogorsky Op. cit., p. 115.

(٢٩١) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، الكندى : المصدر السابق ، ص ١١ ؛ المقريزى الخطط ج ١ ، ص ٢١٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٠ ٠

(٢٩٢) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ١٧٥ – ١٧٦ ، البلاذرى فتوح البلدان ، حققه عبد الله وعمر أنيس الطباع بيروت ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧ م ٠

(٢٩٣) Ostrogonsky : Op. Cit., p. 115.

(٢٩٤) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ٠

(٢٩٥) البلاذرى : المصدر السابق ص ٣١١ ٠

(٢٩٦) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ج ١ ص ١٧٨ ٠

(٢٩٧) الكندى : المصدر السابق ص ١١ ٠

(٢٩٨) Butler : (A.J.) : Op. Cit., p. 323.

(٢٩٩) Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٣٠٠) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ١٧٨ ٠

(٣٠١) Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٣٠٢) عبد الرحمن الرافعى ، د٠ سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٧٢ ، د٠ سيدة كاشف : العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى ، كلية البنات ، الرياض ، العام الجامعى ٩٥ – ١٣٩٦ هـ ، ص ٨٢ ٠

(٣٠٣) انظر الطبري : تاريخه ج ٤ ، ص ٢٨٨ ، الكندي : المصدر السابق ص ١٣ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ص ١١٧ ، ١١٩ د· سيدة كاشف : العرب والبحار ، ص ٨٢ ، د· سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٨٠ ·

(٣٠٤) انظر : الطبرى وتايخه · ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ تحقيق محمد عبد العزيز النجار : مؤسسة دار العربى للنشر ،الرياض جـ ٧ ، ص ٧٢ ، د· سعاد ماهر ، المرجع السابق ص ٨١ ·

(٣٠٥) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، سلسلة كتاب الشعب ج ١ ص ١٢ ·

(٣٠٦) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ص ٢٩١ ·

(٣٠٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٧٢ ·

(٣٠٨) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ ·

(٣٠٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ص ١٩٩ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ ·

(٣١٠) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 116.

(٣١١) Ibid.

(٣١٢) د· سيدة كاشف : العرب والبحار ، ص ٨٣ ·

(٣١٣) د· عبد الرحمن الرافعى ، د· سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٧٢ ·

(٣١٤) د· على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى الطبعة الخامسة ١٩٦٤ ، ص ٢٤٤ ·

(٣١٥) د· الباز العرينى : مصر البيزنطية ٤٣٤ ·

(٣١٦) الراجح أن تلك الحملة كانت رد فعل لهجمات معاوية بن أبى سفيان المتتالية على آسيا الصغرى لمدة خمس عشرة سنة متتالية ، كما نجح فى الاستيلاء على قبرص وردوس وتمكن أحد قواده من الاستيلاء على جزيرة كيزيكوس وذلك فى عهد الامبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) الذى شهد عهده دورا فاصلا فى الصراع الاسلامى الرومى

(Ostrigorsky : Op. Cit., pp. 122-124).

(٣١٧) الكندى : المصدر السابق ص ٣٨ ، ٤٠ ·

(٣١٨) Fahmy : Muslim Sea-power in the Eastern Mediterranen From the Seventh to the Tenth Cenlry A.D. Cairo p. 139.

(٣١٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠١ .

(٣٢٠) الطبرى : تاريخه أحداث سنة ٩٠ هـ .

(٣٢١) Fahmy : Op. Cit., p. 140.

(٣٢٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٠١ .

(٣٢٣) الكندى : المصدر السابق ، ص ٧٠ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٣ .

(٣٢٤) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٨٨ ،

Canard ; « Byzantiun and the Muslim World to the middle of the Eleventh Century » Cambridge Medieval History, V. IV, Byzantine Empire, part 1, chapter XVII,, p. 699.

(٣٢٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠١ د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣٢٦) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣٢٧) د. وسام عبد العزيز : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الاسكندرية ١٩٨١ ، ص ٢٣٤ .

(٣٢٨) Canard : (Cam. Med Hist.) Op. Cit., V. IV part, p. 699.

(٣٢٩) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣٣٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

(٣٣١) Canard : Cam. Med. Hist, V. IV, part, p. 709.

(٣٣٢) Ibid.

(٣٣٣) د. اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، جدة ، ١٣٩٧ هـ /١٩٧٧ م ، ص ٨٦ عن موناخوس (Monachus) .

(٣٣٤) د. أسد رستم : الروم ، سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٣٣٥) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٤١ ــ ٤٥ .

(٣٣٦) نفس المرجع ص ٨٨ .

(٣٣٧) William H. McNeill : A World History Oxford, 1979, p. 42.

(٣٣٨) Canard : Cam. Med : Hist. V. IV part 1, Chapter XVII, p. 713.

(٣٣٩) Ostrogorsky : Op. Cit., p. 222.

(٣٤٠) الطبرى : تاريخه ، طبعة دار المعارف بمصر ، ج ٩ ص ٩٤ ، د٠ اسمت غنيم : المرجع السابق ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

(٣٤١) Bréhier : Vie et Mort de Byzance, Paris, 1974, p. 128.

(٣٤٢) الكندى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ٠

(٣٤٣) Grégoire : « The Amorians and Macedinians 842-1025 », Cam. Med. His. V. IV part 1, Chapter IV, p. 106.

(٣٤٤) اليعقوبى : تاريخه ج ٢ ، بيروت ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ ، ٢٨٨ ، الكندى : المصدر السابق ص ٢٠ ٠

(٣٤٥) د٠ العدوى : المرجع السابق ص ٩١ ٠

(٣٤٦) الطبرى : تاريخه ج ٩ دار المعارف ص ١٩٤ ٠

(٣٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ص ٢٩٤ ٠

(٣٤٨) اليعقوبى : تاريخه ج ٢ ، ص ٤٨٨ ، الطبرى : تاريخه ج ٩ ، دار المعارف ، ص ١٩٤ ٠

(٣٤٩) اليعقوبى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ ٠

(٣٥٠) الطبرى تاريخه ، ج ٩ دار المعارف ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ص ٢٩٣ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ٠

(٣٥١) الكندى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠١ ٠

(٣٥٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٩٥ ٠

(٣٥٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٤ ٠

(٣٥٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ دار المعارف ، ص ١٩٤ ، د٠ العدوى : المرجع السابق ص ٩٣ ٠

(٣٥٥) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، دار المعارف ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٣٥٦) د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣٥٧) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، دار المعارف ، ص ١٩٥ ، ابن الأثير الكامل ، ج ٥ إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٧ هـ ، ص ٢٩٢ .

(٣٥٨) د. أسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣٥٩) المقريزى : الخطط ج١ ، ص ٢٠١ .

(٣٦٠) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣٦١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٣٦٢) Canard : (Cam Med. Hist.) V. IV, Part, Chapter XVII p. 713.

(٣٦٣) الكندى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٣٦٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٣٦٥) الكندى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٣٦٦) زامبور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ م ص ١٤٣ ، د. سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ ، ص ١٧ .

(٣٦٧) The Cambridge History of Islam, Volume 1, Cambridge 1970, p. 184.

(٣٦٨) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣٦٩) Ostrogorsky : Op. Cit., p. 578.

(٣٧٠) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ، ٣٢٨ .

(٣٧١) Cam. Hist of Islam, V. 1, p. 181.

(٣٧٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٠١ .

(٣٧٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢ .

(٣٧٤) Ostrogorsky : Op. Cit., p. 276.

(٣٧٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، زامبور : معجم الأنساب ، ص ١٤٤ .

(٣٧٦) المقريزى : نفس المصدر ، الصفحة السابقة .

(٣٧٧) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ـ ٩٦ .

(٣٧٨) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٥٧ .

(٣٧٩) Canard : Cam. : Med Hist, Op. Cit., V. IV, part 1, chapter XVII, p. 724.

(٣٨٠) Grousset (R.) : L'Empire du levant, Paris 1949, p. 123.

(٣٨١) د. حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣ م ، ص ١٥٦ .

(٣٨٢) د. حسنين ربيع المرجع السابق ص ١٩٠ ـ ١٩١ عن (Vryonis) Ostrogorsky : Op. Cit,. p. 344.

(٣٨٣) Ostrogorsky : Op. cit., p.p. 361-363.

(٣٨٤) Ibid., p. 363.

(٣٨٥) Runciman (S.) : A History of the Crusades, V. 1, Cambridge University Press, Cambridge, p. 230.

(٣٨٦) Dawes Amna Comnena : the Alexiad, translated by Elizabeth, A. S. London, 1967, p. 158.

(٣٨٧) Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229.

(٣٨٨) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٩٦٣ ، ص ٢١٧ . عن (Chalandon : Alexis Comnene).

(٣٨٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، مطبوعات المعهد الفرنسى ، مصر ١٩١٩ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٣٩٠) ارنست باركر : الحروب الصليبية ، نقله الى العربية الدكتور الباز العريني ، دار النهضة بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ص ٧٧ .

(٣٩١) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٠٤ .

(٣٩٢) The Chronography of Bar Hebraeus, translated by Emest Awaillis.

(٣٩٣) Budge Volum 1. Oxford University Press, London, 1932, V. 1, p. 286.

Runciman : A Histrory of the crusades, V 2, p. 367.

(٢٩٤) Prawer (J.) : Histoire du Royaume latin de jerusalem, tome. 1, Paris, 1969, p. 427.

(٢٩٥) Setton (K. M.) : A History of the Crusades Volume I, edited by P.M. Holt, ANN, K.S. Lambton, Bernard Lewis Cambridge 1966, p. 550.

(٢٩٦) Ibid : p. 540.

(٣٩٧) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ....، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٣٩٨) ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ ، ص ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ، دار الجبل بيروت ص ١٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ١ تحقيق د. جمال الشيال ، مطبعة فؤاد الأول ١٩٥٣ ص ١٣٧ .

(٣٩٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٣٧ .

(٤٠٠) ابن شداد النوادر السلطانية ، ص ٤٦ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٤٠١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٤٠٢) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ص ٢٠٥ .

(٤٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٤٠٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) تحقيق عبد القادر طليمات دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد ، ص ١٢١ ؛ أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٣١

The Chronography of Bar Hebraeus, V. I. 289.

(٤٠٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٤٠٦) ابن الأثير : الباهر ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣١ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٤٠٧) ابن الأثير : الباهر ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٣٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠

The Chronography of Bar Hbraeus V. 1, p. 289.

(٤٠٨) Setton : Op. Cit., p. V. 1, pp. 550-551.

(٤٠٩) ابن واصل : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤١٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٤١١) Setton : Op. Cit., V. 1. p. 553, Runciman : Op. cit., V. 2. p. 374.

(٤١٢) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ ، ص ٢٩ .

(٤١٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٤١٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٤١٥) أبو شامة الروضتين ، ج ١ ص ١٤٥
Setton : Op. cit., V. 1, p. 553.
ابن واصل : مفرح الكروب ، ج ١ ص ١٥١ .

(٤١٦) Prawer (J.) : Op. Cit., T. I, p. 428.

(٤١٧) Setton : Op. Cit., VI p. 554, prawer : Op. Cit., T. 1, p. 428, Brehier : vie et Mort, p. 339, Runciman : op. Cit., v. 2, p. 362-377.

(٤١٨) Brehier (L.) : Vie et Mort, p. 339.

(٤١٩) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ص ٢١١ .

(٤٢٠) William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea, Volume. 11, Translated and Annoted by Emly atwater Bobcock and A.C. Krey, New York, 1943, p. 348.

(٤٢١) Prawer ; Op. Cit., T. 1, 438, Runciman : Op. Cit., V. 2. 9379 stevenson (w. B.) The Crusaders in the East, Cambridge University Press, p. 193 : Setton op. cit., p. 555.

(٤٢٢) William of tyre. Op. Cit., VII 448 : Brehier : Vie et mont, p. 339.

(٤٢٣) William of tyre Op. cit., VII, p. 348, Setton : Op. cit., VI, p. 555.

(٤٢٤) William of tyre Op. cit., VII, p. 349, Setton : Op. cit., VI, p. 555.

(٤٢٥) Breihier : Vie et Mort, p. 339.

(٤٢٦) William of tyre Op. Cit., VII, p. 349-35r, prawer Op. Cit., T. 1, 439.

(٤٢٧) William of tyre Op. Cit., VII, p. 350, Brefier vie et mort, p. 339.

(٤٢٨) Setton : Op. Cit., VI, p. 555.

(٤٢٩) William of tyre Op. Cit., V. 11, p. 350.

(٤٣٠) prawer Op. Cit., T. 1437.

(٤٣١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل مفرج الكروب ١ ، ح ١ ص ١٥٦ .

(٤٣٢) The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 203.

(٤٣٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٤٣٤) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق جمال الدين الشيال سلسلة تراثنا الطبعة الأولى ١٩٦٤ ، ص ١٣٨ .

(٤٣٥) william of tyre, Op. Cit., VII. prawer Op. Cit., T. 1. p. 441.

(٤٣٦) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

(٤٣٧) ابن الأثير : الباهر ص ١٤٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٩ ، البنداري : سنا البرق الشامي ، تحقيق الدكتور / رمضان ششن ، القسم الأول بيروت الطبعة الأولى ١٩٧١ ، ص ٧٨ ؛ أبو شـــامة : الروضتين ج ١ ص ، ١٥٧ ص ١٧١ ـ ١٧٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٤٣٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، البنداري : سنا البرق الشامي ، ٥٦ ، ص ٨١ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٦٠ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ، ج ٣٧ .

(٤٣٩) William of tyre : Op. Cit., VII, p. 358.

(٤٤٠) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, pp. 360-361.

(٤٤١) Setton : Op. Cit., v. 1, p. 556.

(٤٤٢) Prawer : Op. Cit., TI, pp. 442-443.

(٤٤٣) William of tyre : Op. Cit., V. 11, p. 361.

(٤٤٤) William of tyre : op. cit., v. 11, p. 361-362, Brehneir vie et Mort, p. 339.

(٤٤٥) Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443 Brelier vie et Mirt, p. 339.

(٤٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢١ .

(٤٤٧) William of Tyre Op. Cit., V. 11, p. 362.

(٤٤٨) Runciman : Op. Cit.,; V. 2, p. 386.

(٤٤٩) William of tyre, Op. Cit., pp. 362-363.

(٤٥٠) ابن الأثير : الباهر ص ١٤٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ص ٨٦ ، أبو شامة : الروضتين : ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٤٥١) William of Tyre : Op. cit., VII, p. 363.

(٤٥٢) Prawer : Op. cit., T. 1, p. 444.

(٤٥٣) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ، ص ٤١ .

(٤٥٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٧٠ .

(٤٥٥) ابن الأثير : الباهر ص ١٤٣ ، الكامل حوادث ٥٦٥ هـ أبو شامة الروضتين ج ١ ، ص ١٨٠ ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨١ .

(٤٥٦) William of tyre Op. Cit., V. 11, p. 365.

(٤٥٧) William of Type : Op. Cit., VII, p. 363.

(٤٥٨) William of tyre : Op. cit., V. 11, p. 366.

(٤٥٩) William of tyre : Ibid., p. 365.

(٤٦٠) Setton : Op. Cit., V 1, p. 557.

(٤٦١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ص ٨٨٦ ـ ٨٧ .

(٤٦٢) William of Tyre : Op. Cit., V. 11, pp. 367-368.

(٤٦٣) Runciman : Op. Cit., v. 2, p. 387.

(٤٦٤) Setton : op Cit., v. 1, p. 557.

(٤٦٥) William of tyre : Op. Cit., V. 11, p. 368.

(٤٦٦) William of tyre : Ibid, v. 11, pp. 363-368 ; Brehier : vie et Mort ..., p. 340

(٤٦٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ .

(٤٦٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ .

(٤٦٩) Brehier : Vie et Mort ..., p. 340.

(٤٧٠) William of tyre : Op. Cit., V. 11, p. 369.

(٤٧١) Lane poole : Op. cit., p. 105.

(٤٧٢) Brehier : Vie et Mort .... p. 340.

(٤٧٣) Ibid.

(٤٧٤) Setton Op. cit., V. 1, p. 558.

(٤٧٥) Brehier : Vie et Mort ..., p. 340.

(٤٧٦) Setton : Op. cit., V. 1, p. 559 : Runciman : Op. cit., v. 2, p. 391.

(٤٧٧) Runciman : Ibid, v 2, p. 392.

الاسكندرية فى وصايا المنصور قلاوون
(٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٨٩م)

د· حسن عبد الوهاب حسين

مقدمة :

شكلت الاسكندرية أهمية خاصة فى وصايا المنصور قلاوون· وقد أورد لنا شافع بن على هذه المجموعة من الوصايا ضمن مؤلفه الهام عن السلطان المملوكى قلاوون ، وكذلك مجموعة من التذاكر التى انفرد بها عن بقية المصادر المملوكية الأخرى المعاصرة · وقبل دراسة أحوال الاسكندرية من خلال هذه الوصايا والتذاكر تجدر الاشارة الى اهتمام المماليك بهذا الثغر الهام ، خاصة مع تحول السياسة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى نحو استراتيجية جديدة جعلت من مصر هدفا لها · كما أن الطريق الى استعادة بيت المقدس كان لابد أن يبدأ بالقاهرة ، خاصة بعد نجاح صلاح الدين فى استعادة هذه المدينة المقدسة بعد معركة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م · ومن ثم كانت الحملة الصليبية الخامسة التى حاولت الاستيلاء على مصر فى عام ١٢١٨ ـ ١٢٢١ م / ٦١٥ ـ ٦١٨ هـ · غير أنها فشلت عندما تقدمت عبر

فرع دمياط واثبت الصليبيون جهلهم بجغرافية مصر فى أحداث هذه الحملة · ثم تكرر ذلك خـــلال حملة لويس التاســـع على مصر ، وفكر الصليبيون بعد الاســـتيلاء على دمياط فى يونيـــو ١٢٤٩ م فى التوجه الى الاسكندريه للاستيلاء عليها وذلك قبل التوجه الى القاهرة · غير أن الصليبيين أثبتوا جهلهم مرة أخرى بطبيعة البلاد المصرية وقرروا التوجه الى القاهرة ، فتكرر فشلهم مرة أخرى ·

وبقيام الدولة المملوكية الناشـــئة فى مصر ، حرص الظاهر بيبرس على الاهتمام بالاسكندرية بصفة خاصة · وبرز ذلك من خلال زياراته المتكررة لها ، والاهتمام بعمارتها المستمرة وحفر خنادقها وتوفير ما تحتاج اليه من أموال تنفق على ذلك كل عام · كذلك اهتم بأمر خليج الاسكندرية وتطهيره ، حتى انه أطلق عليه لقب « الاسكندر الثانى » · ولا شك أن ذلك ظهر لقيام الاسكندرية بدور هام فى حماية مصر من الهجمات الصليبية المتوقعة من جانب لويس التاسع بعد فشله فى حملتيه على مصر والشام ، وكذلك لوصول أنباء عن تحركات ادوارد الأول ـ الملك ادوارد فيما بعد ـ يضاف الى ذلك ما كانت تمثله الاسكندرية من أهمية فى مجال التجارة الدولية آنذاك ·

أما موضوع هذه الدراسة ، فهو يعتمد بشـــكل رئيسى على مجموعة من الوصايا والتذاكر التى تركها السلاطين المماليك والتى وردت لنا من خلال مجموعة المصادر المملوكية المعـاصرة · ومن أبرزهـا ما ضمنه الظاهر بيبرس لابنه الملك السـعيد وذلك فى تقاليد العهد (٥٦٨) · كذلك ترك وصية أخرى وهو على فراش الموت لابنه ، خاصـة فيما يتعلق بمعاملته للأمراء الكبار « وافعل ما أمرتك به والا ضاعت مصلحتك » (٥٦٩) ، وجاءت هذه الوصايا

مختصرة ، الا أن شافع بن على صاحب كتاب « الفضل المأثور سيره السلطان الملك المنصور » (٥٧٠) أورد لنا مجموعه من التذاكر قام بكتابتها أشهر كتاب الانشاء فى ذلك العصر ، وهم : محيى الدين ابن عبد الظاهر ، وابنه فتح الدين ، ثم شافع صاحب الكتاب السابق (٥٧١)· يقول العمرى صاحب التعريف بالمصطلح الشريف عن الوصية انها « وهذا باب كبير ، وللقلم فيه سبح طويل ، ولو تكلفنا استيعاب الوصايا لألزمنا تكليف ما لا يطاق ، وانما نقدم منها المهم ، ونأتى بالجوامع كالتبصرة للناظر ، والتنبيه للغافل ، ولمن كان ذا خاطر تفجرت له ينابيعه ، وجرت له شعابه » (٥٧٢) وعلى الرغم من ذلك ، فانه لم يذكر التذكرة بين مجموعة الوصايا · وقد عرفها لنا القلقشندى بقوله انها كانت تكتب لنواب السلطنة بالديار المصرية وذلك عند سفر السلطان عنها وتتضمن ما يتعلق بمهمات الديار المصرية ومصالحها وما يترتب فيها وغير ذلك من الجوانب الاقتصادية والعسكرية · كما اشترط القلقشندى أن تكون على درجة من الفصاحة والبلاغة كما هو الحال فى الرسائل (٥٧٣) ·

حرص السلطان المنصور قلاوون على اعداد ابنه الأكبر علاء الدين على لتولى مهام الحكم من بعده وتأسيس أسرة حاكمة ، على الرغم من أن ذلك كان مخالفا لسياسة المماليك التى كانت تقوم على ما يعرف بالخشداشية أو الزمالة (٥٧٤) · وبعد ثمانى سنوات قضاها علاء الدين توفى فى أثناء حياة أبيه ، فتولى أخوه الأشرف خليل الحكم وكتب له القاضى محيى الدين تقليدا بذلك ضمنه العديد من الوصايا (٥٧٥) ·

ومن أبرز الجوانب التى وردت فى تقاليد العهد أو التذاكر الاهتمام بالثغور المصرية بصفة عامة وبالاسكندرية بصفة خاصة ·

فقد اهتم أحمد بن المكرم فى تذكرته التى حفظها لنا القلقشندى بكتابة فصل عن « الثغور المحروسة » فذكر ضرورة التيقظ فى حمايتها ، ومراعاة أحوالها وحفظها ، وتشجيع التجار على الحضور بتجارتهم • وأكد أن ذلك سوف يعود بالنفع على السلطان فى استخراج حقوقه ، ومده بما يحتاج اليه من الأقمشة والأمتعة وغيرها (٥٧٦) • وفى تذكرة بخط محيى الدين بن عبد الظاهر أوصى بالاهتمام بالثغور عامة ، سواء كانت دمياط أو رشيد أو الاسكدرية ومن بين الجوانب الهامة فى هذه التذكرة ما يلى :

أولا : استطلاع الأخبار من جهة الثغور وخاصة من جهة الروم وبلاد الفرنج وارسال ذلك فى وقته وساعته وعدم اغفال ذلك أو اهماله (٥٧٧) •

ثانيا : الاحتراز من تسلل العربان وخاصة من جهة برقة، والزامهم أيضا بحفظ الأماكن الملزمين بحفظها •

ثالثا : خص الاسكندرية فى تذكرته بجوانب هامة مثل ضرورة استعداد الجنود بداخلها وأن يكونوا مستعدين لرد أى عدوان • كذلك حفظ فنادق الفرنج ومفاتيحها فى الليل وفى وقت صلاة الجمعة ، والأماكن المجاورة لها • وطالبه دائما بالتيقظ لمثل هذه الأخطار •

رابعا : أمره بأن يباشر دائما خليج الاسكندرية ــ والذى يمد المدينة بالماء العذب ــ وتطهيره دائما من كل ما يعوق جريان المياه اليها (٥٧٨) •

سادسا : أمره بمراعاة التجار القادمين اليها وحسن معاملتهم بالعدل والاحسان والرفق والانصاف وذلك لكى يقوموا باستجلاء خواطر من يحضر بعدهم من التجار (٥٧٩) •

أما شافع بن علي فقد ركز على جوانب أخرى فى تذكرته فيما يتعلق بالاسكندرية ودمياط بصفة خاصة ، فأمره بالآتى :

أولا : حمايتهما من أى طارق يطرقهما الا بخير ، ودفع الضرر عنهما .

ثانيا : أكد على خطر الفرنج وخاصة من جانب القراصنة الذين كانوا يعتمدون على الأساطيل التجارية والتيقظ لذلك حتى لا يباغتهما أحد (٥٨٠) .

ثالثا : طالبه بمراقبة السفن الكامنة ، وكذلك الأسرى المتحفظ عليهم (٥٨١) .

رابعا : أوصى شافع فى تذكرته بأهمية الاسكندرية ودمياط خاصة فى توفير الأقمشة وغيرها مما ينتج بالثغرين ، وما يدره ذلك على السلطان من منافع (٥٨٢) .

ومن جملة النواحى التى اهتمت بها الوصايا والتذاكر فى عهد المنصور قلاوون معالجة بعض جوانب القصور فى المجتمع المصرى . فقد أوصى كتابها بمنع الخمور وتداولها وتعفية رسومها واقامة الحدود الشرعية على مرتكبيها (٥٨٣) . كما أمر قلاوون بمنع الداعرات من الاجتماع فى أماكن العبث والفسا (٥٨٤) . وكان الاهتمام موجها الى الاسكندرية بصفة خاصة بتطهير المدينة منهن وكان يطلق عليهن « الخواطى الفرنجبات » . وسبق الظاهر بيبرس المنصور قلاوون فى ذلك حيث أمر بسلب أموالهن حتى يتزوجن ، كما أبطل المال المقرر من هذه الجهة وعوضهن مالا حلالا (٥٨٥) .

ويجمل محيي الدين في تقليد العهد للملك الأشرف خليل أهميــه الثغور بقوله : « فهي للممالك مبــاسمها ، وللمســالك مــاسمها ، فاجعل نواجذهــا تفتر عن حسن ثنــايا الصـــون ، ومراشفها شنية الشفاه بحسن العون ، ومنها ، بما يحمى السرح منها ، واعنها ، بما يدفع المكاره عنها ، فانها للنصر مقاعد ، وبها حفظ البلاد من كل مار من الأعداء مارد » (٥٨٦) ٠

ولم يقتصر الاهتمام بالاســكندرية على التذاكر والوصـــايا فحسب ٠ بل ورد في التوقيع الصـــادر للقاضي جمال الدين بن بصــاصة عام ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠ م ، الاهتمام بتحصـــيل الأموال وتنمية متاجرة وحسن معاملة التجار الواردين مما سيعود بالنفع على قدوم تجار آخرين كما أوصاه بألا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت (٥٨٧) ٠

اظهرت الوصايا والتذاكر السابقة اهمية الثغور بصفة عامة والاســكندرية بصفة خاصــة ٠ واشــتملت على كافــة الجوانب الاقتصــادية والعسكرية المتعلقة بها ، وكذلك الاهتمام بالمجتمع السكندرى فيما يتعلق بالجوانب الأخلاقية ٠ وقد تركت تأثيرها على السلطان الأشرف خليل الذى خلف والده المنصور قلاوون في حكم الدولة المملوكية ٠ فذكر شافع بن على في قصيدة له مهنئا له بفتحه عكا عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م :

وعى بوصية والده فنفذهــا وما زال ببره أعنى (٥٨٨)

ولكنه اهمل جوانب أخرى في هذه الوصايا والتذاكر خاصة اهماله الاحتراز عند الركوب وعدم الخروج على غير العادة ؛ مما أدى الى مقتله على يد جماعة من الأمراء في ١٢ محرم ٦٩٣ هـ (٥٨٩) ٠

الهـــــوامش

(٥٦٨) على الرغم من أن الوصايا التى وردت فى هذا التقليد لم تكن مفصلة ، فقد ذكر أنه سوف يستمر فى تزويده « بما سينشأ معه تواءما » . وقام محيى الدين بن عبد الظاهر بكتابة هذا التقليد فى شوال ٦٦٢ هـ ، ونقله عنه شافع ابن على فى حسن المناقب السرية ، وكذلك بيبرس الدوادار . انظر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، نشر وتحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٩ .

(٥٦٩) ذكر ابن واصل هذه الوصية مؤكدا عليه فى الحرص على معاملة الأمراء الكبار « فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه وقته ولا تعتقله » . وتجدر الاشارة الى أن هذه الوصية لم ترد فى مؤلفات محيى الدين أو شافع بن على أو ابن شداد عن الظاهر بيبرس : انظر : المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ٣ ق ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، جـ ١ ، ص ٦٤١ .

(٥٧٠) ورد على صفحة العنوان « الفضل المأثور سيره السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبى الفتح قلاوون خلد الله سلطانه » لشافع بن على الكاتب . وتوجد منه نسخة وحيدة بمكتبة البودليان بأكسفورد برقم ٤٢٤ . انظر : بروكلمان (كارل) : تاريخ الأدب العربى ، نقله الى العربية السيد يعقوب بكر ، مراجعة رمضان عبد التواب ، ٦ جـ ، القاهرة (بدون تاريخ) ، جـ ٦ ، ص ٢٠ .

(٥٧١) ترك محيى الدين بن عبد الظاهر العديد من المؤلفات ، منها ما وصل الينا ، ومنها ما لم يصل . اما شافع فمن مؤلفاته حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية وهو اختصار للروض الزاهر ، أما الفضل المأثور فقد قام بكتابته عن المنصور قلاوون . اما فتح الدين فلم يصل الينا شىء من كتاباته . للمزيد راجع : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، المقدمة ص ١٥ ــ ١٨ .

(٥٧٢) ذكر العمرى العديد من الوصايا وحدد العديد من الأنواع فذكر ان العهود لا تكون الا للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك والتقاليد لا تكون الا لكفلاء المملكة ، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة ٠ أما التفاويض فهى لعامة القضاة ، والتواقيع فهى لجمهور من عانى الكتابة فى زمان العمرى ومنها لعامة أرباب الوظائف والمراسيم ما يكتب فى صغائر الأمور ٠ وللعمرى فى ذلك رأى خاص ٠ راجع : التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق وضبط محمد حسين شمس الدين ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٢٩ وما بعدها ٠

(٥٧٣) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١ ـ ١٤ ، القاهرة ١٩١٢ ـ ١٩٣٨ ، جـ ١٣ ، ص ٧٩ ـ ٩١ ، ١٠٣ وقارن بين تذكرتين احداهما لمحيى الدين ، والأخرى للقاضى الفاضل ٠ وعاب على محيى الدين اهماله للفصاحة والبلاغة وعدم مراعاته لقوانين النحو ٠

(٥٧٤) استمر الحكم فى بيت قلاوون لمدة حوالى قرن من الزمان (٦٧٨ ـ ٧٨٤ هـ) ـ أما فكرة وراثة العرش فلم تكن واردة لدى المماليك ، حيث انهم كانوا جميعا سواسية وزملاء ٠ وكان الملك لأقوى الأمراء بعد وفاة السلطان أو قتله ، وساعدت الظروف الداخلية والخارجية على استمرار الملك فى البيت القلاوونى ٠ للمزيد راجع : محمد حمزة الحداد : السلطان المنصور قلاوون ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(٥٧٥) تضمن هذا التقليد العديد من الوصـــايا تناولت جوانب : الشرع الشريف ، والعدل ، والثغور ، وأمراء الجيوش ، والجيش ، وبيوت العبادات ، وبيوت الأموال ، وحدود الله والجهاد ، وبيت الله ، والرعايا ٠ انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ص ١١٦ ـ ١٧٣ ٠

(٥٧٦) اهتمت التذاكر بدار الطراز وارســـال ما تحتاج اليه من مال ٠ واشتهرت الاسكندرية بصفة خاصة بقماشها « الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا » ٠ وكانت هناك خزانة خاصة يحمل اليها ما يعمل بدار الطراز فى الاســـكندرية ودمياط تسمى بخزانة الكسوة ٠ للمزيد راجع : العمرى : مسالك الأبصـــار ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ، ١٥٠ ، القلقشندى : صـــبح ، جـ ٣ ، ص ٤٠٤ ، جـ ٥ ، ص ٨٤ ، ١٤٣ ٠

(٥٧٧) اهتم المماليك منذ عهد السلطان بيبرس بسرعة وصول الأخبار عن طريق الحمام الذى أقيمت له مراكز فى القاهرة ، والاسكندرية ودمياط والسويس وبلبيس متصلا بالشام ٠ وأشار شافع بن على الى ما يسمى بحمام الثغور لكى يصل الخبر فى يومه ٠ للمزيد راجع : شافع بن على : سيرة المنصور قلاوون ،

لوحة رقم ٨٥ ظ ، العمرى : التعريف ، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ ، ابن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٤٠ ، ٣٣١ .

(٥٧٨) جاءت هذه الوصية لوالى البحيرة لكى يطهر ويزيل كل ما يعوق وصول المياه العذبة عن طريق هذا الخليج . انظر : شافع بن على : الفضل المأثور ، لوحة ٩٦ (و) .

(٥٧٩) كان التجار محل اهتمام السلاطين المماليك وتضمنت الوصايا والتذاكر جوانب هامة مثل حمايتهم وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم مما سيشجع من يحضر بعدهم . كما تضمنت الهدن التى عقدها السلاطين أيضا بنودا عديدة تتعلق بنفس الجوانب . ومن أمثلة ذلك هدنة رمضان ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م ، وهدنة ٦٦٧ هـ/١٢٦٩ م ، وهدنة ٦٦٩ هـ/١٢٧١ م ، وهدنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م . للمزيد راجع : جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ١٠٣ ــ ١١٠ .

(٥٨٠) وردت مسميات عديدة عن القراصنة فى المصادر المملوكية منها الكرسالية وحرامية البحر والمنجرمة . للمزيد انظر : محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ــ تحقيق مراد كامل ومراجعة محمد على النجار ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٦١ ، ١٦٥ ، ٢٠٦ ، وكذلك : عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ١٣ ــ ١٤ .

(٥٨١) تعددت الأماكن التى استخدمت كسجون فى عهد قلاوون ، منها الجب الذى فى القلعة وخزانة البنود وخزانة شمائل . وفى الفصل الخاص بالحبوس فى تذكرة أحمد بن المكرم أشار الى ضرورة حلق الأسرى الفرنج لحاهم وتعهد ذلك دائما ، ومضاعفة الحراسة على الحبوس وعدم استخدام أى شخص فيه ريبة للقيام بذلك . وتجدر الاشارة الى أنه كان يتم تسجيل أسماء هؤلاء الأسرى وأجناسهم والمضافين اليهم ومن يفرج عنه بموجب مرسوم أو وفاة أو هدايته للاسلام أو عند الفداء . للمزيد راجع النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٨ ، ص ٢٨٢ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ٣ أقسام ، ص ١٣٣ هـ (١) ، العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٨ ، جـ ٢ ، ص ١١٠ ، هـ (٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٧ .

(٥٨٢) شافع بن على : الفضل المأثور ، لوحة ٩٧ ظ .

(٥٨٣) صدر مرسوم فى ٢٥ ربيع أول ٦٨٠ هـ بتضمين الخمر مما أدى الى ظهورها وكثرة السكارى وزال الاعتراض عليهم . ولكن لم يقم ذلك سوى أيام

قلائل وتم ابطالها ومنع التظاهر بشيء من المنكرات • أما في الاسكندرية فكان منع الخمور بها يثير جدلا كبيرا بين المصلحين • فقد كان التجار الأجانب يشكلون جزءا من المجتمع السكندرى ولهم عاداتهم التى تم الاتفاق عليها فى الهدن والسمارات المتبادلة بين المماليك وبين حكام هذه الدول الأجنبية • ومن بين الأمور التى سمح لهم بها حمل الخمور وجلبها معهم الى الاسكندرية وشربها فى فنادقهم • كما ان منع الخمور كان يحرم خزانة الدولة المملوكية من الرسوم المفروضة عليها • فيذكر ابن شداد أن جملة ما كان يتحمل زمن بيبرس فى أعمال مصر ألف دينار يوميا • للمزيد عن ذلك انظر : النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ومراجعه عبد العزيز الأهوانى ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٨٠ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٦٨ ، ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر بيبرس ، اعتناء احمد حطيط ، نيسباون ، ١٩٨٣ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ، حياة ناصر الحجى : أحوال العامة فى حكم المماليك ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٧٢ ـ ٧٨ •

(٥٨٤) أشارت التذاكر الى وسائل عديدة لمنع انتشار الفساد ومنها اجتماع النساء والرجال فى هذه الأماكن ليلا أو نهارا ، وكذلك فى ليالى الجمع بالقرافتين ، وأمرت أيضا بمنع من يمشى فى الليل بغير حاجة وارسال من يطوف بالقاهرة ومصر وما هو مضاف اليهما خاصة فى الليالى غير المقمرة • كما أمره بمنع خروج النساء ليلا • للمزيد : المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٠ ، ٥٥٣ ـ ٥٥٤ ، ٦٧٣ ، القلقشندى : صبح ، ج ١٣ ، ص ٩٢ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٢٣٧ ؛ قاسم عبده : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ •

(٥٨٥) حرص السلاطين المماليك على محاربة هذه الظاهرة ، وأشارت المصادر المملوكية الى هذه الفئة من النساء بمسميات عديدة منها المحظيات ، والخواطى ـ وكانت لهن ضامنة تسمى ضامنة المغانى • راجع ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ص ٣٠٠ ، المقريزى : السلوك ، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ •

(٥٨٦) القلقشندى : صبح ج ١٠ ، ص ١٧٠ •

(٥٨٧) القلقشندى : صبح ، ١١ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ وكذلك ، جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ •

(٥٨٨) الفضل المأثور ، لوحة ١٣١ ظ •

(٥٨٩) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج ١ ، تحقيق محمد محمد أمين ، مراجعة سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٦٧ •

تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح
وأثره على سواحل مصر الشمالية
أثناء القرن السادس عشر

د. فاروق عثمان أباظة

مقـــدمة

ظلت التجارة العالمية الآتية من بلاد الشرق الى أسواق أوربا طوال العصور القديمة والوسطى تظفر برواج واسع وتحقق أرباحا خيالية للمشتغلين بها منذ شحنها فى موانى التصدير الآسيوية والأفريقية المطلة على المحيط الهندى حتى يتم توزيعها فى أسواق أوربا . وكانت التجارة العالمية فى تلك العصور تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية فى بلاد الشرق حتى تصل الى الأسواق الأوربية عبر محورين رئيسيين يتمثلان فى سواحل مصر الشمالية والشام . اذ كان الحجم الأكبر من هذه التجارة يسير عبر طريقين يؤديان اليهما ، أولهما : طريق البحر الأحمر الى السويس ومنها الى القاهرة بالقوافل ، ثم تنقل على ظهر السفن فى فرعى النيل الى رشيد ودمياط والى الاسكندرية ، اما بالملاحة فى ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية ، أو على ظهور

الدواب • والطريق الثاني هو طريق الخليج العربي ونهر الفرات، ثم الى حلب، ومنها الى موانى الشام المطلة على شرقى البحر المتوسط حيث كانت سفن البنادقة والجنويين وغيرهما من شعوب القارة الأوربية تأتي الى الموانى المذكورة والى موانى مصر والشام لتنقل التجارة الشرقية الى الموانى الأوربية • وكانت سلع التجارة متعددة ومتنوعة ، ويتشكل قوامها من البخور ، والعطور والتوابل التى عرفت تجارتها باسم تجارة الكارم ، والعقاقير المختلفة كالأفيون والأعشاب والبن ، والأقمشة الحريرية ، والسجاجيد ، والعاج والأحجار الكريمة واللآلىء والأخشاب النادرة التي يصنع منها أرقى أنواع الأثاث الفاخر والتحف الثمينة •

ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام منذ منتصف القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن السادس عشر الميلاديين ، فقد كان الطريقان فى قبضتهم ، وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة، من الضرائب الكثيرة التى كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالأراضى المصرية والشامية ، فضلا عن احتكارهم لكثير من سلعها المختلفة • وقد عاد ذلك على المماليك بثروة فائقة بحيث شهد عهدهم فى مصر والشام بناء الكثير من القصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت العسكرية كالقلاع والحصون ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات ، والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات ، واكتظت مصر والشام بالتجار الأجانب والسفراء والرحالة وغيرهم من مشارق الأرض ومغاربها •

غير أن تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين فى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين كان من أبرز العوامل التى أثرت على

سواحل مصر الشمالية وسواحل الشام أبلغ تأثير فى النواحى الإقتصـــادية والاجتماعية والسياسية • وقد أوضح ابن اياس ما أصاب اقتصاد الدولة المملوكية في مصر والشـــام من تدهور نتيجة لكساد تجارتها في نهاية عهدها في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » •

ونتيجة لهذا التدهور الاقتصـــادى الذى منيت به الدولة المملوكية آنذاك ، فقد حاول سلاطين المماليك أن يعالجوا الأمر بأساليب عديدة ، في مقدمتها تأمين الممرات المائية المؤدية الى مصر والشام من ناحية الجنوب ضد الخطر البرتغالى الذى سيطر على المحيط الهـــندى وأصـــبح يهدد أمن البحر الأحمر والأماكن الاسلاميـــة المقدســـة في الحجاز من جهة ، وأمن الخليج العربى المؤدى الى الشـــام عبر أنهار العراق من جهة أخرى • وكان عجز المماليك عن تحقيق غايتهم نتيجة لعوامل الضـــعف التى تعرضـــوا لها عقب تحول التجارة العالمية عن مصر والشام الى رأس الرجاء الصالح مما ساعد الأتراك العثمانيين أن يفكروا فى السيطرة على دولة المماليك ، وأن يحلوا محلهم فى مواجهة الخطر البرتغالى ، وأن يملأوا الفراغ السياسى والعسكرى الناتج عن ضعف دولتهم أمام هذا التهديـــد الخطير ، وتحقق لهم ذلك فى معركتى مرج دابق عام ١٥١٦ ، والريدانية عام ١٥١٧ ، وفى الحملات التأمينية للبحر الأحمر فى أعوام ١٥٢٦ و ١٥٣٨ و ١٥٦٩ ، وكذلك فى سيطرة العثمانيين على بغداد عام ١٥٣٤ ، وعلى البصرة عام ١٥٤٦ ، وعلى الاحساء فى شرقى الجزيرة العربية فى عام ١٥٥٥ ، بحيث أمكنهم تأمين الحرمين الشريفين من ناحيتى الشرق والغرب ، واعتبروا الربع الخالى درعا واقيا لحماية الجزيرة العربية من ناحية الجنوب ضد البحريـــة البرتغاليـــة • كما حرص الأتراك العثمانيون على مساندة بلدان المغرب ضد الخطر الاسبانى ، بانضمام معظمها الى

الدولة العثمانية للدفـاع عن سواحل مصر الشمالية وسواحـل الشام من الناحية الغربية للبحر المتوسط ، وقد أوضح ذلك الدور العثماني أهمية وحـدة المنطقـة العربيـة في مجال التخطيط الاستراتيجي لأمنها وسلامتها ·

اما من الناحية الاقتصادية فقد حرص العثمانيون على فتح الطريق البرية عبر وسط آسيا من ناحية الشرق وعبر المغرب العربي في الشمال الأفريقي من ناحيـة الغرب وعبر أواسـط افريقيا وشرقيها من ناحية الجنوب ، لتحل محل الطرق البحرية التي حاصرها البرتغاليون عند مضيق باب المندب في جنوب البحر الأحمر ، ومضيق هرمز في جنوب الخليج العربي · وكانت رحلة الحـج السنوية الى الأماكن الاسلاميـة في الحجاز والقـدس من العوامل المحركة للنشاط التجاري عبر الطرق البرية بحيث وجدت في موانى مصر الشـمالية والشام كميات كبيرة من سلع التجارة الشرقية المختلفة ، وهذا ما أكدته كتابات المعاصرين لتلك الفترة من جهة ، وأرشيفات المحاكم الشرعية في موانى مصر الشماليـة والشام من جهة أخرى· كما صاحب ذلك نشاط اجتماعي في مجال المعاملات المختلفة بين أهالي البلاد والجاليات العربية والأجنبية في تلك الموانى · وقد دعم العثمانيون علاقاتهم « الدبلوماسية » مع شعوب البحر المتوسط في جنوب أوربا لتنشيط الحركة التجارية مع سواحل مصر الشماليـة والشام عن طريق عقد سلسـلة من المعاهدات مع تلك الشعوب ، كالمعاهدة التي عقدها السلطان سليم الأول مع البنادقة في عام ١٥١٧ م ، والتي عقدها سليمان القانوني مع الملك فرانسوا الأول في عامي ١٥٢٨ و ١٥٣٥ م ، والتي عقدها السلطان مراد الثالث مع الملكة اليزابيث الأولى في عام ١٥٨٠ والذي أصدر « براءة » تضمن للتجار الانجليز امتيازات واسـعة النطاق بحيث نشطت معها حركة التبـادل التجاري مع الموانى

العثمانية فى سواحل مصر الشمالية والشام آنذاك ، ثم تعاقبت المعاهدات بعد ذلك بين الجانبين وأضيفت اليها امتيازات جديدة ٠

وعلى الرغم من الرواج النسبى الذى عاشته مدن سواحل مصر الشمالية والشام فى بداية تبعيتهما للدولة العثمانية أثناء القرن السادس عشر فيما يتعلق بالنشاط التجارى ، وتوافر قدر محدود من سلع التجارة الشرقية ، فان ذلك لم يكن يتناسب مع ما كانت عليه من رواج قبل تحول التجارة العالمية عنها الى طريق رأس الرجاء الصالح ، مما يوضح مدى تأثرها بهذا الحدث الهام ٠ كما يؤكد ذلك أن العثمانيين لم يفرضوا العزلة على مصر والمناطق العربيـة التى توسعوا فيها ـ كما يشـاع ذلك خطأ ـ بل انهم حرصوا على دعم العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع العالم الأوربى لتنشيط الحركة التجارية ٠ أما بالنسبة للعزلة التى منيت بها تلك المناطق فقد فرضها الغرب الأوربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على وجه الخصوص ، ليس فقط على مدن سواحل مصر الشمالية والمشرق العربى ، وانما أيضا على المدن التجارية فى جنوب أوربا كالبندقية وجنوه ، نتيجة للمنافسة التى انتهجها البرتغاليون والاسبان فى البداية ، ونتيجة أيضا لمنافسة الشركات الاحتكارية الأوربية التى ظهرت فيما بعـد كشركة الليفانت فى عام ١٥٨١ م ، وشركة الهند الشرقية الهولندية فى عام ١٥٩٤ م ، وشركة الهند الشرقية الانجليزية فى عام ١٦٠٠ م ، وشركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ م ، وهى شركات كان لها دورها الفاعل فى حركة الاستعمار الأوربى فى العصور الحديثة ٠

اولا ـ التجارة العالمية عبر سواحل مصر الشمالية
قبيل تحولها الى طريق رأس الرجاء الصالح
في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى

كانت التجارة العالميـة الآتية من بلاد الشرق الى أسواق أوربا طوال العصور القديمة والوسطى ، تظفر برواج واسع ، وتحقق أرباحا خيالية للمشتغلين بها منذ شحنها فى موانى التصدير الآسيوية والأفريقية المطلة على المحيط الهندى حتى يتم توزيعها فى أسواق أوربا • وكانت هذه التجارة تعبر مصر والشام لتصل الى عالم البحر المتوسط حيث تستقبلها الموانى الأوربية التى تقوم بتوزيعها فى أسواق أوربا • وكانت هذه السلع متعددة ومتنوعة ويتشكل قوامها من البخور ، والعطور ، والتوابل (٦٥٤) ، التى عرفت تجارتها باسم تجارة الكارم (٦٥٥) ، والعقاقير ، والبن ، والأقمشة الحريرية ، والسجاجيد ، والعاج والأحجار الكريمة والأخشاب النادرة التى يصنع منها أرقى أنواع الأثاث الفاخر والتحف الثمينة • فالتوابل كان فى مقدمتها القرفة والزنجبيل والفلفل وجوز الطيب ، واستخدمت فى اعداد الوان الطعام ، وأصبح علية القوم من الأوروبين لا يقبلون على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية (٦٥٦) • كما أقبلت النساء الأوربيات على المسك والعنبر وماء الورد وأطيب أنواع العطور والبخور والمنسوجات الحريرية الراقية ، وكانت تشاركهن فى ذلك ايضا الكنائس فى

أوربا • أما العقاقير المتعددة الأنواع مثل الأفيون والكافور والصمغ وغيرها ، فكان الأوربيون يستخدمونها فى اعداد الدواء ويكتبون عليها ما يدل على استيرادها من بلاد الهند أو بلاد العرب تأكيدا لجودتها (٦٥٧) •

وكان البن من أهم السلع الشرقية التى انفردت بلاد اليمن فى العصور الوسطى بانتاجه ، وأقبل عليه الأوربيون اقبالا متزايدا ، حتى كان هذا المحصول فى القرون التالية موضع تنافس حاد بين شركة الهند الشرقية الانجليزية (١٦٠٠ ـ ١٨٥٨) وبين طلائع التجار الأمريكيين الذين حاولوا احتكاره فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مما جعل بريطانيا تعمل على كسر احتكار الأمريكيين لهذه التجارة وتحويلها من ميناء مخا اليمنى الى ميناء عدن الذى قامت باحتلاله فى ١٩ يناير ١٨٣٩ (٦٥٨) •

أما بالنسبة لتجارة الأقمشة الحريرية فقد عرفت فى ديار الشام ومصر منذ القرن الأول قبل الميلاد حيث كان الرومان يحتلون تلك البلاد • وكان الحرير هو المادة الرئيسية فى الاتجار بين العالم الرومانى والصين ، اذ كان الحرير يشكل تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها ، وكان يصل الى موانى صور وصيدا وأنطاكية والاسكندرية • وفى الموانى الفينيقية كان يعالج بالأصباغ المختلفة ، وأشهرها الأرجوان ، وعندها يصبح لباس الأباطرة ، وفيما بعد أصبح لباس كبار رجال الكنيسة • وظل انتاج الحرير حكرا على الصين ، والاتجار به خاضعا لمن يتولى شئون ايران الى أواسط القرن السادس للميلاد عندما حمل راهبان بعض دود القز فى جوف عصيهما خفية الى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، وعندها باشرت تلك المنطقة بانتاج الحرير • وانتشرت صناعة الحرير في لبنان بسبب جودة المناخ لزراعة التوت وحفظ

الشرانق صيفا ، ومهـــارة الصناع في خدمة الحرير ، نســـجا وصناعة .. وكان الحجاج البنادقة والجنويون وغيرهم يعودون من الأراضي المقدسة حاملين معهم النسائج الحريرية التي كان الطلب يتكاثر عليها فتضطر مراكب البندقية الى المكوث طويلا في مرفأ صور في تجهيزها . وبعدما كانت الأقمشة الحريرية محصورة الاستعمال في تزيين المذابح وجدران الكنائس ، فقد انتشر استخدامها في قصور الأمراء الذين تسربلوا هم ونساؤهم بالألبسة الحريرية ، كما صنعت من الحرير الأعلام وأغشـية الأسرة ، وازدانت بها الخيـام وأماكن الاســتقبال فنشـط طلبها من الشرق نشـاطا كبيرا (٦٥٩) .

وكانت التجارة العالميـــة بين الشرق والغرب في العصـور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية في بلاد الشرق والتي يطل معظمها على المحيط الهندي حتى تصل الى الأسواق الأوربية . وكان الحجم الأكبر من هذه التجارة يسير في طريقين أولهما : طريق البحر الأحمر الى السويس ثم الى القاهرة بالقوافل ، ومنها على ظهر السفن في فرع رشيد الى قرب مدينة الرحمانية ، ومن هنـاك الى الاسكندرية ، اما بالملاحة في ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية أو على ظهور الدواب (٦٦٠) . وثانيهما : طريق الخليج العربي ونهر الفرات ، ثم الى حلب ومنها الى الموانئ الواقعة شرقي البحر المتوسط (٦٦١) . والى موانئ مصر والشـام كانت تأتي سـفن البنادقة والجنويين وغيرهم ، فتنقل سلع التجارة الى أوربا . ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام في نهاية العصور الوسطى وحتى مطلع القرن السادس عشر ، فقد كان الطريقان في قبضتهم . وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة، من الضرائب الكثيرة التي كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالأراضي المصرية والشامية ، فضلا عن احتكارهم . الكثير من سلعها المختلفة (٦٦٢) .

ومنذ اواخر القرن الثالث عشر الميلادى بدا ملوك « أرغونه Aragon » لذلك يحرصون على اقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك فى مصر والشام من اجل رعاية شئون الكاثوليك فى الشرق وفتح أسواق جديدة لأرغونه فى مصر • وقد انبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية فى علاقات الأوروبيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى ، بحيث كان لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة نامية مع مصر ، وساعدتهم علاقاتهم التجارية الطيبة بالمماليك على التدخل لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين فى اراضى الدولة المملوكية آنذاك (٦٦٣) •

وكانت مدينة القاهرة عاصمة العالم التجارية فى عصر سلاطين المماليك خاصة بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب فى ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقى طريق مصر ــ البحر الأحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار التجارة الشرقية وخاصة تجارة التوابل • وقد عاد ذلك على المماليك وعلى عاصمتهم القاهرة بثروة فائقة (٦٦٤) ، بحيث اكتظت بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات • وقد اكتظت القاهرة بالمماليك ، وهم الطبقة الحاكمة والسائدة فى البلاد ومعظمهم من الترك والجراكسة ، ومن المواطنين المصريين ومنهم العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعامة من المسلمين وأهل الذمة ، فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم ، الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الاسلامية والمسيحية سواء• وكثرت فى القاهرة فى العصر المملوكى الاحتفالات والمواكب،

واتصفت الحياة اليومية فى شوارع القاهرة بكثرة الباعة الجائلين ، هذا عدا المارة من النساء اللائى تمتعن بحرية واسعة فى الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن أو يترددن على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضين الساعات يتناقلن أخبار البيوت وأسرار العائلات (٦٦٥) ٠

واذا كان أهل القاهرة قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الأهالى من المصريين ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم ، فان ذلك كله لم يفقد أهل القاهرة روح المرح وتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس ، كالخروج الى الحدائق والى شاطىء النيل ومشاهدة خيال الظل وألعاب الحواة والقردة وغيرها (٦٦٦) ٠ وقد قيل عن مجتمع القاهرة فى عصر سلاطين المماليك انه كان ذا واجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين ، وباطنه الاثم والفساد ٠ فرغم أن القاهرة صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت فى بغداد على أيدى التتار ، الأمر الذى جعلها محورا لنشاط دينى فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية الضخمة مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها ، فقد انتشرت فيها من ناحية أخرى الأمراض الخلقية المختلفة (٦٦٧) ، وكان ذلك ناتجا عن اكتظاظ المدينة بالسكان ، ووفود نسبة كبيرة من الأغراب اليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف عليها فضلا عن الثروة الكبيرة التى هبطت على ذلك المجتمع من عوائد التجارة وجعلت القاهرة عاصمة العالم التجارية ، وقد اعتبر ابن خلدون أن هذه الثروة الكبيرة كانت السبب وراء تلك الانحرافات (٦٦٨) ٠ وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس

عشر من أبرز العوامل التى أثرت على مدينه القاهرة وعلى النشاط الاقتصادى والاجتماعى لسكانها ٠

وقد ظهر تنافس شديد بين القاهرة والاسكندرية حتى نهاية العصور الوسطى فى بيع وتوزيع سلع الشرق وسلع الغرب من التجارة العالمية ، ولكن ظلت القاهرة نقطه تجميع السلع ، ومركز توزيعها شرقا للسلع الغربية وغربا للسلع الشرقيه والمحلية ، نظرا لتوسط مركزها ، كما كانت أقصى ما يصل اليه التجار الأجانب الوافدون الى مصر ، حتى انه قد نص على ذلك فى المعاهدات التجارية بين مصر والدول الأوروبية (٦٦٩) ٠ وقد خصصت بالقاهرة احياء معينة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية، وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكالات وفنادق واماكن خاصـــه لدوابهم ، لا سيما الوافدين من الشام أو بلاد العرب أو السودان واحيانا من فارس ٠ وقد زار القاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر بعض الرحالة الأجانب ووصـــفوا مدى الازدهار التجارى الذى عاشـــته المدينة فى العصر المملوكى حتى بداية القرن السادس عشر (٦٧٠)٠

ويقترن بذكر القاهرة ميناؤها الهام على النيل عند بولاق والذى ظل الميناء الرئيسى للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى ٠ وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد ، ومن موانى الشام عن طريق فرع دميـــاط ، ومن الجنوب ســـلع الحبشة والنوبة ، وموانى البحر الأحمر ٠ ووجد بميناء القاهرة مخازن ومتـــاجر ووكالات واســـعة ، كما وجد بها رجال الحكومة وعمال الجمرك بصـــفة دائمة لتحصـــيل الرســـوم المســـتحقة على التجارة ٠ ولجمركها باب خاص بالمسافرين تفحص فيه حقائبهم ويدفعون ١٠٪ عما فيها ، و « دوكين » للمسافر العادى ، وخمسة

للحاج ، مع دقه مراقبتهم ، مما كان يشكل حصيلة كبيرة للخزانة المملوكية (٦٧١) ٠

أما بالنسبه لميناء الاسكندريه واهميتها على طريق التجارة الدوليه عبر مصر وعالم البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر ، فقد كانت بحكم موقعها على هذا البحر تفوق القاهرة فى اتصالها باوربا مباشرة ٠ وكانت المدينه تزدحم طوال العام بالأجانب الوافدين اليها للتجارة أو للعبور للحج للاماكن المقدسه فى سيناء وفلسطين ٠ وكان لدول أوربا وعالم البحر المتوسط بصفة خاصة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق بالاسكندرية يمارسون فيها حياتهم الخاصة فى حرية ، وكان السلاطين المماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى بعد دفع رسم سنوى للسلطان ٠ ومن أشهر الفنادق التى كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق أهالى مدينة ناربون ، وفندق البنادقة ، وفندق القطالونيين ٠ وكانت الاسكندرية قد خلفت مدينة دمياط كميناء مصر الأول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءا من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوربى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الأوربية الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء ٠

ولهذا شهدت مدينة الاسكندرية أروع أيامها فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر خاصة بعد عام ١٤٥٣ م ، حتى أن ايرادات الحكومة كان معظمها من جمرك الاسكندرية التى كانت تتراوح يوميا فى فترات ما بين ألف وألفى دينار عدا رسوم السفن

والسياح والحجاج (٦٧٢) . والمدينة لا تقل اتساعا وأهمية عن أكبر مدن البحر المتوسط التجارية مثل البندقية وجنوه ومرسيليا، ولها عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من اوروبا ، ومرسى السلسله للسفن الوافدة من شمال أفريقيا ، وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الاول . والى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء (أبو قير) عند بحيرة تعرف باسم (رأس المعدية) ويتصل الميناء بقناة تصل للبحيرة . ويبعد الميناء حوالى ثمانية أميال شرقي الاسكندرية . وميناء ابو قير يعد مرفأ للسفن السورية القادمة للاسكندرية وتدخله السفن الصغيرة، أما السفن الكبيرة فتتصل به من البحر بواسطة القوارب (٦٧٣) .

وكانت لمدينة رشيد أهمية خاصة عند سلاطين المماليك ، حيث كانت الميناء الكبيرة للبحرية المملوكية ، مما جعل السلطان قنصوه الغورى (٩٠٧ ـ ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م) يشيد بها سورا وأبراجا لحفظها . وكان محظورا دخول الاجانب إلى رشيد نظرا لصفتها الحربية (٦٧٤) ، وان كان السلطان الغورى قد سمح للتجار البنادقة بالدخول اليها والاستقرار فيها ، فضلا عن اقامة فندق لهم هناك ، نظرا لتفوق تجارتهم مع السلطنة على سائر الدول الأخرى (٦٧٥) وقد نقل النشاط التجارى منها الى ميناء بلدة فوه التى تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تستخدم حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادى . كما كانت تخرج من جنوبى رشيد قناة تصل الى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح للملاحة طوال العام ، وله مدخلان : الشمالى للسفن المسيحية والغربى للسفن الاسلامية وكانت الموانى تتبع نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد اعتنى العثمانيون عقب فتحهم لمصر فى سنة ١٥١٧ م بمدينة رشيد وقام بزيارتها السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ

١٥٢٠ م) وأنشــأ بها الوالى العثمانى ســليمان باشــا الخادم (٩٣١ ـ ٩٣٤ هـ / ١٥٢٤ ـ ١٥٢٧ م) قيسارية وفندقا ، كما انشأ داود باشــا (٩٤٥ ـ ٩٥٥ هـ ١٥٣٨ ـ ١٥٤٨ م) فندقا آخر سمى خان داود باشــا ، كما أنشأ على باشــا فندقا عــام (٦٥٦ هـ /١٥٤٩ م) بالاضافه الى خانات اخرى بفوه ، كما عمر وكاله كبيرة في رشيد (٦٧٦) .

ومن اشهر موانى مصر كذلك ميناء دمياط النهرى البحرى ، وهو مخرج تجــارة مصر لمدن وموانى الســاحل الشرقى للبحر المتوسط والاناضول وكريت وقبرص، كما يتصل بالقوافل البريه الى موانى البحر الأحمر . ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل ، وكذلك لردم جزء من فـم البحر عندها . انما يخرج من دمياط قناة الى بحيره المنزله حتى تدخل اليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين ميلا من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط ، وهي فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة الى دمياط والصادرة منها . واشتهرت دميــاط وضواحيها بخصوبة التربه ووفرة انتــاج قصب السكر وصناعة السكر بصفة خاصة . وقد أرسل فرسان الاسبتاريه فى رودس قنصلا لهم فى دميــاط ليرعى الشئون التجارية كما وجد بدميــاط عدد كبير من الأجانب اليونانيين والبنــادقة والجنويين والفلورنسيين . وظلت قنصلية رودس قائمة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧ م (٦٧٧) . وعلى مقربة من دمياط يوجد ميناء البرلس الذى اشتهر بصيد البورى وتصديره مملحا الى رودس بصفة خاصة . وفى عامى ١٥٠٧ و ١٥٠٨ م دعا السلطان قنصوه الغورى التجار الفلورنسيين لزيارة دمياط والاسكندرية والبرلس . وفى بداية القرن السادس عشر كان للبندقية قنصل فى البرلس لرعاية النشاط التجارى للبنادقة هناك (٦٧٨) .

هذه هى أبرز موانى مصر المطلة على البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين ، بالاضافة الى القاهرة عاصمة السلطنة المملوكية التى كانت مركزا للتجارة العالمية آنذاك .

أما بالنسبة لموانى مصر المطلة على البحر الأحمر فقد كان فى مقدمتها ميناء السويس ، الذى كانت تصل اليه السفن التجارية الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك . ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة ، ثم بالنيل الى الاسكندرية . على أن هذا الميناء التجارى لم يلبث أن تحول وأصبح ميناء مصر الحربى على البحر الأحمر وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه تحركت سفن الأسطول المملوكى لمحاربة البرتغاليين فى المحيط الهندى فى مطلع القرن السادس عشر ، وكذلك سفن الأسطول العثمانى خلال القرن المذكور (٦٧٩) . وعندما صارت السويس مرفأ مصر الحربى على البحر الأحمر فقد استقر رأى السلطات المملوكية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة فضلا عن ميناء القصير الذى يربط طريق القوافل الى قنا على نهر النيل ومنها الى القاهرة . وقد اتبع فى ميناء الطور نفس النظام الذى كان لميناء السويس : فسفن الهند لا تصله ، انما تفرغ حمولتها فى عدن وفيما بعد فى جدة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل الى القاهرة . وكانت سفن التجارة الهندية تصل الى جدة مرتين فى العام ، وفى كل مرة ينشط العمل فى ميناء الطور (٦٨٠) . وفضلا عن أهمية الميناء التجارية فهو المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين الى مصر من دير سانت كاترين بسيناء ، وللحجاج المسلمين المتوجهين الى مكة والمدينة المنورة . وكان الحجاج

المسيحيون يهتمون خاصة بمواعيد وصول سفن التجارة الى الطور، نظرا لان البندقيه كانت تضع توقيتا لسفنها التجاريه بالاسكندريه يتفق مع حســـاب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم للاسكندريه ، وحتى يستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون اوربا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهره والرحيل الى اوربا على سفن البندقيه التى تنتظر المتاجر فى الاسكندريه (٦٨١) ٠

وتجدر الاشاره كذلك الى التجاره التى كانت ترد الى مصر رأســـا من الجزيره العربيـــه والتى كانت تختلف عن طبيعـــه منتجات وادى النيل ٠ فالجزيرة العربيه كانت تحتاج الى المنتجات الزراعيه بوادى النيل الخصيب كالحبوب بأنواعها ، بينما كانت الجزيره العربيه تصدر الى مصر والبسام الذى اشتهر بجود زراعته فى بلاد اليمن٠ وبالاضافه الى ذلك كانت هناك فى الجزيره العربيه حركه تجاريه كبيره للســـلع الهنديه كالتوابل والاعشاب التى تصلح كعقاقير ، فضلا من نوعيات الأقمشة التى كان يحضرها التجار الآسيويون من بلادهم (٦٨٢) الى مكة والمدينة المنورة وخاصة فى موسم الحج ٠ وكانت ميناء القصير وميناء السويس تستقبلان كثيرا من تلك السلع الآسيوية الواردة الى الجزيرة العربيه ، كما كانتا تصدران الى الجزيرة القمح والدقيق والفول والعدس والســـكر والزيوت ، وكان عرب الجهـات القريبة : عرب الطـور ، وعرب الحويطات يترددون على السويس للبيع والشراء ، فيبيعون لأهلها سلع البادية من سمن ونحوه ، ويشترون سلع المدينة من ثيـاب وغيرها ٠ وكانوا يكثرون بها فى موسم الحج خاصة لبيع بضائعهم للحجاج ثم يعودون الى أقاليمهم ٠ وقد غلب على سكان السويس عنصر التجار ووكلائهم ، فكان يقيم بها وكلاء عن تجار القاهره والاســـكندرية ووكلاء عن تجـــار الهنـــد واليمن والحجـــاز والسودان (٦٨٣) ٠

وجدير بالذكر أن طريق الحج كان سببا فى احياء موانى السويس والقصير والطور وعدم هجرها ، حتى بعد تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر الميلاديين (٦٨٤) ، اذ ظلت السويس معبرا لتجارة مصر مع بلاد اليمن والحجاز والتى تجمعت فيها سلع كثيرة شرقية أحضرها معهم الحجاج من سائر أنحاء آسيا وأفريقيا (٦٨٥) • فكانت كل هذه المتاجر تمر بالسويس ومنها على ظهور الدواب الى القاهرة ، وكانت تصل الى السويس مجموعات عديدة من السفن على مدار العام • وكانت السويس مقرا لجمرك هام يقيم فيه المقومون المثمنون الذين يقدرون أثمان البضائع ، فيؤخذ على المائة عشرة • ومن البضائع التى كانت ترد الى ميناء السويس الحرير الهندى ، والقطن الهندى ، والقطن السواكنى ، والفلفل والحبهان ، والبن ، والزنجبيل ، والقرفة ، وجوز الطيب ، وجوز النارجيل ، والنيلة الهندية ، والعقاقير ، والقلويات المستعملة فى الصابون والفحم السيال ، والسمن الشيحى ، والكافور ، واللآلىء ، والطيور والقرود ، والظباء ، والغنم البرية •

ولما كانت رياح الجنوب تسود عادة البحر الأحمر منذ بداية ديسمبر وحتى منتصف فبراير ، فان موسم ارسال السفن الشراعية يتم تجاه الشمال من جدة وينبع الى السويس • وفى بقية العام تهب الرياح من المنطقة الشمالية ، وعندئذ يمكن ارسال السفن تجاه الجنوب من السويس الى الجزيرة العربية • وعندما تكون الرياح مواتية تصل السفينة من جدة الى السويس فى خمسة عشر أو ستة عشر يوما ، فى حين أن المدة التى تستغرقها الرحلة العادية تبلغ عشرين أو اثنين وعشرين يوما ، وتكون خمسة وعشرين أو ستة وعشرين يوما بالسفن القادمة من ينبع (٦٨٦) •

وبالنسبة لعملية نقل البضائع الواردة من السويس الى القاهرة ، فقد كانت تحتكر نقلها أربع قبائل تسلك كل منها طريقا مختلفا هي قبائل طرابين ، والحويطات ، وعرب الطور ، والعايدى • ويقدم هؤلاء العرب الجمال بحمالبها ، وعددا مناسبا من قائدى الجمال الذين يخضعون لأوامر شيخ العرب • ويحمل الجمل الواحد من السويس الى القاهرة من خمسة الى ستة قناطير من البن ، وكانت فى السويس ثمانى عشرة وكالة مخصصة لسكنى التجار الأجانب ولكى يستخدموها كمخازن • وكانت شوارع بندر السويس نظيفة ومبانيها منتظمة وبها ثلاثة ميادين ، وقد أثر النشاط التجارى على المدينة فبدت أفضل من غيرها من المدن المصرية فى القرن الخامس عشر •

وتجدر الاشارة الى أن السويس كانت فى نهاية القرن الخامس عشر مقرا لجمرك هام عرف باسم « جمرك عشور أصناف بهار وتوابعها » ، وكان هذا الجمرك يثري الخزانة المملوكية الى جانب جمرك الاسكندرية وجمرك رشيد وجمرك دمياط وجمرك البرلس ، وكان الأخير يختص بالمتاجر الواردة من الدلتا ومن الصعيد •

كذلك كانت تصل الى مصر عن طريق الصعيد القوافل التجارية الآتية من داخل أفريقيا مثل قافلتى دارفور وسنار(٦٨٧)، وكانتا تسهمان فى تجارة الرقيق والعاج والصمغ ، والتمر الهندى، وجلود الكركدن • وتصل هذه القوافل الى أسوان التى كانت ميناء هاما على النيل ــ عبر العصور ــ ثم تصل الى أسيوط ، حيث كانت تفرض عليها ضرائب تقدر على الرقيق والجمال وما تحمله من سلع • ثم تنقل البضائع بعد ذلك فى قوارب عبر النيل الى القاهرة • وكانت تباع فى أسيوط معظم الجمال التى تصاحب

القوافل ويحتفظ بما يقرب من خمس عددها ليستخدمه التجار فى رحلة العودة الى دارفور وسنار ، وكانت تتم الرحلات مرات عديدة فى كل عام • وكان التجار الأفارقة يحملون معهم من القاهرة فى رحلة العودة الى بلادهم السلع المختلفة من الأقمشة ولوازم الخيول ، والبن ، والسكر والأسلحة والمعادن والزجاج الملون ، وكان بعض هذه السلع يصل الى مصر من أوربا عن طريق البنادقة (٦٨٨) •

وكانت تربط السلطنة المملوكية بملوك أفريقيا علاقات تجارية مع بلاد التكرور أو مالى ، وسلطنة برنو أو كانم ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاى • ومن أشهر تجارة المماليك مع دول أفريقيا الصناعات المصرية على وجه الخصوص ، مثل تطعيم المعادن والجواهر ، أو ما كان يطلق عليه التزميك أو التكفيت ، وهى صناعة دقيقة أصبح للقاهرة أسلوب خاص فيها فى صناعة الأوانى النحاسية ، كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج • وكذلك صناعة السرج التى كانت لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد التى بلغت غاية الرقى ، وصناعة الزجاج ، وان كان أشهرها على الاطلاق صناعة الأقمشة التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المسماة طراز •

وتجدر الاشارة كذلك الى طرق القوافل التى كانت تربط بين بلدان المغرب العربى المطلة على الجانب الغربى من البحر المتوسط ومصر ، وهى تلك الطرق التى تسلكها قافلة الحج والتى تمر بأقاليم المغرب الساحلية المختلفة (٦٨٩) • وقد كانت هذه القافلة فى الوقت نفسه قافلة تجارية ؛ نظرا لأن الحجاج المغاربة كانوا يحملون معهم السلع المغربية ليبيعوها فى المدن والقرى المصرية التى يمرون بها أثناء رحلتهم ، وكذلك يفعلون فى المدن الشامية في شرقي البحر المتوسط ، وفي موانى ومدن الحجاز •

وفى طريق عودتهم من رحلة الحج كان التجار المغاربة يحملون معهم السلع الشرقية المختلفة من حجازية وهندية وشامية ومصرية ؛ ليبيعوها فى بلادهم علهم يحققون ربحا يعوض لهم ما أنفقوه فى رحلة الحج (٦٩٠) .

بل انه وجد كذلك طريق آخر كانت تتبعه قافلة فزان المغربية ، عن طريق الصحراء الغربية ، فواحات الخارجة ، فأسيوط ، فالقاهرة (٦٩١) . وكانت هذه القافلة تأتى بالبلح والطرابيش الصوفية ، وتعود محملة بالمنتجات المصرية ، وما تجمع فى مصر من تجارتها مع الجزيرة العربية (٦٩٢) .

على أن كثيرا من المغاربة استقروا فى مصر وعملوا فى مجالات التجارة والحرف بها ، ويرجع ذلك الى الظروف التى تعرضت لها بلاد المغرب فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة مما جعل المغاربة من أبرز الجاليات الاسلامية فى مصر العثمانية . وقد لعبت المدن المغربية دورا هاما فى التجارة العالمية فى نهاية العصور الوسطى وخاصة فى عهد الموحدين (٥٤١ ــ ٦٦٧ هـ / ١١٣٠ ــ ١٢٦٩ م) حيث كانت بلاد المغرب تموج بنشاط تجارى داخلى وخارجى ، واسع النطاق ، فسارت القوافل متواصلة ما بين البلدان المغربية ، وأفريقيا والسودان ، لاستيراد المواد الأولية والاستوائية ، وكذلك الذهب والرقيق ، كما كانت طرق التجارة مع بلدان المشرق الاسلامى ، البرية والبحرية ميسرة حيث كانت تمر عبر أراضى مصر وموانيها التى تحتل موقعا وسطا . وكانت المدن والموانى المغربية هى المصدر الأول للمدن الايطالية وغيرها من بلدان أوربا الراغبة فى التجارة الأفريقية والشرقية . وقد أثرت المدن ثراء ضخما من وراء هذا النشاط والنشاط التجارى ــ على أساس أنها أصبحت تقوم بدور الوسيط فى نقل السلع

الأفريقية والشرقية ـ اللذين حظيت بهما بلدان المغرب العربي ، الى الموقع الجغرافي الخاص الذي احتله المغرب ، وأثر تأثيرا بالغا في تطور المسالك التجارية المغربية جنوبا وشمالا ، وغربا وشرقا ، مما جعل مساهمة بلدان المغرب الاسلامي في التجارة العالمية ذات اهمية بالغة ، كما كان لهذا الموقع أثره في علاقات بلاد المغرب الحضارية بمنطقة البحر المتوسط وخاصة بمصر . على أن العامل الأقوى وراء دور المغرب الاسلامي التجاري والحضاري في منطقة البحر المتوسط ـ مع عدم انكار أهمية الموقع الجغرافي ـ انما يرجع الى استمرارية اتصاله بالمشرق الاسلامي، حضاريا وثقافيا ، وتجاريا هذا الى جانب الثنائية الاقتصادية التي شهدها المغرب العربي في العصور الوسطى ، من ارتباط الفلاحة بالتجارة ، نظرا لأن كثيرا من المواد الفلاحية ، أصبحت بضائع أساسية في قائمة التبادل التجاري ، ولا سيما بالنسبة للتجارة الصحراوية مثل : الحبوب ، والتمر ، والزبيب ، والصوف ، وقصب السكر وغيرها . بالاضافة الى الاستقرار السياسي الذي عرفه المغرب في بعض فترات تاريخه في العصر الوسيط الاسلامي ، حيث ساهم هذا الاستقرار في تطور المسالك التجارية وأمنها . ولم تحل النظم السياسية المختلفة دون الالتحام بين مراكز التجارة في البلدان المغربية ، بل انها حاولت أن تحقق لها الأمن وتستغلها اقتصاديا في تدعيم مركزها السياسي والتجاري (٦٩٣) . على أن الجزء الأكبر من عائد هذا النشاط التجاري الذي شهدته بلدان المغرب ، عاد الى فئات بعينها دون عامة الشعب ، وبخاصة فئة الحكام والرؤساء ، وفئة التجار ، التي ظهرت كفئة اجتماعية جديدة حيث عاش سكان المراكز التجارية معيشة فيها شيء كثير من الرفاهية والرخاء ، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لسكان الريف والمناطق الصحراوية (٦٩٤) .

وتجدر الاشـــارة الى أن المغرب العربى قد تعرض للتفـكك السياسى بعد انهيار دولة الموحدين (فى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م) فى جميع بلدانه ، حيث أصبح هناك ثلاث دول مسيطرة هى الدولة الحفصية فى تونس ، ودولة بنى زيان فى الجزائر ، ودولة بنى مرين فى مراكش ، وكان النزاع بين هذه الوحـدات السياسـية التى انقسم اليها المغرب مستمرا ، هذا الى جانب طرابلس التى قام النزاع بينها وبين الحفصيين ، بل ان النزاع كان قائما فى داخل الدولة الواحدة ، كما كان يحدث فى المناطق الشرقية من الجزائر وفى منطقـة بلاد القبايل • وسوف يؤدى هذا التفـكك السياسى والصراع الداخلى الى هجرة كثير من المغاربة الى المشرق عامة والى مصر بصفة خاصة ، حيث عملوا فى مجال التجارة والحرف فى الاسـكندرية وغيرهـا من موانى الجانب الشرقى من البحر المتوسط ، فضلا عن كثير من المدن الداخليـة • وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى أن نزوح كثير من أهل المغرب الى مصر انما كان يعود الى حالة الرفاهية التى كانت تشهدها مصر فى العصر المملوكى نتيجة لمرور التجارة العالمية بها فيقول : « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهـم ما يقضى منه العجب ، حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ، ينزعون من الثقلة الى مصر لذلك ، ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها » (٦٩٥) • ولهذا فان معظم التجار والحرفيين المغاربة ، والقبائل المغربية ، الذين وفدوا الى مصر واستقروا فيها أو مارسوا نشاطهم لفترة وعادوا الى بلادهم كانوا من أبناء المدن والمنـاطق المغربية التى أصيبت بنكسة اقتصادية سواء نتيجة لعمليات الغزو الاسبانى أو بسبب الصراعات الداخلية • وقد استقر هؤلاء فى مدن مصر وريفها ومارسوا نشاطاتهم المختلفة من تجارية أو حرفية أو زعوية أو زراعية ، كما تزود بعضهم بزاد المعرفة والعلوم الدينية فى الأزهر الشريف ، فى وقت انتشرت فيه الفرق الصوفية المتعددة

التى جعلت أتباعها يتتلمذون على أيدى رجال الطرق الصوفية من المصريين • كما أن رغبة كثيرين من المغاربة فى أداء فريضة الحج ، أدت الى توجههم الى مصر وبلاد المشرق بصفة مستمرة واشتراكهم الواضح فى الحياة الاقتصادية والثقافية مع المصريين وأهالى المشرق الاسلامى (٦٩٦) •

وتجدر الاشارة الى أن مدينة الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة محطة أساسية لهم ، حيث كانت تقع على طريق الحج والتجارة ولهذا فانهم أنشأوا واستأجروا بها الوكالات والمخازن لتخزين السلع التى يجلبونها من الهند والشرق الأقصى وموانى شبه الجزيرة العربيــة والموانى الواقعة فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط كما كون المغاربة تنظيماتهم الاجتماعية فى الاسكندرية وأخذوا يؤدون دورهم فى بيئتها الحضارية فى العصور الوسطى (٦٩٧) والحديثة • وينطبق اهتمام المغاربة بالاسكندرية على موانى مصر الأخرى الواقعة على البحر المتوسط مثل رشيد ودمياط، أو تلك الواقعة على البحر الأحمر مثل السويس والقصير، بل انهم ربطوا هذه الموانى عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير بالموانى التجارية العربية الأخرى والموانى الأوربية التى كان لهم فيها وكالات تجارية ، كما كان لهم وكلاء يقيمون بهذه الموانى (٦٩٨) •

وتجدر الاشارة كذلك الى الجاليات الأجنبية الأخرى التى كان لها نشاط تجارى ملحوظ فى الموانى المصرية المطلة على البحر المتوسط ، والتى لقيت عناية كبيرة من قبل المماليك فى نهاية العصور الوسطى والعثمانيين فى العصور الحديثة • فقد أنشأت السلطات المملوكية على نفقتها فنادق خصصتها للتجار الأجانب • وكانت الإسكندرية تضم عدة فنادق لجاليات أجنبية مختلفة ؛ أولاها

واهمها جالية البنادقة ، واهم فندقان ، على حين كان ثمة فندق واحد لكل من أهل جنوة ، وبيزا ، وفلورنسا ، وأنكونا ، وبالرمو ، وكان لأهل نابولى فنـدق بالاشتراك مع آخرين من الايطاليين • أما الفرنجة فكانت لهم فنادق خاصة بهم ، ولا سيما أهل مرسيليا وناربون وقطالونية وراجوزة• ورغم أن جزيرة كانديا كانت احدى مستعمرات البندقية الا أنه وجد لها فندق خاص • وكان لمملكة قبرص قبـل غزوة بطرس لوزينـان وليونان الاسكندرية فندق ، وللأتراك فندق ، وكذلك فندق لكل من المغاربة والتتار ، والمعروف أن التتار بصفة خاصة كانوا يجلبون الرقيق للتجارة فهم ولذا كان فندقهم عبارة عن سوق للرقيق (٦٩٩) •

وحرصت السـلطات المملوكيـة كذلك على رعايـة الشئون الروحية للجاليات الأجنبية فسمح لهذه الجالات ببناء الكنائس فى نطاق الفنادق المشار اليها ، فكان لكل فندق كنيسة ، ولكل جالية قساوستها ، بينما كانت للجالـات الكبرى كنائس كبرى مثل كنيسة القديس نيقولا لأهل بيزا ، وكنيسة القديسة ماريا للجنويين ، وكنيسة القديس ميشيل للبنادقة (٧٠٠) • وقد ظل هذا الحال على ما هو عليه فى عهد العثمانيين فى العصور الحديثة •

وكانت سفن البنـادقة والجنويين تنقـل المتـاجر من مصر والشام الى أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت سفن البنـادقة بصفة خاصـة تحمل الجزء الأكبر من تجارة الشرق الى مينـاء البندقيـة (٧٠١) ، حيث تعرض فى سـوق « ريالتو Rialto » هناك لتبـاع فى المزاد العلنى للتجار الألمان والانجليز وغيرهـم • وكانت سوق « ريالتو » الكبيرة فى البندقية من أشـهر الأسواق التجارية فى حوض البحر المتوسط ، حيث كانت المتاجر الشرقية توضـع فى عربات وتزحف بها من هذه السـوق متجهة الى أنحاء

أوربا عن طريق سهل لومبارديا ، وممرات جبال الألب ، وطريق الراين ، لتتصل أخيرا الى تجار التجزئه في شتى البلاد الأوربيه ليتلقفها المستهلكون هناك (٧٠٢) • واستطاعت جمهورية البندقية أن توطد علاقاتها مع سلاطين المماليك ـ الذين كانوا يحكمون مصر والشام والحجاز ـ وأن تحتكر المتاجر الشرقية الواردة الى مصر عن طريق البحر الاحمر أو الواردة الى موانى الشام عن طريق الخليج العربى والعراق (٧٠٣) •

وقد أنشأت جمهورية البندقية ستة أساطيل بحرية من طراز واحد كانت تمخر عباب البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر ، وعينت لكل منها الموانى التى يتردد عليها ، واستهدفت من توحيد طراز سفنها أن يكون فى استطاعة قباطينها ووكلائها فى موانى البحر المتوسط امداد السفن بما تحتاج اليه من قطع غيارات ذات طراز واحد • وجنت البندقية ارباحا خيالية من نقل التجارة الشرقية الى أوربا ومن تصريفها هناك • واصبح الالتحاق بالبحرية مطمحا ترنو اليه أنظار الشباب من أهل البندقية الذين رأوا فى البحرية المجال الطبيعى للمال والشهرة والمجد •

ولقيت البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوة فى ميادين التجارة الشرقية ، وتطورت هذه المنافسة التجارية الى صراع سياسى حاد لعب فيه البحر المتوسط دورا حاسما • وتراءت لهاتين الجمهوريتين الضرورة السياسية فى اخضاع البحر المتوسط ـ أو على الأقل الجزء الهام منه بالنسبة لنشاطهما ـ لسيطرة أى منهما • وكانت نتيجة ذلك أن طالبت البندقية بتقرير سيادتها على البحر الادرياتيكى ، كما ادعت جنوة بحق السيادة على بحر ليجوريا • وقد قبلت أوربا بادعاءات هاتين الجمهوريتين لحاجتها الملحة الى التجارة الشرقية وبخاصة التوابل والعطور والعقاقير ، وبذلك

ظهرت فى تاريخ العلاقات السياسيه الدولية لأول مرة فكرة سيادة الدولة على البحار (٧٠٤) • ولم يقف التنافس السياسى بين البندقية وجنوة عند هذا الحد ، بل قام بينهما صراع حربى بالغ العنف انتهى بهزيمة أهالى جنوة فى معركة « كيوجا Chioggia » وعلى آثرها عقد صلح « تورينو » سنة ١٣٨١ م • ولكن جنوة راحت تفكر فى وسيلة أخرى لحرمان البندقية من مصادر قوتها وثروتها، وذلك بايجاد طريق بحرى متصل تأتى منه السلع الشرقية الى أوربا (٧٠٥) • وهذا سيفسر التقارب الذى تم بينهم وبين البرتغاليين فى مطلع العصور الحديثة •

وتجدر الاشارة كذلك الى دور فلورنسا فى النشاط التجارى مع مصر والشام • خاصة وأن أسرة « ديميدتشى » الحاكمة فى فلورنسا فى نهاية العصور الوسطى عملت على توثيق صلاتها التجارية مع السلطات المملوكية (٧٠٦) • أما بالنسبة لأهالى فرنسا واسبانيا ، فقد كانوا يحصلون على حاجتهم من المتاجر الشرقية من أسواق مصر وشرق البحر المتوسط عن طريق الوسطاء البنادقة والجنويين (٧٠٧) •

ونظرا لاشتغال البنادقة بالحجم الأكبر من التجارة الشرقية سواء من ناحيتى النقل أو التسويق فقد شكلوا أكبر جالية فى مدينة الاسكندرية فى نهاية العصور الوسطى ، كما كان لهم حى خاص • وكان يشرف على مصالحهم قنصل معين من قبل جمهورية البندقية • وكان حى البنادقة بالاسكندرية يضم فندقين وحماما ومخبزا وكنيسة ، كما كانت حكومة المماليك قد أعفتهم من عدة ضرائب وسمحت لهم بالتجارة فى اللآلىء والأحجار الكريمة والفراء• ولهذا لم يتردد البنادقة فى جلب كل ما تحتاج اليه مصر من السلع الخارجية ، حتى الأدوات الحربية التى حرمت البابوية التجارة

فيها ، كالأسلحة والحديد والأخشاب والرقيق والكبريت والقار وكذلك بعض المواد الغذائيه كالحبوب والزيت ، وذلك رغم تهديد البابوات وتكليفهم فرسان الاسبتاريه والداويه بمراقبه البحار ومنع وصول هذه المواد الى المسلمين (٧٠٨) ٠ وقد زادت نسبه اهتمام البنادقة بالتجارة الشرقيه بعد فتح الاتراك العثمانيين لمدينه القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، حين اضحت التجارة في البلقان وموانى البحر الاسود صعبة ومحفوفه بالمخاطر ، ولذلك وجه البنادقه عنايتهم الى حوض البحر المتوسط الشرقي ، ونشطت اعمالهم التجارية في موانيه كالاسكندريه وبيروت وحلب ودمشق (٧٠٩) ٠ وكانت قوافل البندقية التجارية البحرية تصل الى مصر مرتين في كل عام ، في يناير وفى الخريف ، وكانت تتكون القافلة فى العادة ما بين ثماني سفن وثلاث عشرة سفينة ، وتقدر حمولتها بمليونى بندقى على أقل تقدير ٠ ولهذا تمتع البنادقة بالمكانة الأولى بين الجاليات الأوربية في الاسكندرية طوال العصر المملوكى فى نهاية العصور الوسطى ، وأثناء العهد العثمانى في مطالع العصور الحديثة (٧١٠) ٠

وتجدر الاشارة الى أن العملة الأجنبية كانت متداولة في أسواق مصر فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ٠ ومن أمثلة هذه العملة عملة البندقية والتى تعرف باسم « دوكات Ducat » نسبة الى « الدوج Doge » ٠ وكانت العملة الخاصة ببلاد الفرنجة في فرنسا وايطاليا والأراضى المنخفضة المسماة الافرنتية ، جمع أفرنتى ، وهى التى تعرف « بالفاورين Florino » ، وان عرفت العملة الأجنبية بوجه عام باسم « مشخصة » ،وذلك بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها (٧١١) ٠

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى أيام المماليك فى نهاية العصور الوسطى من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك ، مثل : دكاكين وحوانيت ومخازن وقياسر وخانات ووكالات وفنادق ، وهذه الأخيرة كانت أكثرها تتكون من عدة طوابق ، عبارة عن غرف مختلفة ومخازن ، لها فناء داخلى ، يحتوى على البضائع والدواب ، ويسكنها غالبا التجار الأجانب ، يرأسهم القناصلة ـ مفردهـا قنصل ـ وهم كبار الفرنج ، فكانت الفنادق توجد فى كل أنحاء المدن المصرية من الاسكندرية الى أسوان (٧١٢) ٠

ونجدر الاشـارة الى مظهر الثراء فى عصر الدولة المملوكية والبذخ الذى عاشته الطبقة المملوكية بالذات ، وعلى رأسها السلطان المملوكى ، حتى انه من كثرة الأموال كانت له خزانة عرفت « بخزانة الخاص » ، كما أصبحت القلعة ـ مقر الحكم المملوكى ـ تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة ٠ ثم هذه المنشآت الضخمة التى تركها معظم السلاطين المماليك ، من جوامع ـ كجامع السلطان حسن وبرقوق والمؤيد ـ وزوايا ومدارس وسبل وبيمارستانات وحمامات وقلاع ـ كقلعة قايتباى بالاسكندرية ـ وتحف ما زالت تحتل الصدارة بين آثار مصر الاسلامية ، وأصبحت القاهرة فى العصر المملوكى درة فى جبين الشرق ٠ كما ظهرت دلائل البذخ فى حياة القصور والحفلات (٧١٣) التى طبعت بطابع الأناقة المعبرة عن الانتعاش الاقتصـادى الذى ظهر فى شكل ثراء وبذخ نادرين ، وحتى فى ابداع الصناعة والحرف والفنون وفى ازدهار الحياة الاجتماعية ٠ وكان مصدر هذا الثراء التجارة العالمية العابرة بمصر آنذاك ، وما يفرض عليها من ضرائب متنوعة ، ولهذا سوف تتأثر الحياة الاقتصادية بهذا الثراء العظيم الذى يتمتع به سلاطين المماليك ، فكانت وطأتهم فى فرض الضرائب الداخلية وجمعها فى أحيان كثيرة تخف على الزراع والصناع والتجار نوعا ما ، وفى هذا

تخفيف كبير عن كاهل الرعايا وعلى الأخص الطبقات الفقيرة وبخاصة الفلاحين ، كما فيه تشجيع للزراعة والصناعة ، وانتشار التجارة (٧١٤) • غير أن الأمر سيتغير عما كان عليه عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ م ، وتحويلهم الحجم الأكبر من التجارة العالمية عن مصر والشام والبحر المتوسط الى هذا الطريق الجديد •

وجدير بالذكر أن أسعار السلع الشرقية كانت ترتفع ارتفاعا فاحشا بسبب الضرائب الجمركية الباهظة التى كان يفرضها حكام الدول الشرقية الواقعة على الطريق من أماكن تصديرها الى الشواطىء الأوربية وبخاصة سلاطين المماليك ، فقد كانوا يفرضون رسوما جمركية عند تفريغ البضائع من السفن الى السويس ، ورسوما جمركية أخرى عند اعادة شحنها فى الاسكندرية • وكانت هذه الرسوم تبلغ سدس قيمة السلع عند مرورها فى كل من المدينتين • هذا فضلا عن أجور نقلها وأخطار النقل ، كأعمال القرصنة والحروب وتنوع وسائل النقل عبر الصحارى والبحار • ومع ذلك فقد كانت متاجر الشرق أوفر التجارة ربحا ، وقد عاش كثير من التجار الأوربيين عيشة الملوك من الأرباح الخيالية التى كانت تدرها تلك التجارة (٧١٥) • على أن ثمة اجراءات كان لابد من اتخاذها عند استقبال السفن التجارية فى الموانى المملوكية فى مصر والشام والمطلة على البحر المتوسط فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة • ولدينا مثال عن الاجراءات التى تتخذ فى احدى هذه الموانى وهو ميناء البرلس • فالمعروف أن للبرلس ميناءين ، احداهما جديدة ومفتوحة من ناحية الشمال لاستقبال السفن المسيحية ، والميناء القديمة مفتوحة من جهة الغرب لاستقبال السفن الاسلامية فقط ، وهذا المدخل الأخير مقفل أمام المسيحيين حتى ولو كانوا واصلين من جهة البر • وعندما تصل السفينة الى الميناء

ويستقبلها رجال من موظفى الميناء ، يصعدون عليها ، وهؤلاء عادة مندوبون من قبل نائب الاسكندرية ، وتتلخص مهمتهم فى اثبات جنسيتها عن طريق القنصل الذى تتبعه أو عن طريق مواطنيهم المقيمين بالثغر ، ومعرفة عدد ركابها وأسمائهم وأنواع السلع التى معهم ، ثم يرسل هؤلاء الموظفون هذه البيانات الى نائب ثغر الاسكندرية فيبلغها بدوره الى السلطان بالقاهرة . ويتم تبادل الرسائل بواسطة بريد الحمام الزاجل . فاذا تمت هذه الاجراءات ، كان على التجار أن يدفعوا رسما مقررا كضمان ، قدره دوك واحد (Ducat) زاد بعد ذلك الى اثنين عن كل رأس منهم ، ويدفع كل منهم رسما آخر قدره ٢٪ بالنسبة لما معهم من النقود ، ثم يسمح لهم بعد ذلك بالنزول الى الميناء ، حيث يجدون المأوى للاقامة ، والمخزن لبضائعهم ، فى الفندق الخاص لمواطنيهم من بنى جنسهم .

وكان هؤلاء التجار ـ فى العادة ـ يعملون فى تسويق منتجات بلادهم كما يشترون ما يلزمهم من المتاجر الموجودة فى مصر والسلع المنتجة فيها ، وتلك التى ترد اليها من الشرق ، وكانت الأخيرة تدر عليهم أرباحا طائلة ، كما كانت تدر أرباحا طائلة أيضا على السلطات المملوكية . اذ فرضت حكومة المماليك الرسوم المقررة على التجارة المارة ببلادها ، وذلك بجانب رواج التجارة الداخلية فى هذه السلع وما يترتب على ذلك من فوائد للحكومة المملوكية . ولكى تحصل مصر على مزيد من الربح من التجارة الشرقية ، اتبع السلاطين المماليك سياسة الاحتكار وزادوا فى رسوم المرور . اذ بدأ السلطان برسباى احتكار تجارة التوابل ، وأصدر لهذا الغرض مرسوما فى عام ١٤٢٨ م ، يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان . وفى الوقت نفسه ، أجبر تجار الشرق على شراء البضائع التى تبيعها مصر بسعر مرتفع مثل العقيق والنحاس وغيرهما من السلع الرائجة . وساعد على تنفيذ سياسة الاحتكار أن الحكومة المملوكية

كانت تجبى رسومها عينا ، وقد ترتب على ذلك ارتفاع أسعار السلع الشرقية ارتفاعا باهظا مثل التوابل والحرير على وجه الخصوص . فمثلا صار التجار الأوربيون يشترون قنطار الفلفل الأسود بسعر يتراوح بين ١٢٠ - ١٣٠ دينارا ، بعد أن كانوا يشترونه من قبل بسعر ٥٠ دينارا فى القاهرة و ٨٠ دينارا فى الاسكندرية (٧١٦) .

وقد ضج التجار الأوربيون من مغالاة المماليك فى احتكارهم للتجارة الشرقية وفرضهم المكوس الباهظة عليها . وجاء أول احتجاج من جانب القطلانيين عام ١٤٣٢ م حين أبلغ ممثلوهم السلطان برسباى أنهم رفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان ، غير أنهم لم يظفروا باجابة طيبة مرضية ، لأن برسباى لم يغفر ما فعله قراصنتهم . كذلك احتجت مملكتا قشتاله وأرغونة ، وقابلتا هذا الاجراء بمثله ، وذلك برفع أثمان السلع الأوربية التى ترد الى مصر . بل ان البنادقة أخذوا يفكرون فى قطع علاقاتهم التجارية مع مصر فأرضاهم السلطان وان لم ينزل عن احتكاراته . وحدث أن هاجمت أرغونة وقشتالة السفن المملوكية على سواحل سوريا فأجاب السلطان بالقبض على التجار البنادقة فى الاسكندرية وصادر متاجرهم (٧١٧) .

ورغم أن حدة الاحتكار الحكومية قد خفت فى عهد السلطان جقمق ، الا أن معاملة التجار الأجانب لم تستمر على حال واحد طوال عهود السلاطين بعد جقمق ، حتى ضاق التجار ذرعا بهذه المعاملة . وهذا مما حملهم على الانتقام فى عام ١٤٧٥ م ، اذ احتالوا على بعض تجار الاسكندرية من الوطنيين وأسروهم وخرجوا بهم الى بلادهم . وكان من بين هؤلاء التجار الأسرى بعض تجار السلطان قايتباى ؛ ولذلك أمر قايتباى نائبه فى الثغر بالقبض على جميع التجار الأجانب فيه وأمرهم بمكاتبة ملوكهم ، ثم استطاع التجار المصريون أن يفدوا أنفسهم بالمال (٧١٨) .

على ان الحكومة المملوكية ظلت تجبى مكوســـا على التجارة الشرقية وصلت نسبتها الى العشر ، غير أن هــذه النسبة زيدت تدريجيا ، حتى جبى الأمير حسين الكردى نائب السلطان قونصوه الغورى فى جدة عشرة أمثال العشر ، أى مثل قيمة البضائع تماما . ومن المرجح أن هذه الزيادة جاءت فى أعقاب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ م ؛ مما أضعف من حجم التجارة الشرقية المارة بطريق البحر الأحمر وأدى بالتالى الى مغالاة السلطات المملوكية فى جدة فى رفع نسبة المكوس لتحصل على أكبر عائد يغطى احتياجاتها مع قلة حجم التجارة الواردة .

ولم تكن المعاملة فى الموانى المملوكية الأخرى خيرا منها فى جدة ، فازدادت الرسوم الجمركية على التجارة الواردة الى الاسكندرية ودمياط من السلع الأوربية مما جعل الأوربيين يمتنعون بدورهم عن التصدير الى الموانى المملوكية فى مصر والشام آنذاك (٧١٩) .

ومن القيود التى فرضها كذلك الحكام المماليك على التجار الأجانب منعهم من مغادرة فنادقهم لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات خلال صلاة الجمعة . ويرجع أساس هذا الاجراء الى ما حدث سنة ١٣٦٥ م عندما هاجم بطرس الأول لوزنيان ملك قبرص الاسكندرية فى يوم جمعة واحتل المدينة ونهبها . ومن القيود كذلك اغــــلاق الفنادق فى المساء على من فيها ، وكان يتولى حراستها حراس من قبل السلطات المملوكية (٧٢٠) . وقد كان لهذه القيود فى مجموعها أثر سيىء على الأجانب الأوروبيين بوجه عام ، مما سيشجعهم الى جانب اعتبارات عديدة أخرى ـ سنشير اليها فيما بعد ـ على التوجه الى كشف الطريق البحرى المباشر بين أوربا والهند فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ويتمكنون من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨ م .

ثانيا : اثر تحول التجارة العالمية الى طريق راس الرجاء الصالح على سواحل مصر الشمالية أثناء القرن السادس عشر

أدى تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادي الى احداث تغير واضــــح المعـــالم في الواقع الاقتصادى والسياسي والاستراتيجي الذى عاشته مصر وعالم البحر المتوسط في مطلع العصور الحديثة ، وخاصة أثناء القرن السادس عشر أو بالأحرى حتى نهاية الفترة التى ظهرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخي الهام وردود الفعل المختلفة ازاءه ، والنتائج التى ترتبت عليه واستمرت مع تغير تدريجي ، وتطور بطىء حتى عودة التجارة العالمية الى هذا الطريق التقليدى القديم عبر مصر وعالم البحر المتوسط بشكل واضح فى نهاية القرن الثامن عشر ٠

وسوف نعالج فيما يلى الأثر الذى أحدثه هذا التحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على سواحل مصر الشمالية فى المجالات : الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ؛ حتى يمكننا التعرف على حقيقة أبعاده أثناء القرن السادس عشر ٠

الأثر الاقتصادى لتحول التجارة العالمية الى طريق راس الرجاء الصالح على سواحل مصر الشمالية أثناء القرن السادس عشر :

مما لا شك فيه ، أن العامل الاقتصادى يشكل احدى الدعامات الكبرى التى تستند اليها أى دولة فى قيامها وبقائها ، وأنه اذا تطرق الضعف الى هذه الدعامة فان ذلك يعد نذيرا بتداعى الدولة وانهيارها • ودولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز كانت تتمتع أيام عنفوانها وقوتها باقتصاد متين ، استند الى هذا الحجم الهائل من التجارة العالمية النشطة التى تمر عبر بلادها من جهة ، والى تمتعها بحالة من الأمن والاستقرار النسبى من جهة أخرى ، هذا فضلا عن امتلاكها لقوة ضـــاربة يحترمها الأصدقاء ويخافها الأعداء ، ونظام مماليكى كان فى عهد قوته يعترف فيه المملوك بفضل أستاذه ، ويحترم فيه الصغير من هو أكبر منه سنا ودرجة • وهكذا حققت دولة سلاطين الماليك توازنا يدعو الى الاعجاب فى سياستها الداخلية والخارجية جعلتها موضع احترام سكانهـا فى الداخل وجيرانها فى الخارج وذلك خلال القرنين الأولين من بداية عهدها وقبل نصف قرن من انهيارها عام ١٥١٧ م •

غير أن السلطنة المملوكية تعرضت فى نصف القرن الأخير من حياتها منذ عهد السلطان قايتباى فى سنة (٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م) لكثير من مظاهر التدهور الاقتصادى نتيجة لعوامل متعددة وكان تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح بعد وصول البرتغاليين الى الهند فى سنة ١٤٩٨ م ، وما ترتب عليه من اضعاف للنشاط التجارى وللعوائد المالية للمماليك من جهة ، وما صاحب ذلك من مجهود حربى لمواجهة الخطر البرتغالى فى وقت انهار فيه نظام الاقطاع الحربى الذى استند اليه كيان الدولة منذ بداية عهدها من جهة أخرى ، وجاء ذلك من ناحية الترتيب الزمنى فى نهاية تلك العوامل ، فقد كان هذا العامل الأخير أشبه بالقشة التى قصمت

ظهر البعير • ولكي نتعرف على الأبعاد الحقيقية لهذا الحدث التاريخي المتمثل في أثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، فانه ينبغي علينا أن نتعرف على عوامل التدهور التي ظهرت في كيان الدولة المملوكية في نصف القرن الأخير من حياتها لما لها من أثر كبير على اعطاء هذا الحدث التاريخي حجمه الحقيقي وبعده التاثيري ، وخاصة بعد أن ارتكز اليه منفردا الكثيرون من الباحثين متاثرين بأنه كان آخر الأحداث البارزة التي كان لها تاثير سلبي في حياة الدولة المملوكية في نهاية عهدها •

ومن العوامل التي اشتركت مع هذا العامل الأخير في احداث التدهور الاقتصادي للدولة المملوكية في نهاية عهدها وخاصة منذ عهد السلطان قايتباي الذي بدأ عام (٨٧٢ هـ /١٤٦٧ م) ظهور عبث المماليك الجلبان (٧٢١) مع أهالي البلاد الآمنين بشكل ملحوظ ، ونهب أموالهم وممتلكاتهم ، والتمرد بين حين وآخر على السلطان بدعوى عدم الرضا عما يخصصه لهم من نفقة وأموال ومطالبتهم بالمزيد • ولم تسلم فئة من فئات المجتمع من أذى المماليك وفسادهم حتى « أنهم رجموا الأمراء من الطباق بالحجارة وكبوا عليهم الماء المتنجس بالأقذار وخطفوا عمائم الفقهاء » ، كما يروى ابن اياس في حوادث عام (٩٠٤ هـ /١٤٩٨ م) (٧٢٢) • بل ان المماليك الجلبان لم يستطيعوا أن يكفوا أيديهم عن أذى الناس حتى في أوقات الخطر والشـــدة • وقد روى ابن اياس في حوادث عام (٩٢١ هـ /١٥١٥ م) أنه عندما نودي في العســـكر للتجريدة وللخروج لمواجهة العثمانيين أن المماليك الجلبان « نزلوا من القلعة وأطلقوا في الناس النار وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار ، وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، ونزلوا الفقهاء من على بغالهم في وسط الأسواق ، وأخذوهم من تحتهم » (٧٢٣) • وكان من الطبيعي

أن يترك ذلك أثره فى الحالة الاقتصادية ؛ « اذ لم تلبث أن أغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ، ووقع القحط بين الناس ، وضج العوام ، وكثر الدعاء على السلطان ، وغلقت أسواق القماش من المماليك ، واختفى الصنايعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة ، واختفى جماعة من التجار خوفا من المماليك » (٧٢٤) . وتجدر الاشارة الى أن عبث المماليك كان معظمه من المماليك الجلبان ، الذين دأب سلاطين المماليك — مع افتقار دولتهم — على شرائهم كبارا وقد تجاوزوا سن البلوغ لأنهم فى هذه الحالة كانوا أرخص ثمنا من المماليك الصغار الذين ينشأون فى قصورهم وهؤلاء المماليك الكبار كان يصعب تعليمهم آداب السلوك وتغيير أسلوبهم الذى اعتادوه فى صغرهم مما جعلهم أداة هدم ومعول تخريب فى الدولة . وتكاد لا تمر سنة واحدة من الخمسين سنة الأخيرة من عمر دولة سلاطين المماليك دون أن يشير ابن اياس الى فتنة أو ثورة أو اضطراب أحدثه المماليك الجلبان فى الدولة وترتب عليه انهيار فى اقتصادياتها من جهة أو أخرى (٧٢٥) .

كذلك لم يلتزم سلاطين المماليك نوعا من الاقتصاد فى نفقاتهم الخاصة ليخففوا على رعاياهم الأعباء الثقال الملقاة على عواتقهم ، وانما استمر المماليك — سلطانا وأمراء وجندا — يعيشون عيشة البذخ والاسراف فى الوقت الذى يئن الناس من كثرة الالتزامات المفروضة عليهم . فالسلطان قايتباى الذى أعلن سنة (٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م) أمام القضاة والأمراء أن جميع ما فى خزائن الدولة من أموال قد نفد ، اذ به فى العام التالى (٨٩٥ هـ /١٤٨٩ م) يقيم حفلا لمناسبة ختان ابنه محمد الذى تسلطن بعده وكان فى السابعة من عمره . ويتكلم ابن اياس عن هذا الحفل فيقول ما نصه : « وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان بأن تزين القاهرة ،

فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ... فكانت تلك الأيام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم ما لا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين ألف دينار ، فكان من جملة ما أهداه المقر الشـــهابى أحمد بن العينى طست وابريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان ... » (٧٢٦) . واستمرت مظاهر الاسراف والتبذير حتى عهد السلطان الغورى الذى يقول عنه ابن اياس فى حوادث سنة (٩٢٢ هـ/١٥١٦ م) ، ان خاصكيته تكاملت فى تلك السنة « نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترواته » (٧٢٧) . هذا كله فضلا عن المنشآت الضخمة التى ظل السلاطين يقيمونها حتى أواخر عهد دولتهم . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما عدده ابن اياس فى حوادث سنة (٩٠١ هـ /١٤٩٥ م) من منشآت أقامها الأشرف قايتباى أيام دولته : فأقام خلال حكمه من المبانى الفاخرة أربع منشآت فى الحجاز ، ومدرستين بالشام ، ومدرسة بالاسكندرية ، والقلعة التى أنشأها مكان المنار القديم بالاسكندرية ، ومدرسة بغزة ، وجوامع بمصر والقاهرة ، فضلا عن المدارس والسبل والمكاتب والزوايا والأسبلة والقناطر والربوع ، كما أنشأ وجدد بالقلعة عدة منشآت (٧٢٨) .

ومن العوامل التى زادت من سوء الأحوال الاقتصادية فى نهاية عهد السلطنة المملوكية أمور طبيعية لم ترحم البلاد . اذ يروى ابن اياس كيف انتشر وباء الطاعون فى مصر عدة مرات فى السنوات التالية : (٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م) ـ (٨٨٨ هـ/١٤٨٣ م) ـ (٨٩٧هـ/ ١٤٩١ م) ـ (٩٠٣ هـ /١٤٩٧ م) ـ (٩٠٩ هـ /١٥٠٣ م) ـ (٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م) ـ (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) . ومن هذا يبدو أن الناس ما كادوا يفيقون من موجة من موجات الطـــاعون حتى يتعرضـــوا لموجة كاسحة جديدة (٧٢٩) . ويذكر ابن اياس عن

الطاعون الذى انتشر سنة (٨٩٧ هـ /١٤٩١ م) بأنه كان الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، وأنه « فتك فى الناس فتكا ذريعا ، حتى لقد بلغ عدد من مات به وأبلغ اسمه فعلا لديوان المواريث نحوا من مائتى ألف انسان . ويعلل ابن اياس فى حوادث هذا العام ، هذه الطواعين بالفساد الذى عم البلاد ، وأنها جاءت نقمة من الله بعد أن « كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس » (٧٣٠) .

ومن العوامل الطبيعية التى أثرت فى الأوضـــاع الاقتصادية فى نهاية عهد السلطنة المملوكية ظاهرة انخفاض النيـــل (٧٣١) وتعرض الحاصلات لبعض الآفات مما كان يعود على الحياة الاقتصادية بأفدح العواقب . وقد أوضح ابن اياس فى حوادث سنة (٨٩١ هـ/ ١٤٨٦ م) أن فيهـــا « تناهى ســـعر البرسيم كل فدان مخضر باثنى عشر دينارا ، وأبيع الدريس كل مائة قتة بأربعمائة درهم .. وسبب ذلك أن حب البرسيم كان غاليا فى تلك السنة ، وكان النيل خسيسا . والذى طلع من البرسيم أكلت غالبه الدودة . وكان سعر الغلال جميعه مرتفعا فى هذه السنة ، حتى غلا ســـعر الرواية الماء من عدم العلف لجمال السقايين » (٧٣٢) .

وفى الوقت الذى تعرض الفــلاح فى مصر لهـــذه الأزمات الاقتصادية التى جاءت لفعل الطبيعة ، ما بين وباء ونقص فى ماء النيل ، وآفات تلتهم المحاصيل .. اذ به لا يسلم من خطر العربان الذين دأبوا على افساد البلاد والاعتداء على الفلاحين ونهب مواشيهم ومحاصيلهم مما جعل الريف يتعرض لأزمات تخريبية زادت الأحوال الاقتصادية فى البلاد سوءا على سوء . وقد أفاض ابن اياس فى وصف عبث العربان بأرجاء مصر وتعديهم على العباد وذلك فى ذكره لأحداث السنوات التالية : (٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م) – (٨٧٦ هـ/

١٤٧١ م) - (٨٩١ هـ /١٤٨٦ م) - (٩٠٤ هـ /١٤٩٨ م) - (٩١٨ هـ /١٥١٢ م) - (١٢٠ هـ /١٥٤١ م) - (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م) (٧٣٣) .

ولم تقف سلطنة المماليك مكتوفة الأيدى أمام عدوان العربان ، وانما خرجت الجيوش الى الصعيد والبحيرة والشرقيــة والجزيرة للضرب على أيديهم . ويؤكد ابن اياس كيف تزايد فساد العربان فى سنة (٩١٨ هـ/١٥١٢ م) ، حتى « تحالفت سبع طوائف من العربان (بالبحيرة) أن يكونوا كلمة واحدة على العصيان .. وقد آل أمر تلك الجهات الى الخراب » (٧٣٤) . كذلك يروى ابن اياس أن خطر العربان اشتد فى تلك السنة نفسها فى الصعيد واســتمر حتى عام (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) ، الذى نهب فيه بنو عطية والنعايم « ضياع الشرقية ، وأخذوا منها نحوا من أربعمائة رأس من الغنم ودخلوا وادى العباسة » (٧٣٥) .

هناك كذلك عوامل خارجية أثرت فى اقتصــاديات الدولة المملوكية فى نهاية عهدها ، وهى تتمثل فى طمع الأعداء فى أراضى الدولة ومحاولتهم غزوها بعد أن اتضح لهم أنها فى ذلك الدور الأخير من عمرها أضعف من أن تستطيع الدفاع عن كيانها . ويشير ابن اياس فى حوادث سنة (٨٧٢ هـ /١٤٦٧ م) الى ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار من أمراء التركمان على الحدود الشــمالية للدولة من حروب (٧٣٦) . كما يشير فى حوادث سنة (٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م) الى أن على بن دولات بن دلغادر هاجم ملطية فى جمع كبير من العساكر « فانزعج السلطان لهذا الخبر » (٧٣٧) . أما هجمات العثمانيين ، فيشير اليها ابن اياس فى حوادث سنة (٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) و (٨٩١ هـ /١٤٨٦ م) و (٨٩٣ هـ /١٤٨٧ م) (٧٣٨) وغيرها . هذا بالاضافة الى بعض الهجمات التى تعرضت لها سلطنة

المماليك في هذا الدور ، وجاءت من ناحية البحر المتوسط ، اذ دأب الفرنج وقراصنتهم على مهاجمة شواطىء الدولة وموانيها وقطع الطريق على سفنها التجارية فى عرض البحر · من ذلك ما يشير اليه ابن اياس فى سنة ٨٧٨ هـ /١٤٧٣ م) من أنه « جاءت الأخبار من الاسكندرية بأن الفرنج قد تعبثوا ببعض سواحلهـا وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط » (٧٣٩) · وذكر ابن اياس أحداثا مشابهة تشير الى عدوان الفرنج فى البحر المتوسط على موانى دولة المماليك وسـفنها في حوادث سنه (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م) و (٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) و (٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) (٧٤٠) ·

ومن الواضـح أن خطورة هذه الهجمات المعادية على أطراف السلطنة المملوكية وسواحلها فى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين لا تقف من الناحية الاقتصـادية عند حد ما كانت تحدثه من خراب وتدمير ، وانما كانت تتطلب للحد من خطرها ومقاومتها نفقات باهظة تلقى على خزانة الدولة مزيدا من الأعباء ، فى وقت اشـتد طمع الجند وازدادت شراهتهـم للمال ، وصاروا لا يتحركون ولا يخرجون فى تجريدة الا بعد أن يتقاضوا أضعافا مضاعفة · وكانت هذه الحروب الدفاعية هى فى الوقت نفسه حروبا استنزافية تلقى أعباء جديدة ثقيلة على خزانة الدولة وبالتالى فانها زادت الأوضاع الاقتصادية سوءا فوق سوء ·

واذا كانت كل هذه العوامل قد أثرت فى اضعاف اقتصاديات السلطنة المملوكية فى نهاية عهدها ، فانه لا يخفى علينا أن العامل الأساسى فى تدهور الحياة الاقتصادية فى أواخـر عصر سلطنـة المماليك ، انما يكمن فى كساد تجارتها · ذلك أنه من المعروف أن دولة المماليك بنت قوتها واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط

التجارى بين الشرق والغرب ، فى عصر انسـدت فيه معظم طرق التجارة الداخلية بسبب ظهور التتار على مسرح الشرق الأوسط ، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم الا طريق البحر الأحمر ـ عبر أراضى دولة المماليك الى البحر المتوسط ٠ ولكن اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ م ، حرم سلطنة المماليك من المورد الأول لثروتها ، الى جانب ما كانت تعانى منه آنذاك من تدهور اقتصادى على النحو الذى أشرنا اليه مما أنزل ضربة قاصمة بوضعها الاقتصـادى ، وكان هذا الحدث التاريخى الخطير أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير ٠

وقد حاول السلطان الغورى مواجهة الخطر البرتغالى ، فأرسل حملته الأولى التى هزمت فى موقعة ديو عام ١٥٠٩ م ٠ وكان عليه أن يواصل جهوده بعد أن علم ـ كما يروى ابن اياس فى حوادث عام (٩١٩ هـ /١٥١٣ م) ـ أن الافرنج « قد زاد تشويشهم على التجار فى البحر الملح (البحر الأحمر) وصاروا يخطفون البضائع من المراكـب ، وقد ملكوا كمران وهى من بعض جهـات الهند (والصحيح أنها جزيرة قمران المواجهة للساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر شـمالى الحديدة) ، وقد تكامل من مراكب الفرنج بالبحر نحو عشرين مركبا ، وكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس » (٧٤١) ؛ لكى يتفقد بنفسه بنـاء أسطوله فى البحر الأحمر لمواجهة البرتغاليين ، الذين حاصروا آنذاك « مدينة سواكن » وأن الشريف بركات أمير مكة خرج الى جدة ٠٠ خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه » (٧٤٢) ٠

ويصور ابن اياس ما أصاب اقتصاد الدولة المملوكية آنذاك من خراب نتيجة لكساد تجارتها فى عبارة ذكرها فى حوادث سنة (٩٢٠ هـ /١٥١٤ م) فيقول : « وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد

وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحاط والتعطيل فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه القطائع (السفن) فى السنة الخالية • وبندر جدة خــراب بسبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط » (٧٤٣) •

وأمام هذا التدهور الاقتصادى الذى منيت به الدولة المملوكية طوال الخمسين سنة الأخيرة من عمرها نتيجة للعوامل التى أشرنا اليها والتى انتهت بتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح وانحسارها عن مصر وعالم البحر المتوسـط منذ وصول البرتغاليين الى الهند عام ١٤٩٨ ، فقد حاول سلاطين المماليك فى تلك الفترة أن يعالجوا ذلك التدهور • وقد لجأوا الى أساليب عديدة لتعويض خزانة الدولة عما فقدته ، ولتمكينهم من النهوض بالأعباء الملقاة على عاتق حكومتهم ، فضــلا عن اشــباع المطالب الخاصــة بالسلاطين أنفسهم • واذا كانت هذه الأساليب قد نجحت فى توفير بعض الأموال المطلوبة للسلاطين ، الا أنها من الناحية الاقتصادية زادت الطين بلة ، وأسرعت بالخراب الذى حل بالدولة وبمرافقها مما عجل بنهايتها (٧٤٤) •

من ذلك ما لجأت اليــه ســلاطين المماليك من تطبيق لسياسة الاحتكار التى توسعوا فيها منذ عهد السلطان برسباى الذى أصدر مرسوما فى عام ١٤٣٨ م ، يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان • وقامت هذه السياسة على أســاس احتكار السلاطين أصنافا معينة من البضائع لا يجوز لأى فرد آخــر أن يتاجر فيها ، مما ضمن للسلاطين ايرادا ضخما وخاصة من وراء بعض حاصلات الشرق التى احتكر سلاطين المماليك بيعها للتجار الأوربيين •

وأما المتجر السلطانى فالمقصود به أن السلطان كان يستغل أمواله بتشغيلها فى التجارة طلبا للكسب ، وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار فى أرزاقهم • ويروى ابن اياس عن السلطـــان الغورى فى حوادث سنة (٩١٩ هـ /١٥١٣ م) أنه كان « يشترى القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل أردب قمح الى سبعة أشرفية ، فكان يشترى القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد »(٧٤٥) • وهكذا استغل السلطان الغورى الفارق فى سعر القمح بين مصر والشام ليشترى كميات كبيرة من القمح لحسابه الخاص ويرسلهـا الى الشام ليحصل على فرق الثمن ، غير مبال بما يعانيه شعبه فى مصر والشام جميعا من جراء هذا الاستغلال •

كما تحايل سلاطين المماليك من أجل الحصول على المال عن طريق مصادرة أموال الناس وأملاكهم • فكان يكفى أن تظهر على أحد رجال الدولة دلائل النعمة حتى يكون هدفا سهلا للسلطان يقرر عليه المبالغ الضخمة ليدفعها ، والا فبئس المصير • وكانت أعمال المصادرات تشتد عسفا كلما امتـــد الوقت بدولة المماليك وازداد عسرها المالى ، حتى اذا ما جاء عصر الغورى ــ الذى تحولت فى عهده التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح ــ كانت سياسة المصادرات قد بلغت أشدها • ويروى ابن اياس فى حوادث سنة (٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م) أن المماليك عندما طلبوا النفقة من السلطان الغورى « ظل يصبرهم نحوا من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات » (٧٤٦) • ثم يقول ابن اياس فى حوادث ســـنة ٩١٥ هـ ، انه « صودر فى هذه السنة جماعة كثيرة من أعيـــان الناس » (٧٤٧) • ولم تقتصر هذه المصادرات على الأموال السائلة والعقارات وانما امتدت الى غيرها ، حسب حاجة السلطان • وعندما

اشتدت حاجة السلطان الى الأخشـــاب لبناء السفن فى السويس لمنازلة البرتغاليين فى سنة (٩١٩ هـ /١٥١٣ م) ، فانرجاله « صاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد ، ويرسلو نه الى السويس لأجل عمارة المراكب هناك » (٧٤٨) ٠

وثمة نوع آخر من المصادرات لجأ اليه سلاطين المماليك في ذلك الدور لتدبير المال اللازم لهم ، وتمثل ذلك فى قطع أرزاق الناس - وخاصة الفقهاء والمتعممين - وحرمانهـــم من مرتباتهـــم العينية أو انقاصها ، حتى انتهى بأن امتـــدت أيدى السلاطين الى الأوقاف الشرعية لحرمان مستحقيها من نصيبهم ٠ وقد اعترض على ذلك التصرف آنذاك قاضى قضاة الحنفية ، على أن تلك المعارضة لم تحل بين سلاطين المماليك وبين تنفيذ أطماعهم فى الأوقاف فيروى ابن اياس فى حوادث سنة (٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) كيف أن السلطان الغورى « تعرض لرزق الأحباسية والأوقاف ٠٠ فحصـــل للنـاس الضرر الشامل ولاسيما أولاد الناس ٠٠ وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلهـــا » ٠

ثم يضيف ابن اياس - فى حسرة وألم قائلا : « وأنا من جملة من وقع له ذلك » (٧٤٩) ٠ أى أنه كان مـن جملة من صـــودرت اقطاعاتهم ٠ ومازال ابن اياس يقف للسلطان الغورى ليشكو له حاله ، حتى رق له وأمر باعادة اقطاعه اليه فى العام التالى (ســـنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) (٧٥٠) ٠

وثمة وسيلة أخرى لجأ اليها سلاطين المماليك للحصـــول على المال وهى التلاعب بالعملة والتى كان من شأنها حدوث مزيد من التدهور الاقتصادى للسلطنة ٠ ويذكر ابن اياس فى حوادث سنة (٨٧٩ هـ /١٤٧٤ م) أن السلطان قايتباى ضرب فلوسا جددا

وأراد أن يجعل سعرها أغلى من الفلوس العتق ليجنى السلطان الفرق بين السعرين . وكانت الفلوس تقيم بالوزن لا بالعد ، فجعل السلطان كل رطل من الفلوس الجدد بست وثلاثين ، فى حين كان كل رطل من الفلوس العتق بأربعة وعشرين « فخسر الناس فى هذه الحركة الثلث من أموالها » (٧٥١) . ولا شك فى أن التلاعب بالعملة على هذا النحو من شأنه أن يخلق حالة من عدم الاستقرار بالسوق ، الأمر الذى يزيد من ارتباك الأوضاع الاقتصادية بالدولة . كما فرض السلاطين المماليك مكوسا وضرائب لاشباع رغبتهم فى الحصول على الأموال ، فالسلطان قايتباى عندما احتاج الى أموال لاخراج تجريدة ضد العثمانيين فى سنة (٨٩٢ هـ/١٤٨٦ م) ، أمر المحتسب بجمع أعيان التجار وفرض عليهم أربعين ألف دينار ، قائلا لهم : « ساعدونى بشىء من المال على خروج التجريدة » (٧٥٢) . ولكن التجار ضجوا من ذلك ، ومازالت المفاوضات جارية بين الطرفين حتى قبل التجار أن يدفعوا اثنى عشر ألف دينار . وبالاضافة الى الضرائب المباشرة التى كان يفرضها السلطان على التجار على شكل اتاوات ، لجأ سلاطين المماليك الى فرض بضائع معينة على التجار ، يشترونها من السلطان بالأثمان التى يحددها هو ، ويخسرون فيها أموالا طائلة ، مما أدى الى زعزعة الحالة الاقتصادية فى الأسواق . ويذكر ابن اياس فى حوادث سنة (٩١٧ هـ /١٥١١ م) أن السلطان الغورى « أرمى على التجار قاطبة شاشات وأرزا وأثوابا صوفا ، وأرمى على السوقة زيتا وعسلا وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث ، وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لأجل النفقة ، فغلقت الأسواق بسبب ذلك وأقامت مغلوقة أياما » (٧٥٣) .

ولم يكن أهل الريف ــ من المقطعين وغيرهم ــ بمنجاة من ظلم السلاطين عندما زادت الأزمة الاقتصادية ، وانما امتدت يد العسف اليهم ، ففى الوقت الذى كان رجال السلطان يضيقون على التجار

فى العاصمة لسلب أموالهم ، كان الكشـــاف فى الأقاليم ينفذون تعاليم السلطان بجمع الأموال من المقطعين ، كما لجأ السلطان الى جمع خراج الأرض من المزارعين قبل استحقاقه قبل وجمع المحصول الجديد ، بل حتى قبل موسم فيضان النيل ، مما عرضهم لكثير من المظالم • ومن ذلك ما أورده ابن اياس فى حوادث سنة (٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) من أن السلطان الغورى رسم « لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلوا على البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف عن سنة ثماني عشرة وتسعمائة الخراجية، قبل أن تدخل وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر ، وصارت الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ، ويستخرجون منهم الأموال بالضرب ، والذى يهرب يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم ، فخرب غالب البلاد ، ورحلت عنها الفلاحون » (٧٥٤) • وتوضح الفقرة الأخيرة من عبارة ابن اياس مدى التدهور الاقتصـادى الذى حـــل بريف مصر آنذاك لحرص المماليك على جمع الأموال بكافة الطرق بعد أن فقدوا عوائد التجارة عقب تحولها الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ نهـــاية القــرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين •

ولم يكن صعيد مصر أحسن حالا من الوجه البحرى اذ كان رجال السلطان الغورى يغتصبون الكثير من الخيل ونحوها فى أوقات الحاجة ، فكانوا ينزلون على كل بلد ويفرضون عليه فرسين قيمتهما مائة دينار ، فاذا كانت البلدة كبيرة فرضوا عليها أربعة • ويروى ابن اياس فى حوادث (سـنـة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) أن الفلاحين ضجوا من ذلك « وأخلوا من البلاد ، وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا ، وخرب بعض البلاد فى هذه الحركة •• » (٧٥٥) وهكذا أدت هذه السياسة التى استخدمها الغورى الى خـــراب الزرع والضرع •

وزاد من ارتباك الأوضـــاع الاقتصـادية فى عهد السلطان الغورى ما عرف باسم المشاهرة والمجامعة ، وهى ضريبة تجمع من السوقة وتدفع للمحتسب كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية . وقد بلغ من قسوة هذه الضريبة أن زادت شهريا على الألفى دينار . ويقول ابن اياس فى حوادث (سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) ، ان هذه الضريبة كانت « من أكبر أسباب الفساد في حق المسلمين » (٧٥٦) . نظرا لأن الباعة اضطروا الى تعويض قيمة هذه الضريبة عن طريق رفع أثمان البضائع فاشتد الغلاء وعز وجود أصناف كثيرة من البضائع حتى اضطر السلطان الى الغائها فى السنة المذكورة .

وفى الوقت الذى كان التجار داخل البـــلاد يتعرضون لهذه المظالم التى يقع جزء منها بدوره على المستهلك نتيجة للضائقة المالية التى اجتاحت البلاد ، فقد تعرض التجار الأجانب الوافدون على موانى الدولة فى مصر والحجاز وغيرها لنفس السياسة التعسفية التى طبقها سلاطين المماليك فى تلك الفترة الأخيرة من حياة الدولة المملوكية ؛ الأمر الذى جعل التجار ينصرفون عن المتاجرة مع الدولة فى الوقت الذى ظهرت معالم الطريق الجديد حـول افريقيـا الى الهند . وهكذا ذبلت الاسكندرية ودمياط وجدة وغيرها من ثغور الدولة وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار تجنبا لدفع المكوس الباهظة التى فرضها سلاطين المماليك . ويقول ابن اياس عن مدينة الاسكندرية فى حوادث (٩٢٠ هـ /١٥١٤ م) عندما زارها السلطان الغورى ، انها كانت « فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال . فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها الى الخراب ، حتى قل طلب الخبز فلم يوجد بها ، ولا الأكل ووجـــد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح .. » (٧٥٧) .

وما يقال عن الاسكندرية ينطبق على غيرها من ثغور الدولة • اذ يقول ابن اياس فى حوادث سنة (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) ما نصه : « وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل أمره الى الخراب ، وكذلك الاسكندرية ودمياط • فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج » (٧٥٨) •

وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الأحوال الاقتصادية فى أواخر عصر دولة المماليك لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينه ، وانما جاء وليد أسباب وعوامل عدة تضافرت لتهز قواعد تلك الدولة هزا عنيفا ، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها (٧٥٩) وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ م من أبرز عوامل التدهور الاقتصادى وفى نهايتها من ناحية التوقيت الزمنى ، مما جعل هذا الحدث التاريخى الهام أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير كما سبق أن أشرت • ولا يمكن فهم أبعاد هذا الحدث الهام دون التعرف على العوامل الأخرى التى عرضناها والتى أدت الى تدهور الأوضاع الاقتصادية فى الدولة المملوكية ، حيث تضافرت جميعها فى انهيار الدولة اقتصاديا ، وبالتالى هزيمتها استراتيجيا وسياسيا أمام الدولة العثمانية فى سنة (٩٢٣ هـ/١٥١٧ م) ، وهو ما سوف نعالجه فى الصفحات التالية مع اظهار انعكاسات هذا الحدث التاريخى على مصر وعالم البحر المتوســـط ، أثناء القرن السادس عشر الميلادى •

الأثر السياسي والدبلوماسي لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على سواحل مصر الشمالية أثناء القرن السادس عشر :

شهدت سلطنة المماليك فى نهاية عهدها منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين الكثير من الاضطرابات السياسية الداخلية التى جاءت فى نفس الوقت الذى تمكن فيه البرتغاليون من الدوران حول افريقيا والوصول الى الهند فى سنة ١٤٩٨ م ، وبداية سيطرتهم على التجارة الشرقية ، وبالتالى حرمان مصر وعالم البحر المتوسط من أهم الموارد المالية فى ذلك الحين • وقد أدى هذا التحول الذى أثر فى اقتصاديات الدولة المملوكية بوجه خاص الى التأثير بالتالى على الحياة السياسية فيها والتى اتسمت بالتنافس والصراع لاعتبارات متعددة ، زاد تفاقمها عندما ضاقت الموارد المالية وتدهورت اقتصاديات البلاد نتيجة لتحول التجارة العالمية عنها الى طريق رأس الرجاء الصالح •

وكدليل على الاضطراب الذى ساد الحياة السياسية فى أواخر عهد السلطنة المملوكية ما أورده الدكتور محمد محمد أمين فى دراسته لوثيقة تفويض من عصر العادل طومان باى ، صدرت فى (١٢ رجب ٩٠٦ هـ / أول فبراير ١٥٠١ م) من الأشرف جان بلاط ، ويستدل منها على أن طومان باى العادل رفع اثنين من كبار الأمراء الى عرش سلطنة المماليك قبل أن يلى هو نفسه العرش • وأن هذه الوثيقة تمثل فترة اضطراب وقلق شديدين فى أواخر عصر سلطنة

المماليك . والوثيقة رغم صغر حجمها فانهـــا تلقى الضـــوء على العلاقات التى سادت بين كبار الأمراء المتنافسين على العرش ، وهى تدور بين أربعة أشخاص تولى ثلاثة منهم عرش سلطنة المماليك ، وتمثل نوعا من تقسيم الغنائم بين المشتركين فى الصراع بعد أن تم توزيع المناصب الكبرى عليهم ، وذلك فى الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى وحتى تولية السلطان الأشرف قونصوه الغورى . وقد ولى الحكم فى هذه الفترة القصيرة ، والتى لم تتجاوز الخمس سنوات خمسة سلاطين تولى أحدهم وهو محمد بن قايتباى السلطنة مرتين ، وانتهى الأمر بقتله على يد الأمراء المماليك ، كما تولى أحدهم وهو قونصوه عرش السلطنة مدة ثلاثة أيام فقط ، ثم خلعه الأمراء . وهذه الفترة تمتد بين عامى (٩٠١ هـ /١٤٩٦ م) و (٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م) وكانت هذه الفترة هى بداية النهاية بالنسبة لسلطنة المماليك ، وبخاصة أن هذه الاضطرابات الداخلية جاءت فى نفس الوقت الذى حرمت فيه مصر من التجارة العالمية ، وبالتالى حرمت من أهم مواردها المالية حينذاك (٧٦٠) .

وتجدر الاشارة كذلك الى ظاهرة الانقسام فى صفوف المماليك التى بدت عند قيـــام الســـلطان قونصوه الغورى بمواجهة زحف السلطان سليم الأول العثمانى فى عام (٩٢٢ هـ /١٥١٦ م) على بلاد الشام (٧٦١) ، وكان ذلك انعكاسا للأحوال الاقتصادية السيئة التى كان يعانى منها المماليك فى نهاية عهد سلطنتهم . فالسلطان الغورى كان يتخوف من نائبه على الشام سيباى ويظن أنه يسعى الى أن يحل محله ، خاصة وأن نواب الشام كثيرا ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم ، وأحيانا يتولون الســـلطنة من دونهم . كما كان المماليك الذى صاحبوا الغورى الى الشـــام فى نزاع فيما بينهم . فمماليك الجلبـــان بلغ عددهم فى عهد الغورى ثلاثة عشر ألفـــا ، وأصبحوا يعادون مماليك السلاطين قبله ، الذين عرفوا بالمماليك

السلطانية أوالقرانص أو القرانصة · وكان أساس النزاع بين الفريقين تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب المماليك الآخرين ، بل انه كان يتذبذب بينهما احيانا مما يثير الغيرة والحقد بينهم ، فى وقت كانت تعانى فيه البلاد من التدهور الاقتصادى ووجود قحط آنذاك (٧٦٢) · وأثناء المعركة التى دارت بين الغورى وسليم الأول فى مرج دابق يوم الأحد (١٥ رجب ٩٢٢ هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦ م) سرت اشاعة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال ، الأمر الذى ترتب عليه الهزيمة الكاملة ، وفرار المماليك بجميع فئاتهم · وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء ، وتبعه جان بردى (٧٦٣) ، ومن المرجح أنهما كانا متفقين من الباطن مع السلطان سليم الأول ، حيث كان كلاهما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى · وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المماليك ـ سيما من الجلبان ـ حيث أصبح فى نفر قليل ، وكان ينادى بصوته : « هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة » ، الا أن المماليك استمروا يفرون (٧٦٤) ، مما ترتب عليه هزيمة الغورى ومقتله فى تلك المعركة · وهذا يوضح مدى التمزق الذى أصاب وحدة الصف المملوكي الذى تواكب مع ظاهرة التدهور الاقتصادى الناتج عن تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء

واذا انتقلنا الى النشاط الدبلوماسى الذى ظهر فى مصر وعالم البحر المتوسط نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر ، فاننا سنجد أن البنادقة قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ م ، والذى أدى الى فقدانهم لمصدر ثروتهم الناتج عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك · لهذا فان

البنادقة أخذوا يراقبون مشروعات البرتغاليين وتحركات سفنهم ، ويحاولون من جانبهم اقناع سفراء ملوك الهند في لشبونة بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية بدون مساعدة مالية من البندقية • وكانت هضبة الدكن في شبه جزيرة الهند مكونة من مملكتين هما مملكة « باهماني Bahmani » التي أسسها « باهمان شاه » عام ١٣٤٧ م ، ومملكة « فيجايانجر Vijayandgar » في جنوبها ، وفي نهاية القرن الخامس عشر انقسمت مملكة « باهماني » وحدها الى خمسة أقسام ، وهي المعروفة بملوك الطوائف ، وهم : بنو عماد شاه ، وبنو نظام شاه ، وبنو بريد شاه ، وبنو عادل شاه ، وبنو قطب شاه (٧٦٥) • وقد أصبح لهؤلاء الملوك سفراء لدى ملك البرتغال في لشبونة ، بعد تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي •

وقد حرص البنادقة على تكوين تحالف مع المماليك لمواجهة النشاط التجاري البرتغالي الذي سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحول التجارة العالمية اليه ولهذا جاءت سفارات البندقية الدبلوماسية المتكررة الى بلاد السلطان المملوكي قونصوه الغوري ، وأشهرها سفارة « باندتو سانوتو Banedetto Sanuto » الى الغوري في سنة ١٥٠٣ م ، وأشار هذا السفير على السلطان الغوري أن يبعث برسله الى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين ، وقفل موانيهم في وجه السفن البرتغالية • كذلك طلب السفير من الغوري أن يعمل على تخفيض الأثمان الباهظة التي تباع بها التوابل في الاسكندرية حتى يستطيع البنادقة منافسة خصومهم في الأسواق الأوربية (٧٦٦) •

غير أن السلطان الغورى رأى أن يبعث برسالة الى بعض الدول الأوربية ، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند ، وهدد باتخاذ اجراءات عنيفه ضد المسيحيين في بلاده ، ولا سيما بالقدس ، بل انه هدد كذلك بقفل الاماكن المقدسه ، وقام بحمل هذه الرسالة راهب اسبانى فرنسسكانى فى بيت المقدس اسمه الأخ « مورو Mouro » ، وكلفه الغورى بالمرور في طريقه بالبندقية ، فقصد هذا الراهب الى روما حيث التقى بالبابا يوليوس الثانى فى ربيع عام ١٥٠٤ م ، وأحسن البابا لقاءه ووعده بالكتابة الى ملك البرتغال لوقف ارسال الحملات الحربية الى الهند ، وقد أتم هذا الراهب جولته فى بلاط كل من اسبانيا والبرتغال دون أن تحقق مهمته الدبلوماسية أى جدوى . وعندما زاد احساس البندقية بخطورة الموقف ، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى الى الغورى فى سنة ١٥٠٤ م ، وتركزت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظرا لاطراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غمروا أسواق أوربا بالمنتجات الشرقية ، لدرجة أن قام حزب كبير فى البندقية يطالب الحكومة بالشراء من لشبونة وليس من الاسكندرية . ولذا اقترحت من جديد سفارة عام ١٥٠٤ م ، أن يغرق السلطان الغورى الأسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال ، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم بالبرتغاليين ثم انها اقترحت كذلك شق قناة فى برزخ السويس ، ونظرا لأنها أهملت موالاة المشروع ، فقد ترك دون تنفيذ (٧٦٧) .

وقد اتجه السلطان قونصوه الغورى الى مواجهة النشاط البرتغالى بالقوة عندما أصدر أمره فى سبتمبر سنة ١٥٠٥ م باعداد حملة حربية بقيادة الأمير حسين الكردى نائب جدة، وتكونت من خمسين سفينة من نوع « الأغربة » وتحركت الحملة من

القاهرة وسارت فى النيل عن طريق القناة (خليج أمير المؤمنين) فى شرق الدلتا الى البحيرات المرة الى السويس ومنها الى ينبع فجدة ، ثم غادرت جدة واستولت فى طريقها على سواكن عام ١٥٠٦ م ، واتجهت لمحاربة البرتغاليين فى مياه الهند · ويهمنا أن نشير فى هذا الصدد الى أن الغورى قد أرسل سفيره الترجمان تغرى بردى الاسبانى بنداء الى أوربا فى أبريل سنة ١٥٠٦ م ، واستغرقت رحلة هذا الترجمان ثمانية عشر شهرا ، زار فيها قبرص التابعة للسلطنة المملوكية آنذاك ، واصطحب منها من أرشده الى رودس حيث استقبله الرئيس « امرى دامبواز Aimery d'Amboise » ثم خرج تغرى بردى من رودس الى البندقية حيث وقع اتفاقية تجارية جديدة معها· ولم تحقق هذه السفارة كسابقتها أى جدوى كما حدث مع سفارة الراهب مورو من قبل ، وعاد تغرى بردى الى مصر فى سبتمبر عام ١٥٠٧ م (٧٦٨) ·

وعندما يئست البندقية من مقدرة المماليك على التغلب على البرتغاليين واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم ، فانها لجأت الى التعاون مع الصفويين علهم ينجحون فيما فشل المماليك فى تحقيقه ، مما أدى الى تدهور العلاقة بين السلطنة المملوكية والبندقية · اذ حدث أن قبض السلطان الغورى على بعض البنادقة ومعهم خطاب من الشاه اسماعيل الصفوى للاستعانة بدولة أوربية للقيام بهجوم بحرى على سواحل مصر ، على حين يقوم الصفوى بمهاجمتها برا ، ولم يذكر ابن اياس اسم هذه الدولة ، ولكن المصادر الأوربية أشارت الى أن هذه الدولة هى جمهورية البندقية · وهذا ما جعل السلطان الغورى يقبض على قنصل البندقية فى دمشق ، وجيء به مكبلا الى القاهرة ، كما قبض على زملائه الآخرين فى طرابلس والاسكندرية ، وحقق معهم ، وحينئذ لم يسع الغورى الا أن ينفذ ما سبق أن هدد به وهو قفل الأماكن

المقدســة فى القدس ، فقبض على جميع مسيحيى القدس وأغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها فى يناير سنة ١٥١١ م ، وفى الوقت نفسه علم بخيانة الترجمان تغرى بردى ، اذ كاتب الدول الأوربية بضعف المماليك الحربى وعدم تحصين السواحل المصرية التحصين الكافى فقبض عليه فى مارس ١٥١١ م (٧٦٩) ٠

وقد توالت احتجاجات الدول الأوربية على تصرف الغورى ، وجاءت الى مصر سفارة فرنسية من قبل الملك لويس الثانى عشر ملك فرنسا فى مارس سنة ١٥١٢ م ، وكان هدف هذه السفارة عقد اتفاق تجارى مع مصر واطلاق حرية التجارة فى موانى مصر والشام والسماح للحجاج بزيارة الأماكن المقدسة كالمعتاد، ووعدت السفارة بمساعدة فرنســا ضــد بلاد البرتغال ، غير أن السفير الفرنسى لم ينجح الا فى اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين ٠ ولما انتشرت أنباء السفارة الفرنسية ، أسرعت البندقية وأوفدت بعثة دبلوماسية على رأسها « دومينكو تريفزانى Domenico Trevisani واستطاع هذا السفير أن يعقد أول اجتماع مع السلطان الغورى فى مايو سنة ١٥١٢ م ، وبدأت البعثة عملها وفق برنامج مفصل محدد فى لين وسلاســة مع شىء من العناد والصــلابة يحمل على الاعجاب ٠ وكان يظاهر البعثة بعض قطع من الأسطول التجارى البندقى الذى مر بكريت وقبرص والاسكندرية ، فسر السلطان الغورى مما أظهره البنادقة ، أصــدقاؤه القــدماء ، من اخلاص ، ونجحت مهمة الســفير فى اطــلاق سراح المسجونين ، وأعيــدت الصداقة والصلة بين السلطنة المملوكية والبندقية، وتعهد البنادقة بتزويد المماليــك بالأسلحة والأخشاب لمواصــلة نضالهم ضــد البرتغــاليين ، ثم غــادر « تريفزانى » مصر فى أغســطس ســنة ١٥١٢ م (٧٧٠) ٠ ومن الواضح أن الغورى كان يهدف آنذاك

الى تجديد علاقاته مع البنادقة حتى يحصل على مساعداتهم له في مواجهة النشاط البرتغالي المتزايد في البحار الشرقيه ·

وعندما تم للعثمانيين السيطرة على مصر بدخول السلطان سليم الأول مدينة القاهرة في اليوم الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣ هـ الموافق السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٥١٧ م ، وامتدت اقامته فيها ثمانية أشهر ، فقد أدرك العثمانيون أهمية مصر كمعبر للتجارة العالمية ، ومدى ما أصابها من تدهور اقتصادى نتيجة لتحول هذه التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ م · ولهذا فقد حرص السلطان سليم الأول على انعاش حركة التجارة ، التى كان يرد الى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية ، ومن المناطق المطلة على البحر الأحمر والخليج العربى الداخلية ، أى من النواحى الواقعة شرقى مصر وجنوبها وغربها ، والتى كان من دواعى استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج الى الأراضى المقدسة فى الحجاز حيث كان الحجاج يحضرون معهم الكثير من المتاجر الشرقية لتغطية تكاليف رحلتهم ، ولممارسة النشاط التجارى عبر الطرق المذكورة· ولهذا فقد أراد السلطان سليم أن يضمن تسويق ما يصل الى مصر من هذه التجارة عن طريق البنادقة الذين يقومون بتوزيعها فى أوربا وذلك بعقد معاهدة تجارية معهم لهذا الغرض · وكان للعثمانيين خبرة سابقة فى هذا المجال حيث عقد السلطان محمد الثانى الفاتح اتفاقية مع الجنويين فى الحادى عشر من مارس عام ١٤٥٤ م ، واتفاقية أخرى مع البنادقة فى الثامن عشر من أبريل من نفس السنة ، أى فى العام الثانى مباشرة لفتح العثمانيين للقسطنطينية (٧٧١) ·

وهكذا عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع البندقية فى الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ هـ الموافق الرابع عشر

من فبراير عام ١٥١٧م لتشجيع البنادقة على القدوم الى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنينة والعدالة والأمن. وقد نشر الأستاذ «اتين كومب Etienne Combe» نصوص هذه المعاهدة باللغة الفرنسية (٧٧٢) ، ونشرت بعد ذلك مترجمة الى العربية (٧٧٣) وجاءت فى ديباجتها ملاحظة تفيد بأن التعليمات التى أوردتها موجهة بصفة خاصـــة الى حاكم مدينـــة الاســكندرية وموظفيها العموميين ومفتشى وضــباط الشرطة كى يحاطوا علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعــاقدين على الامتيــازات السابق منحها لهم أيام المماليك بعد موافقة السلطان سليم الأول عليها. وأشارت المادة الأولى من هذه المعاهدة الى أن جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها . وأن رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع ولا يحق لأى فرد أن يهينهم أو يتكبر عليهم فى الموانى المصرية عامة ، وانه من حقهم البيع والشراء والأخذ والعطاء ، ولا يدانون لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية ، وأن يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسئولة ، وليس من حق أى فرد الخروج على هذه القوانين ، كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعـادات المرعية بدون أى تغيير أو تعديل .

وأوردت المادة الثـانية من هذه المعــاهدة بين العثمانيين والبنادقة الالتزام بعدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجرهــم بالقوة أو على مراكبهم أو ما فى داخل مخازنهم كما لا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقوا على ذلك ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها . بينما أشارت المادة الثالثة الى أنه بامكان قنصل البندقية أن يبيع أو يشترى بالنقد بدون حدود . وحددت المادة الرابعة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمدا كل اربعة شهور . وأشارت المادة الخامسة الى أن

القنصل دون سواه هو الذى يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت في الأمور لصالحهم • أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله أو نظر شكواه ، وعليه أن يعيده الى قنصله ، واذا رغب القنصل فى طرد أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه فى ذلك ، كما منح القنصل حق ابداء الرأى فى سفر الأفراد على سفن بلاده • ولا يكون لأى فرد كان أن يغادر الاسكندرية على ظهر احدى سفن البندقية ليعود الى وطنه أو يبارحها لأى قطر شاء الا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه •

وحددت المادة السادسة من المعاهدة الاجراءات المسموح باتخاذها ازاء سفن البنادقة عند وصولها الى الاسكندرية فأشارت الى أنه اذا وصلت أية سفينة من البندقية الى الاسكندرية أو باسم البنادقة ، فلا يحق لأى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات ، ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ، ويسمح لهم بصعود السفينة فى حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المشتراة السلع التى تحملها السفن « كالعسل والفاكهة » • وحرمت المادة السابعة على أى فرد سواء كان حاكم مدينة الاسكندرية أو عينا من أعيانها أو تجارها أو أى فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن الميناء ، أن يستولوا على أية سفينة للبنادقة تصل للميناء أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لأى سبب سواء كان قرضا أو شراء • وأشارت المادة الثامنة الى أنه يصير تنفيذ كل التجديدات أو المبانى اللازمة أو الأعمال الضرورية فى فندق البنادقة • واذا رغب القنصل فى بناء مبنى جميل خاص به فله ما يشاء ، وممنوع منعا باتا التعرض له أو رفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فرد مضايقتهم أو

التعرض لهم اذا رغبوا في استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين • ونصت المادة التاسعة على أنه اذا رغب قنصل البندقية في مقابلة أي فرد من الحكومة في دواوينهم وامتطى صهوة جواده أو رغب في الخروج الى الحدائق العامة أو أي مكان من أطراف الاسكندرية فله أن يفعل ما يشاء وليس لأي فرد أن يعترضـــه •

وقد أشارت المادة العاشرة الى أن السلع الخاصة بالبنادقة والتى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لأصحابها ، أما السلع التى تقذفها الأمواج الى الشاطىء نتيجة غرق احدى السفن ، فهى ترد لأصـــحابها ان عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد لقنصل البندقية ، أما بالنسبة للسفن التى تصل للشاطىء سليمة بعد انقاذها فيجب صيانتها • وجاء في المادة الحادية عشرة ، أن سفن البنادقة التي تلجأ لميناء الاسكندرية لسوء الأحوال الجوية ولا ترغب في تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا لم يكن عليها سلع للاسكندرية ، واذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها في أي ميناء الا في الاسكندرية نفسها ، واذا كانت هذه السفن تحمل سلعا لم ينص عليها في المعاهدات ولا يتاجر فيها الا في الاســكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على طول سواحل مصر •

أما بالنسبة للعلاقات السياسية فقد أوردت المادة الثانيــة عشرة من المعــاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم الأول عام ١٥١٧ م ، أنه اذا حدث أى حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسأل القنصل عن هذا ، كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث • أما من يكون مدينا لأحد رعايا السلطان ، فانه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى

ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان تام فى موانى البندقية والبلاد الخاضعة لهـا • كما أعفت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عدا فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء • واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه اذا أصر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها فى موانى السلطان فمحظور على أى فرد شراؤهـا أو التعـامل مع القراصنة ، ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار • ونصت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه اذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجرا أو أى مواطن عادى أو عضوا فى وكالتهم ، فلا يحق لأى فرد اهانته أو الحاق الضرر به • واشترطت المادة السـادسة عشرة أن كل هذه المنـح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سـجل خاص ويتعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالأجانب أو بالحكم فى مصر • وبموجب المادة السابعة عشرة يكون لقنصل البندقية السلطة التامة اذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه « قنصل بالنيابة » أو نائب قنصـل فى البرلس ، وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان •

وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد عرض أنه حسب المعتاد آنذاك كانت تصل بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن ، وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن سلطات الاسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكى تبيـع ما لديها فى مستودعاتها • هذا الأمر كما أشارت تلك المادة كان ينبغى أن يتدارك ، فسفن البندقية كانت تستطيع منذ عقد المعاهدة فصاعدا بيـع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد • وفى حالة وصول هذه السفن الى

بولاق تتبع القواعد المرسومة في هذا الميناء • وقد أشار قنصل البندقية – في المادة التاسعة عشرة – الى العبيد والفقراء الأجانب الذين يعيشون في الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البندقية لكى يأكلوا • وكان اذا مات أحد العبيد بالفنادق فالقنصل مطالب بدفع ثمنه ، وكان الثمن يفرض مرتفعا ، وقد اشترطت هذه المادة أن هذا يصير ممنوعا منذ ذلك الحين • كذلك حظرت المادة العشرون على موظفي الجمارك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليمهم الفواكه أو سلعا أخرى تحملها سفنهم • وفيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكشافين فقد نصت المادة الحادية والعشرون على أن يدفع دينار واحد عن كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحرى ، ويحصل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها • وقررت المادة الثانية والعشرون انقاص وتمغ ..ن الضرائب التى تدفع عمن يموت من الأجانب فى بلاد السلطان • كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الافرنجى الذى يرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا فى حلة ولا فى ترحاله • واختصت المادة الرابعة والعشرون من المعاهدة المعقودة بين السلطان سليم الأول والبندقية عام ١٥١٧ م بالاشارة الى أن السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمة ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة • كما قررت المادة الخامسة والعشرون أنه فى حالة نقل البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر بشىء ما ، كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفوظة والمسكرة والطازجة للمسافرين • هذا بينما حددت المادة السادسة والعشرون أنه لا يجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم فى حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو فى أى مكان آخر • وأكدت المادة السابعة والعشرون على حق التجار البنادقة فى شحن وتوزيع

وتفريـغ سلعهم في قواربهم وسفنهم الخاصة ، كما أكدت المادة الثامنة والعشرون ان للبنادقة حق شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصـة • وسوغت المادة التاسعة والعشرون للكشافين القيام بعملهم في حالات الشحن والتفريغ ، على أن يكون بموافقة ومرافقة البنادقة • وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة •

واشترطت المادة الثلاثون بأنه لا يتصدى أى فرد للقنصل أو للتجار البنـادقة الا عن طريق القضـــاء وأمام المحاكم ، ويراعى الا يؤخذ الابن بجريرة الأب ، ولا الأب بجريرة الابن ، الا اذا كان أحدهما ضامنا للآخر شخصيا وماليا ، أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة • كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون كذلك أن جميع التجار ومرافقيهم الذين يصلون الى موانى مصر يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع • وفى خاتمة المعاهدة نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية في الاسكندرية قد قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالاعفاء من ضريبة البهار • ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغورى رسوما جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنويا • ويطالب القنصل باعادة تقرير هذا الاعفاء الضريبى وتقرر الاستجابة لهذا الطلب •

كانت هذه هى البنود الثانية والثلاثون للمعاهدة التى عقدت بين السلطان سليم الأول والبنادقة عقب فتح العثمانيين لمصر فى سنة ١٥١٧ م • وهى تشكل دليـلا تاريخيـا على حرص الأتراك العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية حتى تعود الحركة التجارية بقدر الامكان الى نشـاطها المعهود قبيـل تحول

التجارة العالمية الى طريق راس الرجاء الصالح ، ولا شك أن هذه المعاهدة تعد ابلغ رد على الفريه التى يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانيه والذين يدعون انها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوربا . كما أن هذه المعاهدة تميزت بوجود فارق بينها وبين المعاهدة التى عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تباعا مع الدول الأوربيه فى هذا الصدد . فبينما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع رعايا الدول الأوربية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية بوجه عام ، فقد كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى فى مصر والاسكندرية بوجه خاص . كذلك ترجع أهمية معاهدة البندقية الى أن كثيرا من نصوصها ، أو نصوصا على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك فى المعاهدات اللاحقة التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ، اذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياهم آنذاك ، فكانت كل دولة أوربية تحرص على أن تجىء المعاهدة التى تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة وشاملة لكل الامتيازات التى سبق تقريرها لغيرها (٧٧٤) .

ففى عهد السلطان سليمان المشرع خطت الدولة العثمانية خطوات هامة فى سياسة الانفتاح تجاريا مع عدد من الدول الأوربية لتنشيط الحركة التجارية التى أصابها الضعف الملحوظ عقب تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح . اذ عقد السلطان سليمان المشرع مع فرانسوا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ م جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الجراكسة للفرنسيين وأهل « كتالونيا » Les catalans ، وكانت المعاهدات الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم

ومتاجرهم في أثناء تواجدهم في ممتلكات الدولة • كما تكفل لهم حرية المتاجرة والتنقل برا وبحرا دون أن يمسهم سوء ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية • بل انها تنظم اقامتهم في احياء وخانات خاصة مع عدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها • كما تمنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات بحرية بين استانبول وموانى الشام ومصر من عرقلة نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط الملاحية • وترتبط معاهدة ١٥٢٨ م بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ م من حيث الهدف ، اذ كانت موادها مقصورة في الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ، والاسكندرية بخاصة •

ولا شك أن ابرام هذه المعاهدة كان مشجعا لملك فرنسا ، « فرانسوا الأول » والسلطان سليمان المشرع ، نظرا للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولا عرفت باسم « معاهدة صداقة وتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا » وقد عقدت في شهر فبراير سنة ١٥٣٥ م وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون الى أقاليم الدولة العثمانية بعض الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مناسبة مماثلة لها تقريبا • وسوف نعرض فيما يلي لنصوص هذه المعاهدة لابراز أهميتها في تنفيذ سياسة التنشيط التجاري التي تبنتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ، وخاصة المطلة منها على البحر المتوسط ، لتعويض ما فقدته من نشاط تجاري نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين •

وتقع معاهدة عام ١٥٣٥ م بين الدولة العثمانية وفرنسا في ست عشرة مادة ، وقررت المادة الأولى منها السماح لرعايا الدولة

العثمانية وفرنســـا وتابعيهم بالتجول في جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والثغور والجزر وسائر الأقاليم التي تدخل في حوزة كل من السلطان وملك فرنسا ، على أن يكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة الى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم • بينما نصت المادة الثانيــة على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبــادلة في كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ، ونقلها برا وبحرا بعد ســداد الرسوم المقررة ، بحيث يدفع الفرنسيون في أقاليم الدولة العثمانية ما يدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون في فرنسا ما يدفعه الفرنسيون ، دون أن يدفع أي من الطرفين ضرائب أو مكوســـا جديدة أخرى •

وجاء في المادة الثالثة من هذه المعاهدة أنه فضلا عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا في استانبول (٧٧٥) ، أو بيزا او غيرهما من مدن الدولة العثمانية أحد رجال القانون ، كالقنصل المعين حاليا في الاسكندرية ، فيجب أن يقابل هذا القانوني والقنصل بطريقــة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق في الفصل في جميع القضـــايا والخلافات المدنيــة والجنائية التي تقع في دائرته ، طبقا لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الآخـــرين ، بدون أن يمنعه من ذلك أي قاض أو صوباشي (٧٧٦) ، أو أي موظف آخر • ولكن اذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا اطاعة الأوامر الصادرة من القانوني أو القنصل فلهما في هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشي أو أحد ضباط السلطان في تنفيذ الأحكام • وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الآخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية والتي تكفل اجبار الآخرين على تنفيذ أحكامهم • ولكن ليس للقاضي أو أي ضابط تابعين لحكومة السلطان أن يحكموا في المنازعات التي تنشــأ بين التجار ورعايا

ملك فرنسا ، حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك • واذا نظر القضاة بمجرد المصادفة في قضية فان حكمهم يكون لاغيا وباطلا •

أما المادة الرابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية عام ١٥٣٥ م فقد منعت استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا ، أو محاكمتهم في الدعاوى المدنية التى يقيمها عليهم العثمانيون أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ، ما لم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعى أو رجل القانون الفرنسي أو القنصل • وفي حالة وجود هذه المستندات والحجج لايجوز للقضاة الشرعيين أو الصوباشية أو أى موظفين آخرين سماع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين الا في حضور ترجمان قنصل فرنسا • كما نصت المادة السادسة من تلك المعاهدة على أنه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الآخرين فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والصناجق البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى • ولا يمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر اليهم على أنهم مسلمون ، الا اذا رغبوا في ذلك واعترفوا صراحة وبدون اكراه يقع عليهم • ولهم الحق في ممارسة شعائر دينهم •

أما المادة السابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ م فانهـا تنص على أنه اذا تعاقد شخص أو أكثر من شخص من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو اذا استولى على سلع منه أو اقترض مبالغ ، ثم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه ، فلا يسأل رجل القانون الفرنسى أو الفرنسى أو القنصل أو أقرباء المدين أو أى شخص فرنسى عن ذلك مطلقا ، ولا يتعرض له أحد بالايذاء ولا يكون ملك فرنسا ملزما

بشيء . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ، ومن أملاكه لو وجدت له أملاك فى الأراضى الفرنسية . كما نصت المادة الثامنة على أنه لا يجوز القاء القبض على تجار فرنسا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، واكراههم على العمل فى خدمة السلطان العثمانى أو أى شخص آخر فى البر والبحر ، ما لم يكن باختيارهم وطوعهم . وكذلك لا يجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو ما يوجد بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع الا بموافقتهم ورضائهم .

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على هذه المعاهدة فان جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على سفنهما أو فى أى مكان تابع لسلطتهما ، فى حالة الرق ، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم فى الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم ، يطلق سراحهم فورا بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا الغرض . واذا كان أحد الأسرى قد تحول عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته الدينية مانعا من اطلاق سراحه . كما أوردت تلك المادة أنه لا يجوز للسلطان ، ولا لملك فرنسا ، ولا لقادة الأساطيل البحرية ، ولا لقواد الجيش ، ولا لأى أشخاص آخرين تابعين لأحد العاهلين أو لمن يستأجرانهم لذلك ، سواء فى البر أو فى البحر ، أخذ أو شراء أو بيع أو حجز رعايا الحرب بصفة أرقاء . واذا حاول أحد القراصنة أو غيره من رعايا العاهلين أسر أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله ، فيجب احاطة حاكم الجهة علما بذلك ، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتهمة تعكير السلام بين الدولتين ، ليكون عقابه عبرة لغيره ، ورد ما يكون عنده من الأشياء المغتصبة الى من أخذت منه . واذا لم يضبط الجانى فورا واستطاع الهرب دون محاكمة فيسحب نفيه من بلاده مع جميع شركائه . وتقوم الحكومة

التابع لها هؤلاء الجناة بمصادرة ممتلكاتهم ، ودفع التعويضات عن الأضرار التى أصابت المجنى عليه من ممتلكات الجناة ، وهذا لا يمنع من مجازاتهم اذا تم القبض عليهم فيما بعد ٠ وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضامن هذا الصلح ، وهما السر عسكر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا ٠

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه اذا وصلت الى أحد موانى أو سواحل الدولة العثمانية احدى السفن التابعة لرعايا ملك فرنسا سواء كان وصولها بطريق الصدفة أو غير ذلك ، فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من الضروريات فى مقابل دفع الثمن المناسب بدون الزامها بتفريغ شحناتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها السفر الى حيث تريد ٠ واذا وصلت الى استانبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من أمين الجمرك ، ودفع الرسوم المقررة ، وتفتيشها بمعرفة أمين الجمرك المشار اليه ، فلا يجوز زيارتها أو تفتيشها فى أى مكان آخر ، الا عند الحصون المقامة عند مدخل بوغاز غاليبولى ، بدون أن تدفع شيئا مطلقا لرحيلها ، سواء عند هذا البوغاز أم فى أى مكان آخر عند خروجها ، سوى ما سبق دفعه ، سواء أكان الطلب باسم السلطان أم أحد ضباطه ٠

وأشارت المادة الثالثة عشرة أنه اذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك احدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين فى البلاد التابعة لهما ولقضائهما ، فان جميع الأفراد الناجين من هذا الخطر يظلون متمتعين بحريتهم ، ولا يحال بينهم وبين أخذ أو جمع ما يكون لهم من الأمتعة وغيرها ٠ أما اذا غرق جميع من بها فان البضائع التى يمكن انقاذها تسلم الى القنصل أو أحد رجال القانون فى القنصلية أو من يمثلهما ، ليسلمها الى من تتعلق بورثتهم ،

بدون أن يستولى القبودان باشا أو الصنجق بك أو الصوباشى أو القاضى أو أى ضابط أو أحد رعايا السلطان على شىء منها ، وألا توقع عليهم العقوبات . وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدات لمن يعهد اليهم باستعادة البضائع .

كما نصت المادة الرابعة عشرة على أنه اذا هرب أحد العبيد التابعين لأحد رعايا السلطان وادعى هذا العثمانى أن عبده قد لاذ بأحد رعايا ملك فرنسا وخدم فى سفينته أو فى منزله ، فان هذا العثمانى لا يستطيع أن يجبر الفرنسى على عمل شىء سوى السماح له بالبحث عن العبد فى سفينته أو فى داره . واذا أسفر البحث عن العثور على العبد فان الفرنسى يعاقب بمعرفة قنصله ويرد العبد لسيده . واذا لم يوجد العبد فى سفينته أو دار الفرنسى ، فيجب ألا يتعرض الفرنسى للايذاء مطلقا ، وعلى أى نحو من الأنحاء بسبب هذا الحادث .

أما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا لم يكن قد أقام بأراضى الدولة العثمانية عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج أو أية ضريبة أيا كان اسمها ، ولا يلزم بحراسة الأراضى المجاورة أو مخازن السلطان ، ولا بالعمل فى الترسانة ، أو أى عمل آخر بطريق الاكراه . ويمنح رعايا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة فى بلاد فرنسا . وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك انجلترا ، أخيه وحليفه الأبدى ، وملك اسكتلندا للانضمام لهذه المعاهدة .

وأخيرا قررت المادة السادسة عشرة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ م أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين فى خلال ستة أشهر من تاريخ التوقيع

عليها مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها ، والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع أحكامها بكل دقة ، وحتى لا يدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نسخ منها بعد التصديق عليها في استانبول والاسكندرية ومارسيليا وناربون Narbonne ، وفي جميع المدن والموانيء المشهورة التابعة لكل من الطرفين (٧٧٧) ٠

وتجدر الاشارة الى أن هذه المعاهدة العثمانية الفرنسية التى عقدت فى عام ١٥٣٥ م بين السلطان سليمان المشرع والملك فرانسوا الأول قد جددت بعد ذلك عدة مرات وأضيفت اليها أحكام جديدة فى أعوام ١٥٦٩ م ، ١٥٨١ م ، ١٥٩٧ م ، ١٦٠٤ م ، و ١٧٣٩ م ٠ كما أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائيا كلما ارتقى عرش الدولة العثمانية سلطان جديد ٠ وقد أرسى هذا التقليد فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو عام ١٧٤٠ م السلطان العثماني محمود الأول (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤م) اعترافا منه بفضل فرنسا حين تدخل فى صيف عام ١٧٣٩م «الماركيز دى فيلنيف Marquis de Villeneuve » السفير الفرنسى فى بلجراد لانهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ٠ وكان من نتائج مساعيه الحميدة ، ابرام معاهدة بلجراد فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر عام ١٧٣٩ م (٧٧٨) ٠

وتجدر الاشارة كذلك الى أن تلك المعاهدة العثمانية الفرنسية التى عقدت عام ١٥٣٥ م قد نصت فى مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك انجلترا وغيره الى الانضمام اليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك انجلترا بابلاغ السلطان العثمانى ، فى خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة بصدور تصديق الحكومة الانجليزية عليها ٠ ويطلب اعتماد هذا التصديق اذا أراد السلطان سليمان المشرع وفرانسوا الأول تحويلها من معاهدة ثنائية الى معاهدة جماعية ، حتى تتحقق أكبر فائدة منها فى تنشيط

الحركة التجارية فى البحر المتوسط ، بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء منذ مطلع القرن السادس عشر • غير أن هذه الدعوة لم تجد استجابة من ملك انجلترا ، وظلت السفن الانجليزية التى تتردد على الموانى العثمانية تبحر فى الموانى والمياه العثمانية تحت الأعلام الفرنسية ، طبقا لأوامر الحكومة العثمانية • ثم ازداد عدد السفن الانجليزية التى تشق طريقها الى موانى الدولة العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر • وتطلعت انجلترا الى منافسة البنادقة الفرنسيين فى هذه المنطقة (٧٧٩) ، وبدا ذلك واضحا عندما تمكن أحد التجار الانجليز واسمه « أنطونى جنكنسن » Anthony Jenkinson من مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ م فى حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس آنذاك ، ونجح فى الحصول على موافقة السلطان له على الاتجار داخل ممتلكات الدولة العثمانية على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين ، وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة (٧٨٠) • على أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لانجلترا عهدا تجاريا مهما على الرغم من الامتيازات الواسعة التى منحها السلطان سليمان المشرع لذلك التاجر الانجليزى •

غير أن النشاط التجارى الانجليزى سيزداد بعد ذلك بربع قرن تقريبا ، عندما استقبلت الحكومة العثمانية بعثة انجليزية فى عام ١٥٧٨ م ، واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحا كبيرا فى وضع الحجر الأساسى للتجارة الانجليزية فى الدولة العثمانية بولاياتها المختلفة ومن بينها مصر بطبيعة الحال ، مما كان من شأنه تنشيط الحركة التجارية فى البحر المتوسط التى كان قد أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ مطلع القرن السادس عشر • وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان

مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٦ م) أرسل رسالة مؤرخة فى الخامس عشر من مارس عام ١٥٧٩ م الى الملكة اليزابيث الأولى ، وكان مما جاء فيها « أن البلاد العثمانية ستبقى دائما مفتوحة للتجار الانجليز ... ونحن (أى السلطان العثمانى) سوف لا نتقاعس عن تقديم المساعدة والمعونة لأى فرد منهم (أى من الانجليز) يبتغى تقدير صداقتنا واحساسنا ومساعدتنا ، بل سنعد ارضاءهم جزءا من واجبنا » (٧٨١) .

على أن هذه الرسالة لم تكن مقنعة فى نظر ملكة انجلترا ، لأنها لم تشتمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعايا الانجليز نشاطهم التجارى . وتطلعت الملكة الى عقد اتفاق يكون أوفى بالغرض تخصيصا وشمولا . ومهدت له بمنح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون مماثلة لما يحصل عليه التجار الانجليز من امتيازات في بلاد الدولة العثمانية . وما ان تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر فى شهر يونيو ١٥٨٠ م «براءة» تضمن للتجار الانجليز امتيازات واسعة النطاق . وكان مما جاء فيها على لسان السلطان « وعلى هذا فاننا نمنح جميع أفراد شعبها ورعاياها حرية المجىء الى امبراطوريتنا بأمن وسلام ، مع كل ما لديهم من متاجر وسلع بحرا فى سفن كبيرة وصغيرة ، وبرا فى عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم (الانجليزية) » (٧٨٢) .

وكان من الطبيعى أن تلقى هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب السفير الفرنسى فى استانبول ، حتى انه سعى لدى السلطان لوقف تنفيذها . ونجحت مساعيه ولكن الى أمد قصير . ففى العام التالى مباشرة صدر العقد التأسيسى الأولى لانشاء « شركة الليفانت »

The Levant Company في الحادى عشر من شهر سبتمبر عام ١٥٨١ م ، وهي شركة انجليزية مارست اختصاصـــات سياسية وتجارية واسعة في شرقي البحر المتوسط (٧٨٣) ، فهي التي كانت ترشح سفراء انجلترا في استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصـــل انجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين في ممتلكات الدولة العثمانية يعدون مستخدمين في الشركة ويتقاضـــون منها مرتباتهم • وظل هذا التقليد ساريا أكثر من قرنين حتى ســـنة ١٨٠٣ م • أما الاختصاصات التجارية لهذه الشركة فقد حصلت من الملكة اليزابيث الأولى ملكة انجلترا على حق احتكار المتاجرة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط • وكان نشاطها كثيفا في الأناضول وحلب والاسكندرونة والاسكندرية ، وغيرها من أساكل الشـــام ومصر والساحل الغربي لشبه جزيرة الأناضول • ولم يمتد نشاط الشركة بوضوح الى العراق الذى كان أكثر تأثرا بنشاط « شركة الهنـــد الشرقيـــة الانجليـــزية » The East India Company التى أنشأتها بريطانيا في ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠ م (٧٨٤) • وفي سنة ١٥٨٣ م عينت الحكومة الانجليزية « وليم هاربورن » William Harborn سفيرا لها في استانبول ومنحته ســـلطات متشعبة على جميع التجارة الانجليزية في ولايات الدولة العثمانية وخولته اختصاصات واسعة في تعيين القناصل • وغدا « هاربورن » سفيرا الى جانب صفته كممثل لشركة الليفانت • واستغل هاتين الصفتين في حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة ١٥٨٠ م وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة ، وسرعان ما أثمرت جهوده • وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ م بداية التاريخ الفعلي والرسمي لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الانجليز في أملاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين في انجلترا • وفي سنة ١٦٠٤ م حصلت الحكومة الانجليزية على موافقة السلطان أحمد الأول على أن تبحر السفن الانجليزية داخل المياه

والموانى العثمانية تحت الأعلام الانجليزية ، بينما كانت السفن الأجنبية ـ باستثناء سفن البنادقة ـ مضطرة الى رفع العلم الفرنسى • وفى عام ١٦٤١ م عقد الملك شارل الأول ملك انجلترا معاهدة مع السلطان ابراهيم الأول العثمانى كفلت لشركة الليفانت حرية التجارة فى جميع أنحاء الدولة العثمانية • ثم عقد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ م) معاهدة مع انجلترا فى شهر سبتمبر سنة ١٦٧٥ م جددت فيها الامتيازات التجارية التى سبق منحها فى معاهدات سابقة وأضيفت اليها مواد جديدة • وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم « المعاهدة النهائية للامتيازات الامبراطورية العثمانية وانجلترا « Final Treaty of Capitulations Between the Ottoman Empire and England » ، وهى تقع فى خمس وسبعين مادة (٧٨٥) ، وتمثل هذه المعاهدة المرحلة الثانية المهمة فى تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية فى الدولة العثمانية التى ضمنت للتاجر الانجليزى حرية التجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه عبرها ، والتمتع بما يكفى حماية نفسه وماله • وقد ضمنت الامتيازات اسميا مثل ذلك للتاجر العثمانى فى البلاد الانجليزية • غير أن الجانب العثمانى لم يستفد فى الواقع سوى مما يأخذه السلطان أو الباشوات من رسوم على البضائع الانجليزية تبلغ عادة ثلاثة فى المائة من ثمن البضاعة (٧٨٦) • ولم يحدث بعد عقد معاهدة عام ١٦٧٥ م شىء يذكر حتى عام ١٨٠٩ م حين نجحت انجلترا فى استمالة الدولة العثمانية اليها بعد فترة جفاء بينهما ، كما استطاعت انجلترا فى اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٨٠٩م أن تعقد مع الدولة العثمانية معاهدة الدردنيل المعروفة باسم « معاهدة السلام والتجارة والتحالف السرى « Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance »، وقد جاء فى مادتها الرابعة أن جميع الامتيازات التى سبق تقريرها فى معاهدة عام ١٦٧٥ م

والمعاهدات السابقة عليها تظل ملحوظة ومرعية كأن لم يطرأ عليها تعديل . وقد عقدت الدولة العثمانية تباعا معاهدات أخرى على شاكلتها مع عدد من الدول الأوربية الأخرى (٧٨٧) .

واذا كانت انجلترا قد حرصت على مشاركة البنادقة والجنويين والفرنسيين وغيرهم في التجارة التى تصل الى موانى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر ، ونجحت فى ذلك الى حد بعيد بعد تأسيسها لشركة الليفانت على وجه الخصوص عام ١٥٨١ م ، فانه لم يكد هذا القرن يوشك على الانتهاء حتى أصبحت التجارة التى تصل الى موانى ذلك البحر لا تفى بحاجة السوق الانجليزية من البضائع والمنتجات الشرقية ، ولهذا اتجه البريطانيون الى كسر احتكار البرتغاليين والهولنديين للتجارة الشرقية فى بحار الشرق ، فتحولت السفن البريطانية كذلك الى طريق رأس الرجاء الصالح ونفذت الى البحار الشرقية وتم اتصالها المباشر بالهند . وكان لانجلترا الدور الكبير فى تنشيط طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن السادس عشر وفى أعقابه ، بالاضافة الى نشاطها التجارى فى البحر المتوسط ، وزاد ثقل بريطانيا فى المحيط الهندى بشكل ملحوظ بعد تأسيسها لـ « شركة الهند الشرقية » الانجليزية « The East India Company » فى ٣١ ديسمبر عام ١٦٠٠ م (٧٨٨) . وعلى الرغم من ذلك فقد بدت رغبة انجلترا واضحة فى استخدام الطريق التقليدى القديم عبر مصر والبحر المتوسط بعد أن تبينت مميزاته فى نهاية القرن الثامن عشر ، وخاصة عند تسيير الخط الملاحى البحرى البخارى فى مطلع القرن التاسع عشر (٧٨٩) .

وهكذا نشطت الدبلوماسية المملوكية ثم العثمانية من جهة ، والدبلوماسية الأوربية وخاصة لدى الدول ذات المصالح التجارية

فى البحر المتوسط من جهة أخرى كالبندقية وفرنسا وانجلترا ، خلال القرن السادس عشر وفى أعقابه ، لعقد المعاهدات التجارية لتنشيط الحركة التجارية فى البحر المتوسط ـ على النحو الذى أوضحناه ـ بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين فى مطلع القرن المذكور ٠

الأثر الاستراتيجى لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على سواحل مصر الشمالية أثناء القرن السادس عشر :

كان لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين على أيدى البرتغاليين أبرز الأثر من الناحية الاستراتيجية على سواحل مصر الشمالية بعد أن حرمت من هذه التجارة ٠ ورغم الجهود الدبلوماسية التى بذلت من الأطراف المعنية المختلفة على النحو الذى عالجناه فيما سبق ، فانها لم تحقق الأهداف المرجوة من أجل العودة الى الطريق التقليدى عبر مصر وعالم البحر المتوسط ٠ وقد استوجب هذا على أهالى البلاد الأصليين من جهة أولى ، وعلى المماليك من جهة ثانية ، ثم على العثمانيين من جهة ثالثة ، ضرورة اللجوء الى استخدام القوة ضد النشاط البرتغالى والنشاط الاسبانى المواكب له فى العداء للمسلمين ، سواء فى البحر المتوسط من جهة أو فى البحار الشرقية من جهة أخرى ٠ ولهذا فان النشاط الاستراتيجى سيبدو واضحا فى هذين النطاقين وسوف يستمر من الناحية الزمنية طوال القرن السادس عشر الميلادى ٠ وسوف يكون للأتراك العثمانيين الفضل فى تشكيل تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الاسلامى فى مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ،

وعالم البحر الأحمر من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين فى البحار الشرقية فى نهـــاية القرن المذكور • وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة ، فى وقت كانت تتعرض لفراغ ســياسى نتيجة لانقسام الصف المملوكى من جهة أولى ، وفشـــل المماليك فى صد الغزو البرتغالى للبحار الشرقية من جهة ثانية ، هذا فضـــلا عن انهيار الأوضاع الاقتصادية من جهه ثالثة • ويعد هذا الدور أكبر مكرمة للعثمانيين فى جوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين فى عالمى البحرين المتوسط والأحمر فى القرن السادس عشر •

الخاتمـــة

وفى ختام هذا البحث فانه يمكن القول بأن تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح كان له أثر واضح فى مقدرات سواحل مصر الشمالية اقتصاديا وسياسيا ودبلوماسيا واستراتيجيا أثناء القرن السادس عشر الميلادى بالقدر الذى أوضحناه على مدار هذا البحث • وقد تبينا أن الطرق البرية المؤدية الى مصر وسالم البحر المتوسط سواء من ناحية الشرق من العراق والشام والجزيرة العربية ، أو من ناحية الجنوب من أواســـط القارة الأفريقية ، وخاصة من الصومال واثيوبيا والسودان وصعيد مصر ، أو من ناحية الغرب من أرجاء المغرب العربى من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش ، فضلا عن النطاق الداخلى للبحر الأحمر حتى مضيق باب المندب ، والخليج العربى حتى مضيق هرمز ، قد مر عبرها قدر نسبى من التجارة العالمية • وقد ساعد على تنشيط حركة التجارة العالمية فى الطرق البرية والبحرية المشار اليها رحلة الحج السنوية الى الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ذهابا وعودة ، على الرغم من الحصـــار البرتغالى للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندى أثنـــاء القرن السادس عشر الميلادى • وتوضح الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية والتى تخص محكمة اسكندرية الشرعية والعائدة الى منتصف القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، استمرارية النشاط التجارى النسبى عبر سواحل مصر الشمالية فى ذلك الحين (٧٩٠) • غير أن هذا القدر

من التجارة العالمية ، وهذا النشاط التجارى النسبى الذى شهده القرن السادس عشر ، لم يوفر لسكان مصر ولعالم البحر المتوسط نفس القدر من الازدهار الاقتصادى الذى عاشوا فى ظلاله الوارفة قبل تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ٠

الهـــــوامش

(٦٥٤) نعيم زكى فهيم (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، ص ١٩٢ ٠

(٦٥٥) توفيق اسكندر (دكتور) : بحوث فى التاريخ الاقتصادية (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦١ م ، ص ١٤٠ ٠

(٦٥٦) Howe, Sonia : In Quest of Spices, pp. 13, 14.

(٦٥٧) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصـــور الحديثة ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ٠

(٦٥٨) فاروق عثمان أباظة (دكتور) : التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ندوة « البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة » التى أقامها سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩ ، ص ٣٧٧ ٠

(٦٥٩) نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية فى العصور الوسطى ، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم التى تصدر فى بيروت ، السنة السادسة ، العددان ٧١ ـ ٧٢ ، سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٨٤ ، ص ٣٨ ـ ٤٠ ٠

(٦٦٠) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ٠

(٦٦١) Wilson, A.T. The Persian Gulf, pp. 10, 13.

(٦٦٢) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، ص ٢٠٨ ٠

(٦٦٣) قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٩٧ ـ ٩٨ ٠

(٦٦٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام فى العصور الوسطى ، محاضرة ألقيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـــ المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ م ، ص ١٧٣ ٠

(٦٦٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

(٦٦٦) ابن اياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٦٦٧) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ، ص ١٥٣ .

(٦٦٨) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٨ .

(٦٦٩) Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, T. II., p. 434, 435.

(٦٧٠) Howe, Sonia : Op. cit., p. 99.

(٦٧١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٦٧٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٦٧٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : نفس المرجع ، ص ١٣١ .

(٦٧٤) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٩٥

(٦٧٥) جيرار ، ب٠س : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ م ، المجلد الرابع ، ص ٢١٠ .

(٦٧٦) صلاح أحمد هريدى على (دكتور) : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى ، دراســة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٦٧٧) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٩٢ .

(٦٧٨) Heyd, W. : Op. Cit., pp. 228, 229.

(٦٧٩) Hammer, J. Historire de L'Empire Ottomane, Tome 5, pp. 301, 302.

(٦٨٠) Heyd, W. : Op. Cit., pp. 440, 442.

(٦٨١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٦٨٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٦٨٣) ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتورة) : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى ، ص ١١٢ .

(٦٨٤) Crouchley, M.E. : The Economic Development of Modern Egypt, p. 34.

(٦٨٥) Shaw. S.J. : The financial and admitistrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517-1798, p. 138.

(٦٨٦) ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتورة) : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى ، ص ١٢١ .

(٦٨٧) صلاح هريدى على (دكتور) : دور الصعيد فى مصر العثمانية (٩٢٣ – ١٢١٣ هـ /١٥١٧ – ١٧٩٨ م) ، ص ٢٧٨ .

(٦٨٨) Criuchley, M.E. : Op. Cit., pp. 33, 34.

(٦٨٩) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧ – ١٧٩٨ م) ، ص ٢٦ – ٢٧ .

(٦٩٠) ليلى صباغ(دكتورة) : الوجود المغربى فى المشرق المتوسط فى العصر الحديث ، ص ٨٩ .

(٦٩١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ابان العصر العثمانى (١٥١٧ – ١٧٩٨ م) ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، تصدر عن جامعة الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ ، ص ١٤ – ١٥ .

(٦٩٢) Crouchley, M.E. : Op. cit., pp. 33, 34.

(٦٩٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ١٢ – ١٤ .

(٦٩٤) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ص ٥ .

(٦٩٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٢ .

(٦٩٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٢٧ .

(٦٩٧) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الاسلامية الوسطى ، ص ٢٠٧ .

(٦٩٨) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٥٨ .

(٦٩٩) ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٧٠٠) Heyd, W. : Op. Cit., p. 433.

(٧٠١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٧٠٢) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ط ٢ ، ص ١٠٧ .

(٧٠٣) محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، ص ٦٠ .

(٧٠٤) حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، ٥٦٧ - ٥٦٨ .

(٧٠٥) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ١٠٩ .

(٧٠٦) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق أشار الى الامتيازات التجارية التى منحتها السلطنة المملوكية لطائفة الفرنتيين (أهالى فلورنسا) فى مصر والشام فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، الملحق ١٣ - ٢٥ ، ص ٤٣٩ - ٤٨١ .

(٧٠٧) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٧٠٨) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٧٠٩) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، وقد أشار الى الاتفاقيات التى عقدها البنادقة مع السلطات المملوكية فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين ، الملاحق ١ - ١٢ ، ص ٢٧٣ - ٤٨٠ .

(٧١٠) شارل ديل : البندقية جمهورية أوستقراطية ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٧١١) عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، ص ٢٧ .

(٧١٢) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، آخر سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة للأسباب التى أنهت حكم دولة السلاطين المماليك فى مصر ، ص ٧٧ .

(٧١٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .

(٧١٤) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر ، ص ٥٢ .

(٧١٥) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، جـ ١ ، ط ٣ ، ص ١١٠ .

(٧١٦) Wiet, G. : L'Egypte Arabe, Histoire de la Nation Egyptienne, T.V., p. 574, 576.

(٧١٧) Lane-Poole, S. : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 340.

(٧١٨) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ .

(٧١٩) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٦٠ .

(٧٢٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

(٧٢١) المماليك الجلبان هم المماليك الذين جلبهم السلطان لنفسه عن طريق الشراء من خارج مصر ، وكان السلاطين يقربونهم اليهم على حساب المماليك الآخرين مما سبب الغيرة بينهم وبين غيرهم من المماليك .

(٧٢٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٠٠ .

(٧٢٣) ابن اياس : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٤٧٤ .

(٧٢٤) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ .

(٧٢٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ ـ ٩٢٣ هـ /١٤٦٨ ـ ١٥١٧ م) فى ضوء كتابات ابن اياس ، ص ٧٠ .

(٧٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧١ .

(٧٢٧) ابن اياس : نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٦ .

(٧٢٨) ابن اياس : نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٧٢٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٧٣٠) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٨٧ .

(٧٣١) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٧٣٢) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٧٣٣) ابن اياس : نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٤ ، ٥ .

(٧٣٤) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ٠
(٧٣٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٩ ٠
(٧٣٦) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ ٠
(٧٣٧) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ٠
(٧٣٨) ابن أياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ٠
(٧٣٩) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٩ ٠
(٧٤٠) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١١١ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ٠
(٧٤١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ ٠
(٧٤٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٣١ ٠
(٧٤٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ص ٣٥٩ ٠
(٧٤٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، ص ٧٨ ٠
(٧٤٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ٠
(٧٤٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩ ٠
(٧٤٧) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٢ ٠
(٧٤٨) ابن أياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ ٠
(٧٤٩) ابن أياس : نفس المصدر ج ٤ ، ص ١٥٠ ٠
(٧٥٠) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٧٣ ٠
(٧٥١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ٠
(٧٥٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ ٠
(٧٥٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ ٠
(٧٥٤) ابن أياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ ٠
(٧٥٥) ابن أياس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١ ــ ٣٢ ٠
(٧٥٦) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٣٢ ٠
(٧٥٧) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ ٠
(٧٥٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٨٣ ٠

(٧٥٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، ص ٨٨ .

(٧٦٠) محمد محمد أمين (دكتور) : تفويض من عصر العادل طومان باى « صانع السلاطين » مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع والعشرون ١٩٨١ م ، ص ٥٦ ـ ٦١ .

(٧٦١) Holt. P.M. : Egypt and The Fertile Crescent 1516-1922, A political History, p. 38.

(٧٦٢) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ١٢٢ .

(٧٦٣) Holt, P.M. : Op. Cit., pp. 38, 39.

(٧٦٤) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(٧٦٥) Lane Poole, S. : Medieval India Under Mohammedan Rule. A. D. 712-1764, pp. 163, 180.

(٧٦٦) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

(٧٦٧) Charles, Roux, J. : L'Islam et le Canal de Suez, T. I, p. 45.

(٧٦٨) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(٧٦٩) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٧٧٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٧٧١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٨ .

(٧٧٢) Crombe. E. : Précis de l'Histoire d'Egypte, T. III p. 6 ff. (wiet. G.). le Traité : Veneto-Turc. De 1517.

(٧٧٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥ .

(٧٧٤) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، الجزء الثانى ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

(٧٧٥) وردت فى النصين الفرنسى والانجليزى « القسطنطينية » وهذا ما درجت عليه المصادر والمراجع الأوربية من الاصرار على تسمية استانبول بالقسطنطينية من قبيل التعصب للتسمية المسيحية البيزنطية من قبل .

(٧٧٦) الصوباشى لفظة تعنى «ضابط» فى الجيش العثمانى ويكلف احيانا بالعمل « كمتسلم » على مدينة أو حاكم لتقسيم ادارى صغير .

(٧٧٧) Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East vol. 1., pp. 1-5.

(٧٧٨) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ ٢ ، ص ٧٠٨ ـ ٧١٤ ٠

(٧٧٩) Hoskins, H.L. : British Routes to India, pp. 2-4.

(٧٨٠) Hurewitz, J.C. : Op. Cit., vol. I., pp. 5-6.

(٧٨١) زكى صالح (دكتور) : مجمل تاريخ العراق الدولى فى العصر العثمانى ، ص ١٢ ٠

(٧٨٢) Hurewitz, J.C. : Op. Cit., vol. I, pp. 7-9.

(٧٨٣) Epstein, M. : Early History of The Levant Company, p. 52.

(٧٨٤) Hoskins, H.L. : Op. Cit., pp. 4-5.

(٧٨٥) Hurewitz, J. C. : Op. Cit., pp. 25-32.

(٧٨٦) زكى صالح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٦ ٠

(٧٨٧) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ـ ٧١٩ ٠

(٧٨٨) Fisher, H.A.L. : Op. Cit., p. 602.

(٧٨٩) Hoskins, H.L. : The Growth of British Interests in the Route to India, Journal of Indian History, II, p. 167.

(٧٩٠) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة الاسكندرية الشرعية ، دفتر سجل مبايعات رقم (١) ويعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٨ هـ/١٥٥١م) ، ص ٢٤ مادة ١٠٩ ، ص ٣٦ مادة ١٦٦ ، ص ٣٨ مادة ١٧٥ ، ص ٤٨ مادة ٢١٧ ، ص ٥٥ مادة ١٤٦ ، ص ٩٩ مادة ٤٧١ ، ص ١٠٢ مادة ٢٨٤ ، ص ٢٠٧ مادة ٩١٨ ، ص ٢٣١ مادة ١٠١٦ ، ص ٣٢٧ مادة ١٣٩٢ ، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٥ ، ص ٣٣٩ مادة ١٤٣٧ ، ص ٤١٣ مادة ١٧٣٢ ، وهى وثائق تتعلق بنشاط التجار المغاربة فى الاسكندرية ، ص ٩٢ مادة ٤٣٥ ، ص ٩٦ مادة ٤٥٦ ، ص ٦٠ مادة ٢٧٠ ، ص ١١٤ مادة ٥٤٠ ، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٤ ، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٣ ، ص ٣٢٠ مادة ١٣٦٤ ، وهى وثائق تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الأوربية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط فى مدينة الاسكندرية فى الفترة المذكورة ٠

الاسكندرية من الحملة الفرنسية
الى الاحتـلال البريطانى

بقلم : د. عبد العظيم رمضان

يمكن القول بمزيد من الثقة أن الاسكندرية لم تصبح فى العصر الحـديث جزءا لا يتجزأ من مصر على المسـتوى الجغرافى والاجتماعى والاقتصـادى والسـياسى ، الا فى عصر محمد على ، وبالتالى لم تنعم بمزايا الوحدة مع بقية القطر الا منذ عصر محمد على .

كانت الاسكندرية قد أخذت مع بداية العصر الحديث تفقد أهميتها بشـكل ثابت تحت عاملين : الأول ، اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصـالح الى الهند فى عام ١٤٩٧ ، وتحول الشطر الأكبر من التجارة بين أوروبا والهنـد الى طريق المحيط الأطلنطى ، مما أفقد الاسـكندرية أهميتها كطريق بين الغرب والشرق ، ومسـتودع للمتاجر ، الأمر الذى أدى الى اضمحلالها تدرجيـا .

ثانيا ، الفتح العثمانى لمصر . فقد انتهج العثمانيون سياسة عزل مصر عن العالم الخارجى ، خوفا من خطر الاستعمار الغربى ، وعزفوا لذلك عن احياء طريق الشرق حتى لا يأتى الاستعمار فى أعقاب التجارة ! وقد ذهبوا فى ذلك الى حد فرض تقليد جديد يقضى بمنع المراكب الأوربية من الدخول فى البحر الأحمر ، بحجة

أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز - وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر ٠

وقد أخذت أهمية الاسكندرية ، باعتبارها مدخلا الى مصر تتزايد ، مع تزايد اقتناع فرنسا بضرورة احتلال مصر ، احياء لفكرة فتح ميادين جديدة للاستعمار فى الشرق ، تعويضا لها عن مستعمراتها فى الهند الغربية من جهة ، ومن جهة أخرى للتدخل فى الهند وطرد الانجليز منها ، والقضاء على تجارتهم فى الشرق ٠

على أن الاسكندرية فى تلك الأثناء كانت قد انعزلت عن داخلية البلاد وعن القاهرة بسبب جفاف ترعة الاسكندرية ، وتوقفت الملاحة بها ، بعد أن كانت طريق المواصلات النيلية الى الثغر ٠ فقد أهمل الولاة الأتراك والبكوات المماليك شأن هذه الترعة ، حتى جفت ، وارتفع قاعها عن ضعف عمقها الأصلى ، فكان لا يدخلها الماء فى معظم السنين الا فى وقت زيادة النيل ، ثم تجف بقية السنة ٠ وكان أهل الاسكندرية يحتفلون بمجىء مياه الترعة ، ويخزنون الماء فى الصهاريج ، ويبتهجون بذلك بمثل ما يبتهج المصريون فى القاهرة بمهرجان وفاة النيل ٠

وقد كان بسبب جفاف مياه ترعة الاسكندرية ، أن تأثرت الحالة الاقتصادية تأثرا بالغا ، فقد كانت المتاجر الأوروبية تصل اليها من ثغور البندقية ومارسيليا وثغور السلطة العثمانية ، ثم تنقل منها الى رشيد بحرا فى المراكب المصرية المعدة للملاحة فى النيل ، وتمضى فى فرع رشيد الى القاهرة ٠

وقد أثر ذلك بدوره على حالتها الاجتماعية ٠ فقد كان تعداد شعب الاسكندرية أثناء فترة وجود الحملة الفرنسية يبلغ - وفقا لجراتيان لوبير - ثمانية آلاف نسمة فقط ، ثم تناقص الى سبعة

آلاف عند جلاء الفرنسيين ، ولم يكن هذا الشعب يتكون من مصريين فقط ، بل كان يتكون من أتراك ومغاربة وأروام وسوريين ويهود ، ومن بعض المسيحيين من الأوروبين ٠

وفى الوقت نفسه فقدت الاسكندرية أهميتها العلمية ، فلم يظهر بها عدد يعتد به من العلماء المبرزين كما كان الحال بالنسبة للقاهرة التى كان فيها الجامع الأزهر ٠ بل ان بعض علماء الاسكندرية كانوا يذهبون سنويا الى الجامع الأزهر للدراسة ٠

وعلى المستوى السياسى كانت الاسكندرية تقع تحت السيطرة المباشرة للدولة العثمانية ٠ فقد كانت الحكومة العثمانية تعتبر الاسكندرية الى ذلك العهد تابعة لها مباشرة ، فكانت تعين حاكمها ، ولم يكن للولاة أى نفوذ فيها ٠

كانت الاسكندرية أول مدينة مصرية احتلتها الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت ، وهى فى الوقت نفسه أول مدينة عربية اسلامية من بلاد الدولة العثمانية تتعرض لغزو عسكرى أوروبى مسيحى فى التاريخ الحديث ، وقد حرص بونابرت على أن يؤكد الصفة الاسلامية للمدينة ، فقد أعلن أنه لم يأت لمحاربة السلطان العثمانى ، وانما أتى لمحاربة السناجق (المماليك) « الذين يختصون بأحسن ما فى البلد من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة » ٠ وفى الوقت نفسه أعلن احترامه « للدين الاسلامى ولنبيه العظيم والقرآن الكريم » ٠ كما ذكر المصريين بمجدهم القديم « الذى ما أزاله الا الظلم والطمع من المماليك » !

وبذلك كان منشور بونابرت ، الذى أذيع فى الاسكندرية يوم ٢ يولية ١٧٨٩ ، أول منشور لفاتح أجنبى يتحدث عن حكم

المصريين أنفسهم بأنفسهم • كما أنه أول منشور يستثير الروح القومية المصرية بما أشاد من عظمة مصر ومكانتها السابقة •

ولكى يثبت بونابرت فكرة حكم المصريين أنفسهم بأنفسهم بادر عقب احتلاله الاسكندرية بدعوة مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته ، وطارحهم الرأى فى اصلاح البلاد ، ورد الى السيد محمد كريم سلاحه ، وقال له فى مجلس من أعيان المدينة : « لقد استبسلت فى الدفاع عن المدينة ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، ولذلك فانى أعيد اليك سلاحك » •

على أن ظروف الحرب فى أثناء وجود الحملة الفرنسية جعلت الاسكندرية فى حالة شبه حصار بحرى دائم ، شل حركة السفن ، وعطل التجارة التى هى أكبر مورد لثروة الأهالى ، الأمر الذى أدى الى أن أخذ الكساد يضرب فى المدينة على نحو أثار التذمر والسخط على الاحتلال الفرنسى ، زاده سوءا ما فرضه بونابرت على المدينة بعد احتلالها من غرامة حربية قدرها ١٥٠ ألف فرنك ، وتجريده أهل الاسكندرية من السلاح ، وفرض الشارة المثلثة الألوان فوق عماماتهم ، مما كان يجعل منظرهم غريبا ، الى غير ذلك من الفروض •

وجرى ذلك فى الوقت الذى لم يستطع الجنود الفرنسيون كبح جماح أنفسهم من الخروج على النظام وارتكاب السرقات ، الأمر الذى أثار حفيظة الأهالى عليهم ، وقد حاول كليبر استرداد النظام عن طريق اصدار منشور الى الجنود يحذرهم فيه من ارتكاب هذه الحوادث ، ويقرر أن كل من يتسلق بيتا من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لأى سبب من الأسباب ، يعد سارقا ويحكم عليه بالاعدام ، وكل من يستخدم الأسلحة النارية فى صيد الحمام داخل المدينة ، ويعرض حياة الناس للخطر ، يعد قاتلا ويحكم

عليه بالاعدام · وكل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد أثناء صلواتهم أو وضوئهم ، يعد محرضا على الاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام ·

على أن روح الكراهية للفرنسيين لم تلبث أن أخذت تسفر عن نفسها ، وتبين ذلك حين أمر كليبر بتسيير كتيبة من الجنود تجوب بعض جهات مديرية البحيرة ، واختار الجنرال دوموى Dumuy ، فكانت تتعرض للهجوم من الأعراب بشكل متزايد فى طريقها الى دمنهور ، ولما دخلت المدينة لقيت بها تمردا شديدا ، فعادت الى الاسكندرية بعد أن خسرت ثلاثين ما بين قتيل وشريد ·

وقد لاحظت القيادة الفرنسية ان البلاد التى بها الكتيبة الفرنسية كانت تعلم بقدومها من قبل وصولها ، وكانت مستعدة لاستقبالها بالمقاومة ، الأمر الذى دل على أن مخابرات سرية قد جرت بين الاسكندرية وبين تلك البلاد قبل قيام الكتيبة - واتجهت شبهاتها الى حاكم المدينة السيد محمد كريم ، فأمر كليبر باعتقاله ونقله الى ظهر البارجة « لوريان » · يوم ٢٠ يولية حتى يبت بونابرت فى مصيره ·

وفى نفس يوم الاعتقال جمع كليبر أعيان المدينة ، وطلب اليهم أن يختاروا حاكما للمدينة بدلا من محمد كريم الذى اعتقل للريبة فى اخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وقد وقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى ، وكان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء المدينة يعاونه فى عمله ·

وقد أقر بونابرت عمل الجنرال كليبر ، على أن قائد الأسطول « برويس » Brueys أطلق سراح محمد كريم ، وبعث به الى رشيد ، ليبعث به الجنرال مينو من هناك الى القاهرة · على أنه

لم يكد محمد كريم يصل الى رشيد حتى سارع أهل المدينة الى ملاقاته بالحفاوة والتكريم ، بعد أن عظمت منزلته بسبب اعتقاله • وهنا أعاد مينو القبض عليه ، وكتب الى كليبر يقول : « لقد ألقيت القبض هنا على السيد محمد كريم الذى أطلق سراحه من البارجة « لوريان ، وسأبعث به غدا الى القاهرة مخفورا بقوة كافية » •

وقد أرسل محمد كريم بالفعل الى القاهرة على سفينة من سفن الجيش أقلعت به من رشيد يوم ٤ أغسطس ووصلت يوم ١٢ أغسطس مساء ، وتولى الجنرال دوبوىDupuy حاكم القاهرة التحقيق ، فاستجوبه فى التهمة الموجه اليه ، وهى مراسلته لمراد بك وغيره من المماليك وعرب البحيرة • وانتهى التحقيق الى اثبات التهمة عليه ، فأصدر بونابرت أمره فى يوم ٥ سبتمبر ١٧٩٨ باعدامه رميا بالرصاص ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له بأن يفتدى نفسه بدفع غرامة ثلاثين ألف ريال فى أربع وعشرين ساعة • فلم يقبل محمد كريم دفع هذا المبلغ •

وقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة ، وقال له « انك رجل غنى ، فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟ » ، فأجابه محمد كريم : « اذا كان مقدورا أن أموت ، فلا يعصمنى من الموت أن أدفع المبلغ ، واذا كان مقدرا لى الحياة ، فعلام أدفعه ؟ » • وظل على اصراره الى أن نفذ فيه الحكم رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بعد عرض مثير ، فقد أركبه الفرنسيون حمارا ، وأحاطت به مجموعة من الجنود شاهرى السيوف ، ويتقدم حامل الطبلة الموكب يدق عليه وشقوا به حى الصليبة ، الى أن ذهبوا به الى الرميلة ، وكتفوه وربطوه مشبوحا ، وأطلقوا عليه النار ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على عصا طويلة ،

وطافوا بها فى جهات الرميلة والمنادى يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس » ٠

ومن الواضح أن محمد كريم كان العنصر الوطنى المحرك للمقاومة داخل الاسكندرية ، فبعد اعتقاله أخلد الأهالى الى السكينة وكفوا عن المظاهر العدائيـــة التى كانت تبدو منهم ٠ فقد كتب كليبر الى بونابرت يوم ٣١ يولية ١٧٩٨ يقول : « تسود الاسكندرية السكينة بعد اعتقال محمد كريم ، ولم تعد تنتشر اشاعات السوء المقلقة للخواطر والمثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل انســان على عمله » ٠ وقد تعزز مركز الفرنسيين فى الاسكندرية بعد ورود أخبار انتصار بونابرت فى معركة الأهرام يوم ٢١ يولية ١٧٩٨ . ودخوله القاهرة ظافرا ٠

وسرعـــان ما جاءت معركة « أبى قير البحرية » لتغير مصير الحملة الفرنسية ٠ وكان الأسطول الفرنسى قد انتقل بعد انزال الجيش على شاطىء العجمى يوم ٢ يولية الى أبى قير يوم السبت ٧ يولية، بعد أن تبين للأميرال برويس أن الميناء القديم للاسكندرية لا يسع دخول البوارج الكبيرة ، وأن نصف الأسطول سوف يظل خارج الميناء ، وفى الوقت نفسه فانه سوف يكون مقيد الحركة ، حيث يمكن للأعداء الانجليز سد الميناء بوضع مركب واحد على منافذه ٠ وقد استقر رأيه على خليج أبى قير ، التى كانت تمتاز بتوسط موقعها بين الاسكندرية ورشيد ، وسهولة رسو الأسطول بها وانزال المهمات والمدفعية الى البر ، والاتصال بالجيش الزاحف على القاهرة عن طريق فرع رشيد ٠ وكانت خطته وضـــع قطع الأسطول على استعداد للقتال فى خط يبدأ بالقرب من جزيرة أبى قير ، الموجهة لقلعة أبى قير وبلدة أبى قير نفسها ، وينحنى على شكل قوس توزع القطع الحربية على طوله ٠ وكان هذا الترتيب قويا لولا أنه كان يتخذ مواقعه بعيدا عن الشاطىء بأكثر من ميل

ونصف ، أى بما يزيد بنصف ميل عن المسافة الواجب اتخاذها ؛ كما أن المسافة بين كل قطعة بحرية وأخرى كانت مسافة كبيرة بقصد مساعدتها على الحركة والدوران ، ولكنها كانت كافية أيضا لدخول سفينة أخرى من سفن الأعداء • ولم يكن الأميرال بروس يتوقع مهاجمة الأسطول الانجليزى له فى خليج أبى قير فور عثوره عليه ، وهو ناشر قلوعه ، لأن الأصول التى كان معمولا بها كانت تقتضى من نلسون أن يستطلع أولا موقع الفرنسيين ، ثم يصف سفنه فى خط قتال ، مما يعطى لبرويس الفرصة للاستعداد • وقد كانت كل هذه الأسباب هى التى أدت الى الكارثة التى أحاطت بالأسطول الفرنسى ، والتى انتهت بتحطيم سفنه كلها تقريبا ، وأسر الباقى ، ومقتل أميراله ، وخيرة رجاله ، ونحو أربعة آلاف من بحارته ، وبالتالى قضت على آمال فرنسا فى بسط سيادتها على البحر المتوسط ، وكانت أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية فى مصر •

وقد تأثرت الاسكندرية بمعركة أبى قير تأثرا كبيرا • ذلك أن الأسطول الانجليزى لم يلبث بعد انتصاره أن أخذ يشدد الحصار على شواطىء الاسكندرية وغيرها من الشواطىء المصرية ، فقطع كل المواصلات التجارية التى كانت مصدر ثروة الاسكندرية ، ونضب معين الجمارك ، فضاقت الحال ، واشتد الكرب بأهل الاسكندرية ، وزاد سخطهم على الفرنسيين •

ولكى يستميل الأهالى ، أنشأ كليبر فى الاسكندرية « ديوانا » على مثال « ديوان القاهرة » تكون له السلطة المدنية للحكومة • وكان بونابرت قد أرسل اليه فى ٢٨ و ٣٠ يولية ١٧٩٨ يأمره بتأسيس ديوان الاسكندرية على نسق النظام الذى رسمه لدواوين الأقاليم • وبالفعل قام كليبر بانشاء هذا الديوان

في ٢١ أغسطس ، وعين لرئاسته الشيخ محمد المسيرى ، وأصدر منشورا بذلك الى أهالى الاسكندرية فى نفس اليوم ٠

وكان الشيخ محمد المسيرى هو كبير علماء الاسكندرية ، وقد عرف عنه الاستقامة والعدل ٠ وحين أوصى كليبر أعضاء الديوان بالنزاهة فى عملهم والبعد عن الطمع فى أموال الناس ، رد الشيخ المسيرى قائلا انه اذا لاحظ فى أى عضو عدم الأمانة فانه يعتزل فورا رئاسة الديوان ٠ وقد طلب اليه كليبر أن يكتفى فقط بابلاغه ولا يحرم قومه ولا يحرم الافرنج من خدمته وعمله ٠ وكان بونابرت يقدره تقديرا كبيرا ، وقد كتب الى الجنرال مارمون Marmont فى ٢٨ أغسطس عام ١٧٩٨ يطلب اليه مقابلة الشيخ المسيرى لابلاغه كيف أنه احتفل بالمولد النبوى فى القاهرة ، وبأنه يجتمع مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف بالقاهرة بين الحين والآخر ، وأنه لا يوجد أكثر منه اعتقادا بطهارة وقدسية الدين الاسلامى ٠ وقد كتب الى الشيخ المسيرى من القاهرة رسالة يقول فيها : « لقد سرنى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وانك تعلم مقدار احترامى لك منذ عرفتك ، وأتعشم أن يجىء الوقت الذى أستطيع أن أجمع فيه عقلاء البلاد وعلماءها ، وأن أضع نظاما موحدا مؤسسا على مبادىء القرآن ، تلك المبادىء الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم » ٠ كذلك أخذ كليبر يقوم بزيارة محافظ المدينة ورئيس الديوان ويتودد اليهما ٠ ودعاهما مع أعضاء الديوان عنده احكاما لروابط الود معهم ، كما عين لكل من المحافظ وأعضاء الديوان وفرقة الشرطة مرتبات شهرية ٠

ولم يشأ كليبر ارهاق أهالى الاسكندرية بالضرائب ، وقد دخل بسبب ذلك فى خلاف مع بونابرت الذى طالبه بفرض ضريبة جديدة لسد نفقات الجيش وتقوية معدات الدفاع عن الاسكندرية وترميم البوارج البحرية التى نجت من كارثة أبى قير ، ولكن كليبر

اصر على ان هذه السياسة يمكن أن تودى الى مجاعة والى فتنة فى المدينة ، وتتناقض مع سياسة التودد الى أهالى الاسكندرية • وذهب فى اصراره الى عرضه على بونابرت اقالته من وظيفته ، ورشح الجنرال دوجا Dugua ليخلفه ، ولكن بونابرت تمسك به •

وحين سافر كليبر الى القاهرة لمقابلة بونابرت ، تولى الجنرال مانسكور Manscourt قيادة الاسكندرية ، ولكن بونابرت استدعاه لما ظهر له عجزه ، وعين الجنرال مارمون قائدا لها ، وظل فى هذا المركز الى أن رحل مع بونابرت الى فرنسا فى أغسطس ١٧٩٩ • ولكن صادفت مارمون صعوبات كبيرة ، أهمها ظهور الطاعون فى الاسكندرية ، ومحاولة حصره فى الثغر حتى لا ينتقل الى باقى القطر ، مما أدى الى صعوبة المواصلات بين الاسكندرية وبين بلاد القطر الأخرى ، وزاد من ضيق أهالى الاسكندرية •

وقد كان وقع كارثة أبى قير فى نفوس الجنود الفرنسيين فى الاسكندرية ساحقا ، بعد أن أحسوا بأن علاقتهم بفرنسا انقطعت ، وأصبحوا شبه منفيين فى القارة الأفريقية ، ولكن بونابرت استقبل الهزيمة برباطة جأش ، واستمر فى مشاريعه ينفذها كأن لم يحدث شىء ، وكتب الى كليبر يقول : « ان ما حدث سيضطرنا الى أن نعمل أعمالا أعظم مما كان فى حسباننا » وقد أخذ كليبر من جهته يجمع فلول البحارة الذين نجوا من الموت ، وعددهم نحو ثلاثة آلاف ، وأنشأ منهم فرقة جديدة سميت « الفرقة البحرية » ، وكلف الأميرال جانتوم Ganteume بأن يجمع بقايا السفن السليمة وينظمها من جديد ويكون قائدا لها ، وطلب الى مارمون تحصين سواحل الاسكندرية وحمايتها من السفن الانجليزية • وهذا ما قام به مارمون ، وتولى الكولونيل

كريتــان Grettin بناء قلعتين لصد هجمات البوارج الانجليزية ، القلعة الأولى بكوم الدكة ، والثانية بكوم الناضورة · وقد سميت قلعة كوم الدكة باسم كريتان ، تخليدا لاسم بانيها الكولونيل كريتان ، وقد قتل فى معركة أبى قير البرية · وسميت القلعــة كافريلــلى Caffarelli تذكارا لاســم الجنــرال كافريـــلى الذى قتل فى حصار عكا · كذلك بنى الفرنسيون قلعة بجزيرة العجمى مكان البرج القديم الذى كان بها ، ثم نصبوا المدافع على مدخل الميناء فى نهاية شبه جزيرة رأس التين ·

ومنذ ذلك الحين ، وبحــكم موقع الاســـكندرية من جهة ، وبحــكم الصراع بين انجلترا وفرنســـا من جهة أخرى ، أصبحت الاسكندرية على مدى تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر ميدانا من ميادين الحرب بين فرنسا وأوربا ، يأتى اليها الغزاة للاستيلاء عليها واتخاذها ركيزة للقضاء على القوات الفرنســية فى مصر ، خصوصا بعد ابرام المحالفة العثمانيــة الانجليزية فى ٥ ينــاير ١٧٩٩ لارجاع مصر الى الباب العالى ·

ففى فبراير ١٧٩٩ هجمت احدى الســفن الانجليزية على الاسكندرية ، وأمطرتها بقنابلها · وفى يوم ٢٥ يوليــة وقعت معركة أبى قير البرية بعد أن أعدت انجلترا والدولة العثمانيــة حملة كبيرة لاخراج الفرنســيين من مصر · وقد نزلت القــوات العثمانية الى شاطىء أبى قير يوم ١٤ يولية ، وعددها عشرة آلاف مقاتل ، فحاصرت قلعة أبى قير ، وهى القلعة القائمة الى اليوم فى نهاية شبه جزيرة أبى قير والمعروفة « بطابية البرج » ، وقد بنيت على الأرجح فى عهد السلاطين البحرية · وكانت الحامية الفرنسية ممتنعة فيها بقيادة القومندان جودار Godard وكان موقع القلعة منيعا لأنها قائمة على صخرة منيعة، وتحميها من الداخل استحكامات

فى مدخل شبه الجزيرة، فتحصن جودار فى المدخل ، وتولى الكابتن فيناش Vinache الدفاع عن القلعة ٠

وقد بدأت حصار أبى قير فى يوم ١٥ يولية ١٧٩٩ ، وتمكن العثمانيون من احتلال الاستحكامات ، وقتل الفرنسيين المدافعين ، ومن بينهم القومندان جودار ٠ ثم احتلوا القرية ، ولم يبق أمامهم سوى القلعة، ولكن الكابتن فيناش آثر التسليم، ونقله العثمانيون وجنوده الى ظهر بارجة انجليزية من أسطول السير سدنى سميث Sir Sidney Smith واحتل العثمانيون القلعة يوم ١٧ يولية ١٧٩٩ ٠

ولمواجهة هذا الخطر انتقل بونابرت الى الرحمانية فى يوم ١٩ يولية ، ثم اتخذ مقر قيادته فى الاسكندرية ، يوم ٢٤ يولية ، وفى مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربه وقوة الفرسان الذين كان يقودهم مورا Murat واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلو مترات غرب أبى قير ، وقضى الليل يرتب مواقع جنوده ٠ ثم نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يولية ، وهجم الجيش الفرنسى على مواقع الجيش العثمانى ، ورغم أن العثمانيين أصلوه بنار حامية ، الا أن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم واحكام هجومهم وكثرة عددهم خصوصا الفرسان ، فتمكنوا من سحق خطى الدفاع اللذين أقامهما الجيش العثمانى ، والتجأ مصطفى باشا ، القائد العثمانى ، الى قرية أبى قير ليستند الى القلعة ، ولكن الجنرال مورا هجم بفرسانه وحال بين القرية والقلعة ، فحصر مصطفى باشا وجنوده فى قرية أبى قير ، وانتهت المعركة بوقوع مصطفى باشا وجنوده فى أسر الجيش الفرنسى ، وفقد العثمانيون فى هذه الموقعة ثمانية آلاف ، وبلغ عدد أسراهم نحو ثلاثة آلاف ، وغنم الجيش الفرنسى مدافع الجيش العثمانى

وذخائره ، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلا ، وجرح منهم سبعمائة وخمسون •

وسرعان ما فرض الجيش الفرنسى الحصار على قلعة أبى قير التى كانت ما تزال تقاوم بقيادة ابن مصطفى باشا على رأس ثلاثة آلاف من الجنود ، واستمر القتال حتى يوم ٢ أغسطس حين نفذت ذخائر العثمانيين، واحتل الفرنسيون القلعة ، وأخذ مصطفى باشا أسيرا •

وقد كرم بونابرت الجنرال مورا ، قائد الفرسان ، على ما أبداه من بسالة ، ورقاه الى قائد فرقة ، وكذلك الجنرال لان Lannes وأمر بأن تسمى ثلاث من قلاع الاسكندرية بأسماء كريتان Crettin ودوفيفييه Duvivier وليتورك Leturcq ، وهم القادة الذين قتلوا فى المعركة ، فأطلق اسم « كريتان » على قلعة كوم الدكة ، واسم دوفيفييه على قلعة الركنة ، واسم ليتورك على قلعة القمرية (غرب القبارى) •

كانت هزيمة العثمانيين فى موقعة أبى قير البرية ، التى كان اقتصار دور انجلترا فيها على مساعدة الحملة العثمانية بأسطولها فى البحر المتوسط ، سببا فى أن انجلترا أخذت تفكر فى الدخول فى ميدان القتال برا واعداد جيش انجليزى يشارك الجيش العثمانى فى الزحف على مصر • وقد استقرت انجلترا على هذا الرأى بعد أن تكررت هزائم العثمانيين على يد القوات الفرنسية فى مصر فى كل الحملات التالية التى تلت موقعة أبى قير البرية • فقد هزمت الحملة العثمانية التى جردت على مصر فى أواخر شهر أكتوبر ١٧٩٩ ونزلت على شاطىء البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة فى يوم أول نوفمبر ، فقد هاجمها الجنرال فردييه Verdier

عند عزبة البرج يوم أول نوفمبر ۱۷۹۹ وانتصر عليها انتصارا كبيرا • ثم هزمت الجيوش العثمانية مرة ثالثة في موقعة عين شمس بعد نقض معاهدة العريش ، في ۲۰ مارس ۱۸۰۰ ، وتبدد الجيش العرمرم الذى جاء الى مصر بقيادة الصـدر الأعظم ليتسلم مقاليد الحكم في مصر بعد ابرام معاهدة العريش •

وعند ذلك قررت الحكومة الانجليزية الاشتراك في القتال برا ، واعدت خطة حربية لحملة انجليزية عثمانية مشتركة استغرق الاعداد لها عدة أشهر ، وبمقتضاهـا أقلعت في يوم ۲۲ فبراير ۱۸۰۱ بقيادة السـير أبركرمبي Abercromby ويصحبه بعض السفن العثمانيـة ونحو ستمائة جندى عثماني ، ووصـل تجاه الاسكندرية مساء أول مارس ، وفي اليوم التالى ألقى مراسيه في خليج أبي قير على مسافة سبعة أميال من الشـاطىء ، ولما كانت الريح عاصفة فلم يمكن انزال الجنود الا في يوم ۸ مارس • وقد تمكنت هذه القوات التي كانت تبلغ ستة آلاف جندى ، من هزيمة القوات الفرنسـية التي وصلت على عجل بقيـادة فريان Frian بفضل تفوقها العددى ، واضطر الفرنسيون بعد خسارة فادحة الى التقهقر ، واتخاذ مواقعهم على المرتفعات عند المندرة (بين سيدى بشر والمنتزه)، ولكن تقدم الانجليز بوم ۱۲ مارس أجبر الفرنسيين على الانسحاب حتى أطـلال قصر القيـاصرة ، أو معسـكر قيصر Camp de Cesar (كامب دى سيزار) عند النقطة المعروفة الآن بمحطة مصطفى باشا (وبهذا الاسم سميت احدى محطات رمل الاسكندرية ، ولكنها تبعد قليلا عن موقعه القديم) ودارت معركة على مقربة من مسجد سيدى جابر يطلق عليها المؤرخون الفرنسيون اسم معركة « نيكوبوليس » ، وهى تقع حاليا في الجهة المعروفة باسم بولكلي وما حولها شرقى مصطفى باشا حتى جليمو نوبولو • وذلك في يوم ۱۳ مارس ۱۸۰۱ • وقد هزم فيها الفرنسيون أيضا ،

ودخل الانجليز معسكر قيصر ، واتخذوا منه مركزا دفاعيا وقاعدة لاستئناف هجومهم ، ورابط جيشهم على خط يمتد من البحر الى بحيرة أبى قير (وهى غير موجودة الآن) وكانوا يسمونها « بحيرة المعدية » ، لاحراز السيطرة التامة على منافذ ترعة الاسكندرية .

فى ذلك الحين كان الجنرال مينو Menou الذى أصبح قائدا عاما للحملة الفرنســـية بعد رحيل بونابرت الى فرنســـا فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ومقتل خلفه كليبر فى يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠ ، قد وصل الى الاســكندرية يوم ١٩ مارس ١٨٠١ ليقرر مهاجمة القوات الانجليزية . وقد دارت المعركة يوم ٢١ مارس ١٨٠١ فى موقع يقع على مقربة من باب من أبواب الاسكندرية القديمة شرقى باب رشيد يسمى باب كانوب ، فسميت بمعركة « كانوب » ، وهى من أهم المعارك الحاسمة فى تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر، وقد منيت فيها القوات الفرنسية بالهزيمة ، وكان يقودها الجنرال رينييـــه Reynier والجنـــرال لانـــوس Lanausse والجنرال رامبون Rampon والجنرال رواز Roize وقد قتل فيها الجنرال لانوس والجنرال رواز والجنرال بودو Beaudot وكان من الجرحى الجنرال ديســتان D'Estaing والجنرال بوســـار Boussart . ولكن خسارة الانجليز كانت فادحة أيضا ، فقد قتل منهم قائد الجيش نفســـه الجنرال أبركرومبى ، والجنـــرال كـــوتCoot ومن الجرحى أوكس Oakes ولوسون Lawson والسير سدنى سميث وغيرهـــم .

ومن هنا تحتل هذه الموقعة فى تاريخ الانجليز موقعا ممتازا، يدل على ذلك أنهم أقاموا لها سنة ١٩٠١ نصبا تذكاريا بمناسبة مرور مائة عام على وقوعها ، يتمثل فى تمثال من المرمر منقوش عليه بالانجليزية أنه أقيم تذكارا للجنرال السير راف أبركرومبى

ورفاقه الذين قتلوا فى هذه المعركة ، التى يسمونها « معركة الاسكندرية » وهذا النصب أقيم فى منطقة محطة سيدى جابر على مقربة من ثكنات مصطفى باشا التى أنشأها الانجليز بعد الاحتلال البريطانى فى هذا المكان لأنها تذكرهم بانتصارهم الحربى .

وكان من نتيجة معركة كانوب أن ارتد الجيش الفرنسى الى أسوار الاسكندرية ، وأخذ مينو يستعد للدفاع عنها ، ولكن الجنرال هاتشينسون Hutchinson الذى خلف الجنرال أبركرومبى فى قيادة الجيش الانجليزى ، آثر فرض الحصار عليها ، ثم قام بخطوة خطيرة فى ١١ أبريل ١٨٠١ هى قطع سد أبى قير لعزل الاسكندرية عن بقية أنحاء القطر .

كان سد أبى قير يفصل بحيرة مريوط عن بحيرة أبى قير القديمة التى كانت تتصل بالبحر المتوسط بواسطة فتحة اسمها « المعدية » ، (وقد أسماها الفرنسيون لذلك باسم « بحيرة المعدية ») ، فلما قطع السد ، طغت مياه البحر التى كانت تغذى بحيرة أبى قير على بحيرة مريوط فى الجنوب ، فغمرتها بالمياه بعد أن كانت شبه جافة بسبب انقطاعها عن البحر بواسطة السد ، وخربت عددا كبيرا من القرى والبلاد بلغت ــ وفقا لجراتدان لوبير ثلاثين قرية ، وانقطعت المواصلات بين الاسكندرية وداخل البلاد ، وانحصر الفرنسيون داخل الاسكندرية ، ولم يبق لهم طريق صالح سوى طريق العجمى الى الصحراء الغربية .

وقد عانت الاسكندرية تحت الحصار معاناة شديدة ، وأصبحت مهددة بالمجاعة ، خصوصا بعد أن سقطت مخازن الجيش المليئة بالمؤن والذخائر وغيرها فى يد الانجليز ، وأخذ الانجليز يضيقون الحصار على الاسكندرية من ناحية الغرب لمنع العربان الذين يمدون مينو وجيشه بالمؤن والأغذية خلال شهر مارس

وأبريل . وعندما أخذت الأقوات تشح تدريجيا عمد مينو الى تنظيم توزيع المؤن على الجيش بقدر معين وبدقة بالغة ، واختص العمال المشتغلين بأعمال التحصينات بأكبر قدر . وفي أوائل يونية شحت الأطعمة لدرجة اضـــطرت مينو الى اخراج الأفواه العـاطلة من الاسكندريه ، وابعادهم الى الرحمانيه . ومند نهاية شهر مايو بدأت الأمراض الناجمة عن المجاعه تفتك بالاهالى وبجند مينو ، وامتنع ورود الافوات نهائيا ، فانعدم اللحم من الاسواق ، وصار الخبز يوزع على الجند والأهالى مخلوطا بالارز ، ثم اصبح الارز يوزع وحده ، ثم اختفى الارز بدوره ، وصار مستشفى الاسكندريه يغص بالمرضى .

ثم أخذ الموقف يزداد سوءا فى الاسـكندرية عندما سلمت القاهرة للانجليز ، الذى كانوا فى ذلك الحين قد تعزز جيشهم بمجيء جيش عثمانى برا من جنوب سوريا بقيادة يوسف باشـا ضيا ، يبـلغ عدده عشرين ألفـا ، زحف من العريش وانتصر على الفرنسيين يوم ١٦ مايو فى منتصف الطريق بين الخانكة وبلبيس فى معركة الزوامل ، ثم زحف الجيشان الانجليزى والعثمانى على القاهرة ، واستسلم الجيش الفرنسى فى القاهرة باتفاقية الجـلاء فى ٢٧ يونية ١٨٠١ ، وأبحرت بهم السفن الى فرنسا فى أوائل شهر أغسطس ١٨٠١ .

فقد قرر الانجليز بقيـادة الجنرال هاتشينسون تشـــديد الحصار على الاسكندرية عن طريق نقل حوالى خمسة آلاف جندى بقيادة الجنرال كوت Coot الى غرب الاسكندرية لاحتلال ساحل العجمى وقلعة العجمى ، لارغام الفرنسيين على توزيع قواتهم بين الشرق والغرب . وتم فى مساء يوم ١٦ أغسطس ١٨٠١ نقل أربعة آلاف جندى مع رجال المدفعية والمهندسين على سفن المدفعية التركية الصـغيرة التى دخلت بحيرة مريوط منـذ ١٣ أغسطس ، وتولى

الجنرال كوت القيادة العامة ، وفى الوقت نفسه كانت احدى البوارج الانجليزية قد تمكنت من الوقوف قريبا من رأس التين وبدأت فى قذف الاسكندرية بقنابلها • وفى ١٨ أغسطس بدأ هجوم الانجليز على حصن قلعة العجمى (أو حصن مرابط Marabou كما يسميها الفرنسيون) واستطاعوا أن يدخلوا الى ميناء الاسكندرية عددا كبيرا من الفرقاطات والسفن والقراويت والأباريق واتخذت موقعها قبالة الفرقاطات الفرنسية التى اضطرت الى الاحتماء داخل الميناء ، واعتقد الفرنسيون أن الانجليز يستهدفون انزال الجند عند رأس التين كتوطئة للهجوم على الاسكندرية، فعمدوا الى اغراق عدد من سفنهم واتخذوا منها جسرا وضعوا فوقه بطاريات مدافعهم ،واستمر القتال حتى يوم ٢٥ أغسطس حتى أذعن مينو لرغبة قواده فى الاستسلام •

وعلى هذا النحو دارت المفاوضات فى ظل أوضاع سيئة للقوات الفرنسية ، فقد كانت نسبتها الى القوات المحاصرة كنسبة واحد الى عشرة ، وكان للقوات المحاصرة أربعون بارجة مخصصة للحصار فضلا عن أن الأمراض كانت قد فتكت بالحامية الفرنسية، ونفدت الأقوات من المدينة وانقطع ورود المياه العذبة اليها • وفى يوم ٣١ أغسطس ١٨٠١ تم الاتفاق على شروط الجلاء عن الاسكندرية بين كل من اللورد كيث والجنرال هاتشينسون وحسين قبطان باشا والجنرال مينو ، وتقضى بجلاء القوات الفرنسية عن الاسكندرية وقلاعها وملحقاتها فى عشرة أيام ، وتسليم السفن الفرنسية ، ونقل الجنود الفرنسيين على سفن الحلفاء بأسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع ، مع تسليم باقى المدافع والذخيرة ، وأن يسلم أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرائط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها فى مصر •

على أن العلماء الفرنسيين رفضوا تسليم كنوزهم العلمية وهددوا باحراقها ، فسمح لهم باصطحابها معهم • وفي خلال شهر سبتمبر ١٨٠١ أخذت السفن المقلة للجنود الفرنسيين تقلع من الاسكندرية قاصدة فرنسا ، وكان عددهم ٧٢٠٠ من الجنود ، و ١٥٠٠ من البحارة ، و ١٤٠٠ من المرضى ، و ٦٨٠ من المدنيين ، وكان آخر من غادر الاسكندرية الجنرال مينو الذى أصيب بالطاعون فى أواخر أيامه فغادر الاسكندرية يوم ١ أكتوبر ١٨٠١• وبهذا الجلاء انتهت صفحة الحملة الفرنسية فى الاسكندرية خاصة ، وفى مصر عامة •

الاسكندرية فى عهد الاحتلال الانجليزى الأول :

بعد خروج الفرنسيين من مصر تنازعت السلطة فى مصر ثلاث قوى هى : العثمانيون ، والانجليز ، والمماليك • وبالنسبة للعثمانيين كان يوجد فى ميناء أبى قير أسطول عثمانى بقيادة حسين قبطان باشا ، يتكون من نحو ستة آلاف جندى يحتلون المواقع القريبة من مرسى الأسطول • أما فى ميناء الاسكندرية فكان يوجد أسطول انجليزى بقيادة الجنرال هاتشنسون • وسرعان ما نشب الصراع بين العثمانيين والمماليك بعد أن انتهز العثمانيون الفرصة لاحكام سيطرتهم على مصر ، واضطر المماليك الى طلب مساعدة الانجليز فى هذا الصراع • وقد شهدت الاسكندرية جانبا من هذا الصراع حين دبر حسين قبطان باشا مؤامرة للمماليك فى أوائل أكتوبر ١٨٠١ ، استدعاهم بواسطتها الى زيارته بمعسكره فى أبى قير للاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم ، حيث كانت تنتظرهم مذبحة قتل فيها عدد كبير منهم وسيق الباقون الى بارجة قبطان باشا واعتقلوا بها • وقد أثار هذا الحادث غضب الجنرال هاتشينسون وكادت الحرب تنشب بين الانجليز والعثمانيين ، فقد طرد الانجليز العثمانيين من

الاسكندرية ، وأغلقوا أبواب الأبراج ، وتوجهت قوة انجليزية لحصار قبطان باشا من البر والبحر • وانتهت الازمة بتسليم الأسرى المماليك الى الانجليز •

وفى الفترة التالية تقلص الوجود العسكرى الانجليزى فى مصر حتى انحصر فى الاسكندريه تحت قيادة الجنرال كافان Cavan اولا ثم الجنرال ستوارت Stewart ثانيا • ومع انه تم فى ٢٧ مارس ١٨٠٢ ابرام الصلح المعروف بصلح اميـن Amiens بين كل من فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا ، ومن شروطه جلاء الانجليز عن مصر ، الا أن الانجليز أخذوا يماطلون فى الجلاء ، الأمر الذى اضطر فرنسا الى ارسال الكولونيل سباستيانى Sebastiani الى الاسكندرية خلال شهر أكتوبر ١٨٠٢لمطالبة الانجليز بالجلاء • وأخذت تلح فى هذا الجلاء حتى قررت انجلترا سحب قواتها من الاسكندرية • وعندما أبلغ الجنرال ستوارت زعماء المماليك أوامر حكومته بجلاء القوات الانجليزية ، وقع هذا الخبر عليهم وقع الصاعقة ، لأنهم كانوا ينظرون للانجليز كحماة لهم •

وفى يوم ١٤ مارس ١٨٠٣ كان الجنرال ستوارت قد أتم استعداداته للجلاء ، ثم سلم قلاع الاسكندرية وأبراجها الى خورشيد باشا محافظ المدينة يوم ١٤ مارس ١٨٠٣ ، وأقلع الأسطول الانجليزى يوم ١٦ مارس يقل الجنود الانجليز وعددهم ٤٠٠ر٤ جندى • وبذلك انتهى الاحتلال الانجليزى الأول •

الاسكندرية فى عهد الفوضى المملوكية :

كان بعد جلاء الانجليز عن مصر أن أصبح العثمانيون هم أصحاب الحول والطول فى الاسكندرية • وفى الوقت نفسه تجدد

القتال بين العثمانيين والمماليك ، وثارت الفتن فى الجيش العثمانى نفسه ، مما ترتب عليه فرار خسرو باشا ، الوالى العثمانى ، وتعيين طاهر باشا قائمقاما له ، ثم قتل هذا الاخير على يد الانكشاريه من جنوده ، وقامت الدوله العثمانيه بتعيين على باشا الجزائرلى واليا ، وجاء هذا الى الاسكندريه فى اوائل يوليه ١٨٠٢ بعد ان استولى المماليك على بقيه البلاد فيما عدا رشيد ٠ ثم سقطت رشيد فى ايديهم فى اغسطس ١٨٠٣ ، فاصبحت الاسكندريه هى المدينه الوحيده فى يد العثمانيين ، كما كان الحال فى المرحله الاخيرة من الحمله الفرنسيه ، واصبح عليها ان تخوض ظروفا قاسية أخرى ٠

ذلك أن على باشا الجزائرلى لم يلبث أن أخذ يعمل على تحصين الاسكندرية حتى لا تقع فى يد المماليك ٠ وقد قادته سياسته الحمقاء الى ارتكاب ما ارتكبه الجنرال هاتشينسون عند محاصرته الفرنسيين بقيادة مينو فى الاسكندرية ، فقطع سد أبى قير ، دون أن يعى أنه بذلك يحرم نفسه من المياه العذبة ٠ وكان المهندس السويدى « رودون » Rhodon قد قام باصلاح السد بعد جلاء الفرنسيين بتكليف من الباب العالى ٠

وقد كان لقطع سد أبى قير على يد على باشا الجزائرلى نفس الأثر التخريبى لقطعه على يد هاتشينسون ، فان مياه البحر المتوسط طغت على شمال البحيرة ، وخربت كثيرا من القرى والأراضى ، وأتلفت ترعة الاسكندرية (المحمودية حاليا) التى كانت تروى الثغر بالمياه العذبة ، فانقطعت المياه عن الاسكندرية ، وتعطلت المواصلات اليها ، فاشتد الضيق بأهلها ، واضطر الكثيرون الى النزوح عنها والهجرة منها ، وبعضهم – كما يقول الجبرتى – غادر مصر كلية ، فسافر الى أزمير ، وبعضهم الى قبرص ورودس ٠ ولم يبق بالاسكندرية سوى الفقراء والعجزة !

وفى نفس الوقت ، كان حكم الجزائرلى باشا فى الاسكندرية حافلا بالجور والظلم ، ومصادرات الناس فى أموالهم وبضائعهم ، وتسلط عساكره عليهم بالجور والخطف والفسق ، هذا الى جانب اهانته لأهل العلم ، حتى انه سجن الشيخ محمد المسيرى على قدره وعلمه. وفى الوقت نفسه، وفيما يتعلق بالأجانب فى الاسكندرية، فانه لم يحترم حقوقهم التى خولتها لهم معاهدات الامتيازات ، وأهان أعلامهم وشاراتهم الموضوعة على متاجرهم ومنازلهم ، وكان جنوده ينتهزون فرصة خروجهم للتدريب اليومى فى ساحة المنشية ، فيمرون بحى الأفرنج ، ويطلقون الرصاص على المساكن ووكالات القناصل ، حتى ضج هؤلاء بالشكوى ، وقرروا الانسحاب جميعا الى السفن الأجنبية الراسية بالاسكندرية ، بينما انسحب القناصل أنفسهم الى سفينة حسين قبطان باشا قائد الأسطول العثمانى ، الذى كان يساند خسرو باشا المعتقل بالقاهرة . ولم يقبل هؤلاء النزول الى الاسكندرية واستئناف حياتهم العادية الا بعد أن وعد على باشا الجزائرلى باحترام معاهدات الامتيازات.

على أن على باشا الجزائرلى لم يلبث أن غادر الاسكندرية فى ٢٦ ديسمبر ١٨٠٣ فى قوة تبلغ ٢٥٠٠ من المشاة و ٥٠٠ من الفرسان بدعوة من المماليك ـ الذين تظاهروا بالرغبة فى الوفاق ، لتولى الولاية فى القاهرة ، وكان غرضهم القضاء عليه ، والاستيلاء على الاسكندرية . وقد أفلحوا بالفعل فى قتله عند القرين ، بين بلبيس والصالحية فى ٢ يناير ١٨٠٤ ، ولكنهم لم يفلحوا فى الاستيلاء على الاسكندرية .

وقد حاولوا تكرار نفس الحيلة التى حاكوها لعلى الجزائرلى ، وذلك بدعوة أحمد خورشيد باشا ، الذى خلف على باشا فى حكم الاسكندرية ، الى القاهرة لتولى باشويتها ، وكان غرضهم خضوع الاسكندرية لباشوية القاهرة ، ولما كانت باشوية القاهرة بدورها

خاضعة لهم ، فسوف يتمكنون من تعيين حاكم للاسكندرية يكون طوع ارادتهم ٠

وقد لعبت السياسة الانجليزية دورا فى محاولة اقناع خورشيد باشا بذلك ، نظرا لأن هذه السياسة كان يهمها أن تكون الاسكندرية فى يد البكوات المماليك ، الذين كانت تعتقد أن فى وسعهم الدفاع عن الاسكندرية ضد أى غزو فرنسى متوقع فى ذلك الحين ٠ على أن خورشيد باشا عندما أدرك أن غرض المماليك الاستيلاء على الاسكندرية واخضاعها لسلطة حكومتهم فى القاهرة ، رفض أن يكون تسليم الاسكندرية ثمنا لهذه الباشوية ٠ وقد أقر الباب العالى خورشيد باشا حاكما للاسكندرية ، وأمره ألا يقبل دخول المماليك اليها ، وأن يحافظ على الاسكندرية ويحول دون دخول أية قوات اليها سوى تلك التى ترسلها له حكومته برا وبحرا ٠

على أن خطر المماليك لم يلبث أن زال ، بسقوط حكومتهم فى القاهرة على يد الثورة الشعبية التى انفجرت فى القاهرة بين ٨ و ١٣ مارس ١٨٠٤ ضدهم ، بعد تزايد مظالمهم على الشعب واعتداءاتهم عليه ، وهى الثورة التى أبرزت دور محمد على ٠ فعندما أراد عثمان بك البرديسى ، الذى أصبح صاحب السلطة فى القاهرة بعد تخلصه من منافسه محمد بك الألفى ، أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلا استثناء ، وكلف عمال الحكومة بجبايتها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين ، لكى يتمكن من دفع مرتبات جنوده ، ثار القاهريون ، واشترك معهم محمد على ، قائد الجنود الألبانيين ، فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة فى يوم ١١ مارس ١٨٠٤ ، ففروا ، وعلى رأسهم زعيمهم عثمان بك البرديسى وابراهيم بك ، وسقطت قلعة الجبل فى يد محمد على ، وقتل من المماليك وجنودهم فى

ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين • وانقض الشعب فى رشيد ودمياط وسائر عواصم المديريات على الحكام المماليك ، فهربوا الى الصعيد ، وبذلك زالت دولتهم •

وقد وقع الاختيار بعد ذلك على أحمد خورشيد باشا ، حاكم الاسكندرية ، ليكون واليا على مصر ، بناء على اتفاق بينه وبين محمد على ، وأطلقت طابيات الاسكندرية مدافعها لاعلان ولاية خورشيد على مصر ، وغادر الاسكندرية الى القاهرة يوم ١٦ مارس ليصلها فى ٢٦ مارس ، وترك وكيله طاهر بك حاكما عليها ، وبذلك أصبحت الاسكندرية تحت حكم باشوية القاهرة ! وقد تثبت ذلك عندما وصل خورشيد باشا فرمان تنبيت الولاية فى ٢٨ ابريل ١٨٠٤ •

على أن وقوع أحمد خورشيد باشا تحت سيطرة محمد على ، الذى كان يميل الى فرنسا ، لم يلبث أن دعا السياسة الانجليزية الى التفكير فى مشروع يقضى باحتلال الاسكندرية لمنع وقوع غزو فرنسى محتمل على مصر ، وأصدرت تعليماتها الى الجنرال السير جيمس كريج James Craig فى البحر المتوسط فى ٢٩ مارس ١٨٠٥ بأنه فى حالة قيام الفرنسيين بأى عمل ضد مصر ، يصبح احتلال الاسكندرية أمرا ضروريا •

ولم يلبث أن زاد خوف السياسة الانجليزية من وقوع غزو فرنسى عندما استقر الأمر لمحمد على فى مصر بعد الثورة الجديدة التى نشبت فى أول مايو ١٨٠٥ ، وأطاحت بالوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا ، وأتت بمحمد على واليا على مصر بارادة الشعب فى ١٣ مايو ١٨٠٥ ، ثم جاء فرمان السلطان العثمانى فى ٩ يولية ١٨٠٥ بتثبيت محمد على فى الولاية ـ فقد أخذت السياسة

الانجليزية تتآمر مع المماليك الموالين لانجلترا بزعامة محمد الألفى ، لطرد محمد على من الحكم ، وعودة حكومة المماليك فى القاهرة ٠

وفى الوقت نفسه فان موافقة الحكومة العثمانية على تعيين محمد على لم يكن معناه الاطمئنان اليه أو نية التسليم له بالحكم ، اذ لم تلبث أن أوفدت قبطان باشا فى أسطول عثمانى يقل ٢٠٥٠٠ من الجنود لمراقبة الحالة والتدخل بما يثبت السلطة العثمانية ٠ وقد وصل هذا الأسطول الى أبى قير يوم ١٧ يولية ١٨٠٥ ٠ وفى أثناء وجود هذا الأسطول دبر المماليك هجوما على القاهرة فى ١٦ أغسطس ١٨٠٥ ، وهو يوم الاحتفال بوفاء النيل ، ولكن الهجوم فشل ، وأسفر عن قتل عدد كبير منهم ٠ وعندئذ شعر قبطان باشا بأن الأمر قد توطد لمحمد على ، فرحل عن البلاد فى أكتوبر ١٨٠٥ ٠

على أن الدولة العثمانية ــ مع ذلك ــ حرصت على استبقاء الاسكندرية تحت سيطرتها المباشرة، دون أن تسلم بها لمحمد على ٠ وكانت الاسكندرية فى فترة النزاع على السلطة فى القاهرة بين المماليك والباشوات العثمانيين ، وبينهم وبين محمد على ، قد ظلت معقلا للنفوذ العثمانى ٠ ذلك أن حاكم الاسكندرية طاهر بك كان هو وكيل أحمد خورشيد باشا الوالى العثمانى ، وفى يولية ١٨٠٥ حل محله أمين أغا فى حكومة الاسكندرية ٠ وقد سارعت الحكومة العثمانية الى اصدار فرمان بتثبيته فى حكومة الاسكندرية ٠ وقد استرعى هذا الاجراء نظر وكيل القنصل الفرنسى دروفتى ، فكتب الى حكومته فى ١٦ أكتوبر ١٨٠٥ يقول :

« ان صدور هذا الأمر من القسطنطينية بتعيين أمين أغا حاكما للاسكندرية « برا وبحرا » يشير الى أن الباب العالى انما يريد التمسك بهذا المكان مستقلا عن باشوية مصر » ٠ وكتب مسيت Misset ، القنصل البريطاني ، الى حكومته فى ٢٠ أكتوبر يقول

ان « فرمانا وصل من الباب العالى الى حاكم هذه المدينة ، المستقل عن باشوية مصر، بتعيينه فى حكم الاسكندرية وحصونها ، ويأمره بمنع أى جند من دخولها ، فيما عدا أولئك الملتحقين بخدمته هو نفسه • واذا قبل محمد على هذا الوضع ، فلا خوف علينا من علاقاته مع فرنسا ، ولكن لا يجب علينا أن نتوقع أنه سوف يسلم بحرمانه من ميناء كهذا له أهميته الكبرى لحكومته وبدونه يتعذر عليه تنفيذ تحقيق استقلاله عن الباب العالى بمساعدة فرنسا •

وفى الواقع أن القنصل البريطانى ميسيت كان فى ذلك الحين يسعى فى الاسكندرية لتهيئة الرأى العام الاسكندرى لقبول فكرة احتلال الثغر بقوات بريطانية ، وقد بذل محاولاته لكسب الشيخ محمد المسيرى الى جانبه ، نظرا لما عرف عنه من ميول فرنسية ، وقد كتب دروفتى الى الحكومة الفرنسية يخبرها بأن الهتافات تعالت فى الاسكندرية يوم ٤ يونية ١٨٠٥ « بحياة السلطان جورج » ! وكان بهتف بها العربان ، الذين وزع عليهم الوكلاء الانجلز المال ، لتحريك الشعب للهتاف بحياة ملك بريطانيا• كما أصاب ميسيت نجاحا فى مساعبه مع « الشوربجى » وعلاوة على ذلك فقد عمل مسست على استمالة السلطات الحاكمة فى الثغر وعلى رأسها أمين أغا حاكم الاسكندرية •

على أن الدولة العثمانية فى ذلك الحين كانت تستعد لسلب الانجليز كل ذريعة للتدخل ، عن طريق انهاء حكم محمد على فى مصر ، وتعيينه حاكما على سالونيك ، والاتفاق مع محمد الألفى لعودة حكومة المماليك الى مصر ، واسناد ولاية مصر الى باشا جديد يكون آلة فى يد المماليك كما كان الحال قبل الحملة الفرنسية ، وهو موسى باشا ، وتسمح للمماليك بشراء الرقيق وجلبهم الى

مصر بعد أن منعوا من ذلك منذ ثلاث سنوات ، وفرض هذا الحل بالقوة .

وهذا هو الذى تم فى ٢٤ يونية حيث أنفذت الحكومة العثمانية أسطولا على رأسه القبطان صالح باشا ، يتألف من أربع بوارج من ذوات الخمسين مدفعا ، وثلاث فرقاطات وثلاث قراويت ، عدا سفينة القيادة ، وهى الفرقاطة جوستيس Justice وعليها القبطان صالح باشا . جاء فى النشرة التى صدرت فى القسطنطينية فى ٢٦ يونية أن « الغرض من ذهاب القبطان باشا هو الوصول الى الاسكندرية والبقاء بها حتى يتنفذ الاتفاق فى صالح المماليك » . وقد وصل القبطان صالح باشا الى الاسكندرية فى ٢٧ يونية ١٨٠٦ ، وفى ١٩ يولية وصل موسى باشا ، وأرسل قبطان باشا الى محمد على يبلغه فرمان النقل والتغيير ، ويأمره بالذهاب الى سالونيك مقر ولايته الجديدة .

على أن الخطة فشلت ، فقد استعد محمد على للحرب ، واستند الى المشايخ والعلماء فى التمسك بموقعه ، فى الوقت الذى أخذ يبذل المساعى لدى قبطان باشا وفى القسطنطينية بالرشاوى ، وانتهى الأمر بالتوصل الى اتفاق يقضى بتثبيت محمد على فى الولاية فى مقابل أن يؤدى الى الباب العالى ٤٠٠٠ كيس ، وأن يجعل ابنه ابراهيم رهينة بالاستانة حتى أداء هذا المبلغ ، وبالفعل وصل قرار الباب العالى بتثبيت محمد على فى الولاية يوم ٥ أكتوبر ، وفى ١١ نوفمبر ١٨٠٦ بارح الأسطول العثمانى الاسكندرية .

على أنه يلاحظ فى الفرمان الجديد بتثبيت محمد على فى الولاية حرص الباب العالى على استمرار الاسكندرية منفصلة فى شئونها عن باشوية محمد علي ، وخضوعها فى ادارتها لاشراف

الباب العالى رأسا ، ثم ضبط ايرادات جمركها ، بالاضافة الى جمركى رشيد ودمياط ، لحساب القسطنطينية • أى بقاء الاشراف على أهم شئون الادارة بالاسكندرية فى يد الباب العالى •

على أن ذلك لم ينف حقيقة أن محمد على قد أصبح مثبتا فى حكم مصر مع ميوله الفرنسية ، الأمر الذى يهدد مصلحة انجلترا ، خصوصا بعد تحول الباب العالى الى فرنسا بعد الانتصارات التى أحرزها نابليون فى النمسا ، واعترافه بلقب نابليون الامبراطورى رسميا ، وترحيبه ترحيبا كبيرا بالسفير الفرنسى فى القسطنطينية سيباستيانى فى أغسطس ١٨٠٦ ، وتحرج الأمور بين تركيا وروسيا لدرجة تهدد بقيام الحرب بين الدولتين وهو ما أصبح متوقعا فى سبتمبر ١٨٠٦ ، وتوهم الانجليز أن مصر ستكون ثمن التفاهم الفرنسى التركى •

وعلى ذلك لم يكد يستقر الأمر فى يد محمد على ، ويبارح الأسطول العثمانى الاسكندرية فى ١١ نوفمبر ١٨٠٦ ، حتى أصدرت الحكومة الانجليزية تعليماتها الى قواتها فى صقلية لارسال حملة الى المياه المصرية لتنفيذ مشروع احتلال الاسكندرية ، لمنع الفرنسيين من وضع أقدامهم مرة أخرى فى مصر ، ولتمكين القوات الانجليزية أثناء وجودها بالاسكندرية من اعطاء تأييدها وحمايتها للقوى السياسية الموالية لها ، ويقصد بها المماليك من جماعة الألفى • وقد عين لقيادة هذه الحملة الميجور جنرال ماكنزى فريزر Mackenzie Fraser وكانت الأوامر التى صدرت اليه صريحة ، وهى أن الغرض من الحملة انما هو احتلال الاسكندرية فقط لمنع نزول الفرنسيين اليها ، وليس الغرض منها فتح مصر • وقد صدرت الأوامر بابحار الحملة فى ١٨ فبراير ، وأقلعت من مسينا فى ٦ مارس ١٨٠٧ ، ووصلت الى مياه الاسكندرية بعد ظهر ١٦ مارس ١٨٠٧ •

الاسكندرية وحملة فريزر :

وصف القنصل الانجليزى ميسيت الاسكندرية يوم ١٤ مارس ١٨٠٧ ، أى قبل وصول حملة فريزر بيومين ، بأنها ذات حامية على درجة كبيرة من الضعف ، ولا تبلغ ثلاثمائة رجل . وقال انه يمكن للأسطول الانجليزى أن يجد فى أبى قير مكانا ، ويستطيع الجنود النزول الى البر دون مقاومة ، لأن القلعة فى حالة تهدم وليس بها سوى عشرين من الجند فحسب ، ويمكن انزال عدد من ألف ومائتى جندى الى ألف وخمسمائة عند مرابط (العجمى) ، ويوجد بينها وبين الاسكندرية خط دفاع ممتد من الميناء حتى بحيرة مريوط يتألف من خندق وسياج من الأوتاد (متاريس) وتعززه قلعة الحمامات من جهة اليسار ، وبطارية من مدفعين فى الوسط ، وبطارية من مدفع واحد من جهة اليمين .

وتحدث عن ثمرة نشاطه مع مشايخ الاسكندرية ، ونجاح مساعيه لجذب الشيخ المسيرى ، فقال انه يذكر بارتياح أن الشيخ محمد المسيرى ، وهو رجل متمتع بنفوذ لا حد له على سكان المدينة ، قد أرسل الى فى هذا الصباح (٢٥ مارس) يجدد تأكيداته التى أعطاها لى مرارا بأنه اذا حدث وغزا البريطانيون مصر ، فان أهل الاسكندرية سوف يتلقونهم بصدور مفتوحة ، وانهم أبعد ما يكونون عن مقاومتهم .

كان حاكم المدينة هو أمين أغا ، ولم يكن يظهر ميلا للاعتراف بسلطان محمد على بعد أن وصل الى الولاية رغم ارادة الباب العالى ، وكان يخشى أن تسقط المدينة فى قبضة الأرنؤود (الألبانيين) فينهبونها ويعيثون فيها فسادا . وكانت الطبقة ذات النفوذ فى الاسكندرية من التجار الذين لا يعنيهم سوى ضمان مصالحهم التجارية وأمنهم على أموالهم وأشخاصهم . ولم يكونوا

يعرفون عن حكومة محمد على فى القاهرة الا ما صار يبلغهم عنها ويذاع فى المدينة من قصص عن اعتداءات الجند على القاهريين ، والمذابح المتكررة التى وقعت بالقاهرة خلال العامين السابقين . ولذلك آثر الاسكندريون أن يظلوا فى شبه عزلة عن سائر أهل البلاد ، وصار لا يربطهم بهم أى شعور من المصلحة المشتركة ، ولذلك فانهم كتبوا الى القسطنطينية بايعاز من « ميسيت » يطلبون منها ابقاء مدينتهم خارجة عن نطاق باشوية القاهرة ! وهو ما استجابت له القسطنطينية على الفور .

ومن الطبيعى فى مدينة كالاسكندرية لا تخضع لباشوية القاهرة ، ولا يشعر أهلها بوجود روابط بينهم وبين سائر مواطنيهم ، أن يكون خوفهم الأول من الأرناؤود ومحمد على ، وأن يعتقدوا بأنه اذا حدث الغزو الأجنبى ونزل الغزاة بمدينتهم فان ذلك يكون من مصلحتهم يعود عليهم بالنفع المحقق من حيث زيادة نشاط الحركة التجارية .

وهذا يفسر موقفهم من الحملة الانجليزية ، فعندما صدرت أوامر السلطان الى محمد على بمقاومة الانجليز اذا حاولوا النزول فى البلاد ، أرسل طائفة من الجند الأرنؤود بقيادة سليمان أغا بطريق النيل الى الاسكندرية من أجل الاشتراك فى الدفاع عنها — وقد وصل سليمان أغا بجنده الى أبى قير فى ١٤ مارس استعدادا لدخول الاسكندرية . ولكن الأهالى قاوموا مجىء هذا الجند مقاومة شديدة ، وتصوروا أن المدينة اذا دخلها الأرنؤود فسوف تسود فيها الفوضى ، وتنهب متاجرها وأموالها ولا يأمن أحد من سكانها على حياته ، وهرعوا الى تسليح أنفسهم لمنع دخول الأرنؤود الى مدينتهم بالقوة . وتزعم حركة المقاومة الشيخ محمد المسيرى ، والتف حوله أعيان الثغر ، وذهب بهم الى أمين أغا يطالبه بتأمين

مصالحهم . وقد أظهر أمين أغا عزمه على مقاومة أوامر محمد على بالقوة . وكتب « دروفتى » يقول ان سكان الاسكندرية جميعهم قد تسلحوا فى ليل ١٤ مارس لدفع الأرنؤود اذا حضروا ، وان أمين أغا يؤكد انتفاء الحاجة الى هؤلاء الجنود ، حيث أن أهل الاسكندرية فى وسعهم وحدهم الدفاع عنها . وعلى ذلك فما ان وصلت مراكب الأرنؤود الى الميناء القديم فى صبيحة يوم ١٥ مارس ، حتى وجد هؤلاء أبواب المدينة مغلقة ، والأسوار محصنة ، والأهالى على قدم واحدة لردهم بالقوة . فاضطرته القوة للانسحاب الى رشيد ، وأبلغ أمين والمشايخ حكومة القاهرة بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم من مصر ، لأنهم اذا كثروا فى البلد تأتى منهم ألوان الفساد والافساد !

على أنه فى اليوم التالى ١٦ مارس كانت السفينة الانجليزية الحربية « ويزارد » Wizard تصل الى الاسكندرية ومعها سفينة أخرى ، ونزل منها ضابطان أبلغا أمين أغا أن العلاقات قد قطعت بين انجلترا وتركيا ، وأن أسطولا انجليزيا وصل ، وطالبا بتسليم الاسكندرية طوعا . ولكن أمين أغا لم يسعه فى هذه المقابلة الرسمية الا أن يتمسك بما لديه من أوامر الباب العالى وهى أنه لا يمكنهم من النزول الا بمرسوم سلطانى . ثم طلب استشارة المشايخ ، وقد اشترك فى الاجتماع مع المشايخ الضابطان الانجليزيان ، ولم يسفر الاجتماع عن قرار حاسم بالمقاومة .

وعلى هذا النحو استطاع فريزر انزال قسم من جنوده الى البر فى مساء ١٧ مارس دون مقاومة ، وذلك بالرغم من خطورة هذه العملية بسبب اشتداد الأنواء ، وعجز الانجليز عن ادخال سفينة قيادتهم (تيجر Tiger) فى الميناء القديم نتيجة لتسرب المياه اليها ، ورسو بقية قطع الأسطول على مسافة ميلين من

الشاطىء وحتى انه كان فى استطاعة الأسطول العثمانى الضعيف، الرابض على مسافة تقل عن أربعة أميال فحسب ، تحطيم السفن الانجليزية لو اشتبك معها فى معركة وقتئذ · ولكن مغامرة انزال الجنود البريطانيين الى البر مرت بسلام ، وانقضى ليل ١٧ مارس دون أن يلقى الانجليز أية مقاومة ·

ثم بدأ فى اليوم التالى الزحف ، فاقتحمت القوات الانجليزية ، التى نزلت فى مكان يبعد أميالا قليلة الى الشرق من مرابط (العجمى) ، خطا من المتاريس ممتدا من قلعة الحمامات (بين مرابط والميناء القديمة) الى بحيرة مريوط ، تعززها - ثلاث بطاريات من المدفعية الخفيفة ، عدا بطاريات قلعة الحمامات وهى من ثلاثة عشر مدفعا ، واستطاعت بعد اشتباك الوصول الى باب عامود بومبى (السوارى) حيث وجدوا الحامية به مستعدة لملاقاتهم ، والباب محصنا ، والأسوار خلفها الجند والأهلون مسلحون · وعندئذ آثر الانجليز متابعة الزحف شرقى المدينة لاتخاذ مواقعهم فى البقعة التى احتلها جيشهم قبل ذلك يوم معركة كانوب (٢١ مارس ١٨٠١) فى حربهم مع مينو ، فوصلوها فى يوم ١٩ مارس · وبادر فريزر بارسال قوات لاحتلال قلعة أبى قير ، وفى اليوم التالى ٢٠ مارس وافق أمين أغا على التسليم بعد أن امتنع ثمانى وأربعين ساعة لكى يحمى نفسه من غضب حكومته ·

وقد تألفت شروط تسليم الاسكندرية من سبع مواد، فنصت المادة الأولى على احترام حقوق الملكية وتأمين أهل الاسكندرية على أموالهم وأملاكهم ، واحترام عقائدهم ودياناتهم وجوامعهم وقوانينهم · وفى المادة الثالثة استيلاء القوات الانجليزية على السفن العثمانية ومتعلقاتها (وقد استولى الانجليز على الفرقاطتين والقرويت العثمانية) وفى المادة الخامسة أصدار عفو شامل عن السكان بغض النظر عن مسلكهم فى الدفاع عن المدينة · وفى

المادة السادسة عدم اجراء أي تفتيش في منازل الأفراد حتى ولو كانوا من أعداء بريطانيا • وفي المادة السابعة أن تتسلم القوات البريطانية باب رشيد وقلعتي كريتان Crétin وكافاريللي Caffarelli وفي ليل ٢٠ - ٢١ مارس ١٨٠٧ تسلم الانجليز قلعتي كريتان وكافاريللي ، ولم يكلفهم الاستيلاء على الاسكندرية سوى ستة قتلى وثمانية جرحى فقط !

كان عدد رجال الحملة الانجليزية ٦٠٠٠ جندي ، بينما بلغ عدد رجال حملة الجنرال بونابرت نحو ٣٦ ألف جندي وأسطول من أعظم الأساطيل • ويرجع السبب في صغر الحملة الانجليزية الى أنها كانت تعتمد على المماليك داخل البلاد لمساندتها ، ولم تكن أهدافها تتجاوز احتلال الاسكندرية •

على أن تقديرات الحملة الانجليزية بالنسبة للمماليك لم تتحقق • فقد مات محمد الألفي ، زعيم المماليك ، قبل مجيء الحملة بأربعين يوما ، وتشتت أنصاره • وكان محمد على في صراع معهم في الصعيد ، وقد أبرم معهم الصلح ليتفرغ لقتال الحملة الانجليزية على أساس أن يترك الصعيد لهم ، وعاد الى القاهرة يوم ١١ ابريل ١٨٠٧ حيث عمل على تجريد جيش لقتال الانجليز ، كان يتألف من أربعة آلاف مقاتل من المشاة وألف وخمسمائة من الفرسان ، وسارت قاصدة الى رشيد بقيادة طبوز أوغلي ، نائب محمد على (وهو جد حسين رشدي باشا أحد رؤساء الوزراء السابقين) •

على أنه قبل أن يصل محمد على الى القاهرة كان فريزر ، تحت الحاح ميسيت ، وبالمخالفة لتعليمات حكومته ، قد أرسل حملة الى رشيد ، تحت الاعتقاد بأن جنود الحملة بالاسكندرية معرضون لخطر الموت جوعا اذا لم يحتل رشيد والرحمانية • ولكن

الحملة على رشيد ، وهى التى وقعت يوم ٣١ مارس ١٨٠٧ ، منيت بهزيمة منكرة ، وقتل من الانجليز ١٧٠ قتيلا وجرح ٢٥٠ ، وأسر المصريون ١٢٠ أسيرا ، وبادر على بك ، حاكم رشيد ، بارسال الأسرى الى القاهرة ، ومعهم رؤوس قتلاهم ، ليكون ذلك اعلانا بالنصر الذى حققته رشيد • وقد أراد فريزر أن يمحو أثر هذه الهزيمة فأرسل حملة ثانية الى رشيد قامت فى ٣ ابريل بقيادة الجنرال ستيوارت Stewart وضربت الحصار على رشيد ، واحتلت الحماد التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وبحيرة ادكو • واستمر الحصار والقتال حتى وصل المدد الذى أرسله محمد على ، ومنيت القوات الانجليزية بهزيمة كبيرة فى الحماد فى يوم ٢١ أبريل ، وبلغت خسارتها ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسير • واضطرت القوات البريطانية المحاصرة لرشيد أن ترفع عنها الحصار وتنسحب الى أبى قير ومنها الى الاسكندرية •

ومنذ ذلك الحين اعتصمت القوات الانجليزية بالاسكندرية وأخذت فى تحصينها ، ورأى فريزر أن يؤمن هذه القوات بقطع سد أبى قير لتطغى مياه بحيرة أبى قير على مريوط وتحيط المياه بالاسكندرية من جميع الجهات • فكانت هذه هى المرة الثانية التى يقطع فيها هذا السد على يد الانجليز ، ليتلف ترعة الاسكندرية ويمنع وصول مياهها الى الثغر ، ويخرب بلادا كثيرة فى جهات مريوط • أما المرة الثالثة فكانت على يد على باشا الجزائرلى •

وعلى كل حال فان الموقف فى أوروبا لم يلبث أن ضغط على يد بريطانيا للجلاء عن الاسكندرية ، فأرسلت تستدعى جيشها من الاسكندرية ، وأمرت الجنرال فريزر بالاقلاع بجنوده الى صقلية ، ففوض الجنرال فريزر الجنرال شيربروك Scherbrook فى الاتفاق مع محمد على على الصلح ، وتقابلا فى دمنهور ، التى

وصل اليها محمد على على رأس جيش من ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الفرسان المجهزين بمدفعية قوية . وهناك أبرم الطرفان معاهدة الصلح فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ ، وهى تقضى بجلاء القوات البريطانية عن الاسكندرية مقابل استرجاع الانجليز أسراهم وجرحاهم . وقد بادر محمد على بانفاذ أمره الى القاهرة لاحضار الأسرى على الفور ، وأخذ فريزر يعد معدات الجلاء وتسلم الأسرى . وفى يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ ، تم جلاء الانجليز عن الاسكندرية ، وبذلك طويت صحيفة الاحتلال الانجليزى الثانى ، وكانت مدته ستة أشهر .

وقد خدمت هذه الحملة علاقة الاسكندرية ببقية القطر ، التى كانت قد انقطعت خلال السنوات السبع السابقة ، بعد أن اعتبرها الباب العالى تابعة له تبعية مباشرة . فقد تمكن محمد على من ضمها الى جامعة الوطن ، ودخلها محمد على بعد جلاء الانجليز فى يوم مشهود أطلقت فيه مدافع القلاع والأبراج ، وكانت هذه هى أول مرة تطأ فيها قدم محمد على الاسكندرية فى يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٠٧ .

وقد بادر القناصل والأعيان وكبار التجار والمشايخ والعلماء ورؤساء الجند بتقديم التحية له ، وقام الباشا بزيارة المدينة وتحصيناتها وقلاعها ومخازنها ، وكان أول ما استرعى انتباهه خلو الخزانة بالاسكندرية ، فأمر بفحص حسابات الجمارك وسجلات احتكارات الصودا وأصناف السوائل ، وتبين من هذا الفحص أن الأموال المحصلة منها والتى كان يجب أن تمتلىء بها خزانة الحكومة بالاسكندرية ، قد بددت . ولذلك أخذ من التجار الأوروبيين بالثغر سلفة قدرها عشرون ألف ريال تقوم جمارك الاسكندرية بسدادها لأصحابها من ايراداتها .

وقد ترتب على جلاء الانجليز عن الاسكندرية أن غادرها كثير من أولئك الذين اعتقدوا أنهم صاروا موضع كراهة عظيمة بسبب صداقتهم ومعاونتهم للانجليز . وقد لجأ بعض هؤلاء الى البريطانيين حتى يحملوهم على ظهر سفنهم معهم ، بينما هاجر عديدون من سكان الاسكندرية ، مسلمين ومسيحيين على السواء ، ومن بين هؤلاء الأخيرين أسر لبنانية كثيرة ذهبت الى الشام ، ونزح قسم كبير من فقراء الاسكندرية الى الصحراء ليعيشوا مع البدو فى خيامهم . ومن بين من هاجروا من الاسكندرية الشيخ محمد المسيرى ، والشوربجى . وأما الشيخ ابراهيم باشا ، زوج كريمة الشيخ محمد المسيرى وأحد الموقعين على تسليم الاسكندرية الى الانجليز ، فقد آثر أن يقبل قدمى محمد على يطلب منه الصفح على الهجرة من الاسكندرية ، فعفا عنه الباشا ، وأمنه على حياته وخلع عليه فروة ثمينة .

والمهم هو أنه بانضمام الاسكندرية الى الولاية ، انفصمت تلك الحلقة القديمة التى كانت تربط الاسكندرية بالقسطنطينية . فقد كانت تعد حتى ذلك الحين بمثابة المنفذ الذى يبسط منه الباب العالى نفوذه على مصر كلما تسنى له ذلك ، والبؤرة التى يدبر فيها ضباطه ورجاله مكائدهم ضد الباشوات العثمانيين أو البكوات المماليك اذا قوى شأن هؤلاء وأولئك ، لتقويض سلطانهم ، والقاعدة التى يرسل اليها السلطان أساطيله بقيادة القبطان باشا تحمل واليا جديدا يحل محل محمد على فى حكم البلاد وأمرا بابعاده الى باشوية أخرى . فكان معنى انضمام الاسكندرية الى الولاية ودخولها فى نطاق باشوية القاهرة انعدام ذلك الاتصال المباشر بينها وبين مقر السلطنة ، وتعذر على أعداء الباشا وضباط الباب العالى أن يجدوا فى الاسكندرية وكرا يحيكون منه دسائسهم

ضد نفوذه وسلطانه . وكان من أثر ذلك أن اعتبر محمد على امتلاك الاسكندرية « فتحا » حقيقيا . وقد علق الشيخ الجبرتى على ذلك بقوله ان الباشا بجلاء الانجليز ، ودخول الاسكندرية فى حوزته ، قد « استقر واطمأن خاطره ، وخلص له الاقليم المصرى » .

الاسكندرية فى عصر محمد على وخلفائه :

كان استيلاء محمد على على الاسكندرية نقطة تحول فى تاريخها ، وبداية بعث الحياة فى هذه المدينة العظيمة ، بعد أن اندثرت أهميتها قرونا عديدة ، وانتقلت الى ميناء رشيد . فقد أدرك منذ البداية أهمية هذه المدينة ، وعمل على الفور على النهوض بها ، ووضع أسس تنميتها حتى أصبحت ثانية مدن القطر بعد القاهرة .

وقد بدأ فى عام ١٨٠٧/١٨٠٨ بانشاء « ديوان ملكى الاسكندرية » ، الذى هو أساس ما عرف فيما بعد باسم « محافظة الاسكندرية » . ولكن العمران فى المدينة كان يسير بطيئا ، ففى عام ١٨١٠ كانت المدينة ما تزال مدينة عربية الطابع ، وكان القليل من الأوروبيين فيها يشتغلون بالتجارة . أما المواصلات التجارية الداخلية بين الاسكندرية وبقية مدن القطر ، فكانت تجرى بطريق البحر من دمياط أو رشيد . وكان ذلك يسبب مشاق كثيرة لأهل المدينة والأجانب ، ولذلك لم يزد عدد سكان الاسكندرية كثيرا عما كان عليه عند دخول محمد على اليها ، وهو ثمانية آلاف نسمة تقريبا .

وقد أدرك محمد على أن الاسكندرية لن يتسنى لها النهوض الحقيقى طالما ظلت المواصلات بينها وبين بقية مدن القطر على هذا

النحو من الصعوبة ، ولذلك عمل على انشاء ترعة للملاحة تسير فيها السفن المشحونة بالغلال وغيرها من منتجات البلاد الى الاسكندرية عن طريق فرع النيل الغربى ، دون أن تمر بميناء رشيد ، ومن هنا كلف أحد المهندسين الأتراك ، وهو شاكر أفندى ، بشق ترعة المحمودية ، مكان ترعة الاسكندرية القديمة ، التى كانت الأتربة والرمال قد طمرتها ، على أن يكون مدخل الترعة عند قرية العطف • وقد بدأت أعمال الحفر فى ٢١ أبريل ١٨١٧ ، واستكملها مهندس فرنسى يدعى كوست Coste حتى انتهى العمل فيها في ديسمبر ١٨٢٠ • واحتفل بفتح فوهة الترعة ودخول مياه النيل الى الاسكندرية فى فبراير ١٨٢١ ، وسميت باسم « المحمودية » تيمنا باسم السلطان محمود الثانى العثمانى ، وأصبحت الترعة هى طريق المواصلات النيلية بين الاسكندرية وداخل البلاد •

وكان محمد على قد مهد لذلك باصلاح سد أبى قير القديم ، وسد فتحة بحيرة أبى قير بجسر من الأحجار ، لكى يقى ترعة المحمودية من طغيان مياه البحر اليها • ومنذ ذلك الحين أخذت بحيرة أبى قير تجف تدريجيا حتى صارت الآن أرضا زراعية •

وقد بلغ طول ترعة المحمودية ٨٠٢٥٢ مترا ، وقد جعل فى فوهتها فى البداية قناطر تمنع دخول المراكب من النيل اليها ، فكانت البضائع الآتية من القطر تنقل عند فوهتها الى مراكب أخرى من مراكب المحمودية ، وعند وصولها الى الاسكندرية تنقل الى مراكب البحر المتوسط • وفى سنة ١٨٤٢ أمر محمد على بازالة هذه القناطر وعمل هويسات فى مدخلها ومخرجها ، أحدهما صغير عرضه أربعة أمتار للمراكب الصغيرة ، والآخر كبير سعته ثمانية أمتار للمراكب الكبيرة ، وبذلك زالت الصعوبات الناتجة من نقل البضائع مرتين •

وقد بلغت نفقات حفر هذه الترعة ثلاثمائة ألف جنيه حسب تقدير كلوت بك . ولم يكن الغرض منها مجرد تيسير الملاحة بين الاسكندرية وبقية القطر ، أو حصول أهالى الثغر على كفايتهم من المياه فحسب ، بل كان الغرض أن تكون هذه المياه كافية لانشاء البساتين ورى الحقول والمزارع فى ضواحى الاسكندرية ، وعلى ضفاف الترعة . وبالفعل فعندما حفرت ترعة المحمودية كان عدد الأفدنة ذات الزراعة الصيفية أقل من أربعة آلاف فدان ، فزادت زيادة عظيمة حتى بلغت فى عام ١٨٤٩ ثلاثة أضعاف المساحة ، أى ١١٥٤٥ فدانا . وابتنى الأغنياء القصور وأنشئوا البساتين على ضفاف الترعة فى جهات كانت من قبل أرضا جرداء .

وقد اشترك فى حفر ترعة المحمودية نحو ٣١٣٫٠٠٠ من الفلاحين ، جىء بهم من مديريات البحيرة ، والغربية ، والشرقية ، والدقهلية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة . مات منهم عدد كبير دفنوا تحت أكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها ، بسبب قلة الزاد والمئونة وسوء المعاملة ، حتى ليذكر شاهد عيان هو المسيو مانجان Mengin أنه مات اثنا عشر ألفا فى مدة عشرة أشهر فقط !

والمهم هو أن حفر هذه الترعة يعد البداية الحقيقية لنمو المدينة الحضارية العمرانى والاجتماعى . لقد أخذ عدد السكان فى المدينة يتضاعف بعد عام ١٨٢١ ، فقد ارتفع فى الفترة من ١٨٢١ الى ١٨٤٠ الى ٦٠٠٠٠ ألفا ، وفى الفترة من ١٨٤٠ الى ١٨٤٨ ارتفع الى ١٤٣٫٠٠٠ نسمة على أقل تقدير . وفى عام ١٨٧٤ وصل الى ٢٧٠٫٠٠٠ نسمة .

وفى نفس الوقت أخذ الباشا يهيىء الاسكندرية لتكون المرفأ الوحيد الذى تستطيع أساطيله اتخاذه مكمنا آمنا لها .

فبعد موقعة نافارين البحرية (أكتوبر ١٨٢٧) رأى محمد على أن ينشىء أسطولا جديدا بأيد مصرية ، ومن هنا بدأت فكرة تأسيس ترسانة كبرى بالاسكندرية لبناء السفن الحربية ، واتخذ نواة لها الترسانة القديمة • وقد استعان محمد على لتحقيق هذا المشروع بمهندس فرنسى يدعى سيريزى Cerlsy وقد قدم الرسوم اللازمة لانفاذ المشروع الى محمد على فى ٩ يونية ١٨٢٩ ، وشرع من فوره فى اخراج المشروع الى حيز العمل ، وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١ بعد أن استدعى محمد على لبنائها عدة آلاف من الشبان والعمال من النجارين والحدادين والسباكين والمكانيكيين وغيرهم ، وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية ـ وأصبحت معهدا لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها وما يلزمها من آلات •

وفى نفس الوقت بدأ فى توسيع ميناء الاسكندرية وتعميقها وانشاء الأرصفة الجديدة بها (١٨٢٨ ـ ١٨٣٣) واستحضر لذلك الكراكات من أوروبا حتى صارت السفن ترسو على الشاطىء بعد أن كانت ترسو بعيدا عنه • كما أذن للسفن الأوروبية التجارية والحربية بالدخول فى الميناء القديم الغربى بعد أن كان غير مباح لها فى عهد المماليك أن ترسو الا فى الميناء الشرقى • وكان نتيجة ذلك اتساع الحركة التجارية فى هذا الميناء • كذلك أنشأ رصيفا داخل الميناء لرسو السفن عليه ، وملأ المتخلف بين الأرصفة والشاطىء بالأحجار والأتربة ، فاتسع الشاطىء ، وأنشأ فى ذلك الفضاء ما تحتاج اليه الميناء من المخازن وأبنية الجمرك ومساكن الموظفين •

كذلك أنشأ محمد على فى الميناء حوضا لترميم السفن مما لا تستغنى عنه الموانى الكبرى ، وقد تم انشاؤه فى سنة ١٨٤٤ •

كذلك أنشأ رصيفا للشحن فى الميناء ، ومد سكة حديدية تصل مستودعات البضائع والغلال بالرصيف لتسهيل نقلها الى السفن .

ولارشاد السفن القادمة الى الميناء والخارجة منها ، أنشأ بشبه جزيرة التين فنارا يعد من أبدع الانشاءات ، كما أنشأ مستشفى بحريا خاصا بالأسطول ، ومعسكرا بحريا لتعليم البحارة فى الجهة الشمالية الشرقية من رأس التين .

كذلك أصلح محمد على قلاع الاسكندرية وأنشأ غيرها للدفاع عن البلاد ، واستدعى من فرنسا لذلك مهندسا فرنسيا هو « جاليس Galice » وقد بلغ عدد حصون الاسكندرية فى سنة ١٨٤٨ ، ٢٥ حصنا ، كان أكبرها قلعة قايتباى ، التى كان عدد مدافعها ١١٠ مدافع .

وقد شهد عصر محمد على نزوح الأجانب بكثرة الى مصر عامة، والى الاسكندرية خاصة . ففى عام ١٨٠٠ لم يكن عدد الأجانب فى مصر كلها يتجاوز مائة نسمة ، ولكن هذا العدد ارتفع الى ٤٨٨٦ فى عام ١٨٣٣ ، ثم الى ٤٦ر١١٨ فى عام ١٨٩٧ ويرجع السبب فى ذلك الى سياسة محمد على ازاء الأجانب ، فقد ألغى ما كان متبعا من اجراءات ازاء المسيحيين من قبل ، اذ كانوا يمنعون من ركوب الخيل ، وارتداء الملابس ذات الألوان الخاصة بالمسلمين . وأذن للرهبان ببناء الأديرة ، كما أذن للكنائس بأن تدق نواقيسها ، ولرؤساء الطوائف باقامة القداس علنا . كما استخدم الكثيرين من الأجانب لتنفيذ مشروعاته العمرانية والعسكرية . ومن هنا تبدلت حال الأجانب فى مصر ، فتركوا حياة العزلة فى الأحياء المخصصة لهم ، وخرجوا من « الخانات » ليختلطوا بالأهالى .

وقد كان بعد حفر ترعة المحمودية أن تأسس بالاسكندرية عدد كبير من بيوت المال والأعمال التى تتولى تجارة الصادر والوارد ، من فرنسية ونمسوية وسويسرية ويونانية وغيرها ● وكان هؤلاء الأجانب من الرعايا الانجليز النازحين من جزيرة مالطة ● وقد مثلوا فى عام ١٨٣٣ أكثر من ٦٠ فى المائة من مجموع الأجانب بالاسكندرية (٣٠٠٠) ويليهم فى العدد التسكانيون ، ومعظمهم من اليهود (٥٠٠) واليونانيون (٤٠٠) والفرنسيون (٣٠٠) والنمسويون (٢٩٦) ● ثم أعداد قليلة من أهل مملكة نابولى وسردينيا وأسبانيا وسويسرا ، وكذلك الألمان والرومانيون وجزر البليار ●

وقد كان اليونانيون أول من بكروا بالمجىء الى مصر منذ عام ١٨١١ ، وتلاهم الفرنسيون الذين كثر عددهم عقب انهيار امبراطورية نابليون بونابرت ، أى منذ عام ١٨١٥، ثم الايطاليون، حتى كانت اللغة الايطالية هى اللغة الأجنبية الأكثر تداولا ● وكان هؤلاء الايطاليون يعرفون العربية ، كما كان عامة الأهالى فى الاسكندرية يتكلمون الايطالية ● وفى ذلك يقول رفاعة الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز » عند كلامه عن الاسكندرية ابان رحلته الى باريس ، ان أغلب السوقة بمدينة الاسكندرية يتكلم بشىء من اللغة الايطالية ●

وبشكل عام قام الأجانب فى الاسكندرية بنشاط من كل نوع ، وعلى رأسه النشاط التجارى ● وكان التجار الأوروبيون يقومون بجميع العمليات التجارية بين مصر وأوروبا ، وكذلك الملاحة فى ميناء الاسكندرية التى كانت فى يد الأوروبيين وحدهم وقد أورد بورنج Bowring فى تقريره الى الحكومة الانجليزية فى مارس ١٨٣٩ قائمة بأسماء التجار الأوروبيين المقيمين بالاسكندرية تضم ٧١ تاجرا ، وتضم بعض أسماء ليهود مرموقين

كما تضم أسماء كانت لا تزال معروفة في الاسكندرية أو في القاهرة الى عهد قريب ، مثل أفرينو Avierino اليوناني ولامبروزو Lumbroso التوسكاني وسكاكيني Sakakini الفرنسي وزيزينيا Zizinia اليوناني وزوغيب Zogheb التوسكاني . وفي هذا التقرير ذكر أن شطرا كبيرا جدا من تجارة مصر مركزه الاسكندرية ، فأغلب ما يصدر الى أوروبا مقصور على هذا الثغر .

وقد كان لوجود الأجانب في الاسكندرية بأعدادهم الكبيرة أثره على امتداد العمران بالمدينة ، وفي تحديد ذلك الاتجاه . ففي أول القرن التاسع عشر كانت المدينة تقتصر على حي الجمرك وحي المنشية تقريبا . وفي منتصف القرن كانت المدينة قد امتدت في اتجاهين : نحو الشمال ، لتشمل حي راس التين وحي الأنفوشي الحاليين ، ونحو الجنوب الشرقي قلب المدينة التجاري الحالي حتى شارع صفية زغلول وطريق الحرية وامتداده حتى شارع سيدي المتولي في الجنوب . وكانت معظم المباني والمنشآت التي أقيمت في هذه المنطقة خاصة بالأجانب . فقد سجل مولر Charles Muller في خريطته التي رسمها للمدينة عام ١٨٥٥ ثلاث عشرة قنصلية ، وأعدادا أخرى من الفنادق والمطاعم والمقاهي والكنائس الأفرنجية والمستشفيات الأجنبية ، وهذه كلها كانت مركزة في هذه المنطقة وحدها . ومنذ ذلك الوقت وهي قلب المدينة التجاري . ومن الثابت أن معظم الأجانب الذين وفدوا على الاسكندرية خلال عصر محمد علي كانوا يقيمون في قلب المدينة حول ميدان المنشية الذي خطط في عهده وشيدت المباني الأوروبية الطراز حوله :

ويرجـــع امتداد المدينـــة فى الاتجاهين الشمالى والجنوبى الشرقى الى منح محمد على الأوروبيين الأراضى على ضـــفتى ترعـــة المحمودية بعد حفرها ، فأقاموا عليها المنازل تحيط بها المزارع والحدائق ، ولا سيما على الضفة الشمالية ابتداء من موضع قصر أنطونيادس الحالى فى الشرق حتى حى كرموز الحالى فى الغرب •

وفى عام ١٨٣٥ ، وبسبب انتشار الطاعون ، ألف لجنـــة قنصلية صحية برياسة القنصل الانجليزى كامبل Campbell للنظر فى وســـائل تحسين الصحة العـــامة بالاســـكندرية ، وقد استطاعت اللجنة أن تقوم بأعمال مفيدة ، كهدم الأكواخ القذرة فى الأحياء الوطنيـــة ، وردم البرك والمستنقعات ، ونقل مدبغـــة الجلود من وسط المدينة ، وفتح طريق متسع من الحى الأوروبى الى الجمرك •

كذلك أنشأ محمد على « لجنة تنظيم الاسكندرية » للنهوض بالمدينة ونظافتها وتوفير الشروط الصحية لها • وقد قامت اللجنة بأعمال هامة ، فقد اهتمت بتسهيل الحركة فى الشوارع ، وتهوية المنازل ، وملاحظة المبـــانى القـــائمة أو التى يراد اقامتها • كما حصلت على نقل جميع الجبانات الى خارج أسوار الاسكندرية ، وكان لهذه اللجنة الفضـــل فى ادخال كثير من التحسينات على المدينـــة •

ومع أن عباس الأول ، الذى خلف محمد على (١٨٤٨ — ١٨٥٤) لم يكن من الحكام البنائين مثل محمد على ، الا أن اعتماده على انجلترا فى حماية الاستقلال الداخلى لمصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠/١٨٤١ دعاه الى اسناد الخطوط الحديدية فى مصر الى شركة انجليزية ، فوقع معها عقدا لانشـــاء خط حديدى بين

الاسكندرية والسويس ، نفذ فى عهده الجزء الواصل من الاسكندرية الى كفر الزيات (١٨٥٤) • وكان لانشاء هذا الخط أثر كبير فى عمران مدينة الاسكندرية ونموها وازدياد أهميتها •

وقد حظيت الاسكندرية فى عهد خلفه محمد سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣) برعاية خاصة ، اذ كان يحب المدينة ، وكان له قصر بالقبارى يقيم فيه • وفى عهده تم انشاء الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة ، كما طهرت ترعة المحمودية تطهيرا شاملا حتى ليعده البعض حفرا جديدا لها • وفى الوقت نفسه تم وصل الاسكندرية بالقاهرة بخطوط التلغرافات الحديثة •

وسرعان ما جاء عهد اسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ليقفز بالاسكندرية قفزة واسعة من التطور بفضل سياسته التى كانت تريد أن تجعل من مصر قطعة من أوروبا • فقد ازداد عمران الاسكندرية نتيجة لنمو التجارة الداخلية والخارجية بالمدينة ، ونزوح كثير من الأجانب اليها ، وتأسيس كثير من الشركات الأجنبية، وافتتاح فروع لشركات النقل والسفن والملاحة والمصانع، وفروع لبعض المصارف الأجنبية • وقد ازدادت نسبة النشاط التجارى فى الميناء الى ٩٤ فى المائة من الصادرات المصرية كلها فى الفترة من ١٨٦٣ الى ١٨٧٣ •

وكان من مظاهر العمران فى المدينة أن اختلطت بها شوارع وأحياء جديدة ، مثل ضاحية الرمل ، التى أنشأ بها اسماعيل قصر الرمل ، ووهب قطعا كثيرة من هذه الضاحية الى الأجانب ، فأقاموا عليها القصور الجميلة ، ومن هؤلاء الكونت زيزينيا – الذى ما تزال قطعة من الرمل تسمى باسمه حتى اليوم •

وكانت ضاحية الرمل هذه من قبل صحراء جرداء بها قرية صغيرة تسمى « الرملة » يسكنها عدد قليل من السكان ، وهى

احدى قرى أربع كانت تتناثر بالمنطقة هى : الخضرة ، والرملة ، والسيوف ، والمندرة . وعندما أخذت الاسكندرية ، بحدودهـا القديمة ، تضيق بسكانها ، أخذت تتجه بامتدادها شرقا حيث الأراضى المتسعة الرخيصة . وقد كان الأجانب أكثر تقديرا من المصريين لقيمة هذه الأراضى ، فأخذوا فى شرائها . وكانت القطعة التى تتراوح مساحتها بين سبعة وعشرة أفدنة تباع بعشرين قرشا .

وفى وسط المدينة كان هناك ميدان محمد على ، مركز التجارة الأوروبية فى الاسكندرية حيث تنتهي أهم شوارعها ، وقد أقامت المدينة فى هـذا الميدان تمثالا بديعـا من البرونز لمحمد على فى سنة ١٨٧٢ ، صنعه المثال الفرنسى « جاكمون » Jacquemont وكان قد عرض بمعرض باريس فى نفس العـام ، ونصب على قاعدة بديعة من الرخام الايطالى . وبالاضافة الى ذلك كان الميدان محاطا بالنصب التذكارية الجميلة والفنادق الفخمة ، والمتـاجر الغنيـة .

وفى نفس الوقت فان نمو المدينة كان قد صـاحبه انشاء المرافـق العامة كالمياه والنور الكهربائى والمجارى . ففى عام ١٨٦٥ منحت الحـكومة شركة « ليبون وشركاه » امتياز انارة الاسكندرية وضواحيها بغاز الاستصباح ، ثم عدل هذا الامتياز بمنح الشركة حق الاضاءة بالكهرباء .

وأصبحت الاسكندرية من أسبق مدن القطر المصرى فى انشاء المجارى تحت الأرض . فقد أنشئت أولى عمليات المجارى بها فى عام ١٨٧٨ ، وأخذ المشروع فى التوسع مع تزايد السكان .

وفى عهد اسماعيـل تم توصـيل المياه العـذبة من ترعـة المحمودية ، وتم توزيعها بواسـطة وابور مياه الاسـكندرية .

وكانت الشركة الأجنبية التى تأسست لهذا الغرض قد تأسست وأبرم العقد الأول معها فى عهد سعيد ، ثم تحرر العقد النهائى فى عهد اسماعيل .

ومن الشوارع التى خطها اسماعيل شارع ابراهيم الممتد من مدرسة السبع بنات الى ترعة المحمودية ، وشارع الجمرك ، وشارع المحمودية ، بالاضافة الى ستة شوارع أخرى ممتدة بين سكة باب شرقى والطريق البرى الذى كان يحيط بالمدينة . كما أوصل جهة الرمل بالمدينة بخط حديدى ، وجعلها مصيف القطر المصرى ، وفتح شارعا عظيما يمتد من باب رشيد الى حدود الملاحة بزمام المندرة ، مارا بالسراى الخديوية بالرمل ، طوله من باب شرقى الى السراى ٤٠٠ متر وعرضه ١٢ مترا ، ومن السراى الى الملاحة ٤٠٠٠ وعرضه ثمانية أمتار ، ومد طريقا من الملاحة الى ترعة المحمودية . كذلك أنشأ حديقة النزهة على ترعة المحمودية ، وجعلها متنزها هاما ، وبنى سراى الحقانية التى أنشئت بها المحكمة المختلطة . وبلغ سكان المدينة فى عهده ٢١٢٫٠٠٠ نسمة .

وعندما خشى اسماعيل مزاحمة بورسعيد بعد انشائها للاسكندرية ، وأن تتحول اليها التجارة الخارجية بعد أن قارب مشروع قناة السويس على التمام ، عمل على توسيع ميناء الاسكندرية لتجتذب اليها السفن . وكان أول ما بدأ به اقامة حوض عائم من الحديد لاصلاح السفن ، والحوض المبنى بالحجر من عهد محمد على الذى أصبح مع الزمن لا يفى باصلاح السفن كبيرة الحجم . وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا فى سنة ١٨٦٨ . ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذى يقى الميناء طغيان الأمواج ، ويجعل السفن الراسية به فى مأمن من العواصف ،

ولا يزال موجودا الى اليوم ، وهو جسر من الدبش والأحجار الضخمة ممتد من طرف شبه جزيرة رأس التين الى جهة العجمى ، وفيه البوغاز لمرور السفن منه • وأنشأ بداخل الميناء رصيفا للشحن والتفريغ ، وأرصفة أخرى ممتدة فى داخل الميناء • وقد تكلفت هذه الانشاءات ثلاثة ملايين جنيه ، وبدأ العمل بها فى ١٨٧١ وانتهى فى ١٨٧٩ • كذلك أنشأ عدة فنارات فى الاسكندرية ، أولها فنار العجمى سنة ١٨٧٣ وفنار حاجز الميناء سنة ١٨٧٦ ، وفنار القبارى سنة ١٨٧٧ •

وفى عام ١٨٦٣ افتتح اسماعيل الخط الحديدى من الاسكندرية الى موقع محطة بولكلى الحالى ، عن طريق جامع سيدى جابر ، وذلك بقطار يتكون من أربع عربات تجرها الخيول • ولم تلبث فى نفس العام أن استعملت قاطرة بخارية لجر العربات بدلا من الخيول •

فى ذلك الحين كان الأوروبيون قد أصبحوا جزءا من الحكومة فى المدينة ، وليسوا مجرد جزء من المجتمع الاسكندرى ، فقد اشتركوا فى الادارة ، وحظوا بنصيب من السلطة التنفيذية فى المدينة ، وقد أعيد تنظيم البوليس فى الاسكندرية فى عهد اسماعيل ، واستخدم البوليس فى المدينة خمسين رجلا من الأوروبيين أغلبهم من السويسريين • كما أنشئت المسارح فى الاسكندرية ، كمسرح زيزينيا •

وقد كان هذا هو الوضع فى الاسكندرية عندما قامت الثورة العرابية ضد الوصاية الأجنبية والحكم المطلق ، وانتهت بالاحتلال البريطانى •

المصادر التاريخية والأثرية لمدينة الاسكندرية المغمورة

الدكتور / حسين الشيخ

هدف ومنهج الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى تتبع المصادر التاريخية والأثرية التى تعاملت مع مدينة الاسكندرية القديمة ومعالمها الرئيسية ، مع التأكيد على منطقة الحزام الساحلى للمدينـــة ، وهى المنطقة التى قد يكون جزء لا يستهان به منها قد تعرض للغمر تحت مياه البحر المتوسط لأسباب عديدة سأتناولها لاحقا • وفى تتبعى لهذه المصادر ، لم التزم بتسلسلها التاريخى وانما بحجم المساحة التى أفردها كل مصدر للاسكندرية ، ومن هذا المنطلق يأتى سترابون فى المقدمة فقد عاش فى الاسكندرية قرابة ثلاثة أعوام (٢٤ ــ ٢١/٢٠ ق٠م ؟) بصحبة صديقه ايليوس جاللوس ثانى ولاة روما على مصر ، وترك لنـــا وصفا شاملا (الى حد كبير) للاسكندرية ، وتليه بعض المصادر التى تعاملت بشكل جزئى مع الاسكندرية مثـــل ديودوروس الصـــقلى وكاليسثينيس (بسيودو كاليسثينيس) وأريانـــوس ويوليوس قيصر واخيليس تـــاتيوس وفاليريـــوس ماكسيموس وأميانـــوس ماركللينوس وديون كاسيوس ثم نصـــل الى المجموعة الأخيرة من

المصادر والتى تعرضت للاسكندرية اما بشكل سريع أو عرضى مثل كسينوكراتيس من افروديسياس وبلوتارخوس وفيتروفيوس وبلينيوس واثينايوس وسينكا .

ويشوب التعامل مع هذه المصادر بعض الصعوبات خاصة فيما يتعلق بالتحديد الدقيق لبعض المعالم التى ميزت ساحل الاسكندرية القديم كالقصور الملكية والعديد من المنشآت العامة ، حيث ان خط الساحل الحديث قد اعترته العديد من التغيرات الطبوغرافية بسبب الترسيبات البحرية أو النحر أو انكسار التربة أو انزلاقها ، مما يجعل مطابقة الوصف القديم على الواقع الحديث أمرا بالغ الصعوبة ، الا أننى لجأت الى مقارنة المصادر بعضها ببعض ثم العودة الى الدراسات الحديثة التى تعاملت مع هذه المصادر ، ومع الأخذ فى الاعتبار نتائج الأبحاث الحديثة التى قام بها كل من جان أيف امبرور وفرانك جوديو ومحاولتهما استخراج بعض مما تبقى من الأجزاء المغمورة من معالم الاسكندرية قد يمكن لنا تحديد بعض المواقع على الساحل قد تكون واعدة ، فلربما أمكن فى المستقبل القريب انتشال بعض البقايا المغمورة التى قد تضيف جديدا الى تاريخ الاسكندرية القديم .

الدراسات السابقة :

تعتبر الاسكندرية من المدن القليلة التى حظيت باهتمام المؤرخين والجغرافيين والرحالة وعلماء الآثار منذ انشائها وحتى الآن ، واذا كان لدينا العديد من المصادر التاريخية والأثرية القديمة التى تعاملت مع الاسكندرية ، فلدينا أيضا فى العصر الحديث الكثير من الأبحاث والدراسات حول الاسكندرية ، وربما كان أقدم

هذه الدراسات الحديثة بحثين لجراتيان لوبير وسنت جيني تضمنهما كتاب وصف مصر عن آثار الاسكندرية وعن الاسكندرية الحديثة (في ذلك الوقت) (١) ، وتلى هذه الدراسة أول دراسة (شبه علمية) يقوم بها مصرى في الاسكندرية في أواخر القرن التاسع عشر وهو محمود بك الفلكي المهندس الخاص للخديو اسماعيل (٢) ، ثم دراسة نيروتسوس بك عن آثار وطبوغرافية الاسكندرية (٣) ، يلى ذلك دراسات عديدة قام بها بوتى ، أول مدير للمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية وأول من أجرى حفائر علمية (أو شبه علمية) في الاسكندرية في أواخر القرن التاسع عشر (٤) . ثم دراسة الكونت زغيب عن الاسكندرية القديمة (٥) ، تليها دراسة جاستون جونديه عن الموانىء الغارقة في الاسكندرية (٦) . وفى السياق نفسه تظهر بعد ثلاث سنوات دراسة رايموند ويل عن موانىء الاسكندرية (٧) ، تليها دراسة الأمير عمر طوسون عن تاريخ خليج الاسكندرية القديم (٨) ، ولا ننسى الدراسة القيمة لبيتر مارشال فريزر عن الاسكندرية فى عهد البطالمة (٩) ، ونصل فى النهاية الى أحدث الدراسات لأندريه برنارد عن الاسكندرية فى عصر البطالمة ، الى آخر دراسة له ظهرت هذا العام (١٩٩٧) عن الاسكندرية في العصور المتأخرة (١٠) .

لماذا تختفى المدن والمبانى ؟

تتم عملية اختفاء المدن اما بشكل فجائى سريع ، أو بشكل تدريجى بطىء ، أما العوامل التى تؤدى بهـا الى الاختفاء فتنحصر في فعل المياه وأثر الفيضانات ، أو الزلازل وثورات البراكين ، أو فى هبوب الزوابع والأعاصير المدمرة والرياح المحملة بالأتربة والرمال ، أو تدهور الأحوال الاقتصادية فى منطقة ما وانتشار

المجاعات والأوبئة ، أو بسبب التدمير الذى تحدثه الحروب والحرائق وغير ذلك من العوامل ٠

ولما كانت الكثير من المدن والمباني قائمة على ضفاف الأنهار أو شواطىء البحار والبحيرات فقد كان من المتوقع أن تهدد المياه مثل هذه المدن والمبانى عندما تفيض الأنهار أو يرتفع منسوب مياه البحر ، أو يحدث انزلاق للتربة مما بسبب تخلخل المبانى الواقعة على ضفة النهر أو البحر أو البحيرة فيؤدى بها الى الانهيار ، وقد تأثرت بهذه الظاهرة الكثير من مبانى غرب آسيا وما شابهها من مناطق ، وفى بعض الأحيان قد تصمد بعض المبانى اذا ما كانت مشيدة من مواد صلبة قوية ، ومثالنا هو معبد الاله سيرابيس فى مدينة بوتسوولى ـ الميناء القديم لمقاطعة كمبانيا بايطاليا ـ اذ تغمر المياه جزءا كبيرا منه على مدار السنة ٠ وقد يحدث ان يغير نهر ما مجراه فتنحدر المدينة أو المدن الواقعة على ضفافه فى مستواها الاقتصادى خاصة اذا ما كانت تستمد ازدهارها من تميز موقعها كما حدث فى مدينة (أور) فى العراق عندما غير نهر الفرات مجراه بعيدا عنها (١١) ٠

وقد يحدث أن يغور الساحل فتطغى مياه البحر على المنشآت القائمة عليه وتغطيها ، وهى ظاهرة واضحة على الساحل الأفريقى ، فالكثير من آثار الاسكندرية فى مصر ، ولبدة وسوسة فى ليبيا تختفى تحت سطح الماء ٠ وقد يحدث أن يرتفع منسوب سطح البحر بفعل الأعاصير أو الزلازل والبراكين فتختفى بعض الجزر أو المدن الساحلية مثل جزيرة سانتورين اليونانية (ثيرا القديمة) ، ومدينة هليكى اليونانية شمال شبه جزيرة البلوبونيز على ساحل خليج كورنثة (١٢) ، وكما تتسبب البراكين والزلازل فى ابتلاع البحر لبعض المدن أو الجزر أو المبانى ، فهى كذلك تدمر العديد من المدن

فوق سطح الأرض كما فعل بركان فيزوفيوس بمدينتي هيركولانيوم وبومبي عام ٧٩ م ·

وفي المناطق الجافة والصحراوية كثيراً ما تختفي المدن والمباني بفعل الزوابع والرياح المحملة بالرمال والأتربة والتي تسهم في عملية ردم المدن والمباني واخفائها عن الأنظار ، ومثالنا هنا هو أبو الهول بالجيزة بمصر والذى كان مختفيا تحت الرمال في القرن الخامس ق·م· حينما زار هيرودوت المنطقة ولم يأت على ذكره · وقد تتهدم المباني وتختفي اذا ما انتشر الجفاف والقحط والمجاعة أو تدهور الاقتصاد وساد الفقر ، وعندئذ ينزح الناس عن المدن الى أماكن أخرى كما حدث عندما هدد الأتراك مصر بغزو بحرى ــ كما يخبرنا الادريسي ــ فاقتلع الوزير النوبي قراجا والى الاسكندرية من قبل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الأعمدة المحيطة بعمود السوارى وقذف بها في الميناء الشرقية للمدينة في ١١٦٧ م فأصبحت ــ بذلك ــ الميناء غير صالحة لرسو السفن ، وتدهور حال الاسكندرية وهجرها غالبية سكانها حتى أعاد محمد على باشا بناء الميناء الغربية للمدينة فعاد للاسكندرية رخاؤها وازدهارها (١٣) ·

ثم هناك الحروب وما يستتبعها من تدمير وحرائق كما حدث في طروادة التي دمرها اليونانيون ، وقرطاجة التي دمرها الرومان والتي تؤدى الى هجر الانسان للمدن وبالتالى تدهورها ثم اختفائها تدريجيا ، وبمرور الوقت تتحول الى مجموعة من البقايا الأثرية مدفونة على عمق بضعة أمتار تحت سطح الأرض (١٤) ·

الآثار الغارقة (تحديد مواقعها وكيفية انتشالها) :

يرتبط علم الآثار بغريزة حب الاستطلاع عند الانسان ونزعته نحو معرفة المجهول ، ولذا فلم يكن غريبا أن نرى اهتمام القدامى

من مصريين وبابليين بالبحث عن كل ما هو قديم وله صلة بتاريخهم ، مثل الأمير المصرى حعمواس بن رمسيس الثانى وأشور بانيبال أشهر ملوك أشور فى القرن السابع ق.م الذى كان دائم البحث عن الألواح القديمة المنقوشة ليضمها الى مقتنيات مكتبته الشهيرة فى نينوى ، حتى ان الملك نابونيدس ملك بابل فى القرن السادس ق.م قام بعمل حفائر فى زكورة أور للبحث عما قد يكون بها من وثائق قديمة ، كما اشتهر يوليوس قيصر بولعه بجمع الآثار وبخاصة الأحجار الكريمة القديمة المنقوشة (١٥) .

وكما بدأ علم الآثار فى الازدهار مع مطلع القرن العشرين فقد زاد الاهتمام فى السنوات الأخيرة بالبحث عن الآثار الغارقة تحت سطح البحر ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية نظرا لغرق العديد من السفن الحربية والتجارية بما عليها من أسلحة أو كنوز ، وقد تكون هذه الآثار محملة على سفن قديمة غرقت لأسباب مختلفة أو أغرقت بفعل فاعل ، وقد تكون هذه الآثار مختفية تحت الماء بسبب زلازل أو براكين أو انزلاق للساحل أو ما شابه ذلك من العوامل السابق الاشارة اليها .

وتعتبر عملية انتشال الآثار الغارقة عملية معقدة الى حد ما لا يمكننا فيها ان نتبع نفس الطرق المستخدمة فى البحث عن الآثار المختفية تحت سطح الأرض ، فهى تتطلب أدوات خاصة واستعدادا بدنيا خاصا لدى المنقب الأثرى . وقد تلعب الصدفة دورا فى العثور على الآثار الغارقة تحت سطح الماء بواسطة الصيادين أو الغطاسين ، وقد يمكن تحديد موقعها بفضل كتابات الجغرافيين والكتاب القدامى ، أو عن طريق دراسة الخرائط الملاحية التى تحدد المواقع الخطرة على الملاحة البحرية والتى عادة ما تكون سفنا أو مبانى غارقة .

كما تستعمل بعض الأجهزة الحديثة فى تحديد المواقع الأثرية تحت الماء مثل :

١ ـ فاجص الأعماق بواسطة الصدى Echosounder .

٢ ـ جهـــاز قياس المدى Sonar or asdic بواســطة الصــدى Echoranging .

٣ ـ كاشف المعـادن Metal Detector .

٤ ـ جهاز قياس المدى المطور Side Scan Sonar .

٥ ـ جهاز رصـــد وتحديد المواقع المتصـــل بالأقمار الصناعية (Satellite-based). Global Positioning Systm (GPS)

٦ ـ الأطبـاق الغائصـــة Apparatus Bossing التى اخترعهـــا جان ايف كوستو والتى تحمل شخصين وتســـمح بالحركة حتى عمق ٣٠٠ متر ومزودة بأضواء كاشـــفة ونوافذ للرؤية وأذرع يتم التحكم فيها من داخل المركبة .

وعند تحديد الموقع الأثرى يتم انزال الغطاسين مزودين ببدل الغطس المطاطية ومصدر قوى للاضاءة وأجهزة خاصـــة للتصوير الفوتوغرافى والتليفزيونى ومضخات ماصة أو كابسة للتعامل مع الموقع الأثرى ، ثم تبدأ بعد ذلك عملية انتشال اللقى الأثرية عن طريق رفعها الى سطح السفينة أو الموقع الثابت بمضخات أو حبال أو بالونات هوائية (١٦) .

الاسكندرية مدينة ذات طبيعة خاصة :

لمدينة الاسكندرية طبيعة (متذبذبة) خاصة ، فهى تختلف عن

العديد من المدن ذات الطبيعة الثابتة أو المستقرة المضطردة سـواء ازدهارا أو تدهورا ، فقد اعترت المدينة منذ انشـــائها الكثير من التغيرات والتقلبات السياسية والعسكرية بالاضافة الى التغيرات التى سببتها العوامل الطبيعية والبشرية ، ومنها على سبيل المثال حرب الاسكندرية فى ٤٨ ق٠م ، ثم استيلاء جايوس أوكتافيانوس عليها فى ٣٠ ق٠م ، ثم غزو التدمريين لها فى ٢٧٣ م ، يلى ذلك حصار دقلديانوس للمدينة لمدة ثمانية أشـــهر ثم الاســـتيلاء عليها فى ٢٩٧ م (١٧) ، ثم استيلاء الفرس عليها فى ٦١٥ م ، يلى ذلك دخول عمرو بن العاص الاسكندرية سلما فى ٦٤١ م ثم حربا للمرة الثانية فى ٦٤٥ م ، وفى ١١٦٧ أثناء الحروب الصليبية اقتحم الافرنج الاسكندرية واستولوا عليها ، لكن السلطان صلاح الدين الأيوبى طردهم منها فى العـــام التـــالى ، وفى ١٢٠٢ استولى البنادقة على المدينة ، وفى ١٢٥٠ استولى عليها ملك قبرص ، وفى ١٢٦٧ غزاها الفرنجة من جديد ، وفى ١٥١٧ استولى عليها السلطان سليم الأول لتبدأ فترة طويلة من الاضمحلال عانت منه المدينـــة حتى ظهور محمد على باشا الذى حاول أن يعيد للمدينـــة بعضا من ازدهارها القـــديم ٠

هذا من حيث التقلبات السياسية والعسكرية ، أما من حيث التغيرات الناجمة عن كوارث طبيعية كالزلازل والفيضانات وحتى التغيرات النـــاجمة عن تدخل عامل بشرى فقبـــل الحديث عنهـــا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن المنطقة كانت معرضة دائما لانزلاقات التربة على الخط الساحلى الذى اقيمت عليه الاسكندرية ، ويحدثنا سترابون بأنه شاهد بنفسه الأثر الذى تحدثه موجات المد الهائل الذى ربما نتج عن حركات أرضية (زلازل) وذلك على ســـاحل بيلوزيون (Strabo, XVII, 58) .

وقد تعرضت الاسكندرية لعدة كوارث طبيعية ، منها طغيان البحر عليها في ٣٦٥ م والذى فسره زوسيموس بأنه غضب من الله بسبب ما قام به الامبراطور جوليان أبوسيتس من ردة وعودة الى الوثنية (١٨) ، ويشير اميانوس ماركللينوس الى الحدث نفسه ويضيف عليه أن الموج الهائل قبل أن يضرب الساحل انسحب البحر بعيدا فظهرت بقايا الاسكندرية القديمة (١٩) . وتؤكد مقولة اميانوس ماركللينوس هذه الفكرة القائلة بغرق جزء من الخط الساحلى للاسكندرية بما عليه من مبان تحت مياه البحر الأبيض المتوسط .

ويضيف اميانوس ماركللينوس (الذى كتب فى القرن الرابع) ان المنطقة الساحلية التى كانت تشكل قلب المدينة بما تحويه من قصور ومبان هامة أخرى قد تم هجرها أثناء فترة حكم الامبراطور أوريليانوس (حوالى ٢٧٣ م) (٢٠) . ويبدو أن السبب فى ذلك يعود الى احتلال زنوبيا للمدينة ثم استعادة اوريليانوس لها مع صاحب ذلك من تدمير للعديد من أجزاء الاسكندرية ، وبعد ذلك بقرن تقريبا يصف ابيفاينوس المنطقة بأنها صحراء (٢١) .

وطبقا للمقريزى ـ هذه المرة ـ فقد تعرضت المنطقة لزلزالين مدمرين ، الأول فى ٩٥٦ م والثانى فى ١٣٠٣ م (٢٢) .

يضاف الى ذلك عامل بشرى تمثل فى القاء والى الاسكندريه المسمى قراجا لعدد كبير من الأعمدة المحيطة بعمود السوارى فى الميناء الشرقية وذلك فى ١١٦٧ م مما جعلها غير صالحة للملاحة ، ثم وفى العصر الحديث بدءا من منتصف القرن التاسع عشر بدأت حركة العمران على الخط الساحلى للاسكندرية فى الازدياد مع بناء كورنيش جديد يمتد من رأس التين الى السلسلة أكتمل فى ١٩٠٦ ،

ونلاحظ أن علماء الحملة الفرنسية قد سجلوا العديد من المبانى والبقايا الأثرية على ساحل الاسكندرية ، الا أن هذه البقايا تم تدميرها بقصد أو بدون قصد لاستكمال المنشآت الحديثة فيما بعد (٢٣) .

مصادر تاسيس المدينة :

يعتبر اريانوس من المصـــادر الأساسية عنـد الحديث عن تأسيس الاسكندرية ، وهو يورد لنا القصة التقليدية حول تأسيس الاسكندرية بعد سقوط صور ، واستعمال حبوب القمح أو الذرة في تخطيط المدينة وهبوط الطيور لالتقاط الحبوب ؛ مما اعتبر بشيرا بالرخاء الذى ستتمتع به المدينة (٢٤) . وقد وردت القصة نفسها عند بسيودو كاليستينيس وبلوتارخوس بشكل يكاد يكون متطابقا مما يرجح كون مصدرهما واحدا (٢٥) . أما سترابون وديودوروس الصقلى فقد تعاملا مع القصة بشكل أقرب الى العمومية (٢٦) .

أما عن تاريخ التأسيس فلدينـــا بسيودو كاليستينيس الذى يحدده بالخامس والعشرين من شهر طوبة (٢٧) .

وحسب رأى فريزر فهذا التاريخ يوافق ٧ أبريل اذا ما أخذنا بالتقويم البطلمى ، أو يناير اذا ما أخذنا بالتقويم الرومانى (٢٨) .

وعن الشخصيات التى ارتبطت بتأسيس المدينة ، تذكر لنا المصادر كلبومينيس من نقراطيس حاكم مصر من قبـل الاسكندر فيما بعد ، ودينوكراتيس من رودس الذى أعتبرته المصادر القديمة مهندس المدينة (٢٩) .

أما عن الموقع الذى اسست فوق الاسـكندرية فيقول لنـــا سترابون (٣٠) ، ان ملوك مصر قد استعملوا هذه المنطقة كنقطة

دفاعية لمنع أية بضائع أجنبية أو تجار من الدخول الى مصر لعــــدم حاجتهم الى ذلك ، وأن راكوتيس التى تكون الآن جزءا من الاسكندرية كانت قرية صغيرة يسكنها الجنود ، كما سكن المنطقة التى تحيط بها بعض الرعاة الذين كان فى امكانهم أيضا صد أية محاولة أجنبية للدخول الى مصر .

الا أن معرفتنا بطبيعة العلاقات التجارية المصرية الخارجيـــة وبخاصة مع اليونان حتى فيما قبل انشاء نقراطيس ومدى عمق وتنوع هذه العلاقات (٣١) ، تجعل من الصعوبة بمكان تقبل رواية سترابون عن العداء المصرى ضد الأجانب وبخاصة اليونانيون ، وهنا قد يمكن الاستنتاج أن مثل هذه الحامية العسكرية التى تمركزت فى راكوتيس ــ اذا صدقت رواية سترابون ــ كانت قد وضـعت لأغراض عسكرية دفاعية وليس لأغراض اقتصادية .

أما بسيودو كاليسثينيس فيروى رواية أخرى (٣٢) مفادها أن الموقع الذى بنيت عليه الاسكندرية كان يوجد عليه ست عشرة قرية صغيرة ، أهمها كانت راكوتيس وكانت تغذيها بالماء اثنتا عشرة قناة تصب فى البحر ، الا أن هذه القنوات اندثرت مع تأسيس المدينة باستثناء اثنتين (وربما كانت الاشارة هنا الى فرعى قناة أو ترعة سخبديا) .

أما عن مساحة المدينه فيبدأ سترابون بتحديد طول وعـرض المدينة واصفا اياها بأنها تشبه الخلامس المبسوط (أى مستطيلة الشكل) بقياسات حوالى ٣٠ ستاديون فى الطول ، وما بين سبعة الى ثمانية ستاديون فى العرض فى المنطقة المحصورة فيما بين البحر والبحيرة (٣٣) .

كما يرد الوصف نفسه أيضـــا عند ديودوروس الصـــقلى وبلوتارخوس وبلينى وان اختلفت قياساتهم بعض الشيء (٣٤) ٠

أما عند بسيودو كاليسثينيس فالوصف والقياسات تختلف تماما ، اذ يقول (٣٥) :

« تمتد أراضى المدينه (الاسكندرية) من الدراكون بالقرب من منطقة (أو لسان) تابوزيريس من الغرب الى اجاثو دايمون بالقرب من كانوبوس ، أما اتساعها فيبدأ من مندسيون (؟) الى منطقتى ايوريلوخوس وميلانثيوس » ٠

ومن غير الواضح هنا الى ماذا تشير الاسماء التى ورد ذكرها فى المصدر ، الا أنه يمكن الاستنتاج بأنها اشارات لمناطق أو معالم محلية اندثرت ، فربما أشارت (دراكون) الى قنـــاة امتـدت من مريوط لتصب فى المكس ، وربما انطبق نفس الاستنتاج على اجاثو دايمون ، فقد تكون هى الأخرى قناة مائية ٠

ومن الملاحظ أن تحديد طول الاسكندرية هنا مبالغ فيه تماما (من تابوزيريس أو مريوط وحتى كانوبوس أو أبى قير) ، مما يرجح أن المقصود هو الأراضى النابعة للاسكندرية chora والتى لم تصل الى ذلك الاتساع الا فى العصر الرومانى (٣٦) ٠

أما من حيث مناخ المنطقة التى أسست عليها مدينة الاسكندرية فقد أجمعت الكثير من المصـــادر القديمة على اعتداله وملاءمته لكافة الأنشطة (٣٧) ٠

هذا وقد أحيطت المدينه بسور ضـــخم كاغلب مدن العـــالم القديم ، ورغم أن وصـــف سترابون للمدينـــة (XVII, I, 10)

لا يتضمن أية اشارة للسور الذى كان يحيط بهـا ، الا أن المصادر الأخرى تؤكد وجود مثل هذا السور (٣٨) ٠

ويبدو ان سترابون قد حذا فى هذا حذو يوليوس الذى لم يشر أيضا فى كتابيه الى أسوار المدينة (٣٩) ، وربما يعود هذا الى أن وجود مثل هذه الآســـوار كان شـــيئا طبيعيا ومنطقيا لم تتميز الاسكندرية به عن غيرها من مدن العالم القديم ٠ ولا يمكن الافتراض بأن هذه الأسوار لم تكن موجودة على عهد يوليوس قيصر لأن لوكانوس يشير اليها والى أن حرب الاسكندرية قد دارت داخل هذه الأسوار فى منطقة الميناء (٤٠) ٠ ويؤكد هذا أن الامبراطور أوريليانوس قد أعاد بناء هذه الأسوار بعد الغزو البالميرى للاسكندرية فى ٢٧٣ م كما يخبرنا اميانوس ماركللينوس (٤١) ٠ كما أثبتت هذه الأسوار كفاءتها عندما فتح عمرو بن العاص الاســـكندرية للمرة الثانيـة فى ٦٤٥ م (٤٢) ٠

سترابون يصف الحى الملكى :

يقول سترابون فى وصفه للحى الملكى (٤٣) :

(وقد كان للمدينة عدد من الأماكن المحرمة الفخمة (ملاذ) والقصور ، والتى شكلت ربع أو ما يقرب من ثلث حجم المدينة ٠ لأن كل ملك من الملوك كان يضيف شيئا الى التقدمات العامة ، كما يضيف سكنا خاصا الى ما كان موجودا بالفعل ، وهكذا فالآن وبتعبير شعرى « فالأشياء تنمو من أشياء أخرى » ، فكل هذه (المبانى)هى استمرار لمبان أخرى وللميناء وما يقع خارج (نطاقها) ٠

وفى (نطاق) حى القصور يقع الموسيون ذو الممشى المسقوف والرواق والمبنى الذى تقع فيه حجـــرة الطعام المخصصـــة للمآدب

الجماعية للدارسين الذين ينتمون الى الموسيون ، وقد كان لهذه المؤسسة (الموسيون) تمويل خاص وعلى رأسها كان « الكاهن الذى يرأس الموسيون » ، والذى كان سابقا يعين بواسطة الملوك ، أما الآن فيعين بواسطة القيصر (أوعسطس) . أما المبنى المعروف بالسيما فهو يشكل أيضا جزءا من (حى) القصور ، وهى المنطقة التى تحوى مقابر الملوك (البطالمة) والاسكندر (٤٤)) .

سترابون يصف الفنار والهيبتاستاديون

يقول سترابون عن موقع الفنار ، أن « هذا المبنى المعروف يقوم على جزيرة مسطحة محصنة بحوائط بحرية (مصدات أمواج) على الجهة الشرقية من الجزيرة التى ترتبط بالساحل بجسر (٤٥) . (حيث تقع الآن قلعة قايتباى المعروفة) .

والى الشرق من الفنار تقع جزيرة صغيرة (غارقة الآن) أطلق عليها فى العصور الحديثة « الماسة » أو « جزيرة الماس » ، وتوجد بعض الآراء التى تقول بأن الفنار كان يقوم على هذه الجزيرة ، الا أن مساحة هذه الجزيرة (أو الصخرة ان أردنا الدقة) كانت لا تتعدى ٢٥ مترا فى الطول ، بما لا يسمح بتحمل بناء مثل فنار فاروس ، وقد ناقش فريزر هذا الموضوع باستفاضة (Vol II, pp. 44-5 note 98) ورفض فكرة بناء الفنار على هذه الجزيرة ، كما رفض أيضا رأى جاستون جونديه (Jondet, p. 50) الذى وصف مجموعة من تيجان الأعمدة وأجزاء من الأعمدة وكتل حجرية من الجرانيت الغارقة على أنها قد تكون بقايا لفنار فاروس ، وجاء هذا الرفض اعتمادا على وصف سترابون للفنار المبنى من الرخام والحجر الجيرى ، ويرى فريزر أن هذه البقايا قد تكون خاصة بمعبد الالهة ايزيس فاريا الذى ورد ذكره فى بعض النقوش الرومانية (٤٦) .

وقد تؤيد الاكتشافات الأثرية الحديثة لفرانك جوديو وجان ايف امبرور فى مجال الآثار المغمورة وجهة نظر فريزر ، اذ انه تم انتشال تمثال ضخم غارق للاله أوزوريس ، مما يبعث على الأمل فى العثور على تمثال الالهة ايزيس فاريا (٤٧) .

ثم يصف سترابون الهيبتاستاديون أو الجسر الذى يربط جزيرة فاروس بالساحل ، وبالتالى أوجد ميناءين أحدهما شرقى والآخر غربى . والى الشمال من الهيبتاستاديون قرب نقطة اتصاله بجزيرة فاروس كان يقع (الديولكوس) Diolkos أو المنحدر الذى كانت تتم من عليه عملية انزال السفن الى أى من الميناءين الشرقى أو الغربى ، مع ملاحظة أن سترابون لم يتعرض لوصف الديولكوس رغم وصفه لكل ما يحيط به ، مما يرجح أنه يعود الى فترة تالية ، خاصة وأن ذكره يأتى فى مصادر القرن الأول الميلادى وأهمها كان كسينو كراتيس من افروديسياس (٤٨) . أما فكرة ان الديولكوس منحدر تسحب عليه السفن لتنقل من الميناء الشرقى الى الغربى أو العكس فهى فكرة مرفوضة تماما ، اذ ان مثل هذا العمل قد يكون مقبولا فى برزخ كورنثة مثلا لأنه يوفر الدوران حول شبه جزيرة البلوبونيسوس بالكامل ، أما فى حالة الميناءين الشرقى والغربى فالمسافة لا تذكر ، وبالتالى ففى الأغلب كان الديولكوس عبارة عن حوض جاف يشبه الكيبوتوس الذى سيرد ذكره عند سترابون لاحقا عندما يصف الميناء الغربى (XVII, I, 10) كان يستخدم لتصنيع واصلاح السفن وتدشينها قبل انزالها الى الماء ، ويدعم هذا الرأى وجود مصانع السفن بالقرب منه كما يشير سترابون (Loc. Cit) ، وحتى الآن لا زالت هذه المصانع (بشكلها الحديث) موجودة بالقرب من نادى اليخت على كورنيش الاسكندرية الحديث .

سترابون يصف الميناء الكبير (الشرقى) :

قبل أن يصف سترابون الميناء الكبير والمبانى المطلة عليه يشير الى صعوبة دخول الميناء والمشاكل التى تسببها الرياح للسفن (XVII, I, 6) ويشاركه فى نفس الرأى جوزيفوس (Joseph., BJ IV, 612-5) ثم يبدأ فى وصفه متخذا اتجاها من الشرق الى الغرب حيث ينتهى عند الميناء الغربى (٤٩) ٠

يقول سترابون فى وصفه :

(وحالما تدخل الميناء الكبير (الشرقى) ستجد فاروس والفنار على اليمين ، وعلى الجانب الآخر عدة صخور تنحدر بشدة الى أسفل تسمى « خويراديس » ونتوء أو (رأس) لوخياس الذى كان يعلوه قصر ٠

وعندما تبحر الى الداخل ستجد الى اليسار كاستمرار للمبانى المقامة على (رأس لوخياس) القصور الداخلية (الملكية) (٥٠) والتى تحوى العديد من أماكن السكن والحدائق ، والى الأسفل تجد الميناء الصناعى المغلق ، والذى كان ميناء خاصا بالأسرة المالكة . ثم انتى رودس وهى جزيرة صغيرة أمام الميناء الصناعى ، وكان بها قصر وميناء صغير يحميه حاجز أمواج ، وقد أطلق عليها هذا الاسم باعتبارها مواجهة لرودس ٠ أما المسرح فقد كان يشرف على الجزيرة يليه البوسيديون الذى كان عبارة عن ذراع يمتد مما أطلق عليه امبوريون والذى كان (مقاما) عليه معبد بوسيدون ٠ وقد أضاف انطونيوس الى هذا الذراع (الامتداد) حتى انه أصبح يمتد الى داخل منتصف الميناء وشيد على حافته مقصورة ملكية

اسماهـا تيمونيون ، وقد كان هذا العمل من أواخر أعماله بعـد ماتركه أصدقاؤه فرحل الى الاسكندرية بعـــد هزيمته في اكتيوم معتقدا بأنه سيقضي بقية حياته دون أصدقاء مثلما فعل تيمون • بعد هذا يقع السيزاريون والامبوريون والمخازن ومصانع السفن التى تمتد حتى الهيبتاســـتاديون • وهذه هى المبـــانى التى تحيط بالميناء الكبير) •

وهكذا ، فان وصف سترابون للقسم الذى يطل على المينـــاء الشرقى من الاسكندرية يبدأ برأس لوخياس والقصور التى تقع عليه وتمتد الى الغرب (الحى الملكى) ثم الميناء الملكى وقبالته تقع جزيرة انتى رودس التى أقيم عليها قصر وكان لها ميناء صغير • وعلى الشاطىء كان المسرح يشرف على الجزيرة من فوق تل عال كما ذكره يوليوس قيصر أيضا (Caes., BC., III. 112, 8) ، وقد اتفقت أغلب الآراء على أن المسرح كان يحتل التل الذى يحتله الآن المستشفى الأميرى والذى ينحدر نحو الشاطىء قريبا جدا من محطة الرمل (٥١) •

ومن المسرح ننتقل الى البوسيديون ، وهو لســـان أو ذراع (امتداد) صغير يبدأ من الامبوريون ويمتد قليلا فى داخل البحر وأقيم عليه معبـد بوســيدون فى الجزء القريب من الســـاحل . والتمونيوم فى الجزء الداخل قليلا فى البحر ، وموقعه الآن — فى الغالب — الى الغرب من المستشفى الأميرى نزولا حتى ساحل البحر • يلى ذلك السيزاريون (مع ملاحظة أننا نتحرك مع سترابون من الشرق الى الغرب) وكان يقع بالقرب من الشاطىء تقريبا فى مركز (وســـط) الميناء الشرقى ، وأمكن تحديد موقعه بوجود المسلتين المعروفتين بمسلتى كليوباترا ، واللتين كانتا موجودتين فى موقعهما حتى القرن التاسع عشر ، وقد أكد لنا بلينيوس وجودهما على مدخل السيزاريون (pliny, NH., xxxvl, 69) ومكانهما — غالبا — جنوب

ميدان سعد زغلول الحالى أو مايعرف باسم (تريانون الصغير)(٥٢) ٠ وقد أقيم السيزاريون غالبا بواسطة كلبوباترا السابعة لعبادة يوليوس قيصر (أو ربما لماركوس انطونيوس ؟) (٥٣) ٠

والى الغرب من السيزاريون تقع منطقة الامبوريون ، التى كانت غالبا محطة جمارك للسلع المستوردة من الخارج ، يليها الى الغرب (الأرسينويون) أو معبد أرسينوى زوجة بطلميوس فيلادلفوس والذى لم يرد ذكره عند سترابون ربما بسبب عدم اكتماله أو الحالة السيئة التى كان قد وصل اليها وقت زيارة سترابون للاسكندرية ، وقد أتى ذكره ـ عند بلينيوس فيما بعد (٥٤) ٠ ومن هذه النقطة وحتى الهيبتاستاديون يصف لنا سترابون المستودعات والمخازن وأحواض بناء السفن ، التى يبدو أنها كانت قد أعيد بناؤها ، اذ انها كانت قد احترقت أثناء حرب الاسكندرية فى ٤٨ ق٠م كما يخبرنا بذلك ديون كاسيوس (٥٥) ، وهذه هى المنطقة التى تمتد ـ غالبا ـ من نادى الكشافة البحرية وحتى قلعة قايتباى ، ومن الغريب انها لازالت حتى الآن تعمل كأحواض لبناء السفن ٠

يقول سترابون فى وصفه للميناء الغربى (٥٦) :

« ويلى الهيبتاستاديون ميناء « العود الحميد » (الميناء الغربى) وفوق ذلك يوجد الميناء الصناعى الذى أطلقوا عليه « الكيبوتوس » (الصندوق) وقد احتوى أيضا على مصانع (أحواض) للسفن ٠ يلى ذلك قناة صالحة للملاحة ترتبط ببحيرة مريوط ، وفيما وراء هذه القناة لايوجد الا قسم صغير من المدينة ٠ ثم نأتى الى مدينة الموتى (المقابر) العظيمة ، والتى ضمت المدافن والعديد من الحدائق والمنشآت التى استخدمت لتحنيط الجثث ٠ أما الجزء الذى يطل على

القناة من المدينة فيوجد به السيرابيون وعدد من المحاريب القديمة التى تم هجرها نتيجة لبناء المعابد فى نيكوبوليس ، التى وجد بها مسرح صغير (أمفى ثياتر) وستاديون حيث كان يتم الاحتفال بالألعاب الخماسية ، أما المحاريب القديمة فقد فقدت الاهتمام بها ٠ أما أجمل الأشياء ، فقد كان الجمنازيون الذى كانت صالة أعمدته التى تقع فى وسطه يصل طولها الى ما يزيد عن الستاديون ، وكذلك العديد من أماكن التقاضى والحدائق ٠ كما يوجد أيضا البانيون وهو ربوة دائرية صناعية تأخذ شكل المخروط وتشبه تلا صخريا يخترقها ممر لولبى القمة ، ومن القمة كان من الممكن رؤية المدينة بالكامل منتشرة على جانبى التل الى أسفل ٠

ومن نكروبوليس (المقابر) يمتد الشارع الرئيسى العريض الى بوابة كانوبوس مارا أمام الجمنازيون ، ويلى ذلك مكان يسمى الهيبودروم ومبان أخرى تمتد واحدا بعد الآخر وحتى القناة الكانوبية (٥٧) ، وعندما تتجاوز الهيبودروم فانك تصل الى نيكوبوليس (مدينة النصر) ، التى تبعد ثلاثين ستاديون عن الاسكندرية (٥٨) ، وقد كانت مستوطنة مقامة على الشاطىء فى حجم مدينة ٠ وقد كرم القيصر أوغسطس هذا المكان ، لأنه استطاع فيه هزيمة من تبعوا أنطونيوس ضده ، وعندما استولى على المدينة بالقوة أجبر أنطونيوس على انهاء حياته بيده ، أما كليوباترا فقد سقطت فى يده وهى على قيد الحياة ، وفيما بعد بفترة قصيرة أقدمت هى الأخرى على الانتحار فى سجنها اما بواسطة لدغة الأفعى ، أو باستعمال سم معين بشكل ظاهرى ، (وكلتا الروايتين انتشرتا) ، وهكذا انتهى حكم البطالمة بعدما استمر لسنوات عديدة ٠

وهكذا يصف سترابون الميناء الغربى وما يطل عليه من مبان ، كما يصف المبانى الداخلية أيضا ، الا أن وصفه هذه المرئ

يفتقد الى الدقة والوضوح اللتين ظهرتا فى وصفه للجزء الشرقى من المدينة ، فهو يقفز من مكان الى الآخر ، ثم يعود الى المكان نفسه ، ومن الصعب تتبع أو تحديد الأماكن التى وصفها و مر عليها بشكل سريع ٠

ولا يقول لنا سترابون الكثير عن الميناء الغربى نفسه أو عن الكيبوتوس (ميناء الصندوق) نسبة الى شكله المربع الذى كان يرتبط ببحيرة مريوط ـ وبالتالى بداخل البلاد ـ عن طريق القناة الصالحة للملاحة ، ومن هذا قد يمكن الاستنتاج بأن هذا الميناء كانت له أهمية تجارية تفوق أهمية الميناء الغربى نفسه ، بالاضافة الى انه كان يحوى مصانع السفن الرئيسية للبطالمة ٠ والى الغرب من القناة يصف سترابون مدينة الموتى بحدائقها الواسعة ، وهى التى أمكن تحديدها بمناطق الورديان والقبارى والمفروزة حاليا (٥٩) ٠

ثم يعود سترابون الى المدينة فيصف السيرابيون وبعض الأماكن المقدسة الأخرى الى الشرق من القناة ، ثم يقفز الى مدينة أو ضاحية نيكوبوليس التى تقع على الساحل على بعد ثلاثين ستاديون الى الشرق من الاسكندرية ، ووجد بها امفى ثياتر وستاد كانت تقام فيه الألعاب الخماسية (كل خمس سنوات) ٠ ثم يقفز سترابون عائدا الى وسط المدينة ليصف الجمنازيون بصالة أعمدته التى يصل طولها الى ما يزيد عن ستاديون ، والطريق الرئيسى للمدينة الذى كان يمر أمام الجمنازيون ، وفى السياق نفسه يذكر سترابون أماكن التقاضى والحدائق ثم يصف البانيون الذى أقيم عليه مذبح للاله بان ، وينهى هذا الوصف بذكر الهيبودروم (مضمار السباق) الذى وجد خارج بوابة كانوبوس فى المسافة بين الاسكندرية وضاحية نيكوبوليس ٠

ثلاث ملاحظات على وصف سترابون :

أولا : تجاهل سترابون بعض المبـانى التى كان من المفترض وجودها مثل مبنى مجلس البولى والاكليزيا ، الا لو أخذنا برأى فريزر (Vol. 1, p. 30) القائل بأن كيـان الاسكندرية الدستورى كان آخذا فى الاضمحلال مع بداية الحكم الامبراطورى ؛ ولذا لم يلق سترابون بالا لرموزه التى أصبحت عديمة الفائدة (٦٠) .

ثانيا : تجاهل سترابون أيضا وصف الأجورا التى يؤكد لنا اريانوس وجودهـا كمركز لنشـاطات المدينـة (Arr., III, 1, 5) واستمرت فى االوجود حتى نهاية عصر البطالمة ، حيث يصف لنا ديون كاسيوس ظهور كليوباترا السابعة وماركوس أنطونيوس فى أجورا الاسكندرية أمام عامة الشعب .

ثالثـا : كما تجاهل سترابون وصف الآكرا (...) (*) أو القلعة أو البرج المحصن والتى كان من المؤكد وجودها داخـل منطقة القصور الملكية وبالتـالى فقد كان من الممكن أن تطل على الشاطىء ، وقد ذكرها بوليبيوس (polyl. V, 39, 3.) موضحا أنها قد احتوت على سجن داخلى وبوابة محصنة وسور يحميها (٦١) .

أحدث الاكتشافات الأثرية بالمينـاء الشرقى للاسـكندرية وعلاقتها بوصف سترابون للمنطقة :

ربما كان جراتيان لوبير ـ أحد علماء الحملة الفرنسـية على مصر ـ أول من نبـه الى وجـود بعض الآثار الغارقة فى مينـاء الاسكندرية الشرقى فى العصر الحديث ، وذلك عندما حاول تحديد مكان جزيرة الماس الغارقة بما عليها من آثار شمال قلعة قايتباى ، وفى أوائل القرن العشرين يسجل جاستون جونديه اكتشافه للميناء

(*) « ... » كلمة يونانية .

الفرعونى الغارق غرب جزيرة فاروس (رأس التين) وامتداده حتى جزيرة « أبو بكار » الغارقة الآن قرب الورديان · وفى ١٩٦٠ ، حاول الغطاس المصرى الشهير كامل أبو السعادات اجراء مسح لقاع الميناء الشرقى لتحديد أماكن الآثار الغارقة كان من نتائجه انتشال تمثال ضخم لاحدى ملكات البطالمة فى هيئة الالهة ايزيس · وفى ١٩٦٨ اهتمت منظمة اليونسكو بالمنطقة ، فأرسلت الأثرى البريطانى هونور فروست لاجراء بعض الاستكشافات ، الا أن مهمته باءت بالفشل بسبب طبيعة المنطقة العسكرية بعد حرب ١٩٦٧ · وفى عام ١٩٩٤ أسس جان ايف امبرور مركز الدراسات السكندرية ، تحت اشراف المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO وبتمويل من مؤسسة Gedeon وأمكنه انتشال بعض القطع الأثرية الغارقة (٦٢) ·

ولعل أول محاولة علمية مثمرة لتحديد الجزء الساحلى المغمور من الاسكندرية وتوقيع العديد من المواقع الأثرية المغمورة تحت مياه الميناء الشرقى على خرائط دقيقة ، كانت بعثة فرانك جوديو الأثرية (٩٦ / ٩٧) بتمويل من مؤسسة Hilti الفرنسية ، وقد ضمت هذه البعثـــة ١٦ أثـريا قاموا باجراء ٣٥٠٠ غطســـة فى منطقة مساحتها ١ × ١ كم بدءا من قلعة قايتباى باتجاه الشرق فى داخل الميناء الشرقى باستعمال نظام GPS ، واستطاعت البعثة تحديد موقع مايزيد عن ١٦٠٠ قطعة أثرية مابين تماثيل أو أجزاء من تماثيل ضخمة وعناصر معمارية من أعمدة وتيجان وقواعد وكتل حجـــرية وبقايا رصف أو أماكن مرصـــوفة وفخـــار · وقد أعلن جوديو عن اكتشافه فى مؤتمر صحفى بالاسكندرية فى ٣ نوفمبر ١٩٩٦ ، ونشر اكتشافه على شبكة الانترنت العالمية (٦٣) ، ولعل أهم ما أنجزه جوديو هو الخريطة التى أعاد فيها رسم خط الساحل الغارق الآن بالاضـــافة الى أماكن المنشآت الغارقة والتى كانت تقوم على هذا الخط الساحلى ·

ويكاد وصف جوديو لاكتشافه يتطابق مع وصف سترابون للمنطقة منذ ما يزيد عن الفي عام ، فهناك صخور بعد دخول الميناء (بوغاز الميناء الشرقى) يتلوها رصيف السلسلة بما عليه من قصور وميناؤه الملكى ، ثم يأتى المسرح عند نهاية رصيف السلسلة يليه الساحل فى اتجاه محطة الرمل وصولا الى لسان صخرى وجد عليه أرضية مرصوفة بكتل من الحجر الجيرى ملتصقة ببعضها بمونة رمادية اللون تعلوها أجزاء من أعمدة دورية ــ غالبا ــ تمثل بقايا التيمونيوم ، وعند انحناءة اللسان بالقرب من الساحل توجد أرضية أخرى تماثل الأرضية السابقة عليها بقايا أعمدة ــ غالبا ــ هى بقايا معبد بوسيدون ، ثم يمتد الساحل باتجاه محطة الرمل حيث وجد جوديو أرضية أخرى مبلطة كالسابق عليها بقايا أعمدة كورنثية تمثل ــ غالبا ــ بقايا الامبريون ، وأمام الامبريون فى داخل الميناء تقع جزيرة انتى رودس ، التى وجد جوديو عليها أرضية أخرى مبلطة بالحجر الجيرى ملتصقة ببعضها بمونة رمادية فوقها أجزاء من أعمدة كورنثية من الجرانيت الوردى وجزء من مسلة عليها نقش هيروغليفى تمثل ــ غالبا ــ القصر الذى أشار اليه سترابون (٦٤) .

ومن المرجح أن بقايا هذه المبانى التى عثر عليها جوديو تعود الى العصر البطلمى حيث ان المونة المستعملة فى تبليط الأرضيات ــ وهى ذات لون رمادى ــ كانت هى المونة المستعملة خلال العصر الهللينستى وحتى بداية العصر الرومانى الذى تميز باستعمال المونة الحمراء بسبب اضافة مسحوق شقف الفخار لها ، كما نعرف من كتاب فتروفيوس الشهير « عن العمارة » (٦٥) .

نتائج الدراسة :

١ ــ حظيت الاسكندرية باهتمام العديد من المصادر التاريخية القديمة مثل ديودوروس الصقلى وبسيودوكليسثينيس وأريانوس

ويوليــوس قيصر واخيليس تاتيــوس وفاليريوس ماكسيموس وأميانوس ماركللينوس وديــون كاســيوس وكسينو كراتيس وبلوتارخــوس وفيتروفيوس وبلينيوس وبوليبيوس واثينايوس وسنيكا • وعلى رأس هذه المصادر يأتى سترابون حيث انه قد أفرد جزءا كبيرا من كتابه السابع عشر للاسكندرية ومعالمها • هذا بالطبع بالاضافة الى الدراسات الحديثة التى بدأت بعلماء الحملة الفرنسية واستمرت زهاء القرنين حتى آخر دراسة صدرت منذ عدة أشهر للمؤرخ وعالم الآثار الفرنسي اندريه برنارد •

٢ ـ تعرضت الاسكندرية للعديد من الكوارث البشرية التى أثرت بلا شك على مناطق عديدة ، وبخاصة منطقة الحزام الساحلى للمدينة مثل حرب ٤٨ ق•م ، وغزو التدمريين لهــا فى ٢٧٣ م ، ثم حصار دقلديانوس لها فى ٢٩٧ م وغير ذلك • ويضاف الى ذلك العديد من الكوارث الطبيعية مثل طغيان البحر على ساحل المدينة فى ٣٦٥ م والذى أغرق جزءا من الشريط الساحلى بما عليه من مبان ، ثم زلزال عام ٩٥٦ م ويليه زلزال ١٣٠٣ م ، اللذان أديا الى انهيار العديد من معالم المدينة الشهيرة وبخاصة فنار فاروس •

٣ ـ يعتبر وصف سترابون لمعــالم الاســكندرية من أدق الأوصاف التى وصلتنا عن المدينة البطلمية التى لم تكن قد تعرضت وقت زيــارة ســترابون لأى من الكوارث البشرية أو الطبيعيــة (باستثناء حرب ٤٨ ق•م) وبالتالى فهو يعطينا صورة حية لما كانت عليه المدينة من ازدهار خلال فترة حكم البطالمة لها •

٤ ـ بسبب منطلق هذه الدراسة وهو التعامل مع المصادر التى تعرضت لمعالم الاسكندرية الواقعة على الساحل والتى غرقت بفعل العوامل الطبيعية والبشرية لذا فقــد تم التركيز على وصف سترابون للمبانى والمعالم الواقعة على الحزام الساحلى ، مبتدئا برأس

لوخياس ومنطقة القصور والميناء الملكي متجها الى الغرب مرورا بجزيرة انتى رودس بقصرها وميناثها الصغير ، ثم المسرح فالبوسيديون والتيمونيوم ثم السيزاريون ومنطقة الامبوريون ثم الأرسينويون فالمستودعات والمخازن وأحواض بناء السفن ، وبهذا يصل سترابون الى الميناء الغربى فيصف الكيبوتوس ثم يعود الى الشرق ليصف ضاحية نيكوبوليس ، وقبل كل ذلك كان سترابون قد تعرض بالوصف للفنار والهيبتاستاديون ٠

٥ ــ أثبتت الأبحاث الأثرية الحديثة فى مجال الآثار الغارقة وبخاصة بعثة فرانك جوديو صحة وصف سترابون ودقته اذ أمكن تحديد بقايا الجزء الغارق من رأس لوخياس وبقايا القصر والميناء الملكى ، كما أمكن تحديد ــ غالبا ــ بقايا التيمونيوم والبوسيديون والقصر المقام على جزيرة انتى رودس الغارقة والامبريون ، ومن الملفت للنظر أن هذه البقايا تقع ــ تقريبا ــ فى نفس المواقع التى قال بها سترابون ٠

٦ ــ انطلاقا من هذا قد يمكن البحث عن بقايا بعض المعالم الأخرى التى وصفها سترابون ولم تعثر عليها بعثة جوديو ــ حتى الآن ــ مثل السيزاريون والأرسينويون والديولكوس ــ وربما ــ أمكن العثور على بقايا من فنار فاروس الى الشمال والشرق والغرب من قلعة قايتباى ٠ كما قد يمكن البحث مستقبلا عن بقايا ضاحية نيكوبوليس التى وان لم يتأكد لدينا غرق أى جزء منها الا أنه من الممكن أن تكون بعض بقاياها مغمورة فى المنطقة ما بين مصطفى باشا الى جليمونوبولو ، وقد يمكن أن ينسحب ذلك أيضا على ضاحية كانوبوس على ساحل « أبو قير » حاليا ، وهى المنطقة التى تخرج منها بين الحين والآخر بعض البقايا الأثرية وان كان بشكل غير رسمى ٠

الهـــــوامش

(١) Description de L'Egypte, Paris, 1818 :

(1) Saint-Genis, Antiquites, Description II, ch. XXVI, pp. 1-95.
(2) Gratien le Pere, L'Etat Moderne, II, 2, pp. 269-324.

(٢) Mahmoud El-Falaky Bey, Memoire sur L'Antique Alexandrie, Copenhagen, 1872

(٣) Neroutsos Bey, L'Ancienne Alexandrie. Eddure Archéologique et Topographique, Paris 1888.

(٤) G. Botti, L'Acropole d'Alexandrie et le Serapéum, Alexandrie 1895.

Idem., La Côte Alexandrie dans L'antiquité, Le Caire 1897.
Idem., Plan de la ville d'Alexandrie à l'époque Ptolémaique, Alexandrie 1898.

(٥) A. M. de Zogheb, Etudes sur l'ancienne Alexandrie. Paris 1912.

(٦) G. Jondet, Les Ports submergés de l'ancienne Ile de Pharqs, Memoires de L'Istitut Egyptienne, Le Caire 1916.

(٧) Ramond Weill. Les Ports Antihellenique de la cote d'Alexandrie et l'empire crétois, BIFAO, Vol. XVI (1919).

(٨) الأمير عمر طوسون تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية ، الاسكندرية ١٩٤٢ .

(٩) P.M. Fraser. Ptolemaic Alexandria, Oxford 1972.

(١٠) André Bernarr. Alexandrie des Ptolémés. Paris 1995.
Idem., Alexandrie la Grande, Paris, 1996.
Idem. ,Alexandria in late antiquity, London, 1997.

(١١) فوزى الفخرانى ، الرائد فى فن التنقيب عن الآثار ، منشورات جامعة قاريونس ١٩٧٨ ، صفحات ١٢ ـ ١٤ ٠

(١٢) H. El-Shekh, The City of Helice, a part of a sunken Greek History.

وهو بحث ألقى فى الندوه الدولية للآثار المغمورة وادارة البيئة الساحلية والتى نظمتها هيئة اليونسكو وأفيمت بالاسكندرية فى الفتره من ٧ الى ١١ ابريل ١٩٩٧ ٠ والبحث قيد النشر فى أعمال الندوة ٠

(١٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينه الاسكندريه فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ٧٤ ٠

(١٤) فوزى الفخرانى ، المرجع السابق ، صفحات ١٦ ـ ١٨ ٠

(١٥) فوزى الفخرانى ، المرجع السابق ، صفحات ٧ ـ ٩ ٠

(١٦) روبرت سلفر برج ، الآثار الغارقة ، ترجمة محمد الشحات ، القاهرة ١٩٦٥ ، صفحات ٨ ـ ٢١ ٠

(١٧) سيد الناصرى ، تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، القاهرة ١٩٨٥ ، صفحة ٤٠٦ ٠

(١٨) Sozom,, HE., Vol. 2. 14-15 apud Fraser, Op. Cit., Vol. II, p. 19 note 33.

(١٩) Amm. Marc., XXVI. 10 15 FF.

(٢٠) Amm. Mac., XXVI. 10. 16, 15.

(٢١) Fraser ,Op Cit., loc. Cit.

(٢٢) تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول ، طبعة النيل ١٣٢٤ هجرية ، صفحات ٢٣٢ ـ ٢٨٣ ٠

(٢٣) وصف مصر ، دراســـات عن المدن والأقاليم المصرية (٣) ترجمة زهير الشايب ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٨ ، (١١) دراسة عن مدينة الاسكندرية لجراتيان لوبير ، صفحات ٢٩٥ وما بعدها ٠ ومما يؤكد مشكلة تغير شكل ساحل الاسكندرية الاشارة التى أبداها مسيو دى مايية M. de Maillet عن خطورة الترسيبات الرملية على شاطىء المدينة ، فيقول دى مايية ـ الذى أقام بمصر أربعين عاما بوصفه قنصلا لفرنسا من أواخر القرن السابع عشر الى أوائل القرن الثامن عشر ـ (هكذا ، كانت تتم هذه الترسيبات بحيث انه فى ظرف ٢٦ عاما أى من ١٦٩٢ ـ ١٧١٨

أصبح ارتفاع هذه الترسيبات يبلغ أربعين قدما أمام منزل القنصلية الذى كنت اقيم فيه ، حتى ان الناس قد بنوا لأنفسهم بيوتا فوق تربة هذا الشاطىء الجديد) .

وصف مصر ، جراتيان لوبير . صفحات ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(٢٤) Arrian, III, 1, 1FF.

(٢٥) Pseudo-Callisthenes, I, 32, 4; Plut., Vitae, Alex., 26, 5.

(٢٦) Strabo, XVII, 1, 7 ; Diod. Sicul., XVII, 52.

(٢٧) Pseudeo-Callisthenes, I, 32, 10.

(٢٨) Fraser, Op. Cit., Vol. I, p. 4, Vol. II, p. 4 notes 9, 10.

(٢٩) Pseudo-Callisthenes, I, 31, 6 ; Vitruvius, II, Praef. 1-4
Pliny, NH., V, 62 ; Valerius Maximus, 1, 4, 7 ;

(٣٠) cf Amm. Marc., XXII, 16,7.

(٣١) Boardman, The Greeks Overseas, London 1964, pp. 127-79 cf. M. Bernal, Black Athenl, New Jersey, Vol. II, 1994, Passim

(٣٢) Pseude-Callisthenes, I, 31, 2.

(٣٣) Strabo, XVII, 792.

(٣٤) Cf. Diod. Sicule., XVII, 52 ;
Plut., Vitae, Alex., 26, 8 ;
Pliny, NH., V, 62.

(٣٥) Pseudo-Calllisthenes, I, 31, 7.

(٣٦) Fraser, Op. Cit., Vol. II. P. 4 note 13.

(٣٧) Strabo, XVII, 793; Diod. Sicul., XVII, 52, 2 ;
Amm. Marc., XXII, 16, 8; Athenaeus, 196 d.

(٣٨) Arrian III, I, 5 : Diod Sicul., XVII, 52 ;
Tact., Hist., IV, 83 1; Livy, XIIV, 19, 9.

(٣٩) Caes., BC., III, 106 FF ; Bell. Alex.

(٤٠) Lucan., X, 434 FF.

(٤١) Amm. Marc., XXII, 16, 15.

(٤٢) ألفريد بتلر ، فتح العرب لمصر ، عربه محمد فريد أبو حديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ ، الجزء الأول ، صفحات ٢٥٤ وما بعدها .

(٤٣) Strabo, XVII, 1. 8.

(٤٤) هـ ١٠ يصف سترابون المنطقة التى أطلق عليهـا فى العصر الرومانى بروخيون Bruchion Cf. Amm. Marc., XXII, 16, 15 والتى تم تدمير جزء لا يستهان به منها أثناء حكم الامبراطور أوريليانوس حوالى ٢٧٣ م فى محاولته لاستعادة الاسكندرية من سيطرة زنوبيا Cf. Fraser, Vol. I, p. 16.

ويمكن لنا أن نستنتج شيئا عن موقع الموسيون ، اعتمادا على الفرضية القائلة بأن مكتبة الاسكندرية كانت جزءا من الموسيون ، ولما كانت المكتبة قريبة من الشاطىء بما يسمح لها بالاحتراق خلال حرب ٤٨ ق٠م٠ ، لذا يمكن القول بأن الموسيون كان يقع بالقرب من الشاطىء .

راجع مناقشة هذه الفرضية عند فريزر فى :

Fraser, Op. Cit., Vol. I. p. 15 ; Vol. II, pp. 30-31 note 77.
Cf. Mostafa El-Abbadi, The Life and Fate of the ancient Liberary of Alexandria, Unesco 1990, p. 146 ff.

ومن مصادرنا أيضا فى وصف شوارع وميادين الاسكندرية اخيليس تاتيوس Achilles Tatius Iv, I. فهو يصف الشارع الكانوبى وبوابتى الشمس والقمر اللتين تفتحان على مدخلين غربى وشرقى وتقاطعه مع شارع السيما . ومن الملاحظ انه يوجد تناقض بين وصف اخيليس تاتيوس للمدينة المزدهرة ، ووصف معاصره اميانوس ماركللينوس ومن بعده ابيفانيوس للمدينة المتدهورة ، وربما جاز لنا أن نقول ان اخيليس تاتيوس ربما كان يصف الاسكندرية كما اعتقد انها كانت تبدو فى عصر البطالمة .

(٤٥) Cf. Breccia, Alexandria ad Aegyptun, Bergamo 1922, p. 46 Strabo, 791-2.

(٤٦) Fraser, Op. Cit., Vol. II, pp. 54-5 note 125.
Cf. Breccia, Op. Cit., p. 108.

أما عن مصير الفنار فمصدرنا هنا هو الرحالة العرب ، فقد زار ابن جبير الفنار فى رحلته الى الاسكندرية أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (١١٨٣ م) ويبدو أنه كان فى حالة لا بأس بها ، اذ انه صعد الى أعلاه وصلى الجمعة فى المسجد الذى أقيم فى آخر طبقة منه .

راجع : رحلة أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير ، دار الكتاب العالمي ، بيروت بدون تاريخ ، صفحات ٤٥ - ٤٦ .

وبعد ما يقرب من قرن ونصف زار ابن بطوطة الفنار في ١٣٢٥ م أي بعد ٢٢ عاما من الزلزال الذي ضرب الاسكندرية فوجده في حالة سيئة ، ويفسر ابن بطوطة حالة الاهمال التي بدت على الفنار بأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان قد اعتزم بناء فنار آخر مقابل الفنار القديم على رأس لوخياس (برج السلسلة) .

ثم زار ابن بطوطة الفنار مرة أخرى في طريق عودته في ١٣٥٠ م فوجده وقد تهدم جزء كبير منه .

وتشير رواية ابن بطوطة الى معلم من معالم الاسكندرية اختفى الآن وهو برج السلسلة أو الفنار الجديد ، ويؤكد هذا ظهور هذا الفنار (أو برج السلسلة) في الخرائط التي رسمت في القرن الخامس عشر وما بعده .

راجع : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار الكتاب العالمي ، بيروت ١٩٩١ ، صفحات ١٣١ - ١٣٢ .

(٤٧) جدير بالذكر أنه في عام ١٩٦٠ تم انتشال تمثال ضخم لاحدى ملكات البطالمة في شكل الالهة ايزيس من نفس المنطقة بمعرفة الغطاس الشهير كامل أبو السعادات الذي وضع خريطة تفصيلية بأماكن الآثار الغارقة في الميناء الشرقي .
Cf. Unesco Sources, 87 (February 1997), p. 16.

(٤٨) Xenocrates of Aphrodisias apud Oreib. Coll. Med., II. 58, 54-5.

ولدينا اشارة عند سينكا تفيد المحاولات المستمرة للابقاء على الديولكوس صالحا للاستعمال .

Sen., Nat. Quaest., VI, 26.

(٤٩) Strabo, XVII, I, 9.

(٥٠) يوجد وصف سريع للقصر الملكي البطلمي عند بوليبيوس Polyb, XV 25-34 الا أنه لا يساعد في تحديد موقعه بالنسبة لمجموعة القصور أو حتى في اعادة تصوره معماريا .

(٥١) Cf. Saint-Genis, pp. 49050 ; Mahmoud Bey, p. 45 ; Néroctsos, L'Anc. Alex., P. 70 ; Botti. Plan., pp. 136-7. Breccia, Alex., P. 90 ; Andriani, Topogr., p. 247-8.

(٥٢) هاتان المسلتان جاءتا في الأصل من معبد آمون هليوبوليس وتعودان الى عصر تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ، وقد أمر أوغسطس باحضارهما واقيمتا أمام بوابة المعبد ، وتوجد احداهما الآن فى نيويورك بالقرب من متحف المترو بوليتان ، والأخرى فى لندن على ضفاف نهر التيمز .

(٥٣) وعن الآراء المختلفة حول أصل السيزاريون راجع :

Fraser, Vol. II, p. 68-9, note 156.

(٥٤) Plainy, NH., XXXIV, 148.
Cf. Fraser, Vol. II, pp. 72-3, notes 165-9.

(٥٥) Dio Cassios, XIII, 38, 2.

(٥٦) Cf. Caes., Bc., III, 111, 6 ; 112, 8 ; Bell. Alex., 123.
Strabo, XVII, I, 10.

(٥٧) بما أن سترابون فى وصفه يأخذ اتجاها من الشرق الى الغرب ، فالمقصود هنا ــ غالبا ــ هو الفرع الغربى من ترعة سخيديا التى كانت تأخذ مسارا يشبه الى حد كبير مسار ترعة المحمودية حاليا ، وتمتد حول الاسكندرية ليصب الفرع الغربى منها فى البحر الى الغرب من الاسكندرية .

(٥٨) يعود سترابون هنا ويأخذ مسارا من الغرب الى الشرق .

(٥٩) Fraser. Vol. I. pp. 26-7.

(٦٠) وعن مشكلة مجلس البولى ووجوده من عدمه خلال عصر البطالمة راجع :

I. Bell, the Problem of the Alexandrian Senate, Aegyptus, 12 (1932), p. 172 ff. ; Cf. Dion Cassius, Ii, 5, 1.

قارن : مصطفى العبادى ، الامبراطورية الرومانية (النظام الامبراطورى ومصر الرومانية) الاسكندرية ١٩٩٦ . صفحات ١٨٩ ــ ١٩٠ .

(٦١) Cf. Fraser, Vol II, pp. 98-9 notes 223-8.

(٦٢) Unesco Sources, 87 (February 1997), p. 16.

(٦٣) Archaeologists finds traces of ancient Alexandria, http/ ntn 110396/health 17, 28794.

(٦٤) Fawzi el Fakhrani, Preliminary Report on Frank Gooddio's Under water Survey in the Portus Magnus of Alexandria, Egypt, Ieasm Alexandria, 2034807973, P. 2 FF.

(٦٥) Vitruvius. De Architectcra. V. 10 ; VI. 6 .7 ; VII. 4. 13.

زلاقة السفن فى ترسانة الاسكندرية القديمة

د . منى حجاج

يشير الطبيب الاغريقى كسينوقراطيس الأفروديسى Xenocrates of Aphrodisias ، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى (٥٤ ـ ٩٦ م) ، الى وجود ما يعرف بالديولكوس Diolkos أى زلاقة السفن فى الاسكندرية . هذا الطبيب كان معروفا باهتمامه بالعقاقير المستخلصة من الأعشاب والأصداف البحرية ، وجاءت اشارته للديولكوس مرتين فى معرض حديثه عن أنواع من الأصداف والقواقع البحرية والفوارق بينها .

يقول فى النص الأول:

"γίνονται δὲ και γένη πελωρίδων τε καὶ χημων διάφοροι δε ποικιλαι καὶ στρογγύλαι ωσ αι ἐν Δικαιαρχίᾳ εν τῳ Λουκρίνω λάκκω καὶ ἐν τῳ ἐν Ἀλεξανδρείᾳ λιμένι' γλυκεῖαι γάρ και εὔχυλοι. αἱ δ'ὑπὲρ Φάρον καὶ τὸν Διολκον τήγ τε γέφυραν καὶ τὴν νῆσον ἐπιμήκεισ, τραχεῖαι, βαλάνοισ. εοικυῖαι δρυìναισ, ἐμφερεισ φηγοῖσ τὸν ἐχῖνον φερόμεναι"

وترجمته كالتالى :

« وتوجد أنواع مختلفة من المحار والقواقع بعضها دائرى منقوط كتلك الموجودة فى بوتسولى Dicaearchia عند بحيرة

لـــوكريس Locris ، وعند ميناء الاســكندرية ، والأخيرة حلوة المذاق غضة، بينما تلك الموجودة خلف فاروس والديولكوس والجسر والجزيرة تميل الى الاستطالة وشائكة كثمار شجرة البلوط ، ولها برعم يشبه برعم ثمرة البلوط البرية » ٠

في النص اليوناني يقول:

"αἱ δὲ γλυκυμαρίδεσ χαριέστεραι των λειοστράκων κογχῶν, ἥττουσ δὲ πελωρίδων. διαλλάττουσι δὲ κατὰ τόπουσ τοῖσ εἴδεσι, ὥσ πελωρίδεσ καὶ χημαί, ποικιλίᾳ καὶ σχηματισμῷ' αἱ μὲν γὰρ ἐν τῳ ἐν Ἀλεξανδρείᾳ λιμένι ἄρισται, αἱ δὲ περὶ τὸν Διόλκον καὶ Φάρον καὶ γέφυραν ἐπιμήκεισ καὶ τραχεῖαι".

وترجمته كالتالي :

« وأصداف الجليكيماريديس تختلف من حيث اللون والشكل باختلاف مواطنها ، فتلك الموجودة بميناء الاسكندرية تعتبر الأفضل بينما الموجودة بالقرب من الديولكوس وفاروس والجسر تميل الى الاستطالة وشائكة » (١٠٦) ٠

وكلمة ديولكوس ليست غريبة تماما على المنشــآت المائيــة القديمة ، فقد عرف العالم القديم الديولكوس كزلاقة للسفن منذ القرن السادس ق٠م تقريبا ٠

من حيث المعنى القرفى للكلمة فهى مكونة من (٠٠٠) وتعنى « عبر » و (٠٠٠) مشــتقة من (٠٠٠) بمعنى يسحب وتطلق

(★) « ٠٠٠ » كلمة يونانية ٠

على السفن حين تسحب على الأرض ، فيكون المعنى : « الشيء الذى تسحب عليه السفن » . أو « زلاقة السفن » .

وأما عن أقدم ديولكوس عرفه العـــالم القديم فقد كان عند برزخ كورنثة حيث أقيم فى القرن السادس ق.م طريق معبد ترفع عليه السفن من الخليج السارونى الى خليج كورنثة لاختصار المسافة، بعرض يتراوح ما بين ٣ر٦٠ و ٤ر٢٠ م بطـول كيلو متر واحد وظلت بقايا هذا الطريق الذى سمي : « ديولكوس » حسب اشارة كل من سترابون وبومبونيوس ملا (١٠٧) قائمة حتى الآن (راجع الصورة) ويظهر فيه علامات البكر الذى كانت تجر عليه السفن ، ويبدو أن ديولكوس كورنثة قد ظل هو الوســـيلة الوحيدة لنقل السفن عبر البرزخ حتى حفرت القناة المعروفة فى أواخر القـــرن التاسع عشر الميلادى (١٨٨١ ــ ١٨٩٣ م) .

مثال آخر من القرن الخامس عشر الميلادى أثنـــاء حصـــار القسطنطينية الأخير على يد السلطان العثمانى محمد الثانى ، اذ نقل السلطان سفنه الخفيفة من البسفوز الى الجزء الأعلى من الميناء فى مسافة تبلغ عشرة أميال تقريبا فوق طريق مسطح عريض أقامه من قطع الأخشاب القوية الصلبة دهنت بشحم الغنم لجعلها ملســـاء صالحة للانزلاق فانزل ثمانين بارجة وضعت تباعا على بكر ودفعت الى الأمام لتصعد تلا ثم تشق طريقها عبر السهل لتنزل الى مياه الميناء الضحلة فى موضع تكون فيه بمنأى عن تحرش السفن الرومانيـة التى كانت تقف فى مكان أكثر انخفاضا (١٠٨) .

نأتى للحديث عن ديولكوس الاسكندرية الذى ورد ذكره عند الطبيب كسينوقراطيس ، ونضع أسئلة ثلاثة :

أين موقعه بالتحديد ؟ تاريخ وجوده ؟ وظيفته !

وقد تعرض فريزر فى مقال له لهذا الديولكوس محللا لبعض الكلمات الواردة فى نص كسينوقراطيس تحليلا دقيقا (١٠٩) . مما يساعد على تحديد الموقع ، كما تعرض أدريانى لوظيفة الديولكوس معرفا اياه بأنه جسر لعبور المراكب (١١٠) ، ومع ذلك ظلت التساؤلات حول طبيعة الديولكوس ووظيفته دون اجابة .

أولا بالنسبة لموقع الديولكوس فيمكن تناول بعض الكلمات الواردة عند كسينوقراطيس والتى تحتمل أكثر من مدلول بالتحديد : من ذلك كلمة (...) ، والتى يمكن أن تعنى جزيرة فاروس أو منارة الاسكندرية القائمة عند النهاية الشرقية للجزيرة والتى كانت تحمل نفس الاسم ، خاصة وأن الكلمة لم تصحبها أداة تعريف وهى الوسيلة التى يمكن الفصل بها بين الموضعين فالجزيرة يشار اليها (...) بينما المنارة ، ولكن بما أن النص الأول قد ذكرت به كلمة (...) التى لابد وأنها تعنى جزيرة فاروس فى هذا الموضع (١١١) ، فان ذلك يشير الى أن كلمة (...) انما تعنى المنارة وليس الجزيرة ، ويمكن تطبيق ذلك على النص الثانى أيضا ، خاصة وأنه لنفس الكاتب .

كلمة (...) بمعنى الجسر والتى يبدو لأول وهلة أنها تعنى جسر الهيبتاستاديون ، الا أننا نعلم أن جسر الهيبتاستاديون كانت تخترقه فتحتان احداهما فى شماله والثانية فى جنوبه(١١٢)، وأن هاتين الفتحتين (...) كان يعلو كلا منهما جسر تمر فوقه قناة الماء العذب الصناعية التى توصل الماء الى جزيرة فاروس ، (quaducta) o هذان الجسران كان يطلق على أى منهما كلمة (...) غير أن الكلمة التصقت أكثر بالجسر الشمالى منهما نظرا لورودها كذلك عند أكثر من كاتب قديم مثل أريستياس (١١٣) وكاتب حرب الاسكندرية (١١٤) .

(★) « ... » كلمة يونانية .

على ذلك تكون الأماكن المذكورة عند كسينوقراطيس هى المنارة ـ الديولكوس ـ الجسر المقام فوق الفتحة الشمالية وجزيرة فاروس • فيكون موقع الديولكوس عند النهاية الجنوبية لجزيرة فاروس بالقرب من موقع التقائها بالهيبتاستاديون ، حيث يكون هذا الالتقاء أقرب ما يكون من الفتحة الشمالية والجسر المار فوقها •

أما تحديد تاريخ وجود الديولكوس فى موقعه فيرتبط أشد الارتباط بتحديد وظيفته فبالرغم من أن سترابون قد وصف ما رآه بشىء من التفصيل عند زيارته للاسكندرية فى الفترة من ٢٥ ـ ١٩ ق•م ووصف بالتحديد الهيبتاستاديون بفتحتيه وذكر أن هاتين الفتحتين لم تكونا فقط وسيلة لعبور السفن من الميناء الشرقى إلى الغربى والعكس وانما كانتا تحملان قناة المياه الصناعية التى كانت تمد الجزيرة بالماء العذب حين كانت آهلة بالسكان قبل حرب الاسكندرية ، الا أن سترابون لم يذكر شيئا عن الديولكوس • ومن قبله كاتب حرب الاسكندرية (٤٨/٤٧ ق•م) لم يذكره ، رغم أنه كان يصف أحداثا دارت على الجزيرة والجسر •

يبعث ذلك على الاعتقاد بأن الديولكوس لم يكن موجودا زمن حرب الاسكندرية ولم يكن موجودا وقت زيارة سترابون بعد الحرب بخمسة وعشرين عاما •

من المعروف ، اذن ، أن حرب الاسكندرية قد دمرت المنشآت القائمة على الجزيرة ودمرت الجسرين اللذين كانت تعلوهما فتحتا الهيبتاستاديون بما تحملانه من قناة امداد الماء العذب فهجرت جزيرة فاروس من سكانها الا من بعض البحارة على حد قول سترابون ويذكر مؤلف « حرب الاسكندرية » ، إن قيصر لم يكتف بحرق السفن الراسية فى الميناء ، وانما أشعل النار فى السفن الموجودة

بالترسانة (١١٥) ، فاحترقت الترسانة الكبرى التى كانت تقع على الميناء الشرقى واحتاجت المدينة دون شك الى ترسانة بديلة ؛ ولكن الرومان منذ عصر أغسطس لم يتركوا الأشياء على حالها ؛ اذ شهدت جزيرة فاروس حركة احياء وتعمير كبيرة .

فنحن نعلم أن قناة تأتى بالمياه العذبة الى مدينة نيكوبوليس الواقعة شرق الاسكندرية حفرت فى عصر أغسطس ، وكانت تبدأ من سكيديا وتمر بالمدينة كلها وسواء كانت هذه القناة هى نفسها قناة سكيديا البطلمية التى كانت تصب فى الكيبوتس أو كانت فرعا منها يمتد بحذاء بحيرة مريوط (١١٦) ، الا أنه من غير المشكوك فيه أن عملية امداد مياه جديدة للأماكن التى حرمت منها قد قامت على قدم وساق ، ولابد لوجود حياة فى جزيرة فاروس التى شـــهدت هذا الانتعاش أن تصلها المياه .

ونعلم بمعبد لايزيس فاريا **Isis Pharia** قد أقيم فوق جزيرة فاروس بالقرب من المنارة ، كشف الغطاسون عن تمثاله الضخم فى شمال قلعة قايتباى ١٩٦٣ م ، وعن بعض بقايا المعبد التى ثبت أنها ترجع للعصر الرومانى (١١٧) . وهناك من يعتقد أن الرومان أعادوا بناء الجسرين فوق فتحتى الهيبتاستاديون ، وربما أقاموا عليهما قلعتين حصينتين (١١٨) .

كما نعلم أن الاســـكندريين قد أقاموا للامبراطور كلاوديوس (٤١ ــ ٥٤ م) ثلاثة تماثيـــل فى كل من أبى صـــير وبلوزيون وجزيرة فاروس . وتمثال جزيرة فاروس كان يقوم أمام مبنى ضخم للادارة المالية فى العصر الرومانى (١١٩) .

ظلت موانى الاسكندرية تعمل بنشاط كبير فى العصر الرومانى سواء الشرقى أو الغربى ، وكان للرومان فى القرن الأول الميلادى

اهتمام خاص بعمارة هذه الموانى ؛ فزودوا لســان رأس لوخياس برصيف صناعى لحماية الميناء الشرقى وتضييق فتحته (١٢٠) . ومن الطريف أن هذا الرصيف الصناعى لم يكن قد وجد بعد عند زيارة سترابون للمدينة فلم يذكره ، بينما ذكره جوسيفوس (١٢١) فأين اذن كانت تصنع السفن المصرية التى تخدم هذه الموانى ، خاصة وأننا نعلم بعض الأحداث التى قدمت فيها الاسكندرية سفنا للعمل فى الأسطول الامبراطورى الرومانى ، مثال ذلك ثمانين ســفينة ضخمة ضمت لأســطول لكينيوس Licinius فى صراعه ضــد قسطنطين والذى كان قوامه ٣٥٠ سفينة حربية (١٢٢) .

يقترح فريزر أن الديولكوس كان مخصصــا لعبور السفن الصغيرة فوق الفتحة الشمالية للهيبتاستاديون من الميناء الشرقى الى الغربى أو العكس حين تكون الفتحة مشغولة بسفن كبيرة أو حين يخشى عليها من تأثير التيارات البحرية . وأعتقد أن هذا الاحتمال مردود عليه لعدة أسباب : أولها أن مرور ســفن كبيرة من فتحة الهيبتاستاديون الشمالية والجنوبية أمر غير وارد ؛ نظرا لأن الفتحتين كانت تعلوهما دائما قناة مياه عذبة (أو قلعتان) فوق جسر (١٢٣) ، والسفن الكبيرة لا يمكنها المرور فوق تلك الفتحات المغطاة . والأمر الثانى ، أن هاتين الفتحتين لو كانتا بالفعل لعبور السفن فلابد وأنها كانت سفنا صغيرة . فتكون بذلك فكرة ايجاد معبر آخر لها لا معنى لها ، هذا بالاضافة الى أن وجود الديولكوس فوق الفتحة من شأنه أن يمنع مرور أى شىء آخر كالعربات مثلا .

لقد كان الديولكوس زلاقة للسفن تسحب عليه السفن من مكان الى آخر سواء كان من ماء الى ماء كما كان الحال فى ديولكوس كورنثه أو من يابس الى ماء كما حدث فى القسطنطينية لذا نقترح أن الديولكوس الذى تحدث عنــه كسينوقراطيس كان جزءا من

منشآت ترسانة بحرية أقيمت فى هذا الموقع من جزيرة فاروس عوضا عن الترسانة التى دمرتها حرب الاسكندرية ، وكان لابد لها من زلاقة لتدشين السفن الجديدة التى تصنع بها . خاصة وأن الموقع — حتى حين هجرت الجزيرة من سكانها بعد الحرب — ظل يشغله بعض البحارة كما يذكر سترابون (١٢٤) مستخدما لفظ (...) (*) والتى تعنى « أولئك الذين يتعاملون مع السفن » (١٢٥) ، فلماذا لا يكون سكان الجزيرة هؤلاء هم صناع السفن الذين اتخذوا من الجزيرة مقرا لهم يعملون فيه بأمان ؟ ويكون الرومان قد أنشأوا لهم ضمن حركة الانشاء الواسعة التى تمت فى عصرى أغسطس وكلاوديوس ترسانة للسفن استلزم معها وجود الديولكوس .

ومن الطريف أن منطقة نهاية الهيبتاستاديون القديم عند الجزيرة والتى كان يقع عندها هذا الديولكوس ، لازالت تستخدم حتى يومنا هذا لنفس الغرض ، حيث تقوم بعض الترسانات الصغيرة مجاورة لنادى اليخت الحالى .

د . منى حجاج
إستاذ الآثار اليونانية والرومانية المساعد
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

(*) « ... » كلمة يونانية .



ديولكوس كورنثة

الهـــــوامش

(١٠٦) حفظ النصان ضمن عمل أوريباسيوس المعروف Medical
Compendium الذى ترجع انبه معظم معارفنا عن الطب الاغريقى راجع :
Coll Med. II, 58, 54-55 ; 58, 129 Apud : Fraser, P.M.,
The Diolkos of Alexandria, J.E.A., 47, (1961), p. 134.

(١٠٧) Strabo, Geography, VIII, 64 ; Pomponius Mela, II. 3 : Lehmann-Hartleben, K., (Die Antiken Hafen-anlagen des Mittelmeeres », Klio, XIV, 1923, p. 47.

(١٠٨) Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, ed. Bury, Vol. VII, (Methuen, Lond., 3rd ed., 1909), p. 185.

(١٠٩) Fraser, P.M., « The of Alexandria, J.E.A., 47, 1961, pp. 134-138.

(١١٠) Adriani, A., Reportorio d'arte dell' - Egitto greco-romano (Palermo, 1966), p. 220.

(١١١) وردت (XVII, 792C) للاشارة الى جزيرة فاروس عند معظم الكتاب القدامى الذين تناولوا الاسكندرية امثال سترابون ، واريستيا (Epistolae, 301) وجرميفوس (B.J. XII, 103) وكاتب حرب الاسكندرية . (Bellum civilis, III. 111-5).

(١١٢) Strabo, XVII, 792 c.

(١١٣) Aristias, Epistulae 301.

(١١٤) Bellum Alexandrimum, 17-21.

(١١٥) Bellum Civilis, III, 111.5.

(١١٦) Breccia. EV., Alexandrea ad Aegyptum, English ed., Bergamo, 1922, p. 78.

(١١٧) Breccia, op. cit., p. 108.

(١١٨) Ibid., p. 77.

(١١٩) Calderini, A., Dizionario dei nomi geograficie e topografici dell, Egitto greco-romano, I. 1, (Cairo, 1935), p. 160.

(١٢٠) اعتاد الرومان أن يضيفوا الى الألسنة الطبيعية أرصفة صناعية تزيد من قوة الرصيف وصموده للتيـــارات البحرية ، مثل ما حدث فى ميناء رمينى Remini من عصر آغسطس ، وميناء أنقونا Ancona من عصر تراجان وميناءى تارنتوم Tarantum وبرندزى Brendezium .

(١٢١) Josephus, B.J., TV, 10, 5.

(١٢٢) Milne G., A History of Egypt unrer Royman Rule, Methuen Co., London, 3rd ed., 1924, p. 83.

(١٢٣) يذكر سترابون أن الفتحتين كان يعلوهما جسران . Strabo, XVII, C 792.

(١٢٤) Strabo, XVII, C 792

(١٢٥) ترجم Jones الكلمة بلفظ Seamen, Strabo, XVII C 792, Loeb. ed. بينما ترجمها فريزر بلفظ Fishermen بينما تترجم الكلمة فى المعجم : of or for a shipi راجع : Lidrell & Scott. A Greek-English Lexicon, (Oxford, Clarendon Press, 1968)(, p. 1163.

الرموز البحرية ودلالاتها فى الفن المسيحى المبكر فى مصر

أ • د • عزت زكي حامد قادوس

المقـدمة :

الرمز فى اللغة يعنى الايماء والاشارة والعلامة ، أو أى شكل من أشكال التعبير اللفظية وغير اللفظية • ويتمكن العقل البشرى من خلال الرموز من اخفاء المعنى ومن استخلاص هذا المعنى من خلال المعلومات المتناثرة والموضوعات المبعثرة والأشياء المتباعدة ؛ ولذلك فان الرموز هى وسائل للفهم ولاحداث العلاقة بين ما هو موجود داخل الانسان وما هو موجود خارجه ، بين العالم الطبيعى والعالم الانسانى، بين العالم المحدود والعالم اللامحدود ، بين الكون الصغير والكون الكبير •

وقد عرف بعض المفكرين الرمزية بأنها فن التفكير من خلال الصور وقال البعض الآخر ، ان الصورة تصبح رمزية عندما يكون معناها كامنا خلف السـطح وخلف الظاهر ، وموجودا بعيدا عن التناول المباشر للعقل (١٢٦) •

وقد يكون الرمز حدثا تاريخيا مثل شرب شعب اسرائيل من الماء الخارج من الصخرة التى هى المسيح (١٢٧) ، أو خدمة طقسية

مثل ذبيحة خروف الفصح التى كانت ترمز الى ذبيحة المسيح ، أو شخصا معينا مثل ملكي صادق الذى كان يرمز الى تناول الشربة الالهية للمسيح (١٢٨) ٠

مفهوم البحر في الديانات القديمة :

منذ عصر الأساطير يشعر كل انسان أمام البحر بأنه ازاء قوة هائلة لا تقهر ، مرعبة عند هيجانها تهدد البحارين (١٢٩) وسكان الشواطىء وهى دائما على وشك أن تغمرهم بأمواجها ، وهذا البحر أو بالأحرى الأوقيانوس الكونى الذى يحيط بالعالم كان فى الأساطير الخاصة ببلاد ما بين النهرين مجسدا على هيئة حيوان وحشى ضخم (تنين) يسمى تيامات (١٣٠) وهو يمثل قوى الفوضى والدمار التى كان على مردوك اله النظام ، أن ينغلب عليها حتى يرتب الكون (١٣١) ٠ بعكس ذلك ، يقتصر البحر فى الكتاب المقدس على أن يكون مجرد خليقة ٠ ففى قصة الخلق التقليدية ، يقسم الرب مياه الهاوية (تهوم) الى قسمين : فمثلما كان يفعل مردوك (١٣٢) بالنسبة الى جسد تيامات (١٣٣) فى أساطير ما بين النهرين حين يقسمه الى شطرين نجد هذه الصورة قد تخلت عن كل سمة أسطورية لأنه لم يعد هناك صراع بين الله القدير والخواء المائى الأصلى ٠ فعندما نظم الخالق هذا العالم ، جعل للمياه حدا ثابتا لا تتجاوزه الا بأمره (١٣٤) ٠ وهكذا يضع الكتاب المقدس البحر فى مكانه بين الخلائق ويدعوه مع جميع الخلائق الأخرى ، لتسبيح خالقه (١٣٥)٠

رمز البحر من الناحية الدينية :

حين استقرت تعاليم الكتاب المقدس ، أصبح أصحاب الكتاب يستطيعون دون أى خطر أن يستخدموا الصور القديمة الأسطورية مجردة من كل شبهة وثنية ولعل البحر يدخل فى الهيكل صورة رمزية للأوقيانوس الأولى (١٣٦) ، ولكن الكتاب المقدس يستخدم

بالأحرى نوعا آخر من الرموز · فعلى سبيل المثال ، فان مياه الغمر العميق تمد الكتاب المقدس بالصورة الناطقة للخطر المهلك (١٣٧) لأن هذا العمق بحسب القصور القديم يعبر عن الهاوية (١٣٨) ·

أنواع الرمزية البحرية :

هناك سؤال هام يمثل محور هذه الرموز البحرية :

هل هذه الرموز البحرية موروث شعبى محلى أم ضرورة عقائدية مرتبطة بالمفهوم الدينى ؟ أو بمعنى آخر :

هل العناصر الرمزية البحرية مرتبطة بالجغرافيـة الاقليمية المطلة على البحر ، أم أنها نابعة من الميثولوجية المسيحية فى مصر ؟

ونحن نجد أن هذه الرموز تجمع بين الشقين فى ذات الوقت ، فهى نابعة من حالة الامتزاج الحادثة فى الفن السكندرى خلال العصر البطلمى ، الذى عبر عن الشخصية السكندرية بكل تفاعلاتها النفسية والاجتماعية لسكان هذه المدينة من خلال كم من الرموز ذات المدلول الفلسفى الغامض والمؤثر بصورة مباشرة فى الحياة الاجتماعية · ومن ثم ارتبطت الرموز البحرية فى الاسكندرية بخصوصية جديدة ربما لم تكن مألوفة فى العديد من مدن البحر المتوسط آنذاك ، فهى كيان مختلط داخل نسيج المجتمع السكندرى ، وبالتالى فمع دخول المسيحية ــ المهيأة تلقائيا لقبول عناصر مجسدة أو مرئية لتفسير عناصرها العقائدية والطقسية المفقودة فيها آنذاك ــ وجدت تلك الرموز قبولا واستحسانا لابراز هذه المفاهيم ، وبالتالى انتشرت وتحولت العناصر الرمزية فى المجتمع السكندرى من كونها مرتبطة جغرافيا بسكان المدينة ، الى عناصر رمزية داخل العقيدة التى انتشرت من خلال الاسكندرية الى معظم الأقاليم المصرية حاملة معهـا تلك

الرموز البحرية المساعدة على تفسيرها ، ومن هنا وجدت تلك العناصر قبولا فى أقاليم مصرية داخلية بعيدة عن البحر وغير مرتبطة بها ، وبذلك أصبحت مرتبطة بالعقيدة المسيحية أكثر من ارتباطها بالنظام الجغرافى أو الاقليمى البحرى ·

وبناء على ذلك ، فانه يمكننا تقسيم هذه الرموز البحرية الى مجموعتين :

المجموعة الأولى : رموز بحرية نابعة من أشكال بحرية ذات صلة بالمجتمع ·

المجموعة الثانية : رموز بحرية مرتبطة بالأحداث التاريخية ·

المجموعة الأولى : رموز بحرية نابعة من أشكال بحرية ذات صلة بالمجتمع ·

أولا : السفينة :

كانت السفينة من أهم الرموز المسيحية التى ترمز الى العالم الآخر ، وترمز السفينة فى الفن القبطى الى كنيسة المسيح التى تحمل كل من يدخل اليها الى الجنة المنشودة وتحميه من الغرق حتى تصل به الى بر الأمان ، وقد ارتبطت السفينة منذ بداية العهد القديم بقصة النبى نوح (١٣٩) فهى أداة النجاة فضلا عن ارتباطها بالسيد المسيح الذى علم تلميذه من خلال احدى السفن (١٤٠) ·

ولدينا من مناظر السفن العديد من الأشكال ، والسفينة نجدها مصورة على شاهد جنائزى من كوم أبوبللو (١٤١) يرجع الى ما بين القرنين الثانى والثالث الميلاديين (صورة رقم ١) ، وتوضح السفينة هنا فكرة الموروث الخاص بالرموز البحرية ومدى ارتباط

هذه الرموز فى العقائد المصرية القديمة والتى انتقلت بعد ذلك الى المسيحية نظرا لأن هذه السفينة التى تنقل الأرواح الى العالم الآخر هى السفينة فى الفن المسيحى التى ارتبطت ارتباطا طقسيا بأنها رمز للكنيسة المقدسة التى تحمى المؤمنين المسيحيين ، أو تحمل المسيحيين الى الملكوت الآخر .

ومن ضمن مناظر السفينة فى العصر المسيحى منظر لشاهد قبر فى المتحف القبطى (صـــورة رقم ٢) يرجع للقـرن الرابع الميلادى (١٤٢) هذا المنظر يوضح نفس المفهوم فى استخدام السفينة استخداما طقسيا ؛ نظرا لأن السـفينة تحتوى على الطغرة AW التى ترمز الى البداية والنهاية للمسيح وتحمل السفينة الصليب بالشكل الذى يتفق مع الرمز فى كونه صليبا وساريا للسفينة ، وهو ايحاء رمزى مستخدم فى العقيدة المسيحية (١٤٣) .

ومن المقبرة رقم ٣٠ بالبجوات والتى ترجع الى القرن الرابع الميلادى (١٤٤) لدينا مناظر لسفن ــ رغم وقوع هذه المنطقة خارج نطاق البحر داخل الصحراء ــ تعبر عن الموروث الحضارى الفرعونى الممثل فى سفينة سوخاريس المستخدم فى الطقوس المصرية القديمة . والسفن هنا تحمل المؤمنين الى العالم الآخر داخل مقبرة مسيحية عثر عليها فى وسط الصحراء ، والسفينة مصورة فى نفس نمط سفينة نوح التى ذكرت فى التوارة على شكل صـــندوق (١٤٥) (صورة رقم ٣) .

ومن دير أرميا فى سقارة لدينا رسم جدارى يعود للقرن الخامس يصور سفينة داخل حجرات الرهبان (صـــورة رقـم ٤) وهذا التمثيل لسفينة داخل الصحراء ، وهى تمثل نموذجا ايمانيا للراهب

أثناء تعبده حيث تعبر هذه السفينة عن فكر خاص للرهبان داخل احدى القلايات وهي مصورة بشكل تجريدى بحت وهي تجر مستلزمات الحياة . ويدلنا تصوير هذه السفينة على أن الراهب ربما لم ير في حياته سفينة ، ولكنها ارتبطت عنده بارتباط عقائدى وايمانى مختلف عن ارتباطها بالبحر أو بالمنطقة الساحلية .

وهناك سفينة أخرى من دير ارميا بسمارة ترجع للقرن الخامس الميلادى وهى نموذج آخر من السفن (صورة رقم ٥) وبما أن صاحب هذه السفينة قد شاهد سفنا من قبل ، فقد صورها فى صياغة مختلفة عن الأمثلة السابقة وهى بالطبع تخدم نفس الغرض ، فان لم يكن الأمر كذلك فما الغرض اذن من تصوير سفينة داخل قلاية أحد الرهبان يعيش فى الصحراء ؟

ونموذج آخر من دير القديس أبوللو فى باويط بأسيوط(١٤٦) من القرن السابع الميلادى (صورة رقم ٦) ، وهى من الرسوم الجدارية وتمثل الأسطورة اليونانية لملاحى أرجون وفى نفس الوقت فهى مرتبطة بنفس الموضوع وهى سفينة نوح التى تحمل المؤمنين بعيدا عن خطر الطوفان ، وهنا أراد الفنان أو الراهب أن يزين هذه السفينة بنوع من الزخرفة فجعل السفينة على شكل مبنى كنسى ذى جمالون وعلى جوانبه الصلبان المختلفة ؛ لكى يؤكد أن هذه السفينة ما هى الا الكنيسة المسيحية التى تعبر به من الحياة الدنيوية الشريرة الى الحياة الروحانية من خلال دخوله هذه السفينة ، فالسفينة ما هى الا الدير والأشخاص المصورون بداخلها ما هم الا الرهبان .

ونموذج آخر من دير القديس أبو للو فى باويط بأسيوط(١٤٧) من القرن السادس الميلادى (صورة رقم ٧) والفنان هنا يحاول أن

ينقل للمشاهد الصورة الموجودة فى التوراة عن قصة نوح ، فالسفينة عبارة عن صندوق على شكل مبنى كنسى يجر من خلفه احتياجات المؤمنين ، وقد حاول الفنان من خلال الزخارف التأكيد على رموز معينة مثل الصليب الذى يمثل سارى السفينة وكذلك حرفى Aw اللذين يتوسطان السفينة كجزء من مكونات السفينة التى تمثل بذلك البداية والنهاية ٠

ثانيا : الكائنات البحرية :

(أ) الأسماك :

شبه المسيح ملكوت السموات بشبكة تجمع مختلف أنواع السمك (١٤٨) والسمكة هى رمز مقدس عند المسيحيين ، وهى ترمز الى العشاء المبارك ، وقد رمز المسيحيون الأوائل بالسمكة الى ايمانهم فكانت علامة التعارف بينهم (١٤٩) ، والواقع ان حروف السمكة فى اللغة اليونانية 6xvs هى بدء كلمات الجملة « يسوع المسيح ابن الله المخلص » (١٥٠) ٠ ولدينا من صور السمك صورة جدارية من كوم أبو جرجا باقليم مريوط غرب الاسكندرية وهى ترجع الى القرنين الخامس والسادس (صورة رقم ٨) ٠ فارتباط السمكة بالمسيح مؤكد من خلال قصة العشاء المبارك ، ولكن نجد هنا أن الأسماك تعبر عن البيئة السكندرية القريبة من ميناء ماريا ، حيث ان هذه المنطقة كانت استراحة للحجاج ما بين ماريا الميناء وبين دير أبو مينا ، والصورة الجدارية تعبر عن احدى الاستراحات أو حجرات الصلاة التى استخدم فيها عنصر السمكة كزخرفة ذات مفهوم دينى كما سبق القول ومفهوم بحرى يعبر عن سمة البيئة البحرية فى الاسكندرية ٠

ولدينا من مقابر قورينة فى ليبيا من القرن الرابع الميلادى صورة جدارية تمثل الراعى الصالح (١٥١) وحوله مجموعة من الأسماك (صورة رقم ٩) • فقورينة منطقة بحرية فى ليبيا وارتباط سكان هذه المنطقة بالبحر شئ طبيعى ، وهنا نرى تنوعا واضحا فى أشكال وأنواع الأسماك الموجودة فى هذه اللوحة ، والرمز هنا ليست له الأدلة الخاصة بالمسيح ولكنه يرمز الى البيئة البحرية لأن المسيح هنا صور فى المنتصف فى شكل الراعى الصالح وبالتالى ليست هناك أية ضرورة لتصوير الأسماك ؛ لأن الفنان اذا أراد أن يرمز الى السيد المسيح فى شكل سمكة لكان صور سمكة واحدة ولا داعى على الاطلاق لتصوير هذا الكم من الأسماك المتنوعة ، لذلك فان تصوير الأسماك فى معظم الأجزاء الفارغة من اللوحة ما هو الا ايحاء الى البيئة البحرية التى صورت فيها هذه اللوحة •

(ب) التنين البحرى :

ولدينا من تصوير التنين البحرى لوحة نحتية بارزة من اهناسيا (١٥٢) فى المتحف القبطى (صورة رقم ١٠) وهذا المنظر يصور حورية فوق تنين بحرى ترجع الى القرن الرابع / الخامس الميلادى (١٥٣) ، وهذا التنين يرمز الى تيامات الذى يرمز الى الشر فى البحر (١٥٤) ، وهنا حاول الفنان أن يرمز الى سيطرة الحوريات على هذا التنين ، والحوريات بدورهن يمثلن الكيان الروحى للراهب الذى يتغلب على القيمة الشريرة الممثلة فى الرموز البحرية • وهنا نجد نموذجا يمثل وجهى الخير والشر : الخير ممثلا فى الحوريات والشر ممثلا فى التنين وكلاهما مرتبط بالرموز البحرية • وهذه اللوحة على الرغم من وجودها فى اهناسيا البعيدة تماما عن البحر (١٥٥) والبيئة البحرية المصرية ؛ الا أنها تمثل القيمة الدينية والأخلاقية التعليمية الخاصة بمفهوم المسيحية ، اذ تبين كيف ينتصر

الخير على الشر ، وهذا موروث عقائدى مرتبط لدى المصريين ، سواء أكانت الرموز المستخدمة رموزا بحرية أم رموزا مرتبطة بالعقيدة المصرية ٠

(جـ) الدرافيـــل :

ولدينا من صور الدرافيل حنية فى المتحف القبطى ترجع الى القرن الرابع / الخامس الميلادى (صورة رقم ١١) مصورا عليها صورة حورية تمسك بدرفيلين فى يديها ومفهوم هذه الصـــورة ينبع من المفهوم الطقسى الخالص ، حيث ان هذه الصورة داخل حنية للصلاة ٠ ورغم ذلك فقد قصد الفنان أن يصور المسيح فى صورة الحورية التى تمسك بدرفيلين ، والتى ربما تعنى الحالة الايمانية للمسيحيين ؛ اذ يحاول المسيح فى هذه الحالة أن ينقذ المؤمنين من الهلاك فى البحر من خلال هذه الصورة ٠

(د) مجموعة الحوريات :

كانت الحوريات من المناظر البحرية التى تصور كثيرا فى الفن القبطى ويتضح ذلك من خلال لوحة نحتية من اهناســـيا (١٥٦) محفوظة فى متحف التاريخ الوطنى والفنون فى تريســـتا (١٥٧) ترجع الى المرحلة الثالثة من الفن الاهناسى ، وهى من أبرز وأعمق فترات الفن القبطى فى مصر (صورة رقم ١٢) والحوريات مصورة فى حالة من النشوة والفرح كما يبدو على وجوههن وكذلك ايروس الذى يركب أحد الدرافيل (١٥٨) ٠ وهنا نجد الفنان يتعامل فى حرية واضحة مع الموضوعات حيث مزج بين الأسطورة اليونانيـــة الممثلة فى شكل رأس الميدوسا ذات الملامح الشريرة بكل ما تحمله من قيم شريرة فى المجتمع اليونانى وبين الروح المصرية الممثلة فى

شكل الحوريات ولكنه حـــاول أن يستخدم هذه الروح فى وجوه الحوريات الضاحكة وفرحتهن أثناء الرقص ٠ والغرض الأساسى من هذه اللوحة هو ابراز التضارب بين القيم الشريرة والقيم الخيرة وبذلك فالفنان ينقل للمسيحيين مدى الفرحة والنشوة التى تنتاب المؤمنين حينما يسيطرون ويتغلبون على القيم الشريرة فى المجتمع ٠

(هـ) الصدفة البحرية :

وردت أشكال عديدة للصـــــدفات البحرية فى الفن القبطى حيث تظهر على أحد شواهد القبور من كوم أبو بللو التى ترجع للقرن الرابع / الخامس الميلادى (١٥٩) وهى تعبر عن رؤية طقسية جنائزية فى الفن القبطى (صورة رقم ١٣) ٠ فمن غير الثابت أن تكون الصــدفة مرتبطة بالطقوس الجنائزية فى الفن الرومانى ؛ ولكنهــا ارتبطت فى الميثولوجيــا اليونانيــة بمولد أفرودويت من زبد البحر ، وقد حاول بعض العلماء الربط بين الصدفة وبين مولد السيد المسيح ، ولكن الصدفة هنا تعنى انبثاق شىء من شىء آخر ، فهنا نجد أن المتوفى يجلس على أريــكة على النمط السكنـــدرى المعروف (١٦٠) ويمســك فى يده اما كأس الاله ديونيســوس ، أو مبخرة ٠ والصدفة هنا تبدو شـــاذة داخل السيمترية العــامة للموضــوع ، فالصدفة هنا تدل على ميلاد هذا المتوفى من جديد خاصة بالنسبة للمؤمنين المسيحيين الذين يعتقدون أنهم بانتقالهم الى العالم الآخر يكتب لهم المولد من جديد ٠

ونفس الشىء نجده فى صور الصدفة التى تعبر عن المولد من جديد خاصة فى القطع التى ترجع الى اهناسيا (١٦١) وهى منطقة صحراوية ، والصــدفة رمز محبب ومخصص ومتفق عليــــه بين مسيحيى اهناسيا (١٦٢) ٠ فحين يصــور الفنان الالهة أفروديت

عارية تنبثق من داخـل الصدفة فهو يعنى مولد السيد المسيح (صورة رقم ١٤ ــ ١٥) • أما تصوير الفنان لمنظر صدفة داخل صدفة فى معبد دندرة والتى ترجع الى القرن الخامس الميلادى (١٦٣) فهى تمثل انبثاق صدفة من صدفة أخرى حيث صـــور الصدفة الصغرى فى منتصف الصدفة الكبرى (١٦٤) (صورة رقم ١٦) ونجد أن معنى الصدفة فى حنية تشعر المتعبد أنه داخل شىء طاهر نقى ينبثق منه منظر أوسط يشد انتباه المتعبد • أما الصدفة الداخلية فهى تعبر عن انبثاق السيد المسيح من السيدة العذراء والشرط فى الصدفة أن ما بداخلها شىء نقى وثمين وعلى ذلك طبع الفنان هذا المفهوم بتصويره الصدفة •

وفى حنية أخرى من دندرة نجد منظرا مختلفا عن المنظر السابق حيث يظهر الصقر حورس (الاله الرئيسى فى هذه المنطقة) وهو يخرج من داخل الصدفة فى هيئة نسر وهو يمثـــل المسيح الذى ينبثق من داخل الصدفة • والنسر يمثل مفهوم القوة التى منحهـا الرب للمسيح من أجل عبور الدنيا والوصول الى العـــالم المثالى الخارجى وهنا مزج الفنـــان بين الطابع المصرى ممثلا فى الصقر حورس وبين الطابع الرومانى ممثلا فى الصدفة البحرية •

(و) اله النيل :

يعبر اله النيل عن الكينونة البشرية للسيد المسيح ، حيث يصور اله النيل على لوحة نحتيه من اهناسيا محفوظة فى متحف روكلين ترجع الى القرن الثانى/الثالث الميلادى (١٦٥) (صورة رقم ١٧) • وهذه القطعة تعطى مدلولا جديدا للرموز البحرية فى الفن القبطى حيث ان استخدام اله النيل كرمز بحرى لم يكن مقصورا على كونه شخصية دينية فقط بل يدل على ارتباطه بالمياه ، والمياه هنا فى مفهومها التجريدى تعنى مياه البحر أو مياه النيل ولكن استخدامه

كمدلول بحرى فى وسط كائنات بحرية مثل الأسماك ، يعطى معنى السيطرة على مياه البحر وخيرات البحر ٠

وعلى قطعة نحتية أخرى من منطقة أهناسيا ترجع الى القرنين الرابع والخامس الميلاديين (صورة رقم ١٨) يصور اله النيل وعلى كتفه ايروس ، وهنا صور الفنان المسيح ككينونة بشرية وهى مرحلة من مراحل تطور العقيدة المسيحية فى مصر ٠

وعلى احدى قطع النسيج (١٦٦) (صورة رقم ١٩) يظهر اله النيل فى صورة رجل عجوز يحمـــل قرن الخيرات فى يده وفوق رأسه سلة الخيرات التى يجود بها النيل ، واطار المنظر عبارة عن مجموعة من الثمار (١٦٧) ٠ وتصوير اله النيل فى صـــورة رجل عجوز يرمز الى السيد المسيح فى مرحلته البشرية وذلك من خلال الخيرات التى يحملها هذا الاله ومن خلال القوة الجسمانية المصورة ، ففى وسط المنظر يظهر المسيح ممسكا بالصليب، وعلى الجانبين نرى القرن الرابع الميلادى (١٦٩) ٠

ثالثا : استخدام الرموز البحرية لخدمة منظر المسيح :

تمثل احدى القطع النحتية فى المتحف القبطى من مجموعـة ميريت باشا (صورة رقم ٢٠) نوعا من استخدام الزخارف البحرية بكافة رموزها لخدمة منظر متوسط من مناظر المسيح وهو المباركة ، ففى وسط المنظر يظهر المسيح ممسكا بالصليب وعلى الجانبيين نرى مجموعة من الدرافيل الصاعدة الى السماء أما الأفريز السفلى فيصور اثنين من الدرافيل التى تنزل الى أسفل ، وعلى الأطراف صدفة فى كل جانب فى سيمترية واضحة ورائعة ٠ فالدرافيل التى تصعد الى أعلى تعبر عن الايمان الذى يصعد بصاحبه الى السماء ، أما الدرافيل

التي تنزل الى أسفل فهي تعبر عن عدم الايمان ، وبالتالي النزول الى أسفل السافلين · وقد برع الفنان في استخدام الثنائيات في المنظر بالكامل ، وهنا يعطي الفنان الايحاء للمشاهد بضرورة النظر الى مركز الصورة ، وكل الأشياء المصورة تخدم الصورة الوسطى وهي للسيد المسيح ·

المجموعة الثانية :

رموز بحرية مرتبطة بالأحداث التاريخية :

وهي تعني استخدام مناظر الرموز البحرية في تكوينات خاصة بقصص العهد القديم ، وهي مستوحاة اما من الكتـــاب المقدس أو من ابداعات خاصة بالفنان ؛ بالرغم من أن هذه الموضوعات لم تكن مصورة من قبل ، وبالتالي نجد أن هناك ارتباطا بين الطقس الديني أو المفهوم النصي وبين الابداعات الفنية ·

١ ـ تصوير سفينة نوح :

وهو رمز بحري شهير للغاية · وبالرغم من وجود هذا الرمز في احدى الكتاكومب الرومانيـــة في روما التي ترجـع الى القرنين الثاني والثالث الميلاديين (١٧٠) (صورة رقم ٢١) الا أن الفنان حاول أن يبرز نفس الفكرة التي وردت في سفر التكوين في العهد القديم (١٧١) ، وهي أن سفينة نوح كانت عبارة عن صندوق ذي أبعاد معينة ، فهنا صور السفينة ليست على شكل مركب وانما على شكل صندوق بين الأمواج المتلاطمة في البحر ، وقد رمز الفنان الى البشارة القادمة لنوح في صورة الحمامة التي تحمل غصن الزيتون ، وبالتالي أصبحت السفينة هنا رمزا للخلاص ورمزا للنجاة · وهنا

نجد أن الرمز البحرى أصبح مرتبطا بالطقوس الدينية أكثر من ارتباطه بالبيئة البحرية أو بمجتمع يعتمد على السفن والمراكب ٠

ونفس الفكرة نجدها في مصر فى مقابر الواحات الخارجة (مزار السلام) (١٧٢) ، حيث صور الفنان السفينة على الطراز الفرعونى ولكن فى شكل مغلق من أعلى أى على شكل صندوق حتى يؤكد على مفهوم النص ، وصور الفنان نوحا وزوجته داخل السفينة ومعه مجموعة من أبنائه ، وهى هنا تعطى مفهوما للخلاص في الواحات الخارجة البعيدة عن البحر والساحل ، فارتبطت السفينة هنا بالطقوس الدينية اكثر من ارتباطها بالكيان البيئى ٠

وعلى منظر جدارى من البجوات نجد صورة من العهد القديم فى مقابر البجوات (١٧٣) (صورة رقم ٢٤) ففى المنتصف نجد سفينة نوح ، أما ناحية اليسار فنرى سفينة النبى يونان الذى ابتلعه الحوت ، وقد صور الفنان سفينة نوح بطريقة تجريدية بحتة حتى يعطى انطباعا بشكل الصندوق كما ورد فى نصوص العهد القديم (١٧٤) ، وهنا ترمز هذه السفينة الى الخلاص ٠

ومن احدى مقابر الكتاكومب الرومانية بطرس ومرسيليان فى روما لدينا رسم جدارى لقبة تصور منظر سفينة نوح فى شكل صندوق (١٧٥) (صورة رقم ٢٥) وهنا حاول الفنان فى كل منظر أن يبرز منظر البحر فأعطى الأرضية اللون الأزرق ، وكذلك حاول أن يصور كل المناظر التى وردت فى الكتاب المقدس ولها ارتباط بالبحر مثل سفينة نوح ، والنبى يونان بعد خروجه من البحر ، وكذلك يونان والحوت على شكل تنين ، ثم قصة الحوت وهو يقذف يونان خارج البحر ، وهذه كلها قصص مرتبطة بالرموز البحرية وليست لها علاقة بالبيئة البحرية ؛ ولكنها مستوحاة من الكتاب المقدس ، أى أنها ذات وظيفة طقسية ٠

٢ ـ النبى يونان والحوت :

نفس الاتجاه الفنى نستطيع تتبعه على أحد الرسومات الجدارية من مقابر بطرس ومرسيليان فى روما (١٧٦) وهى تمثل عملية قذف يونان فى البحر (١٧٧) ، وهذه اللوحه (صورة رقم ٢٦) ذات وظيفة طقسية بحتة وليس لها أى علاقة بالبيئة البحرية • وفى مقبرة نيودورا فى روما (١٧٨) (صورة رقم ٢٧) نرى العديد من الرموز البحرية التى صورته على رسم جدارى حيث نجد قصه قذف يونان وقصة ابتلاع الحوت له ، ثم جلوس يونان أسفل الخميلة • ورغم أن هذا المنظر فى روما الا أن شكل المركب المصورة فرعونية الطراز (١٧٩) • والمعروف أن النبى يونان ليس له ارتباط مباشر بمصر فهو قد جاء من مدينة جت حافر على بعد ثلاثة أميال من الناصرة بفلسطين (١٨٠) •

ومن مصر لدينا صورة جدارية تصور قذف يونان الى البحر وهى المنظر الوحيد للنبى يونان فى الاسكندرية ومحفوظة فى المتحف اليونانى الرومانى بقاعة البهنسا ، وقد اكتشفت فى مقابر الوردبان غرب الاسكندرية • والمنظر فى حالة سيئة ولكننا نستطيع التعرف على هذا الرمز البحرى الموجود فى بيئة بحرية مثل الاسكندرية حيث يجلس النبى يونان تحت الخميلة ، وهنا وظف الفنان هذا المنظر لخدمة العقيدة المسيحية فى عملية الخلاص •

ومن مقابر البجوات بالواحة الخارجة (١٨١) لدينا منظر جدارى يمثل قذف النبى يونان الى البحر من السفينة، وقد استطاع الفنان اعطاء ايحاء بمنظر البحر من خلال تهشيرات أسفل السفينة ، ويتضح من هذا المنظر أن شكل السفينة ليس له أى علاقة بالسفن التى تجوب عباب البحر على السواحل ، ولكن الفنان صورها فى بيئة صحراوية ربما لم تر السفن من قبل • ورغم التجريدية

الواضحة في المنظر فقد وظف الفنان هذا المنظر لخدمة الطقوس الدينية في صحراء البجوات حيث تعبر عن الخلاص ·

٣ ـ النبى موسى وشق البحر :

تعتبر صورة النبى موسى وهو يشق البحر من الصور الهامة التى ظهرت فى الرســـوم الجدارية فى الفن المسيحى المبكر وذلك كحدث تاريخى ورد فى العهد القديم (١٨٢) · هذا الرمز البحرى يظهر فى مقابر بطرس ومرسيليان فى روما (١٨٣) (صورة ٣٠) ليعبر عن الخلاص ، حيث يرمز البحر هنـا الى الخلاص أى خلاص النبى موسى واليهود من فرعون مصر وقومه ، حيث يشق موسى البحر الأحمر ليعبر الى سيناء سالما مع قومه · فبعد أن كان البحـــر فى الأساطير القديمة يمثل كائنا شريرا فى صورة تيامات ، أصبح معبرا عن الخلاص فى العقيدة المسيحية ·

وفى منظر آخر من الرسوم الجدارية من الكتاكومب الرومانية (كتاكومب Via Latina) (١٨٤) نرى نفس القصة ولكن بتفاصيل أكثر حيث صور النبى موسى فى الوسط بحجم أكبر من الأشخاص الآخرين ، وهو يمسك عصاه ويشق بها البحر ليعبر بقومه الى سيناء وخلفه يقف هارون · أما اليد التى تظهر أعلى الصورة فهى اليد الالهية التى تساعد النبى موسى فى شقه للبحر وبذلك تعبر عن الخلاص ، ويظهر الى يمين الصورة يهود مصر بعد عبورهم البحر وخلاصهم من شر فرعون وقومه الذين يظهرون فى الجزء الأيسر من الصورة ·

ومن نفس الكتاكومب (١٨٥) نرى نفس المنظر (صورة رقم ٣١) حيث يشـــق موسى البحـــر ويعبر بقومه · ويظهر وهو

يشير بعصاه الى البحر لكى يغرق فرعون مصر وقومه بعد أن عبر الى البر الآخر ، ويظهر موسى كآخر شخص في المجموعة التى تقف الى اليمين من الصورة ٠

٤ ــ تعميد السيد المسيح :

من الأسس التى قامت عليها العقيدة المسيحية عمليه التعميد (١٨٦) حيث يظهر هذا الموضوع فى العديد من المناظر الجدارية ٠ ولدينا صورة جدارية من باويط باسيوط (١٨٧) ترجع الى القرن الثامن الميلادى (صورة رقم ٣٢) ، وهى تعبر عن الاتجاه الأرثوذوكسى الذى يعمد المسيح وهو طفل ، حيث يظهر السيد المسيح فى الوسط وحوله مجموعة من الأسماك من نفس النوع ، وعلى يمين المسيح يجلس شخص اختلف فى تحديده العلماء ، ولكنه ربما يعبر عن أوقيانوس اله المياه والبحر الذى يرمز الى نهر الأردن الذى عمد به المسيح ٠

وفى منظر جدارى آخر من كنيسة ثيودورا فى رافينا (١٨٨) (صورة رقم ٣٣) نرى المفهوم الكاثوليكى فى تعميد المسيح وهو رجل حيث يقف المسيح فى وسط النهر ويسكب يوحنا المعمدان الماء فوقه من خلال يد الهية فى السماء ، عبر عنها الفنان بنصف دائرة زرقاء اللون ٠

ومن احدى المخطوطات التى عثر عليها فى مصر وترجع للقرن الثانى عشر نرى صورة للسيد المسيح أثناء التعميد بنفس التفاصيل السابقة (١٨٩) (صورة رقم ٣٤) ٠

وخلاصة القول : ان هذه الرموز البحرية ارتبطت بالخدمة الطقسية للعقيدة المسيحية اكثر من ارتباطها بالموقع الجغرافى للبيئة البحرية ٠

الهـــــوامش

(١٢٦) شاكر عبد الحميد ، المفردات التشكيلية رموز ودلالات ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، فبراير ١٩٩٧ ، ص ٥ ــ ٨ .

(١٢٧) العهد الجديد ، كورنثوس الأول ، ١٠ : ٤ .

(١٢٨) بطرس عبد الملك ، قاموس الكتاب المقدس ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٤٠١ .

(١٢٩) العهد القديم ، مزمور ١٠٧ : ٢٣ ــ ٣٠ .

(١٣٠) Oates, J., Babylon (Thames è Hudson, London, 1979). pp. 169-170

(١٣١) Moortgat. A., Die Kunst des alten Mesopotamien (velag M. Du Mont Schauberg, Köln. 1967), p. 163.

(١٣٢) Oates, Op. cit., p. 179, Fig. 124.

(١٣٣) العهد القديم ، سفر التكوين ١ : ٦ ــ ٧ .

(١٣٤) العهد القديم ، سفر التكوين ١ : ٩ ، مزمور ١٠٤ ، ٦ ــ ٩ ، أمثال ٨ : ٢٧ ــ ٢٩ .

(١٣٥) مزمور ٦٩ : ٣٥ ، دانيال ٣ : ٧٨ .

(١٣٦) العهد القديم ، الملوك الأول ، ٧ : ٢٣ ــ ٢٥ .

(١٣٧) مزمور ٦٩ : ٣ .

(١٣٨) العهد القديم ، يونان ، ٢ : ٦ ــ ٧ .

(١٣٩) سفر التكوين ، ٦ : ١٤ .

(١٤٠) لوقا ٥ : ٣ .

(١٤١) Riad. H., Tomb Paintings from the Nekropolis of Alexandria, Archaeology 17, 1964, p. 180.

(١٤٢) عزت زكي قادوس ، الرموز العقائدية والعناصر الزخرفية على مجموعة جديدة من شواهد القبور بالمتحف القبطي ، مجلة التاريخ والمستقبل المجلد ٤ ، العدد ١ ، ١٩٩٥ ص ص ١١٠ — ١١١ ٠

(١٤٣) M. Stern, Les Peintures du Monastere de L'Eode Bagawat, in : Cahiers Archeologique 11, 1960, pp. 93 ff.

(١٤٤) أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ شكل ٥٩ — ٦٠ ٠

(١٤٥) سفر التكوين ، ٦ : ١٣ — ١٥ ٠

(١٤٦) J. Cledat. Le Monastere et La Necropole de Baouit, in MIFAO XII (1904), pp. 23 f.

(١٤٧) Cledat, op. cit., p. 77, PL. XLV.

(١٤٨) العهد الجديد ، انجيل متى ٤٧ : ١٣ ٠

(١٤٩) بطرس عبد الملك ، قاموس الكتاب المقدس ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٤٨٥ ٠

(١٥٠) كلمة xrs 6 هى الا بداية خمس كلمات تكون الجملة :

I 6ous XPI16Tos

وعلى ذلك فالسمكة ترمز الى السيد المسيح ، راجع جورج فيرجستون ، الرموز المسيحية ودلالتها ، ترجمة : يعقوب جرجس نجيب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ص ٥٩ — ٦٠ ٠

(١٥١) تادرس يعقوب ملطى ، دراســات فى التقليد الكنسى والأيقنة ، الاسكندرية ١٩٧٩ ، ص ٣١٨ ٠

(١٥٢) U. Monneret de Villard, La scultura ad Ahnas (1923) p. 62. Fig. 24.

(١٥٣) G. Duthuit, La Scclpture Copte, statues — Bas Reliefs — masques, Paris (1931), P. 1. 21 a.

(١٥٤) E. Kitzinger, Archaelogia 86, p. 209, pl. 75, 2.

(١٥٥) هناك قطعة أخرى مشابهة بصور نفس الموضوع ، اكتشفت فى مدينة البهنسا (أوكسيرنخوس) ومحفوظة فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية تحت رقم ٢٣٥٥٢ ٠ انظر :

EV. Breccia, Le Musee greco — romain (1925 — 1931), pp. 60 ff. Pl. 39. 142.

(١٥٦) Monneret de Villard, Op. Cit., p. 42 f., Fig. 21.

(١٥٧) P. Sticotti, Rivista mensile della citta di Trieste 4, Nr. 5 1931.

(١٥٨) Duthuit, Op. cit., p. 44 Pl. 32 a.

(١٥٩) v. Aly. Same Funerary stelae from Kom Abou Bellou, in : BSAA 38 (1949), pp. 5 ff.

(١٦٠) نفس النمط نجده فى المقبرة الرابعة فى جبانة مصطفى كامل بالاسكندرية والتى ترجع الى القرن الثالث ق٠م ٠

(١٦١) A. Badawy, Coptic Art and Archaeology, London 1978 p. 144.

(١٦٢) K. Wessel, Coptic Art, New York 1965, No. 39.

(١٦٣) C. Walters, Monastic Archoealogy in Egypt, pp. 100-103.

(١٦٤) صموئيل السريانى ، الفن القبطى والتاثيرات الفرعونية ، دراسة خاصة بمعهد الدراسات اللاهوتية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ص ٢٥ ــ ٢٦ ٠

(١٦٥) J.D. Cooney, Late Egyptian and Coptic Art, Brooklyn, 1943, p. 17.

(١٦٦) هذه القطعة محفوظة فى موسكو بمتحف Puschin Museum تحت رقم 1 a 5822 .

(١٦٧) M. Matje & K. Liapunowa, Stoffe des koptischen Agypten (Moskau — Leningrad) 1951, Fig. 6.

(١٦٨) A. Hermann. Der Nil und die Christen, in : Jahrbuch fur Antike und christentum 2, 1959, p. 63.

(١٦٩) W. Pawlow, Kunstschätze des alten Agypten, Moskau Nr. 131.

(١٧٠) P. Du Bourguet. Early Christian Painting. London. (1965) Pl. 92.

(١٧١) العهد القديم ، سفر التكوين : ٦ ٠

(١٧٢) احمد فخرى ، المرجع السابق ، لوحة رقم ٢٤ ٠

(١٧٣) نفس المرجع ، لوحة رقم ٢٤ ٠

(١٧٤) العهد القديم ، سفر التكوين : ٦ ٠

(١٧٥) Du Bourguet, op. cit., Pl. 93.

(١٧٦) DALC, Tom. 7. Cols, 2580-2581.

(١٧٧) العهد القديم ، أرميا ٥١ : ٣٤ ، ٤٤ ٠

(١٧٨) Ibir. Col. 2581.

(١٧٩) أحمد فخرى ، المرجع السابق ص ٣٣٥ ، لوحة (ب) ٠

(١٨٠) العهد القديم ، يشرع ١٩ : ١٠ ـ ١٦ ٠

(١٨١) أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص : ٩٠ شكل (٤٤) ٠.

(١٨٢) العهد القديم ، سفر الخروج ١٤ ٠

(١٨٣) Du. Bourguet., op. cit., p. 109.

(١٨٤) Du Bourguet op. cit., Pl. 108.

(١٨٥) Ibid., Pl. 110.

راجع أيضا : Kaufman-H., Handbuch der Christlichen Archaeologie, Padertorn. (1922), p. 105.

(١٨٦) العهد الجديد ، انجيل مرقس ١ : ٤ ٠

(١٨٧) Cledat, op. cit., Pls. IV-V, p. 5.

(١٨٨) I. Huller. Early Christian and Byzantine, The Herbert press, Stuttgart (1988), pp. 61-62.

(١٨٩) Ibid., pp. 62-63.

ســـواحل مصر الشــمالية
فى الفن الاســلامى

أ٠د٠ حسن البـاشا

يتضمن هذا البحث دراسة الأساليب التى مثلت بها معالم برية وبحرية من سواحل البحر الأبيض المتوسط المصرية فى الفن الاسلامى ، فى ضوء نماذج من المنتجات فى مجال العمارة والرسم والتصوير والفنون الزخرفية وغيرها مع التطرق الى مقارنات من فنون أخرى ٠

ومن المعروف أن بسواحل مصر الشماليــة عددا من الثغور يشتمل على منشآت عسكرية ومدنية ذات صـــلة وثيقة بالبحر : بعضها فى حالة لا بأس بها من الحفظ ، وبعضها أطلال ، أو وردت له صور ورسومات أثرية ، كما شهدت هذه الثغور وآثارها أحداثا تاريخية ذات طابع حربى أو اقتصادى كان لها صداها فى الانتاج الفنى ٠

ولاشك أن من أهم الثغور البحرية المصرية ثغر الاسكندرية الذى لايزال يحتفظ ببعض القلاع الأثرية بمعظم معالمها الأصلية مثل قلعة قايتباى (٨٨٢ هـ/١٤٧٧ م) ٠ وبمدينة الاسكندرية عدد

من القلاع العسكرية الأخرى ، نذكر منها قلعة كوسا باشا فى « أبو قير » ، وقد وصلنا صور لمدينة الاسكندرية وبعض معالمها ، ترجع الى عصور تاريخية مختلفة (٥٩٠) .

واشتهرت أبو قير بصفة خاصة بالمعركة البحرية التى نشبت بين فرنسا وانجلترا حين تمكن الأسطول الانجليزى بقيادة نيلسون من تحطيم الأسطول الفرنسى الذى كان راسيا عند أبو قير بعد غزو الفرنسيين لمصر سنة ١٧٩٨ م . وبمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ميدالية تذكارية من البرونز أصدرت بهذه المناسبة (٥٩١) يظهر على أحد وجهيها ساحل أبو قير على البحر الأبيض المتوسط الذى تمخر عبابه مجموعة من السفن الشراعية الضخمة مع بعض عبارات ترجمة احداها : « نهر النيل ــ الأول من أغسطس ١٧٩٨ » وعلى الوجه الآخر بعض مناظر من بينها صورة نصفية للقائد نيلسون .

ونظرا للأهمية الاقتصادية لثغر الاسكندرية فى العصر الاسلامى باعتباره مركزا مزدهرا للتبادل التجارى بين مصر وبلاد الشرق من جهة وأقطار حوض البحر الأبيض المتوسط وما وراءها من جهة أخرى أنشىء بها دار لضرب النقود كانت على درجة كبيرة من الأهمية . وتحتفظ المتاحف والمجموعات الفنية بالعديد من المسكوكات التى ضربت فى هذه الدار والتى ترجع الى مختلف عصور مصر الاسلامية ، ومن أمثلتها دينار فاطمى باسم المستنصر ضرب سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) ، ودينار أيوبى باسم السلطان العادل أبو بكر ، وابنه الكامل محمد ، والخليفة العباسى الناصر لدين الله مؤرخ سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) (٥٩٢) ، ودينار مملوكى باسم السلطان بيبرس والخليفة المستنصر العباسى ضرب سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) .

ومن ثغور مصر على البحر المتوسط مدينة رشيد التي يحق لها أن تزهو بقلعتها التي شيدها قايتباى فى سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) حيث عثر بها على حجر رشيد الذى يرجع الفضل الى ما عليه من كتابات فى قراءة اللغة المصرية القديمة ، وكان ذلك على يد جوهان اكر بلاد وتوماس ينج ثم شامبليون • واشتهرت رشيد بعدد من المباني العثمانية الأثرية كالبيوت والوكالات التجارية (الشوادر) والمعاصر والطواحين ، وتميزت هذه البنايات بالطوب المنجور ذى اللونين الأحمر والأسود بالتبادل مع استخدام الكحلة البارزة البيضاء التى تتكون من مواد تقاوم رطوبة البحر •

وبسواحل مصر الشمالية أيضا ثغرا بلطيم والبرلس (١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م) وكان لهما أهميتهما الاقتصادية والحربية فى بعض العصور •

ومن أهم الثغور المصرية ثغر دمياط الذى كان يمثل أحد المداخل الى القطر المصرى، ومن ثم حرص الولاة فى العصر الاسلامى على تحصينه بالأسوار والأبراج وتزويده بالمنشآت الاقتصادية ذات الصلة بصناعة الأخشاب • واهتم صلاح الدين الأيوبى بصفة خاصة ببناء سور حول دمياط بعد حملة عمورى على مصر فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) • ولم تلبث دمياط أن تعرضت فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) للحملة الصليبية الخامسة ، وفى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) للحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا التى اقتحمت دمياط وتقدمت الى موقع المنصورة حيث هزمت هزيمة منكرة وأسر لويس التاسع وسجن فى دار ابن لقمان • ونظرا لما كانت تتعرض له دمياط من اعتداءات بحرية استمرت العناية بتحصينها • ولا تزال مدينة دمياط تحتفظ ببعض القلاع الأثرية مثل طابية عزبة البرج وقلعة كوبرى الصفارة والسنانية •

وبكتاب وصف مصر صور لبعض أحياء دمياط وضواحيها (٥٩٣) ، يظهر في أعلاهـا صورة سور به باب يمكن مقارنته برسم سور لدمياط في صورة فرنسية من القرن التاسع الهجرى (١٥ م) تمثل احدى الحملات الصليبية على دمياط (٥٩٤) ، ويظهر فى هذه الصورة عدد من السفن المشحونة بالجنود وقد رست احداها عند الشاطىء فى حين ينزل منها فرسان ومشاة يقتحمون باب سور دمياط ، وعلى مقدمة السفينة يقف أساقفة يباركونهم • ومن بين هؤلاء الجنود فارس ينكفىء صريعا على جواده تسيل منه الدماء وربمـا يرمز الى ما حاق بهذه الحملة التى قد تمثل حملة لويس التاسع • ويتضح فى هذه الصورة أجزاء من سور دمياط تتخلله أبراج ذات مساقط دائرية فضلا عن باب فى أحد أركان السور أسفل برج مربع يعلوه طابق دائرى • ويمكن مقارنة هذه الأبراج ببعض أبراج قلاع السنانية وبرج الصفارة • ومن الملاحظ أن هذه الصورة مرسومة حسب الأسلوب الدولى الذى ظهر فى غرب أوربا فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى وبداية القرن الخامس عشر والذى تأثر بعض التأثر بالفن الاسلامى كما يتضح هذا الأثر فى صورة من عمل جنتيـلى دافبريـانو فى الأوفيتسى فى فلورنسـا (سنة ١٤٢٣ م) تمثل تبجيل الملوك •

ومما يسترعى الانتباه أن هذه الأبراج الدائرية المسقط فى الصورة الفرنسية تشبه الأبراج القوطية فى رودس التى أقامها الفرسان الاسبتارية (٥٩٥) • ومن المعروف أن هؤلاء الفرسـان كثيرا ما اشتركوا فى الحملات الصليبية وربما تأثر مصور هذه الصورة بتصميم هذه الأبراج القوطية •

ونتيجة لحفر قنـاة السويس ازدهرت الملاحـة فى البحر المتوسط وبهذه المناسبة أصدرت ميداليات تذكارية يشتمل بعضها

على رسم لقناة السويس تصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ٠ وبمتحف الفن الاسـلامى بالقاهرة ميدالية من معدن أبيض خفيفا (٥٩٦) على أحد وجهيها منظر يمثل قناة السويس تجرى بها السفن ويعلوها كتابة باللغة الفرنسية تشير الى افتتاح قناة السويس فى يونية سنة ١٨٦٩ م ٠ ويحيط بالمنظر كتابة باللغة العربية نصها : « تذكارا لفتح خليج السويس فى سنة ١٨٦٩ » ، وعلى الوجه الآخر صورة نصفية للخديو اسماعيل ٠

ومن الثغور المصرية أيضا ثغر العريش ولما كان له من أهمية حربية واقتصادية شيدت به قلعة العريش التى لا تزال آثارها باقية حتى اليوم (٥٩٧) ، وكان لها دور مهم أثناء الحملة الفرنسية على مصر فى الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين التى انتهت بجلاء الفرنسيين عن القلعة ٠ ويرجع مبنى القلعة الى العصر العثمانى كما يتضح من بعض النقوش الأثرية التى تشـتمل على تاريخ ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) واسم السلطان سليمان بن سليم بن بايزيد ابن عثمان ٠

وبالاضافة الى تحصينات سواحل مصر الشمالية التى بقى بعض آثارها وصور بعض أسوارها ، وصلتنا منتجات فنية اسلامية ترتبط بالجانب البحرى من هذه السواحل : من أشهرها نماذج وصـور للسفن وتجهيزاتها ٠ وكان بمدينة الاسكندرية دار لصناعة السفن وصلنا بعض صورها (٥٩٨) ٠ ومن نماذج السفن التى تم صناعتها فى مصر نموذج كان يستخدم فى عروض خيال الظل (٥٩٩) يرجع الى القرن التاسع الهجرى (١٥ م.) ٠ ويشتمل النموذج على معالم متميزة : منها مرساة فى مؤخر السفينة ، ودفة يوجه بها قبطانها مجراها ، وديدبان (ناضورجى) فى صدر السـفينة يمسك بيده ما يشبه العلم ، ويعلو السفينة رسم ربما

يرمز الى رايات أو أشرعة . وبالسفينة ثلاثة جنود يلبسون الزرد يتكىء كل منهم على احدى ركبتيه مصوبا سهمه ، ويبدو الجنود فى أوضاع جانبيــة بعضهم خلف بعض كأن المصور يشير بذلك الى اصطفافهم على هيئة ثلاثة صفوف حسب التنظيم المتبع للرماة : اذ كانوا يصطفون في صفوف ثلاثة بعضها خلف بعض حتى اذا أصيب رام بالصف الأول حل محله رام بالصف الثانى .ولا شك أن تمثيل المعارك البحرية وتمثيل السفن الحربيــة فى عروض خيال الظل يعد صدى لعناية المماليك بالأسطول خصوصا بعد أن تعرضت سواحل مصر الشمالية للغزو الصليبى .

وتشتمل بعض المخطوطات الأثرية المنسوخة بمصر على صور للسفن : ومن أبرزها مخطوطات لكتاب مقامات الحريرى ترجع الى عصر المماليك (٦٠٠) . ومن هذه الصور تصويرة من مخطوطة للكتاب المذكور ترجـــع الى أوائـــل القرن الثـــامن الهجـرى (١٤ م) (٦٠١) . وتمثل الصورة قاربا تتقاذفه الأمواج على متنه أربعة أشخاص حول رءوسهم هالات . وعلى الرغم مما بالصورة من تحوير وعدم محاكاة فان الرسم يتميز بقوة التعبير . ويبدو أن المصور أراد أن يعبر عن أن الســفينة تسير ليــلا فى ضوء القمر فرسم قمرا على هيئة وجه انســان فى أعلى الصورة . والصورة مرسومة بالألوان ومذهبة وأشكالها محددة بالحبر ، وتتبع فى أسلوبها أسلوب التصوير فى عصر المماليك : شأنها فى ذلك شأن باقى تصاوير المخطوطة البالغ عددها ٨٤ تصويرة .

وبالمكتبة الأهلية فى فيينا مخطوطة من الكتاب نفسه (٦٠٢) مؤرخـــة ٢٢ رجب ٧٣٤ هـ (٢٩ مارس ١٣٣٤ م) نسخها أبو الفضائل بن أبى اسحاق تشتمل على تصويرة تتمثل فيها سفينة شراعية ذات قاعدة عريضة ودفة جانبية ومؤخر معقوف وعلى متنه

سبعة أشخاص . ويتضح فى هذه التصويرة ـ مثلها مثل باقى تصاوير المخطوطة البالغ عددها ٦٩ تصويرة ـ براعة التصميم ، والعناية بالرسوم الآدمية ، وتذهيب الخلفية . ومن الملاحظ أن المصور اتبع فى زخرفة ثياب الأشخاص الأساليب المعروفة فى التصوير المملوكى كالأشكال الهندسية ، والزخرفة العربية المورقة ، والزخرفة العقدية .

ومن رسومات السفن فى مصر رسم على قطعة من البردى(٦٠٣) تنسب الى القرن السابع الهجرى (١٣ م) . وعلى الرغم من الطابع الشعبى للرسم يتضح فيه بعض معالم السفينة : مثل الصدر المعقوف على هيئة ذنب الحوت ، وصندوق القبطان ، والمجاديف الكثيرة التى ترمز الى كثرة البحارة .

ووصلنا أيضا قصاصة من الورق من مصر عليها رسم تخطيطى لسفينة (٦٠٤) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تتميز بكثرة الأشرعة وطولها ، والأعلام التى تعلو صواريها ، والقاعدة العريضة والدفة الجانبية والصدر المقوس المرتفع، والمؤخر العمودى الذى تزينه راية كبيرة ، والذى يشبه مؤخر رسومات السفينة التى ترمز الى كوكبة السفينة فى مخطوطات كتاب الصوفى ؛ وتحت السفينة كلمة « عرجون ». ومما يجدر ذكره أن كلمة عرجون كانت تطلق على سعف النخيل اللين الذى كان يصنع منه أحيانا بعض أشرعة السفن الملاحية .

وبالاضافة الى رسم السفن فى مخطوطات مثلث أيضا على تحف خزفية ترجع الى بعض عصور مصر الاسلامية . ومن أشهر هذه التحف صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (٦٠٥) يرجع الى العصر الطولونى رسم على باطنه سفينة بأسلوب زخرفى محور.

ويتضح في الصورة العنايه برسم أجزاء السفينه المختلفه : من مجاديف تنيره ، وصدر ومؤخر مقوسين ، وشراع مثلث ، وأعلام في مقدمها ومؤخرهـا · ويتميز الرسم بالمبالغه في الزخرفـه ، والتزود بالتنغيم المتمثل في المجاديف ، والايقـاع الواضـح في زخارف جسم السفينه ومؤخرها وصدرها وفي زخارف الشراع ، فضـلا عن التوازن الواضـح في الجانبين ، ومراعاة المواءمة بين الشكل المرسوم وبين قاع الاناء الدائرى · وقد حرص الدهان على ملء الفراغات بالزخارف الهندسية المحورة ، والتعبير عن السفينة بأسلوب زخرفي متأنق ، وربما كانت هذه السفينة التجارية من نوع « زخارف » الذى يتميز بكثرة زخارفه ·

ويمتحف الفن الاسـلامي بالقـاهرة صحن من الخزف ذى البريق المعدنى يرجع الى العصر الفاطمى (ق ٥ هـ / ١١ م) عليه رسم قارب شكل مقدمه على هيئة سمكة · وبالمتحف نفسه أيضـا قطعة من الخزف الأيوبى دقيق الصنع (٦٠٦) عليها رسم قارب ذى قاعـدة عريضـة وشراع ، وعدد من المجاديف ، وعلى متنـه شخصان· ويتميز هذا النوع من الخزف بصفة عامة بدقة العجينة، وصفاء الطلاء ، وجمال الأشكال التى تبدو بلونها الأسود كأنها خيال · ويتضح في رسم القارب الطابع الزخرفي الذى يتميز في رسم الشراع ، والايقاع المتناسب في رسم المجاديف ، ومراعاة التوازن بين الجانبين ·

وفضلا عن ذلك ، وصلتنا نماذج مصرية من تجهيزات السفن : ومن أهمها الأسـطرلاب الذى كان من فوائده الاسترشـاد به في الملاحة · ومن أشهر الأسطرلابيين عبد الكريم الأسطرلابي الذى صنع بمصر أسطرلابا (٦٠٧) من النحاس الأصفر المكفت بالفضة وبالنحاس الأحمر تتكون زخارفه من الزخرفـة العربيـة المورقة

وخاصة في المنطقة العليا (الكرسي) التي تتصل بالعلاقه ، وتزخرف دائرة الأسطرلاب الداخلية أشكال عدد من البروج على هيئات آدمية وحيوانية اعتاد على رسمها علماء الفلك ومنها رسم سمكة ترمز الى برج الحوت ، وتحليها الى جانب ذلك زخارف نباتية متشابكة . ويشتمل الأسطرلاب على عدة كتابات بالخط الكوفي أهمها الكتابة التي تضمنت اسم الصانع ، وتاريخ صنعه للأسطرلاب ، ومكان صناعته ، ونصها كما يلي : « صنعه عبد الكريم المصري الأسطرلابي بمصر الملكي الأشرفي المالكي المعزي الشهابي في سنة خلج هجرية عفا الله عنه » . وتدلنا كلمة « خلج » على أن تاريخ صنع هذا الأسطرلاب كتب بطريقة حساب الجمل : وفيها يساوي حرف الخاء ٦٠٠ ، واللام ٣٠ ، والجيم ٣ فيصبح التاريخ ٦٣٣ هـ . ويعد هذا الأسطرلاب من مفاخر ما صنع في مصر من منتجات معدنية مكفتة في العصر الأيوبي (٦٠٨) .

هذا وكانت السفن تجهز أيضا بأنواع من القذائف بعضها من قوارير النفط . وبمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة مجموعة من القوارير صنعت بمصر : من نماذجها قارورة ربط حولها حبل ربما كان يشعل به النار قبل قذفها لتنفجر على السفن المعادية (٦٠٩) . ومما يلفت النظر أن بعض هذه القوارير كان يزين سطحه بأشكال زخرفية ؛ مما يدل على أن صناع القوارير كانوا يتمتعون بحس جمالي يعبرون عنه في أعمالهم رغم وظيفتها التدميرية . وبالمتحف نفسه قارورة نفط من هذا النوع حلى سطحها بزخارف بعضها على هيئة أقواس تشبه قشور السمك ؛ مما يوحي باستخدامها في المعارك البحرية . ومن القذائف الحربية أيضا جلل يحتفظ متحف الفن الاسلامي بالقاهرة بواحدة منها مشكلة على هيئة سمكة (رقم ٢٤ و ٢٣٩) وأخرى زخرف سطحها بصور أسماك مما يشير الى صنعها كأسلحة بحرية .

وعلى الرغم من قلة تمثيل السمك فى الفن الاسلامى بعامة اذا ما قورن بالكائنات الحية الأخرى من حيوان وطير وآدميين ، وصلتنا منتجات فنية كثيرة من مصر تشتمل على تمثيل للسمك من فصائل عديدة ، يمكن أن تفيد فى التعرف على الثروة السمكية فى مصر فى عصورها المختلفة وقد شكلت الأسماك بأساليب عدة : منها تشكيل التحفة نفسها على هيئة سمكة ، أو رسمها تسبح فى الماء ضمن منظر تصويرى عام ، أو وحدة زخرفية قد تكون مفردة أو متكررة ، أو رمزا فلكيا · وفى معظم هذه الحالات لم تكن الأسماك ترسم مجرد رمز جامد أو بشكل تقليدى ثابت ولكنها كانت تبدو فى أوضاع مختلفة شائقة مرحة وكأنها تنبض بالحياة ·

وفى بعض مخطوطات من كتب تم نسخها فى مصر صور لمناظر طبيعية بها أشكال أسماك : منها تصويرة فى مخطوط من كتاب الحيوان للجاحظ ترجع الى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) (٦١٠) · ويشاهد فى هذه الصورة بركة من الماء تجلس على حافتها سيدة وأمامها اناء فيه فاكهة وخادمتان · وبالبركة ثمانى سمكات من نوع الأسماك الأليفة (٦١١) · وتبدو الأسماك بلا زعانف وبذيل به عديد من الشعب ·

وبالمخطوطة نفسها تصويرة أخرى تشتمل على صور ثلاث سمكات تسبح فى الماء وفوقها صورة تمساح قد فغر فاه ليتيح لطائر أن يلتقط ما بين أسنانه من فضلات الطعام · ويتمثل فى هذه الصورة نوع من الأسماك من عادته أن يحمل صغاره فى فمه أثناء نقلها من مكان الى آخر (٦١٢) ، ويتميز بزعانفه واشتمال ذيله على شعبتين فقط ، وقد رسم المصور قشره على هيئة خطوط متقاطعة تكون مربعات أو معينات وذلك على عكس التمساح الذى تحلى جسمه رسومات قشر السمك ، وكذلك السمك فى الصورة

السابقة التى يظهر على جسمها أشكال قشر السمك بصورة تكاد تكون محاكية للطبيعة ٠

ويتضح فى رسم هاتين التصويرتين أسلوب المدرسة العربية للتصوير فى مصر فى عصر المماليك الذى يتمثل فى الميل الشديد الى الطابع الزخرفى ، وتحوير العناصر الطبيعية المختلفة من أرض ومياه وأشجار وفاكهة وثياب الى أشكال زخرفية بحتة ٠

وفى متحف الفن الاســــلامى بالقاهرة طبق من الخزف ذى تصويرة السفينة على الاناء الطولونى التى سبقت الاشارة اليها رسم ثلاث سمكات تسبح فى الماء أسفل السفينة ، ومن الملاحظ أن هذه السمكات من آكلة الأسماك (٦١٣) ٠

وفى متحف الفن الاسلامى بالقــاهرة طبق من الخزف ذى البريــق المعــدنى الزيتونى (٦١٤) من صناعــة مصر فى العصر الفاطمى رسم على باطنه سمكتان كبيرتان بعضهما فوق بعض وفى وضع معكوس : اذ يتجه رأس كل منهما نحو ذنب الأخرى ، بحيث يتلاءم الرسم مع المساحة الدائرية المرسوم بها ٠ وتتميز السمكتان المحاكيتان فى شكلهما للسمك المصرى المعروف بالبلطى بالجسم الغليظ وباشتمال كل منهما على أربع زعانف وذيل ذى شعبتين ٠ ويتضح فى الرسم بصفة عامة الاتقان ووضوح التفاصيل ومحاكاة الطبيعة ٠ وربما يرمز هذا الرسم الى برج السمكتين (الحوت) الذى كان يمثل أحيانا على هيئة سمكتين بنفس التصميم : كما يتضح على سبيل المثال فى صورة بمخطوط لكتاب صور الكواكب الثابتة للصوفى نسخ فى ايران (القرن ١١ هـ / ١٧ م) ، وعلى اناء من الخزف من ايران مؤرخ سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٤ م) من عمل عبد الواحد بمتحف برلين ، وعلى مهر مغولى هندى باسم نور الدين

جهانجير ضرب فى أكرا سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) (٦١٥) ·
هذا وبمجموعة كلكيان اناء من الفخار المطلى بالمينا من صناعة مصر فى عصر المماليك (٦١٦) اشتمل قاعه على رسم سمكة ذات جسم صغير به زعنفتان ، ورأس كبير مدبب ، وذيل ذو شعبتين ، وبالمتحف نفسه أيضا شباك قلة (مصفاة) (٦١٧) مشكل على هيئة سمكة من نوع السمك الذى يحتضن بيضه فى فمه (٦١٨) · وتتميز بالغلظ والقصر والرأس الضخم ، ولها أربع زعانف وذيل ذو شعبتين · ومن الملاحظ أن تشكيل شباك القلة على هيئة سمكة يناسب وظيفة القلة بوصفها وعاء للماء ·

ومما تجدر الاشارة اليه أن كليفا ستيد قد أورد فى كتابه عن الرسومات الحيوانية أربعا وثلاثين لوحة تشتمل على مئات التفريغات لأشكال الأسماك نقلها من تحف الفخار والخزف المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ترجع الى عصور مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية (٦١٩) ·

وبالاضافة الى رسم الأسماك على الفخار والخزف المصرى وصلتنا زخرفة من صنف من أسماك متقابلة ومتدابرة على لوح من الخشب من مصر من العصر الأموى وكذلك زخرفة منسوجة على قطعة كتان من مصر مؤرخة سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤م) (٦٢٠) تزخرفها رسوم أسماك من نوع يشبه سمك « موسى » (٦٢١) · ويتضح فى الصورة العناية برسم جسم السمكة القريب من الدائرى ، والرأس الصغير ، والفم المدبب ، والذيل المشعب ، والزعانف العليا الكثيرة مع زخرفة الجسم بخطوط طولية أحيانا ومناطق صغيرة أحيانا أخرى ·

ووردت رسومات الأسماك أيضا على تحف معدنية مصرية · وبالمتحف الملكى فى أمستردام طست من النحاس المكفت بالفضة

صنع فى مصر فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) يشتمل على شعار ملكة صقلية ، وقد زخرف قاعه بصورة أسماك من نوع سمك القط (٦٢٢) الذى يبدو مرتخى الذيل فى زاوية منفرجة • ويبدو السمك كأنه يسبح مفعما بالنشاط والحيوية كطبيعة هذا النوع من السمك• ويتميز الرسم بصفة عامة بالخطوط المحددة ، وبالجسم أربع زعانف ، وبالذيل شعبتان • ووردت رسوم الأسماك على باطن بعض الطسوت المملوكية من نفس نوع السمك السالف ذكره (٦٢٣) على هيئة صفوف دائرية حول المركز منها طست باسم الناصر محمد فى المتحف البريطانى •

هذا وقد رسمت السمكة لترمز الى برج الحوت على أسطرلاب عبد الكريم المصرى الذى سبقت الاشارة اليه وهى من النوع الذى شاع وجوده فى غرب أوربا (٦٢٤) • ومن المعروف أن برج الحوت رسم على هيئة سمكة أو سمكتين فى مخطوطات صور الكواكب الثابتة للصوفى وغيره من الكتب المتعلقة بعلم الفلك والتنجيم ، وعلى الأسطرلابات ، وبعض التحف المعدنية •

وفضلا عن رسومات الأسماك اشتمل الفن الاسلامى على صور لأحياء مائية أخرى : من ذلك صور للتمساح وثعبان الماء والضفدع والسرطان والسلحفاة على قاع طست من النحاس المكفت بالفضة والذهب صنع بمصر على يد محمد بن الزين فيما بين سنتى ٦٨٩ و ٧١٠ هـ (١٢٩٠ و ١٣١٠ م) (٦٢٥) • كما سبقت الاشارة الى صورة تمساح فى تصويرة بمخطوطة من كتاب الحيوان للجاحظ ، ورسم فى المخطوطة نفسها صورة أخرى لسلحفاة تسبح على سطح الماء وعلى ظهرها أحد القرود (٦٢٦) •

ومن الملاحظ أن الصورتين تتميزان بمحاكاة الطبيعة ، فضلا عما فيهما من حيوية وتعبير واضح عن الحركة وعناية برسم التفاصيل •

هذا وقد وصلنا بعض ألواح من الخشب من مصر ترجع الى القرن الخامس الهجرى (١١ م) عليها رسم بالحفر البارز يمثل رأسى فرسين ، يرتبطان بزخارف نباتية محورة على هيئة لفائف وأقواس وعروق نباتية ، ويبدوان كأنهما يمثلان رأسى زوجين من فرس البحر . ويتسم رسم الرأسين بمحاكاة الطبيعة ، والعناية برسم التفاصيل ، وبالحيوية المرحة التى تتضح فى قضمهما لفرعين من النبات يمثلان جزءا من الزخرفة النباتية التى تملأ اللوح الخشبى . ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بأحد هذه الألواح (٦٢٧) ، ومتحف المتروبوليتان فى نيويورك بلوح آخر مماثل تقريبا (٦٢٨) . وربما يرمز هذا الرسم الى كوكبة قطعة الفرس فى رسومات الكوكبات الشمالية (٦٢٩) .

ولم يقتصر الفن الاسلامى على تصوير الأحياء المائية الطبيعية بل استخدم أيضا رسوم كائنات برية خرافية ، واستمد منها أشكالا زخرفية : نذكر منها على سبيل المثال صورة حوريتين متقابلتين ومتشابكتين بسقف الكابلابلاتينا فى باليرمو بصقلية من عصر روجر الثانى النورماندى لكل منهما جسم آدمى ، وذيل سمكة (٦٣٠) . ورسمت هذه الصورة مثل معظم صور الكابلا الأخرى حسب أسلوب التصوير الفاطمى المزود بملامح بيزنطية الذى عرف فى صقلية أثناء حكم الفاطميين لها . وربما يرمز هذا الرسم الى برج التوأمين (الجوزاء ، الذى رسم أحيانا بهذا الشكل فى بعض المخطوطات الفلكية (٦٣١) ، وقد يرمز أيضا الى برج الحوت حيث ورد بهذه الهيئة على صينية من النحاس صنعت فى مصر فى أواخر عصر المماليك (٦٣٢) .

ومن الملاحظ أن بعض البروج الأخرى رسمت على هيئة كائنات بحرية خرافية فى رسومات الكوكبات الفلكية فى بعض

مخطوطات كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى (٦٣٣) حيث رسم برج الجدى على هيئة كائن نصفه الأمامى على شكل جدى والنصف الخلفى على شكل سمكة ، ورسمت كوكبة قيطس على هيئة كائن يجمع بين النصف الأمامى لحيوان والنصف الخلفى لسمكة ٠

هذا وقد استمد الفنانون الاسلاميون أشكالا زخرفية من عالم البحر : منها الزخرفة المتمثلة على هيئـة قشر السمك ٠ وتبدو محورة على قنينة من الزجاج صنعت بمصر فى القرن الثالث الهجرى (٩ م) (٦٣٤) ، وأخرى من القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، وعلى قدر من الخزف فى متحف فيكتوريا وألبرت (القرن ٤/١٤) ، وعلى صحن من الخزف فى مجموعة مادينا Madena فى نيويورك ، وعلى تنـــانير قوصون والســلطان حسن والغورى بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، كما انتشر استخدامها فى الفن الاســلامى بعامة (٦٣٥) ٠

ومن أبرز الزخارف المستمدة من عالم البحر الزخرفة المحارية التى انتشر استخدامها فى العمارة الاسلامية فى مصر : فاستخدمت فى دخلات الواجهات مثـــل واجهة الجـامع الأقمر (٥١٩ هـ / ١١٢٥) (٦٣٦) ، وواجهة المدارس الصالحة (٦٤١ ـ ٦٤٨ هـ/ ١٢٤٣ ـ ١٢٥٠ م) (٦٣٧) ، وانتشرت بكثرة فى طاقة القوس الأوسط فى العقد الذى يتقدم مداخل بعض المساجد فى القاهرة : كما يتضح فى مداخل مسجد قوصون (٦٣٨) (٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م) ، ومســجد بشـتاك (٦٣٩) (٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) ، ومســجد كريم الدين الخلوتى (٦٤٠) (١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م) ، واستخدمت كذلك فى مداخل أسبلة قاهرية من العصر العثمانى مثل مدخل سبيل الست صالحة (٦٤١) (١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م) ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا بشارع التمبكشية (٦٤٢) ٠

وفضـــلا عن ذلك شكلت طواقى بعض المحاريب على هيئة محارية ومن أمثلة ذلك المحاريب الرخامية فى مسجد الأمير شيخو الناصرى (٦٤٣) (٧٥٠ هـ /١٣٤٩ م) ، وفى مدرسة وخانقاه الظـاهر برقوق (٦٤٤) (٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م) ، وفى مســجد عبد الباقى جوربجى بالاســكندرية (١١٧١ هـ / ١٧٥٨ م) . ومحراب مسجد كريم الدين الخلوتى (١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م) .

وبالاضافة الى ذلك تأثرت خوذات بعض المآذن والقباب بهذه الزخرفة المحارية : ومن أمثلة ذلك مئذنة المدارس الصالحيــة ، ومئذنة جامع ابن طولون (٦٤٥) ، ومئذنة المدرسة الجاولية (٦٤٦) (٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م) ، ومئــذنة بيبرس الجاشــنكير (٦٤٧) (٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م) ، ومئذنة مسجد محمد الخشوعى المكتشفة حاليا فى منطقة بلطيم . كما استخدمت الزخرفة المحارية بظاهر قبة خانقاه قوصون (٦٤٨) (٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) ، وقبتى مدرسة أم السلطان شعبان (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) ، وقبة مسجد حسن باشا طاهر (٦٥٠) (١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م) . ومن المحتمل أن هذه الزخرفة المحارية بالقبــاب كانت البـداية لتطور الزخارف المحفورة حفرا بارزا بالقباب المملوكية ، الى أشكال هندسية متنوعة بدأت بتقوس الأضلع المحارية الى زخرفة أمواج البحر المستمدة بدورها من أشكال موج البحر . كما تتضح على سبيل المثال فى قبة مدرسة أولجاى اليوسفى (٦٥١) (٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) ، وقبة المؤيد شيخ (٦٥٢) (٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م) ، وجانى بك الأشرفى (٦٥٣) (٨٣٠ هـ / ١٤٢٧ م) ، وتطـورت الى أروع ما عرفته الفنون من زخرفة القباب الحجرية .

الهـــــوامش

(٥٩٠) د. عبد الرحمن زكى ـ الجيش المصرى فى العصر الاسلامى ـ ج ٢ ـ ص ١٣٨ .

(٥٩١) سجل رقم : ٧٦٨٨ .

(٥٩٢) التنوع فى الوحدة (كتاب عن معرض أقامته دار الآثار الاسلامية بالكويت ، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الاسلامى الخامس) رقم ٢٧ ـ ص ١٧٤ .

(٥٩٣) وصف مصر (اللوحات ـ الدولة الحديثة) ـ لوحة ٧٥ .

(٥٩٤) Reid, Struan : The Silk, and Spice Routes. Exploration by Sea, Unesco, p. 27.

(٥٩٥) The World Heritage, Unesco 1991.

(٥٩٦) سجل رقم : ٧٦٥٥ .

(٥٩٧) د. عبد الرحمن زكى ـ قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ـ ص ١٤١ .

(٥٩٨) د. حسن الباشا ـ موسوعة العمارة والآثار والفنون الاسلامية ـ أوراق شرقية ١٩٩٨ م .

(٥٩٩) من الجلد الملون ومحفوظ بالمتحف الدولى فى برلين . انظر :
The World of Islam, Edited by Bernard, Lewis, London, 1980.

(٦٠٠) حسن الباشا ـ فنون التصوير الاسلامى فى مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤ م ـ ص ٨٤ ـ ٩٤ .

(٦٠١) Haldane, Duncan ; Mamluk Panting, England 1978, pp. 67-71.

والمخطوطة محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن سجل رقم : Add. 22114 :

(٦٠٢) سجل رقم : A. FF. 9.

(٦٠٣) د٠ سعاد ماهر ــ البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ــ دار الكاتب للطباعة والنشر ــ لوحة ٤٣ ، الورقة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة سجل رقم : ١٨٢٧٢ ٠

(٦٠٤) المرجع نفسه ــ لوحة ٤٥ ٠

(٦٠٥) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة سجل رقم : ٧٩٠٠ ٠

(٦٠٦) سجل رقم : ٢٥/٥٣٧٩ ٠

(٦٠٧) محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن ٠

(٦٠٨) د٠ حسن الباشا : الأسطرلاب (بحث بكتاب القاهرة : تاريخها فنونها آثارها ــ مؤسسة الأهرام ١٩٧٠ م) ص ٥٧٧ ــ ٥٨٢ ٠

(٦٠٩) سجل رقم : ١٣٩٢٢ ٠

(٦١٠) بمكتبة أمبروزيانا فى ميلانو سجل رقم : S.P. 67 انظر :
Haldane, Duncan, Op. cit., Pls. 41, 42.

(٦١١) الاسم العلمى : Pet Fish (Hyphess obrycon)
Wheeler, Alwyne : The World Encyclopedia of Fishes, 1985, No. 10.

(٦١٢) الاسم العلمى : Tilopia ، انظر : Ibid, No. 11.

(٦١٣) الاسم العلمى : Caranx ، انظر : Ibid, No. 17.

(٦١٤) من مجموعة الدكتور على باشا ابراهيم سجل رقم ١٦٩ ، انظر : د٠ جمال محمد محرز ــ الخزف الفاطمى ذو البريق المعدنى فى مجموعة الدكتور على ابراهيم باشا ــ شكل ٣ ٠

(٦١٥) انظر : مخطوطة من كتاب صور الكواكب للصوفى بمكتبة المجلس بطهران سجل رقم ١٩٧ ،
Lewis. B., The World of Islam, London 1976, Treasures of Islam, Geneva 1985.

(٦١٦) د٠ زكى محمد حسن ــ أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ــ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦ م ــ شكل ١٩٤ ٠

(٦١٧) سجل رقم : ٨٧/٨٥٧٧ ٠

(٦١٨) الاسم العلمى : Sphaeromio ، انظر :
Wheeler, Alwyne : Op. cit., No. 38.

(٦١٩) Stead. Cleves : Fantastic Fauna, Decorative Animals in Moslem Ceramics, Pls. 1-34.

(٦٢٠) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ٠

(٦٢١) Sole-Fish.

(٦٢٢) الاسم العلمى : Cat Fish
Wheeler, Alwyne : Op. cit., No. 28. Physailia pellucida.
انظر : د٠ حسن الباشا : موسوعة العمارة والآثار والفنون الاسلامية لوحة 996

(٦٢٣) Atil, Esin : Renaissance of Islam (Art of The Mamluks), Washington 1981, pp. 79, 91.

(٦٢٤) الاسم العلمى : Stizostedion وانظر :
Wheeler, Alwyne : Op. cit., No. 15.

(٦٢٥) بمتحف اللوفر فى باريس : Atil, Esin, op. cit., p. 79.

(٦٢٦) Haldane, Duncan : Op. cit., pl. 50.

(٦٢٧) سجل رقم : ٣٢٩١ ٠

(٦٢٨) Dimand. M.S. : A Handbook of Muhammadan Art. New York 1947, Fig. 63.

(٦٢٩) انظر : مخطوطة من كتاب صور الكواكب للصوفى ـ دار الكتب المصرية سجل رقم ٩ ـ م ميقات فارسى ٠

(٦٣٠) انظر : د٠ حسن الباشا ـ التصوير الاسـلامى فى العصور الوسطى ـ ١٩٩٢ م ـ لوحة ٢٤ ٠

(٦٣١) مخطوطة من كتاب عن الفلك نسخت بآسيا الصغرى فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) بمكتبة طوبقابى سراى فى استانبول سجل رقم (R. 1976)
نقلا عن :
Nasr, S.H. Islamic Science-At Illastrated Study, World of Islam Festival Publishing Company Ltd., 1976.

(٦٣٢) بمتحف الفن التركى والاسلامى باستانبول سجل رقم : (١٣٨٤) ،
انظر :
Abouseif, D. B. : A Late Mamluk Basin with Zodiac Imagery, Annales Islamologiques, Tome XXIX, 1995, Fig. 16, p. 131.

(٦٣٣) بالمكتبة الوطنية فى ميونخ سجل رقم : عرب ٤٦٣ ٠

(٦٣٤) The Unity of Islamic Art (An Exhibition of the Islamic Art at Islamic Art Gallery, Riyadh, Saudi Arabia), 1450 AH/ 1985 AD, Pl. 179 (D).

(٦٣٥) أنظر : د. حسن الباشا ـ مدخل الى الآثار الاسلامية ـ ١٩٩٠ م ـ شكل ١٧١ .

(٦٣٦) أثر رقم : ٣٣ .

(٦٣٧) أثر رقم : ٣٨ .

(٦٣٨) أثر رقم : ٢٢٤ .

(٦٣٩) أثر رقم : ٢٠٥ .

(٦٤٠) أثر رقم : ٤١٤

(٦٤١) أثر رقم : ٣١٣ .

(٦٤٢) أثر رقم : ٢١ .

(٦٤٣) أثر رقم : ١٤٧ .

(٦٤٤) أثر رقم : ١٨٧ .

(٦٤٥) أثر رقم : ٢٢٠ .

(٦٤٦) أثر رقم : ٢٢١ .

(٦٤٧) أثر رقم : ٣٢ .

(٦٤٨) أثر رقم : ٢٩١ .

(٦٤٩) أثر رقم : ١٢٥ .

(٦٥٠) أثر رقم : ٢١٠

(٦٥١) أثر رقم : ١٣١ .

(٦٥٢) أثر رقم : ١٩٠ .

(٦٥٣) أثر رقم : ١٢٢ .

التراث السكندرى المغمور
فى الادارة المتكاملة للمناطق الساحلية

حسن البنا عوض

مقدمة

من منطلق أهمية التكامل فيما بين الدراسات والبحوث التى تتناول المسائل البيئية بهدف تحقيق مبدأ التنمية المستدامة Sustainable Development والذى أقره المجتمع الدولى خلال مؤتمر قمة الأرض فى سنة ١٩٩٢ فى ريو (البرازيل) ، يتناول هذه المقال أهمية الأخذ فى الاعتبار الارث الانسانى الذى تحتضنه مياه مدينة الاسكندرية متمثلا فى المواقع الأثرية الغارقة كثروة لا يمكن تعويضها وذلك كمكون رئيسى فى أى مشروع يتناول تنمية الموارد فى البيئة الساحلية لتلك المدينة العريقة .

من الطبيعى ملاحظة استمرار الاهتمام على المستويين الوطنى والعالمى بكل ما يتعلق بمدينة الاسكندرية ففيها تاريخ يمثل جزءا هاما من ثقافة شعوب العالم ، ومن ناحية أخرى حديثه ، تمثل الاسكندرية مصدر قلق عليها وعلى ما بها من ثروات أثرية واقتصادية بسبب الاهتمامات الحديثة بالمخاوف من ارتفاع مستوى سطح البحر ، تلك الظاهرة التى قد تؤدى الى اندثار مدينة

الاسكندرية اذا لم يلتزم التخطيط فيها بالتكامل ، وخاصة بعد توافر الامكانات التقنية الحديثة للدراسة الدقيقة ومن ثم التخطيط العلمى السليم من منطلق التنمية المستدامة ، التى تعتمد فى أساسها على الوصول الى التوازن بين الأنشطة الانسانية المختلفة والاهتمامات المتباينة بحيث لا تضر واحدة الأخرى وضمان استمراريتها ؛ لكى تتمتع بها الأجيال القادمة كما تتمتع بها الأجيال الحالية . هذا التوازن المأمول لا يمكن أن يتحقق الا باتباع التقنين والادارة العلمية المتكاملـــة للمـوارد الســـاحلية (Integrated Costal Zaone Management)' والتى هى عبارة عن سلوك ادارى فى تلك المناطق له أصوله وقواعده المتفق عليها دوليا وتم تقنينه محليا ، وهو جزء هام فى القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ فى شأن حماية البيئة ومنهاج تحقيقه واضح فى لائحته التنفيذية . وفى حالة الموارد الساحلية وادارتها بالاسكندرية ، فان من الواجب أن يتوازى فى التطبيق كل من القانون الخاص بالبيئة مع ذلك الخاص فى شأن حماية الآثار والمعروف بالقانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣ وذلك لخصوصية سواحل مدينة الاسكندرية باحتوائها على مواقع أثرية مغمورة لها حق الحماية والرعاية والتنمية المستدامة لأهميتها التاريخية من جهة ، ومن جهة أخرى لما تمثله من مواقع مرجعية لتتبع ظاهرة التغير فى منسوب سطح البحر ، وكذلك فى الدراسات الجيولوجية والطوبوغرافية وهذا دليل على الاتصال الوثيق والتكامل الواجب بين علوم قد تبدو متباينة ولكنها فى الحقيقة متكاملة .

فى البداية نفضل أن نلقى بعض الضوء على عناصر موضوع المقال ذاته ثم نحاول ايجاد العلاقة المتكاملة فيها بينها فالهدف هو ادارة بيئة ساحلية بها تراث حضارى مغمور من خلال تقييم بيئى (Environmental Impact Assessement) ، كأداة للادارة المثلى لتلك المناطق لأى تدخل بشرى بهدف التنمية .

١ ـ المناطق الساحلية

ليس هناك تعريف دقيق للمنطقة الساحلية ، فقد تعنى تلك المناطق من مستجمعات المياه التى تصرف مياهها مباشرة فى البحر أو تشير الى المنطقة المائية بكاملهـا حتى الجرف القـارى ، ولكن بالشيوع فقد اتفق من الناحية العملية على أنها عبـارة عن ذلك الشريط الضيق نسبيا من المياه والأراضى الواقعة بموازاة الشـاطىء البحرى وتشمل المعالم الطبيعية (الشـواطىء الرملية ، الأراضى الرطبة ، مصاب الأنهار ، البحيرات الضحلة ، الشعاب المرجانية، الشواطىء الصخرية والكثبان) وكذلك المعالم من صنع الانسـان مثل الموانى والمصائد .

فى القانون المصرى للبيئة حددت هذه المناطق لتغطى المياه الاقليمية بكاملها ، ونطاقها الأرضى بعمـق ٣٠ كم فى المناطـق الصحراوية وحتى كنتور + ٣٫٠٠ متر فى منخفض الدلتا .

وتتميز تلك المناطق الساحلية بوفرة الموارد الغذائية والطاقة والمعادن وانتاج وفير من الموارد البيولوجية ، فضـلا عن قيامها بوظائف بالغة الأهمية بالنسبة للبيئة المحلية والاقليمية والعالمية ، وتوافر مصادر الرزق وتنوعها فى تلك المناطق يجعلهـا متميزة بمعدلات نمو أسرع من غيرها من المناطق الداخلية والتى منها ينزح الانسان فيسبب ضغطا فوق المحتمل على موارد تلـك المناطـق الساحلية ، وتشير الدلائل الآن فى أغلب المناطق الساحلية فى العالم النامى على الهبوط فى مستويات مواردها وانتاجيتها بسبب عـدم التوازن بين معدلات الانتاج الطبيعى لموارد المناطـق الساحليـة واستغلالها . ومن هنا بدت الحاجة ملحة لتحسين ادارة مواردها البيئية والطبيعية وتحسين تكاملها مع التخطيط الانمائى العـام على جميع المستويات قوميا ومحليا وعلى مستوى المشروعات ،

بل ويجب تكامل تلك الادارة مع نظيرتها اقليميا وعالمياً من منطلق مفهوم العالم الواحد والتنمية المستدامة ٠

ملحوظة : لم تشمل الموارد التاريخية والآثار المغمورة فى المناطق الساحلية كجزء هام يجب تكامله فىالادارة المتكاملة للمناطق الساحلية ، وذلك بطريقة صريحة فى المصدرين اللذين اعتمد عليهما الكاتب (ادارة المناطق الساحلية والتقييم البيئى ، القواعد البيئية المنظمة للتنمية فى المناطق الساحلية . انظر قائمة المراجع) .

٢ ـ التقييم البيئى فى الادارة المتكاملة للمناطق الساحلية

يقصد بالتقييم البيئى أنه قبل الشروع فى اقامة أية منشأة أو مرفق أو نشاط له علاقة بعنصر من عناصر البيئة البحرية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فانه من الواجب اجراء دراسات تحليلية وفقا لأسلوب علمى محدد لتقييم وتقدير العواقب المحتملة والمترتبة من دخول هذا النشاط على سلامة البيئة البحرية .

وفى حقيقة الأمر ، فان التقييم البيئى يستهدف أساسا تحسين عملية اتخاذ القرارات وضمان أن المشروع الجارى دراسته وبدائله قابلة للاستمرار بيئيا . كما أنه ينبغى أثناء عملية اجراء التقييم ادراك كافة العواقب البيئية للمشروع ، واخذها فى الاعتبار أثناء تحديد المشروع واختيار موقعه ووضع مخططاته وتصاميمه . كما يحدد التقييم البيئى أساليب تحسين المشروعات بيئيا ، عن طريق منع آثارها السلبية أو تقليلها الى أدنى حد أو تخفيفها أو التعويض عنها . وتساعد هذه الخطوات على تجنب الاحتياج لاجراءات علاجية باهظة التكاليف بعد ظهور المشاكل .

الزم قانون البيئة رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ فى لائحته التنفيذية (مواده ١٩ ــ ٢٣ من الفصل الأول) كل الجهات الادارية المختصة أو الجهات المانحة للترخيص بالمشروعات اجراء الدراسات الخاصة بالتقييم البيئى وفقا لعناصر وأسس ثابتة ، وتشتمل تلك على ما يلى :

ــ ملخص تنفيذى للدراسة .

ــ وصف المشروع (موقع ومكان المشروع ــ تصميم المشروع
ــ وصف أرض المشروع ... الخ) .

ــ الاطار القانونى والادارى للمشروع .

ــ وصف الوضع البيئى القائم قبل تنفيذ المشروع .

. العوامل الفيزيائية والكيميائية للمشروع .

. الطوبوغرافيا .

. وصف الحياة البحرية .

. وصف الحياة البرية (النباتية والحيوانية) .

ــ الآثار المتوقعة عند تنفيذ المشروع خلال مراحل الانشاء ثم مراحل التنفيذ .

ــ الاجراءات الوقائية .

ــ برنامج رصد ومتابعة الاجراءات الوقائية .

ملحوظة : لم تشتمل عناصر تلك الدراسة على احتمالات وجود آثار لا شاطئية ولا مغمورة صراحة .

٢ ــ التراث الحضارى فى التقييم البيئى

كقارىء ليس متخصصا فى التاريخ أو الآثار ، أعجبنى بعض التعريفات الشاملة للتراث الحضارى قد أكون قرأتها أو سمعتها ودونت فى الذاكرة ومنها أن التراث الحضارى هو سجل علاقة البشرية بالعالم وبالانجازات والاكتشافات الماضية وكذلك أن التراث الحضارى هو تجسيد حالى للماضى البشرى ، ثم أن التراث الحضارى هو ذاكرة الشعوب • فهذه عبارات فى رأيى تعنى كل شيء فى تلك الحياة من مواد وعلاقات بين الانسان وما يحيط به ونتاج هذه العلاقات ، وهذا المفهوم هو نفسه الخاص بالمعنى الشامل للبيئة فان الارث الحضارى يختص بالانسان • فالبيئة هى كل شيء على هذه الأرض من مخلوقات وكذلك ما فى محيطاتها وما يتخللها من مياه شاملة الانسان ذاته ككائن وسلوك وطموحات ، وفى كثير من الأحيان كمدمر أنانى لزم ادارته فى البيئة كجزء منها لا بد أن يعطى كما يأخذ لكى يستمر هو ذاته فى نطاق رفاهية مقبولة مستدامة لأولاده وأحفاده •

من هنا لزم على من يعلم أن يبلغ من لا يعلم ، ولا يكفى البلاغ ولكن وجب التأكيد والاقناع وكذلك وجب على من رأى أن يصف لمن لم تواته الفرصة أن يرى ، لكى ينضم اليه فى قضية عادلة ما من قضايا حماية بيئته •

وهذا الجزء الأخير هو بيت القصيد فى موضوع حماية الآثار المغمورة أو الجزء من الاسكندرية العظيمة القديمة القابع على بعد عدة عشرات من الأمتار من شواطئها الحالية ، فالمهمة صعبة فى تكوين راى شعبى عام يساند فكرة حماية آثار مغمورة لا ترى تقريبا للجميع ولا يمكن الاحساس بها كأى شيء غير مرئى ، وبالتالى فالدفاع عنها لابد أن يكون ضعيفا والمجهودات بطيئة النتائج ، لكن

لا مفر من تحمل مسئولية الحفاظ على هذا الارث الانســـانى ، فصحيح أن الارث الحضارى مملوك لمصر جغرافيا ، ولكن لما له من قيمة تاريخية انعكست آثارها على الكثير من الحضارات المحيطة والبعيدة عنه ، فقد أصبحت حمايته مسئولية العالم أجمع .

والملاحظ حاليا هو التجدد المستمر فى الاهتمام بكل ما يخص التاريخ السكندرى على المستوى العالمى ، وللأسف لا يقابله بنفس المســـتوى اهتمام على المســـتوى المحلى ، فقد اكتشف جونديه (١٩١٠ ــ ١٩١٦) ميناء الاسكندرية القديم ، واكتشف كامل أبو السعادات آثارا هامة فى منطقتى الميناء الشرقى وقايتباى فى عام ١٩٦١ وهى ذاتها التى تم انتشال بعض منها فى أكتوبر ١٩٩٥ بواســـطة بعثة فرنسية بقيادة جان ايف امبرير ، مما كان له وقع يشبه الهوس العالمى وأدى الى اهتمام متزايد بالكشف والبحث عن المزيد من الآثار الغارقة أمام شواطىء مدينة الاسكندرية ، حتى ان بعض تلك القطع الأثرية التى تم انتشـــالها خصص لها معرض تحت اسم « مجد الاسكندرية » افتتحه رئيسا فرنسا ومصر خلال شهر يونيو سنة ١٩٩٨ وذلك فى العاصمة الفرنسية باريس .

فى هذا المقام لا بد أن ننوه الى ردود الافعال لهذه الاكتشافات والى الحس الحضارى الراقى الذى به أولت جامعة الاسكندريـــة الاهتمام بهذا الارث الانسانى العظيم ، حيث دعت الى ندوة عالمية جمعت فيها المتخصصين الأكفاء فى كل المجالات المتعلقة بالحفاظ على الآثار المغمورة وذلك على المستويين الوطنى والعالمى وقد شاركت منظمة اليونسكو بالدعم المالى والفنى لعقد هذا المؤتمر وكذلـــك المجلس الأعلى للآثار ، وعلى مدى أيام الندوة الخمسة (٧ ــ ١١ ابريل سنة ١٩٩٧) تدارس المجتمعون فى رحاب مدينة الاسكندرية الحديثة مطلين على المواقع الأثرية للاسكندرية القديمـــة الغارقة

كل ما يتعلق بجوانب تبدو متنافرة ولكنها مكملة بالمفهوم الشامل للادارة المتكاملة للمناطق الساحلية كما سبق سرده · وانه لمن المفيد أن نلحق بهذا المقال ما تمخض عن هذه الندوة من توصيات وثيقة رسمية « اعلان الاسكندرية » وقع عليها المجتمعون جميعا متضامنين فى أهمية الحفاظ على تراث الاسكندرية الحضارى مناشدين المجتمع الدولى بتحمل هذه المسـئولية ازاء هذا الارث الانسانى الذى لا يعوض .

٤ ــ تراث الاسكندرية المغمور فى التشريعات الوطنية

من المعروف أنه بمجرد أن وقعت مصر اتفاقية « حماية التراث الحضارى والطبيعى العالمى » والمعقودة سنة ١٩٧٢ فقد أصبحت أساسا للتشريعات الوطنية وكذلك للتشريعات الأخرى ذات العلاقة بصيانة وحماية والمحافظة على الارث الانسانى الحضارى ، وعامة ما نقسم تلك التشريعات والقوانين المتعلقة بالمواقـع الحضارية الى :

ــ قوانين حماية المواقع الأثرية .

ــ قوانين تتعلق بادارة الموقع (أراض أو سواحل) لتوفير الحماية العامة للمكان .

ــ قوانين للابلاغ والادراج فى القوائم لتتيح تسجيل معلومات عن المواقع الحضارية .

ــ قوانين حماية المناطق الطبيعية التى تقـع فيهـا معالم حضارية .

وفى نطاق التشريعات المصرية نجد القانونين التاليين ذوي العلاقة بالقوانين الأربعة السالف ذكرها ، وهما :

— قانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣ الخاص بحماية الآثار .

— قانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ الخاص بحماية البيئة .

بالبحث فى هذين القانونين المختصين بموضوع هذا المقال لم نعثر على فقرة أو مادة تتناول بوضوح الآثار المغمورة ، فالمادة الخامسة من القانون ١١٧ لسنة ١٩٨٣ تذكر فقط أن هيئة الآثار المصرية هى التى تتولى الكشف عن الآثار الكائنة فوق سطح الأرض ، والتنقيب عما هو موجود منها تحت سطح الأرض وفى المياه الداخلية والمياه الاقليمية ، وهذا هو الحادث حالياً بالفعل ، ولكن لم يشر القانون الى رعاية اضافية لمواقع الآثار الغارقة واعتبارها جزءا من الثروة الأثرية فى مصر وحمايتها من عبث المحترفين العارفين .

أما فى قانون البيئة فتعريف البيئة بالمادة الأولى (فقرة ١) ، يعنى المحيط الحيوى الذى يشمل الكائنات الحية وما يحتوى من مواد وما يحيط بها من هواء وماء وتربة وما يقيمه الانسان من منشآت . ولأن مصر هى متحف الحضارة فكان من الأجدر الذكر صراحة أن البيئة فى مصر لها خصوصيتها ، لاحتوائها على كم هائل من التراث الحضارى ويجب أن تشملها برامج حماية البيئة المصرية المنصوص عليها فى لائحة القانون التنفيذية والتى لم يشر الى الآثار الغارقة فى فقرة من فقراتها . ان القواعد البيئية المنظمة للتنمية فى المناطق الساحلية والصادرة من قبل جهاز شئون البيئة ، وهى الجهة الرئيسية المنوط بها حماية البيئة المصرية وادارتها ، لم تشتمل فى مبادئها الأساسية على أى حظر لأى فعل أو نشاط من شأنه أن يتسبب فى تدهور أو تدمير لبيئة الآثار المغمورة

رغم استحقاق هذه المناطق أن ينطبق عليها المواد من القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ فيما يختص بالمناطق المحمية ٠

ففى تعريف المنطقة المحمية فى القانون ، ذكر أن أية منطقة من الأراضى أو من الساحل أو من المياه الداخلية تتميز بتوافر الحياة النباتية أو الحيوانية أو السياحية أو الجمالية تعتبر محمية طبيعية ، فما الرى فى جزء من المياه الساحلية يتمثل فيه جزء من التاريخ الانسانى الهام بالاضافة الى شروط المحمية الطبيعية السابق ذكرها ، تستحق أن تكون محمية أثرية أم لا ؟!

ان المقارنة بين أولويات حماية بيئات خاصة مثل الشعاب المرجانية أو نباتات الشورى ، وهى البيئات المعروف عنها عالميا انها الأولى بالحماية ، وبين تلك البيئات المائية التى تحتضن آثارا مغمورة ، ستكون فى صالح الأخيرة بلا جدال وخاصة حالة مدينة الاسكندرية القديمة ، فقد أثبتت الخبرات فى هذا المجال أن أى جزء من الطبيعة يستطيع أن يجدد نفسه مهما كان مستوى التدهور الحادث فيه ، وذلك اذا ما استطاع تلافى أو التخفيف من أسباب التدهور ، ولكن كيف يمكن لحقبة تاريخية متمثلة فى تواجد آثارها أن تتجدد بتدهورها أو تدميرها ؟!

ان الحفاظ على التراث الحضارى يعزز التماسك الاجتماعى بتأكيده على أهمية اسهامات الماضى الفنية أو العلمية أو الحضارية، وهى تساعد على تكوين منظور أطول أجلا للحياة وتعتبر جزءا من مفهوم المساواة بين الأجيال ، من حيث انها تمثل ارثا ينتقل عبر الأجيال ٠ ولذلك ، فان الجيل الحاضر مسئول عن المحافظة على التراث لمصلحة الأجيال القادمة ، وفى هذا الصدد فان كان الجيل الحالى لا يملك القدرات الكافية للحفاظ على هذا الارث ، فانه من الأفضل تركه بلا عبث فيه لأجيال قادمة قادرة ٠

كما أن للتراث الحضارى أهمية اقتصادية بوصفه نشاطاً منتجاً ، ففى حالة المواقع الأثرية المغمورة بالاسكندرية هناك العديد من الأفكار والآراء بجعلها متحفاً تحت المياه ، وبه يمكن أن يضاف الى مدينة الاسكندرية منفذ جديد من المنافذ السياحية بها يمكن من خلاله توفير فرص عمل اضافية ومزيد من الدخل القومى والمحلى ، فهناك الكثير من العاشقين للغوص فى التاريخ السكندرى اذا ما تهيأت بيئتها لذلك .

الخلاصة

انه مما لا شك فيه أن المواقع الأثرية المغمورة بالاسكندرية لها من الأهمية التاريخية والثقافية والعلمية والاقتصادية والسياحية ما لا يدع انسانا يتكاسل فى انجاز الاجراءات العلمية المناسبة للحفاظ عليها وادارتها ادارة متكاملة فى اطار التوازن بين الاهتمامات الانمائية المختلفة لضمان الاستدامة ، وفى هذا الاطار نقترح ما يلى :

(أ) السعى نحو اعلان منطقة الآثار المغمورة أمام قلعة قايتباى والميناء الشرقى « كمحمية أثرية » وادراجها فى قائمة التراث العالمى التى ترعاها اليونسكو .

(ب) الاضافة الصريحة للآثار المغمورة كمكون من مكونات الادارة المتكاملة للمناطق الساحلية واستصدار التشريعات الخاصة بذلك لتكون مادة فى قانون حماية البيئة (رقم ٤ لسنة ١٩٩٤) .

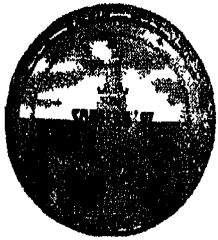
(جـ) الاضافة الصريحة للآثار المغمورة فى قانون حماية الآثار (رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣) وتقنين الحفاظ عليها بالوسائل الأنسب وتنميتها .

(د) اعتبار المواقع المغمورة للآثار مناطق مرجعية لتتبع التغير فى منسوب سطح البحر بمنطقة الاسكندرية ولدراسة الظواهر الجيولوجية .

(و) انشاء دبلوم متخصص بجامعة الاسكندرية فى مجال الآثار الغارقة وبيئتها لتوفير العنصر الوطنى الكفء ليلازم البعثات الأجنبية الباحثة عن الآثار الغارقة بنفس الكفاءة .

(هـ) تكثيف الوعى لدى المواطنين وخاصة بمدينة الاسكندرية بمدى قيمة وأهمية المواقع الأثرية الغارقة بشواطىء الاسكندرية .

المجلس الأعلى للآثار　　　جامعة الأسكندرية　　　منظمة اليونسكو



إعلان الاسكندرية

"لاشك أن الأهمية التاريخية لمدينة الأسكندرية جعلت ما يهدد مواقعها الأثرية في البر وتحت سطح البحر مثار اهتمام الرأي العام في مصر والعالم بأسره.

إن أعضاء الندوة يتقدمون بالتوصيات الملحقة فيما يتعلق بمخاطر النحر والتآكل في منطقة قلعة قايتباي ويدعون الى الالتزام بسياسة طويلة الأمد للمحافظة على تراث الاسكندرية الحضاري. وإننا على ثقة أن مصر قادرة على أن تحقق الأهداف المذكورة، والنجاح في المحافظة على التراث الحضاري لمدينة الإسكندرية الذي هو جزء من تراث الإنسانية جمعاء".

الأسكندرية في : ١٩٩٧/٤/١٠

منظمة اليونسكو | جامعة الاسكندرية | المجلس الأعلى للآثار

ندوة دولية عن
« الآثار المغمورة وادارة البيئة الساحلية في حوض البحر المتوسط والاسكندرية بصفة خاصة »
الاسكندرية ٧ الى ١١ أبريل ١٩٩٧

التوصيات

اعترافا بضرورة ايجاد اطار عمل استراتيجي للادارة المستقبلية للتراث الثقافي ، سواء على الشواطيء أو تحت الماء ، والحاجة الى القيام بعمل عاجل لحماية منطقة قلعة قايتباى والحفاظ عليها ، فان الندوة توصى بما يلى للسلطات الوطنية وبصفة خاصة :

- المجلس الأعلى للآثار (وزارة الثقافة) .
- جهاز شئون البيئة .
- بالتنسيق مع :
- معهد بحوث الشواطيء والهيئة المصرية لحماية الشواطيء (وزارة الأشغال العامة والموارد المائية) .
- مصلحة الموانيء والمنائر (وزارة النقل البحرى) .
- القوات البحرية (وزارة الدفاع) .
- وزارة السياحة .
- جامعة الاسكندرية .
- محافظة الاسكندرية .

المشروع الريادى لمنطقة قلعة قايتباى :

١ ـ يجب عمل تقييم للحالة الراهنة لقلعة قايتباى وخطر النحر الذى يواجهها ٠ ومن أجل عمل هذا التقييم يوصى بطلب المعاونة من هيئة اليونسكو لارسال خبراء دوليين ذوى كفاءة عالية فى عمليات السواحل ٠ آخذين فى الاعتبار أن طبيعة أى تدخل يجب أن تضمن حماية كل من موقع الفنار المغمور والقلعة والحفاظ على سلامة كل منهما ٠

٢ ـ وفى نفس الوقت ، يجب البدء على الفور فى تنفيذ برنامج عاجل يستغرق من أربعة الى ستة شهور يهدف الى تجميع البيانات البيئية الأساسية من أجل تحديد خطوات علاجية مؤقتة ، وهذه الخطوات المؤقتة هدفها الحد من عمليات النحر التى تهدد القلعة دون الاضرار بالمواقع الأثرية المغمورة فى المنطقة وذلك لحين التوصل الى حل دائم ٠

٣ ـ يجب التوقف عن اتخاذ أى خطوات علاجية بما فى ذلك وضع كتل اسمنتية ، حتى يتم الانتهاء من تقييم وضع القلعة واقتراح الحلول المؤقتة وذلك بعد جمع ، وتحليل ، وترجمة البيانات البيئية الأساسية ، كما لا يجب القيام بأى عمل دون استشارة الخبراء المختصين والتنسيق بين الهيئات المعنية ٠

٤ ـ علاوة على ما سبق يطلب من خبراء الآثار المعنيين استكمال المسح (قدر الامكان) وعمل خرائط لموقع الفنار الأثرى تحت الماء ٠

٥ ـ ان برنامج جمع البيانات السابق ذكره يجب أن يستمر ، واذا احتاج الأمر أن يتسع ، من أجل تقديم البيانات البيئية المطلوبة لتحديد وتنفيذ حل طويل المدى ودائم من أجل الحفاظ على سلامة الموقعين وتراثهما الثقافى ٠

٦ ـ يجب تكوين فريق عمل ذى مهمة محددة بالتنسيق مع اليونسكو وعضوية الجهات المختصة صاحبة القرار مثل جهاز شئون البيئة ، والمجلس الأعلى للآثار ، والهيئة المصرية لحماية الشواطىء ، ومعهد بحوث الشواطىء ٠

وجامعة الاسكندرية ، ومحافظة الاسكندرية ، والقوات البحرية والهيئات الأخرى ذات العلاقة ، بالاضافه الى خبراء الآثار الغارقة وعمليات الشواطىء • ويكون هذا الفريق متعدد التخصصات مسئولا عن وضع استراتيجية عامة لتنفيذ ومتابعة هذا المشروع الريادى •

خطة الادارة على المدى الطويل :

١ ـ وضع الخطوط الأساسية للاطار الاستراتيجى للحفاظ على التراث الساحلى المغمور (الثقافى والطبيعى) والادارة المتكاملة له وادماجه فى الخطة القومية لادارة السواحل •

٢ ـ وقف وضع الكتل الاسمنتية داخل أو خارج الميناء الشرقى ، وكذلك وقف أى استخدام أو نشاط اضافى فى المنطقة ، حتى يتم اجراء المسح المقترح فى الفقرة (٣) السابقة والمبادرة باجراء عاجل لوقف الصرف الصحى فى الميناء الشرقى ومنطقة قايتباى •

٣ ـ مسح المواقع الأثرية والعمليات الجيومورفولوجية والهيدروديناميكية لشواطىء الاسكندرية الكبرى ، وتوصيل المعلومات التى يحصل عليها الخبراء والهيئات الى ادارة الآثار الغارقة بالمجلس الأعلى للآثار •

٤ ـ وعلى أساس المسح ، يتم تحديد أولويات المشاكل الحرجة التى يجب مواجهتها مع المتابعة المستمرة لها •

٥ ـ دراسة القوانين الحالية للتأكيد على أن المشاكل الخاصة بالمواقع الأثرية الغارقة بالاسكندرية يتم تناولها بشكل مناسب وبصفة خاصة :

(أ) اقرار المجلس الأعلى للآثار بوصفه أحد الهيئات المسئولة عن حماية البيئة المائية المنصوص عليها فى القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ فى شأن حماية البيئة (مادة ١ بند ٣٨) •

(ب) دراسة امكانية اقامة وضع قانونى خاص للمواقع الأثرية الغارقة بالاسكندرية وتسجيلها فى « قائمة التراث العالمى » •

٦ ـ اجراء دراسة للعائد الاقتصادى للمواقع الأثرية الغارقة بالاسكندرية كمورد سياحى اضافى للدخل القومى من خلال انشاء المتاحف والمحميات الأثرية على الأرض أو تحت الماء .

٧ ـ تكوين مجموعة عمل محدودة لمتابعة تنفيذ توصيات الندوة ، وتقديم مقترحات لمشروع الدراسات المطلوبة ، والبحث عن مصادر التمويل .

ملحـــق

بالاضافة الى ما سبق فان الندوة تدرك أهمية النواحى التالية

- على جامعة الاسكندرية استحداث مناهج متخصصة لطلابها وخريجيها للآثار الغارقة وللمجالات المتعلقة بها وادخال تلك المناهج فى نظام التعليم المفتوح للمواطنين .

- أن هناك حاجة لتعزيز الوعى لدى المواطنين بقيمة وأهمية التراث الطبيعى والثقافى الانسانى وذلك من خلال التغطية الاعلامية ونشر المعلومات .

- أن المشاركين فى الندوة يعبرون عن رغبتهم فى عقد مؤتمر دولى للآثار الغارقة وادارة السواحل خلال عام ١٩٩٩.

قائمـة المراجـع

١ ـــ القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بشأن حماية البيئة ولائحتـــه التنفيذية .

٢ ـــ القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣ بشأن حماية الآثار .

٣ـــ القواعد البيئية المنظمة للتنمية فى المناطق الساحلية ـــ جهاز شئون البيئة ـــ ١٩٩٦ .

٤ ـــ ادارة المناطق الساحلية والتقييم البيئى (نشرة تكميلية) ـــ ادارة البيئة ـــ البنك الدولى ـــ ١٩٩٤ .

٥ ـــ التراث الحضارى فى التقييم البيئى (نشرة تكميلية) ـــ ادارة البيئة ـــ البنك الدولى ـــ ١٩٩٤ .

٦ ـــ الكشوف الاثريـــة تحت مياه البحـــر الأبيض المتوســـط ـــ أ. د. سليم انطون مرقص ـــ ١٩٦٨ .

تأثير العوامل الطبيعية والبشرية
عـلى واجهة مصر البحرية

يوسف حليم

تمتد سواحل مصر المطلة على البحر المتوسط الى ما يزيـد على الألف كيلومتر بين الحدود الشرقية والحدود الغربية وهى تمثل منطقة التفاعل بين البر والبحر وتخضع لعوامل طبيعية عديـدة تداخلت معها العوامل البشرية وخاصة فى العصر الحديث وهى تمثل أيضا نوافذ التعامل التجارى والثقافى مع شعوب البحر المتوسـط قديماً وحديثاً .

وفى المنتصف تقع مدينة الاسكندرية (شكل ١) فى موقع يفصل بين منطقتين لكل منهما نظام بيئى متميز سواء من ناحية البحر أو من ناحية البر : الصحراء الغربية — غرب الاسكندرية — ثم دلتـا النيل وشواطىء شبه جزيرة سيناء شرقاً .

القطاع الغربى ، صحراء ذات رمال وكثبان جيرية وبحر قليل الانتاج ذو مياه صافية زرقاء ورصيف قارى ضيق سريع الانحدار الى أعماق كبيرة على مقربة من الشاطىء . والزراعة فى هذا القطاع غير مكثفة وتعتمد على الأمطار ؛ ولذا فلا يوجد صرف زراعى كما أن العمران وما يصاحبه من افرازات المدن مثل الصرف الصحى بقى محدودا جدا ، الى أن بدأت التنمية السياحية فى الامتداد الى هذا القطاع .

القطاع الشرقى يختلف الى حد بعيد عن القطاع الغربى فهو يقع تحت تأثير نهر النيل والصرف الزراعى ومخلفات الكثافة السكانية الساحلية والداخلية ٠ رواسب القاع يشكلها الطمى والغرين ، سواء أمام الدلتا أو أمام سيناء والرصيف القارى هنا متسع ٠ يمتد عشرات الكيلو مترات قبل الانحدار الى الأعماق الكبيرة ، ويعتبر هذا الرصيف الحقل الخصيب للمصايد المصرية فى البحر المتوسط ٠

من المسلم به أن شواطىء البحار والمحيطات لا تستقر على وضع ما فهى خاضعة بصفة مستمرة لعوامل الهدم وعوامل البناء من نحر وترسيب وهذا أوضح ما يكون بالنسبة لسواحل دلتا الأنهار مثل دلتا نهر النيل وغيره من الأنهار مثل المسيسيبى والنيجر والنهر الأصفر بالصين وغيرها وأما عن سواحل دلتا النيل كما نراها اليوم فهى محصلة وقتية لتاريخ طويل من التقلبات التى لم تنته بعد .

وتشير الدلائل الجيولوجية الى أن نهر النيل بدأ يشق طريقه من أواسط أفريقيا الى البحر المتوسط فى المرحلة الأخيرة من الحقبة الجيولوجية الثالثة Policene وتغير مساره اكثر من مرة منذ حوالى ثمانية ملايين سنة ٠ وسأكتفى هنا بسرد مقتضب للأطوار التى مرت بها دلتا نهر النيل منذ عصر ما قبل الأسرات أى خلال ثمانية آلاف عام تقريباً بعد انتهاء العصر الجليدى الأخير وهى أطوار لعبت فيها العوامل البشرية دوراً متزايداً فى المراحل الحديثة .

فى المرحلة الأولى :

نجد نهراً طليقاً تنتشر مياهه المحملة بالرواسب العالقة والمخصبات الطبيعية على مساحة كبيرة من جنوب شرق البحر المتوسط . وتشهد بذلك رواسب القاع بين مصر وجزيرة قبرص

وهى المختلطة بمواد نقلها النهر من أواسط أفريقيا لتستقر على قاع البحر المتوسط .

الا أن النسبة الكبرى من الطمى تترسب عند التقاء النهـــر بالبحر فى الشريط الساحلى مما أدى الى تقدم ساحل الدلتا شمالا على حساب البحر المتوسط بدءاً من الفترة ما بين سبعة وثمانية آلاف عام قبل الحاضر .

والواقع أنها لم تكن دلتا واحدة وانما عدة دلتاوات صغيرة (شكل ٢) تكونت أمام فتحات الأفرع القديمة للنهر وتكونت بينهـــا البحيرات الساحلية على شكل خلجان ومستنقعات .

فى المرحلة الثانية :

حدث نضوب تدريجى لأفرع النهر القديمة بفعل الاطماء وبفعل الانسان بين القرنين الثانى والتاسع الميلادى ولم يتبق منها سوى فرعان . وفى هذه المرحلة اندمجت هذه الدلتاوات الصغيرة تدريجيا فى شريط ساحلى على حافة الدلتا مكملة له وهناك شواهد تاريخية وجيولوجية على ذلك .

من قبل هذه المرحلة كانت مياه الفيضانات موزعة بين الأفرع الصغيرة ثم أصبحت محصورة فى فرعى دمياط ورشيـــد وأصـــبح ترسيب الطمى محصورا أمام الفتحتين ، وترتب على ذلك أن بدأ تكون راس أو بروز ترسيبى أمام كل منهما (شكل ٣) ثم استمر تقدم الدلتا ، وخاصة أمام الفتحتين بمعدل تقريبى يصل الى ١٠ ــ ١٥ مترا سنويا ، أى حوالى ١٠ الى ١٥ كيلو مترا خلال الألف عام الماضية ، اى الى بداية القرن الحاضر وبالتحديد الى عام ١٩١٠ .

وفي هذا العام ـ ١٩١٠ ـ تبدأ **المرحلة الثالثة** ، وتنتهي عام ١٩٦٥ :

وهى بداية مرحلة تآكل الشواطىء وتقهقر الدلتا . حدث خلال هذه المرحلة تذبذب وتناقص فى معدل هطول الأمطار الموسمية فوق هضاب أفريقيا الشرقية وأدى ذلك الى تناقص ايراد النهر بحوالى ٢٥٪ وبالتالى اختل التوازن بين معدل النحر ومعدل الترسيب والاطماء ، ووصل بذلك معدل الفاقد من رأسى دمياط ورشيد الى حوالى ٥ر٢ كيلو متر فى الفترة من ١٩١٠ الى ١٩٦٥ .

ما حدث بعد ذلك هو اشتداد النحر منذ بدء تشغيل السد العالى والاحتجاز شبه التام للطمى خلف السد الا أنه من الواضح أن نحر الشواطىء بدأ قبل انشاء السد العالى (شكل ٤) كما ذكر من قبل .

من قبل كان فيضان النيل يدعم الشواطىء سنويا بكمية من الطمى قدرت بحوالى ٨٠ الى ٩٠ مليون طن وعندما انقطع هذا الدعم أصبحت عوامل الهدم وهى الأمواج والأنواء متسيدة (شكل ٥) .

تتعرض الشواطىء سنويا الى ١٦ نوة خلال موسمى الخريف والشتاء نصفها معتدل والنصف الآخر أشد عنفا قد يصل ارتفاع الأمواج خلالها الى ٥ر١ ـ ٣ أمتار ، بمعدل موجة كل ٧ الى ٨ ثوان (شكل ٦) . وجدير بالذكر أن تغيرات المناخ العالمى المرتقبة ستؤدى الى تزايد معدل النوات وتزايد شدتها مستقبلا .

هناك أيضا تغيرات بيئية جوهرية أعقبت السد العالى علاوة على نحر الشواطىء اذ ان انحسار مياه الفيضان السنوى عن البيئة البحرية أدى الى اختلال النظام البيئى الذى كان سائدا لغياب المخصبات الطبيعية التى كانت تغذى البيئة البحرية ونتج

عن ذلك انخفاض فى الانتاج الأولى وبالتالى انهيار الثروة المائيـــة (شكل ٧) .

وهنا وعلى الرغم من ذلك فلا بد أن ندرك أن السد العالى ليس هو الجانى الأوحد على المصايد المصرية فى البحر المتوسط وانما هى جملة عوامل أولها الصيد الجائر وتزايد الضغط على حقول المصايد منذ ما قبل السد العالى ثم دواعى الأمن العسكرى بعد ١٩٦٧ التى منعت الصيادين من ارتياد الكثير من مناطق الصيد المعتادة ثم السد العالى بعواقبه .

وفى كل الاحوال فقد أخذت المصايد المصريـــة فى التحسن تدريجيا منذ أواخر السبعينات بحيث ارتفع انتاجها الى نصف انتاج الفترة السابقة على الأحداث وعلى السد العالى بعد أن كان قد هبط الى الربع بين ١٩٧٦ و ١٩٧٧ .

ينبغى فى النهاية أن نمد بصرنا الى المستقبل القريب والبعيد على ضوء المعرفة العلمية والتوقعات المستمدة منها .

تتراكب العوامل المحلية المؤثرة على واجهة مصر البحريـــة وعلى مصر بصفة عامة مع عوامل شاملة للكرة الأرضيـــة وهى العوامل المترتبة على ظاهرة الاحتباس الحرارى وتغـــيرات المناخ العالمى .

ويتوقع العلماء ان يرتفع منسوب المحيطات عامة بحوالى ١٢ سم الى ١٨ سم خلال ربع القرن القادم ، مع تزايد معدل واشتداد عنف الأنواء وتزايد النحر . واما عن البحر المتوسط ، فالمتوقع أن يرتفع المنسوب به أكثر من ذلك الى حوالى ٢٥ سم الى ٤٠ سم حيث يتراكب ارتفاع منسوب البحر مع هبوط اليابسة ؛ نتيجة للضخ المستمر للمياه الجوفية فى شمال الدلتا وأيضا ضخ البترول والغاز الا انه ينبغى أن نلاحظ أن هذه التوقعات تتضمن هامشا كبيراً من الافتراضات التى لا تزال بعيدة عن اليقين .



شكل (١) الواجهة البحرية لمصر وموقع الاسكندرية

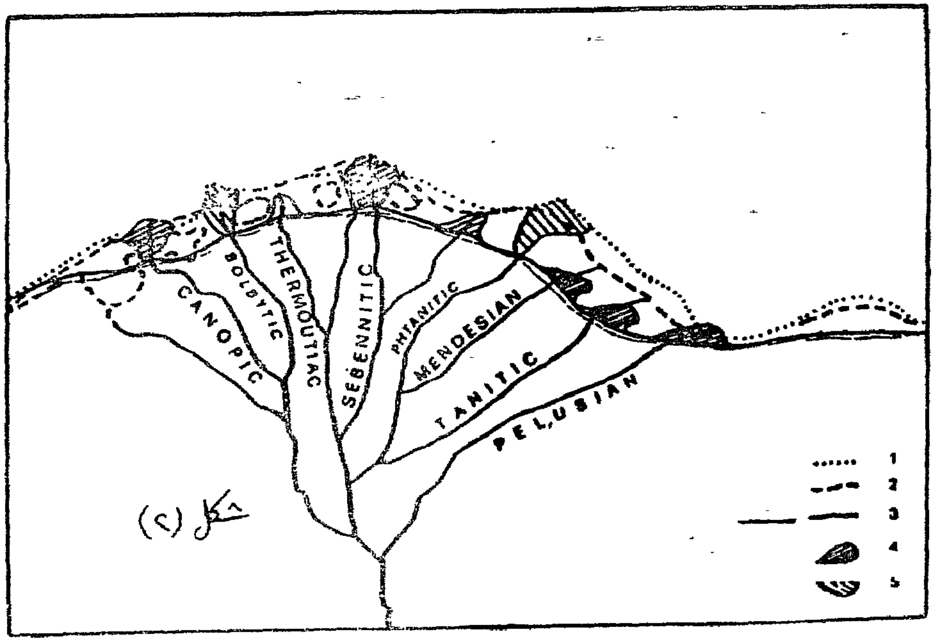


Fig. 14.20 Nile Delta distributaries and subdeltas in pre-historic times to about 2000 BP. 1. Present coastline 2. Coastline 2000 BP 3. Coastline about 7-8000 BP 4. Ancient subdeltas 5. Younger delta lobes. (Sestini, 1992)

شكل (٢) دلتــا النيل والافرع القديمة

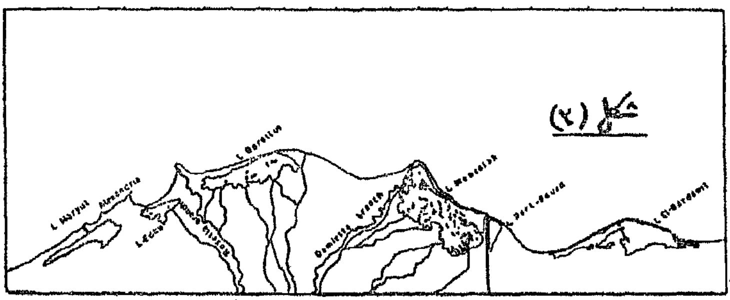
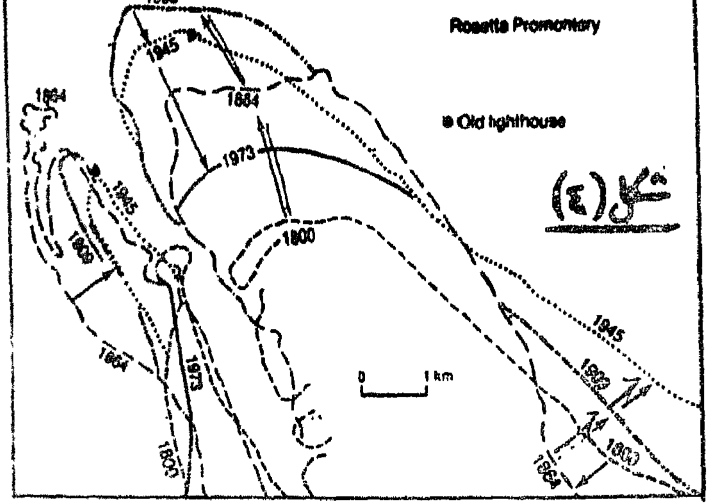
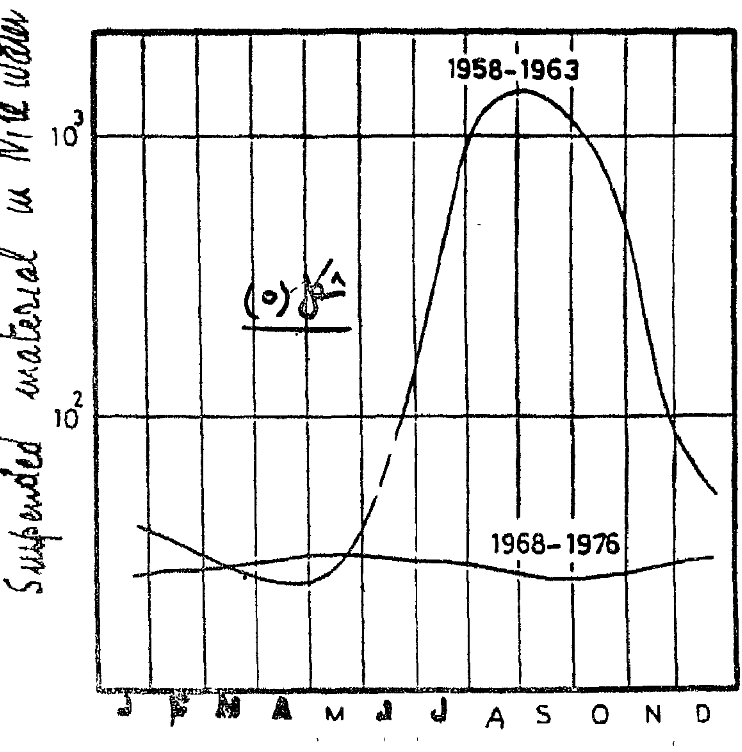


Fig. 1 The Nile Delta and the coastal lakes.

شكل (٣) دلتا النيل والبحيرات الساحلية فى الحاضر



شكل (٤) راس رشيد ويلاحظ تقدم الساحل فى اتجاه البحر
ثم النحر والتقهقر ابتداء ١٩٠٩ .



شكل (٥) المواد العالقة فى مياه النيل قبل وبعد السـد

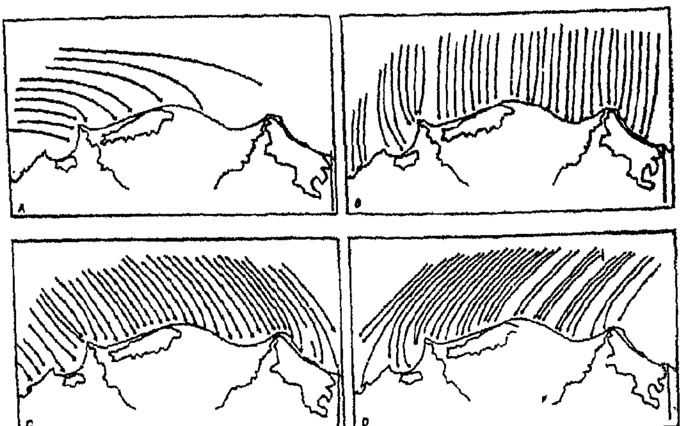


Fig 14.24 Main patterns of wave approach to the coast of the Nile Delta (based on Tetratech 1986) A Westerly waves B Northerly waves C North-westerly waves D North-easterly waves AC. 7–10 seconds

شكل (٦)

شكل (٦) نمط واتجاه الامواج أمام الشواطئ المصرية

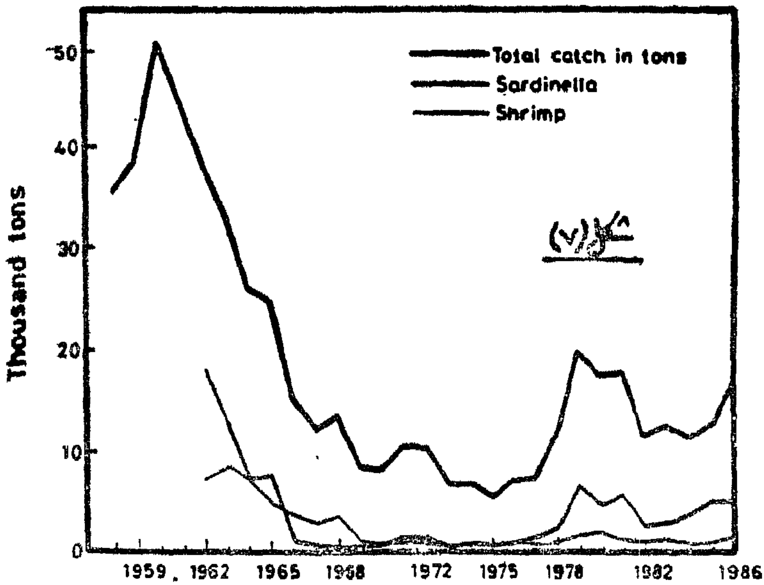


Figure 15. Total catch 1(1958-86): Sardinella and shrimp catch (1962-86). (Fishery Statistics. Inst. of Oceanography and Fisheries. Alexandria)

انتاج مصائد الاسماك من مياه البحر المتوسط بين ١٩٥٩ و ١٩٨٦

أشكال بحث

الرموز البحرية ودلالاتها في الفن المسيحي المبكر في مصر

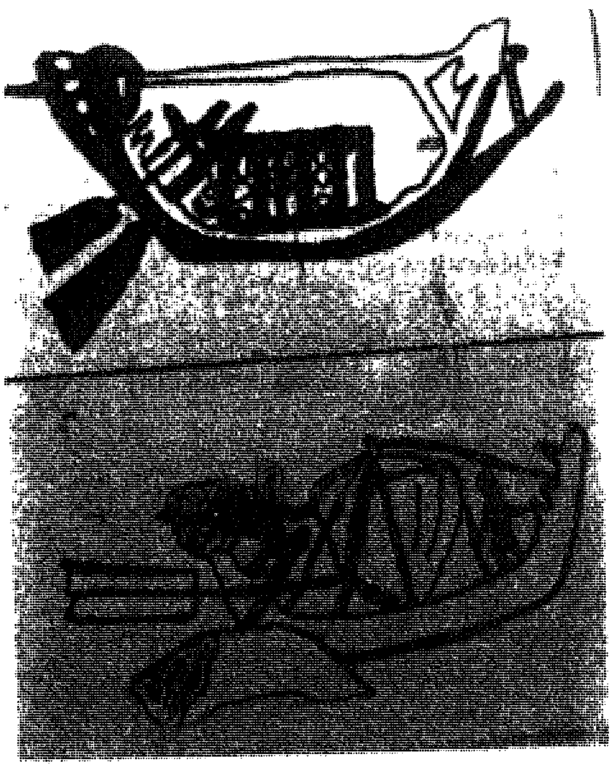
للدكتور/ عزت زكى حامد قادوس



صورة رقم (١)



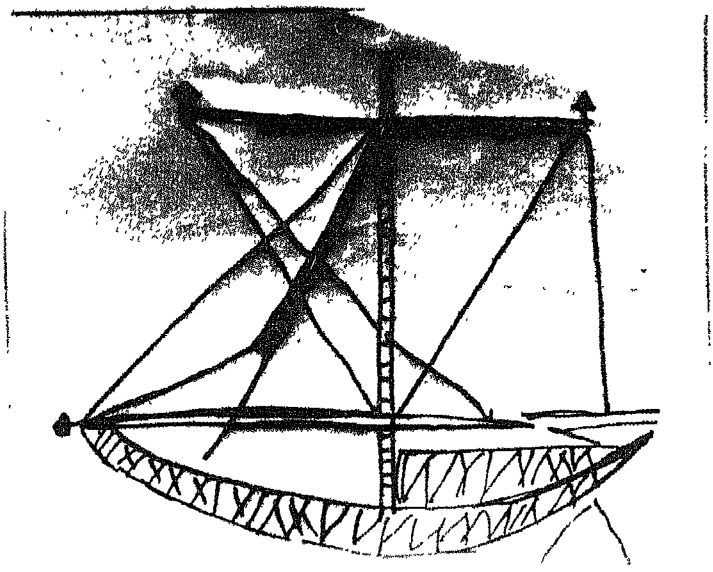
صورة رقم (٢)



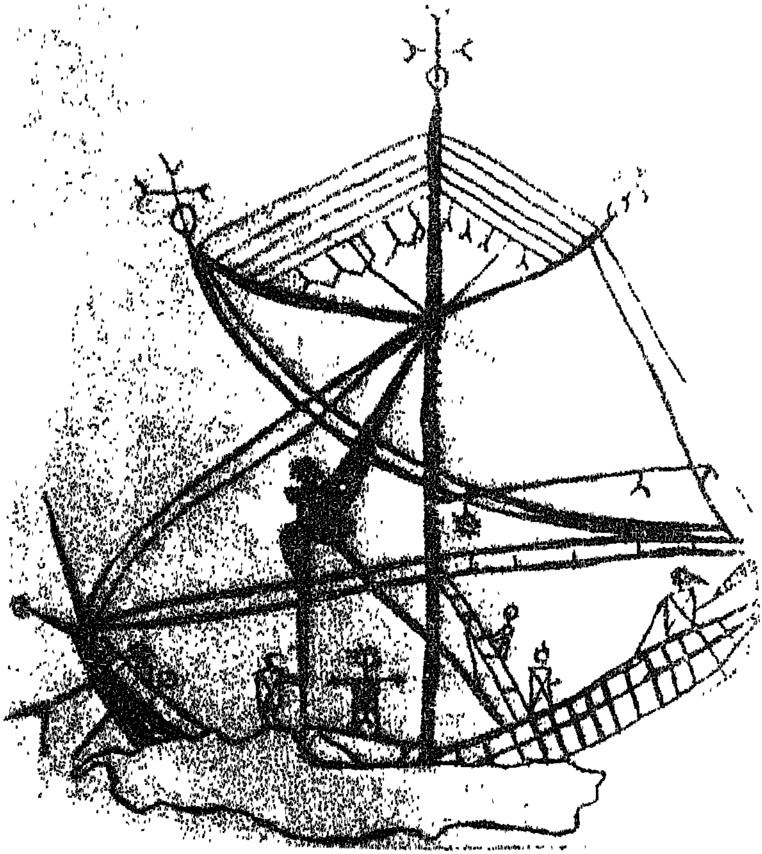
صورة رقم (٣)



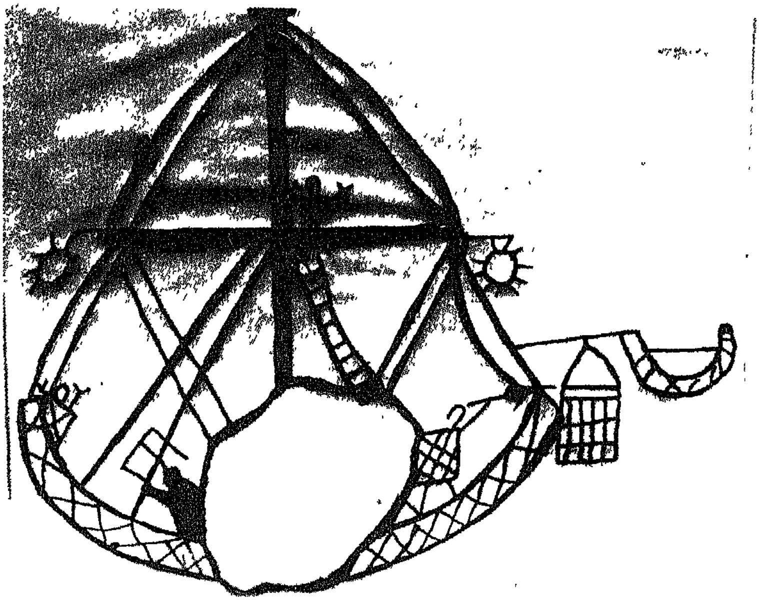
صورة رقم (٤)



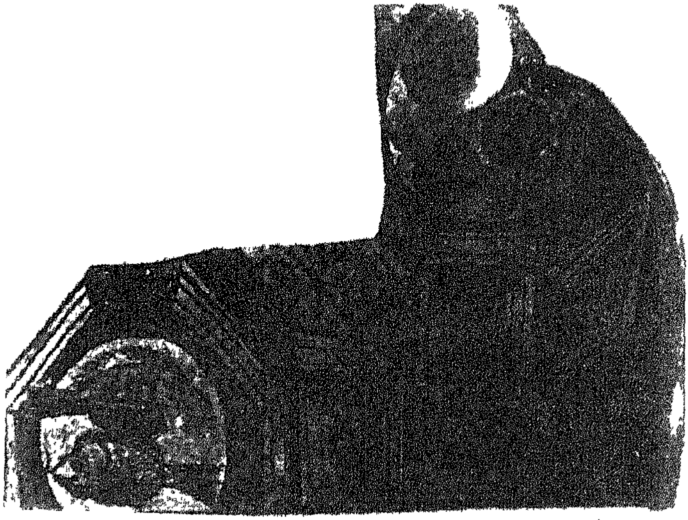
صورة رقم (٥)



صورة رقم (٦)



صورة رقم (٧)



صورة رقم (٨)



صورة رقم (٩)



صورة رقم (١٠)



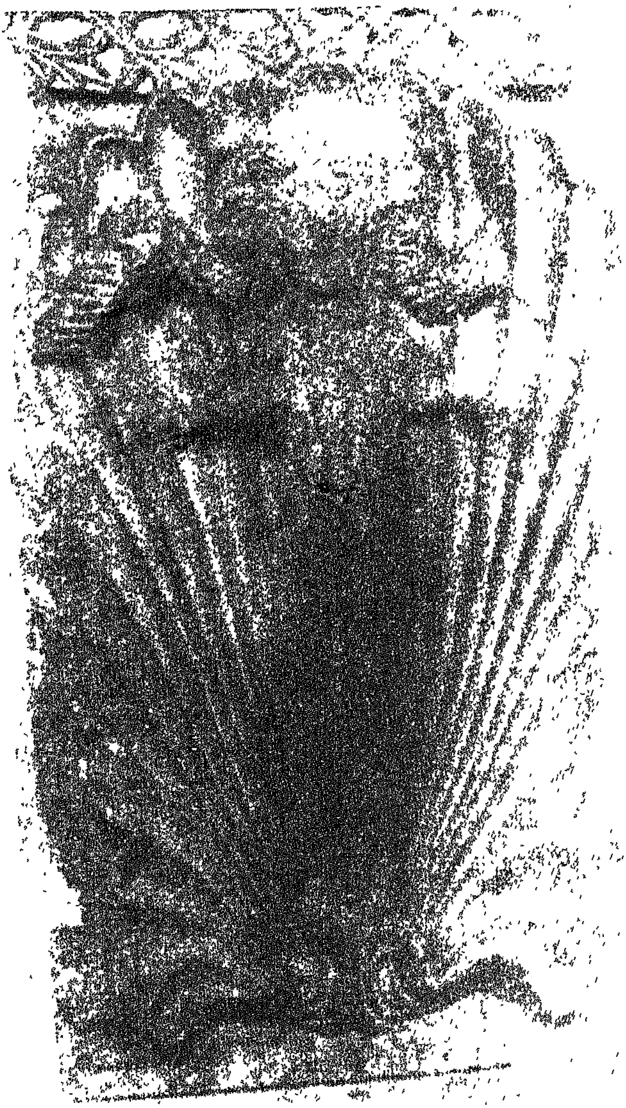
صورة رقم (١١)



صورة رقم (١٢)



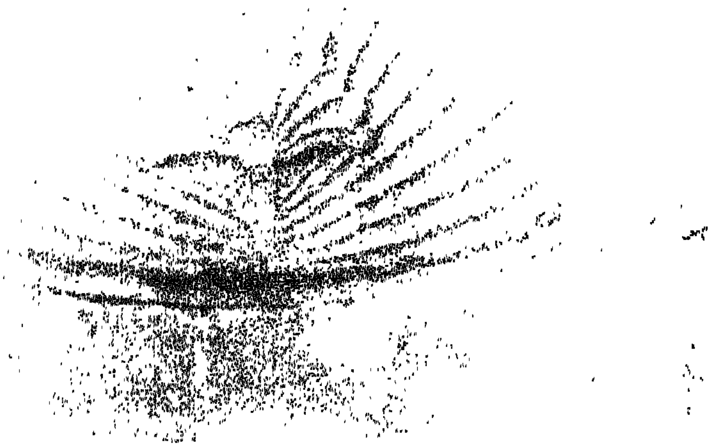
صورة رقم (١٣)



صورة رقم (١٤)



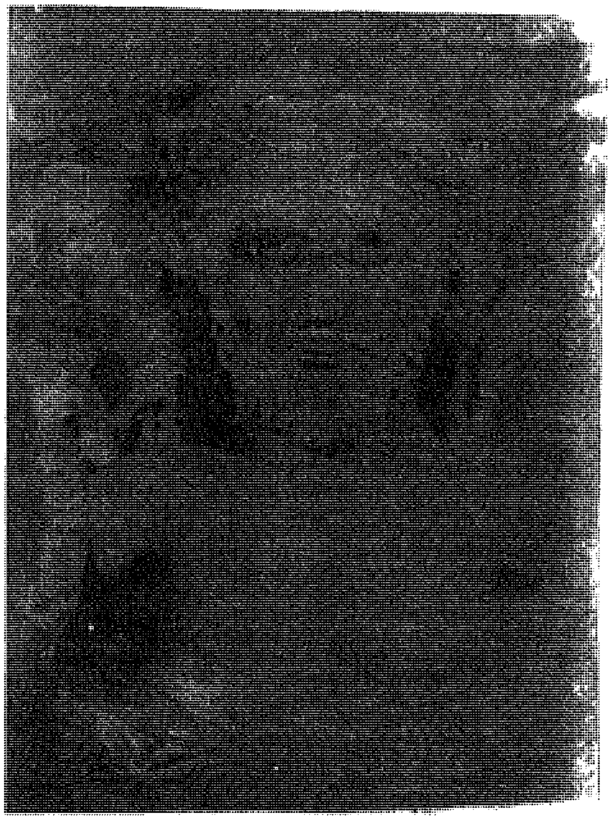
صورة رقم (١٥)



صورة رقم (١٦)



صورة رقم (١٧)



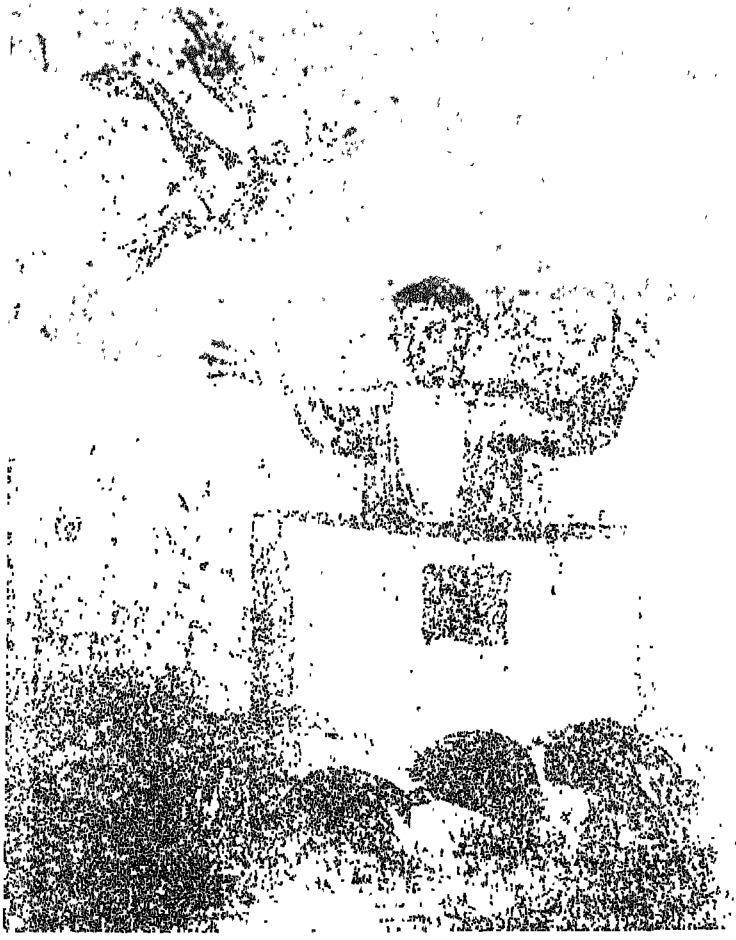
صورة رقم (١٨)



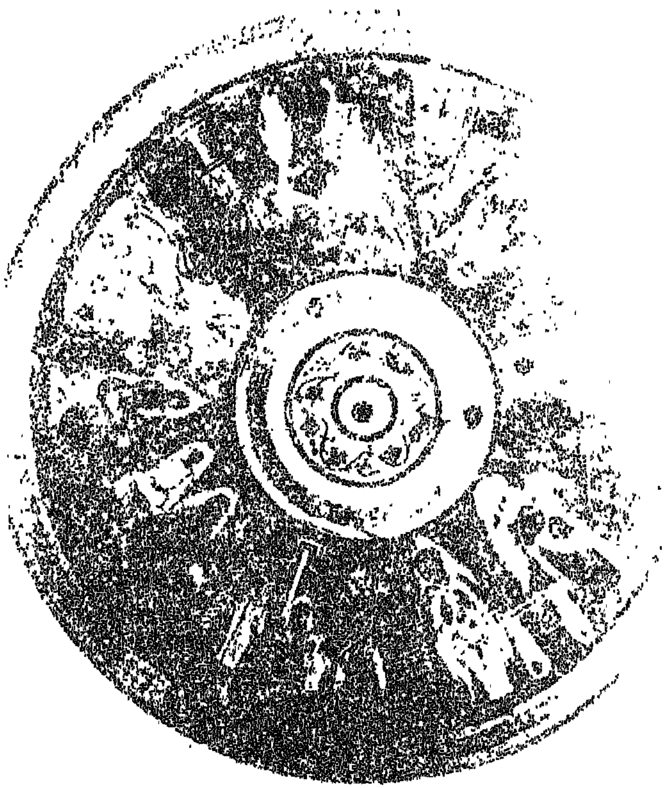
صورة رقم (١٩)



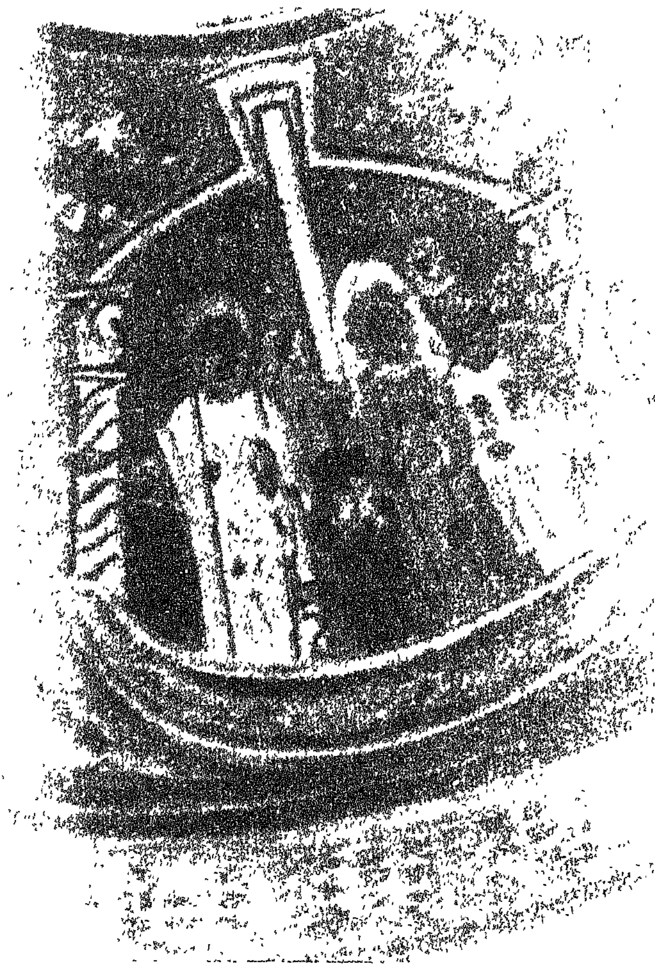
صورة رقم (٢٠)



صورة رقم (٢١)



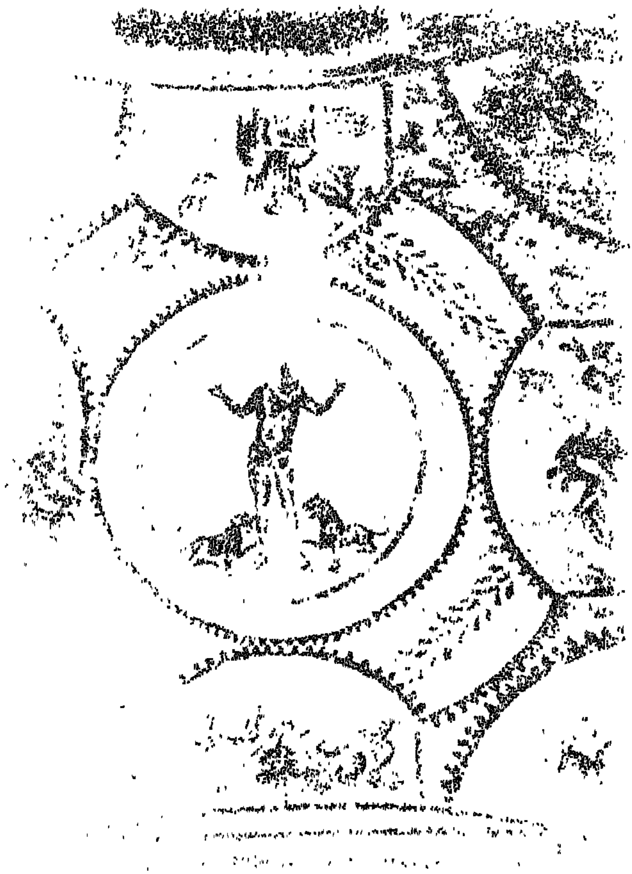
صورة رقم (٢٢)



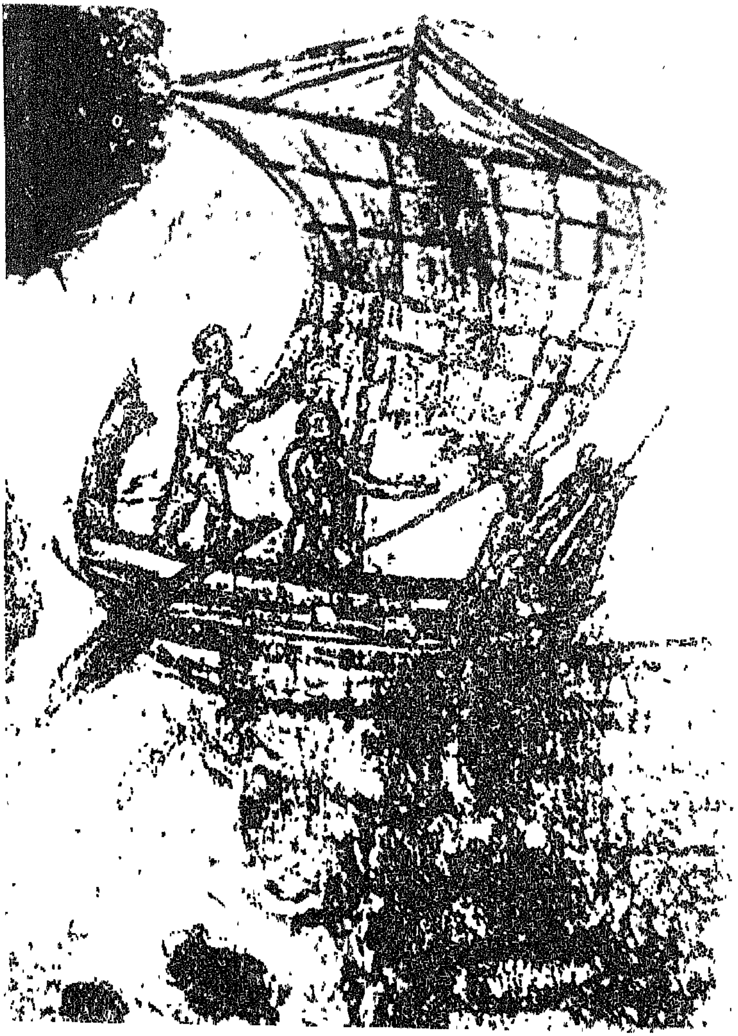
صورة رقم (٢٣)



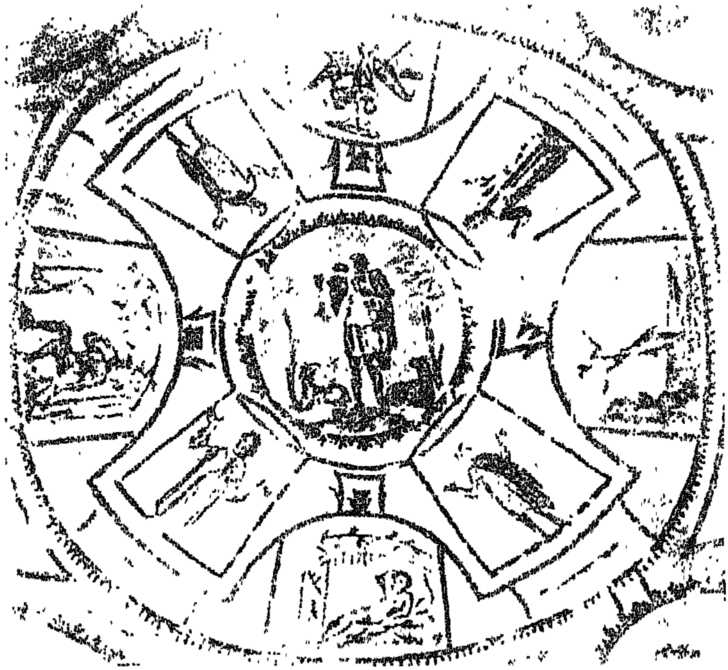
صورة رقم (٢٤)



صورة رقم (٢٥)



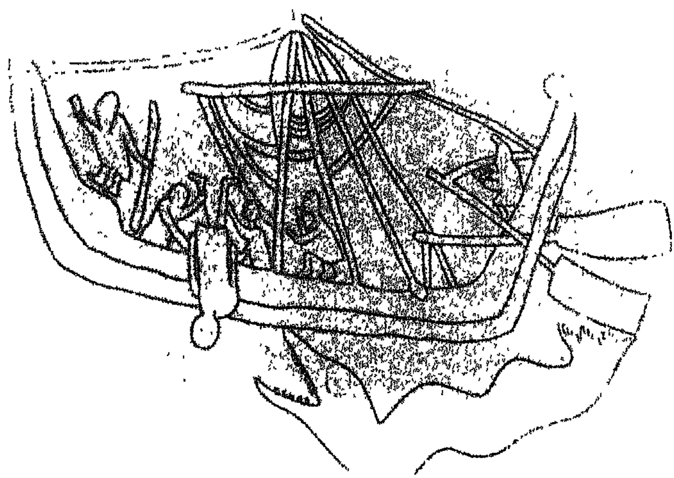
صورة رقم (٢٦)



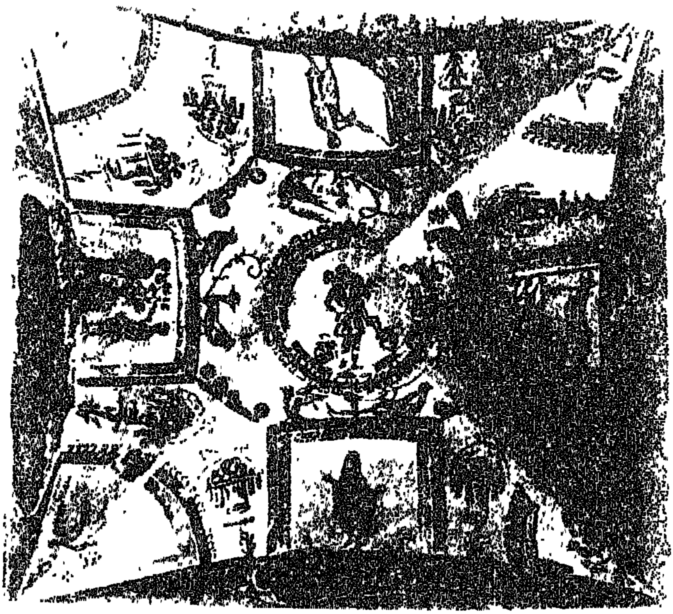
صورة رقم (٢٧)



صورة رقم (٢٨)



صورة رقم (٢٩)



صورة رقم (٣٠)



صورة رقم (٣١)



صورة رقم (٣٢)



صورة رقم (٣٣)



صورة رقم (٣٤)

المحتويات

صدر فى هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤ .

٢ ـ على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧ .

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧ .

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧ .

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى،
د. علية عبد السميع الجنزورى، ١٩٨٧ .

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ١ ،
لمعى المطيعى، ١٩٨٧ .

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى،
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧ .

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية،
د . على بركات، ١٩٨٧ .

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د . محمد أنيس، ١٩٨٧ .

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود فوزى، ١٩٨٧ .

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكرى القاضى، ١٩٨٧ .

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير،
د . نبيل راغب، ١٩٨٨ .

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية تاريخية،
د . عبدالعظيم رمضان، ط ١ ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤ .

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨ .

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د . على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨ .

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ـ١٩٥٢)،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٨ .

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨ .

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د . على السيد محمود، ١٩٨٨ .

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨ .

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى،
د . محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨ .

٢١ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ١ ،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨ .

٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر،
جمال بدوى، ١٩٨٨
٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ٢، إمام التصوف فى مصر: الشعرانى،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.
٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦)،
د. نجوى كامل، ١٩٨٩.
٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين،
ترجمة: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩.
٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٨٩.
٢٧ - فتح العرب لمصر جـ١،
تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
٢ - فتح العرب لمصر جـ٢،
تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
٢٩ - مصر فى عهد الإخشيديين،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩.
٣٠ - الموظفون فى مصر فى عهد محمد على،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٠.
٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية،
شكرى القاضى، ١٩٨٩.
٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر جـ٢،
لمعى المطيعى، ١٩٨٩.
٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية،
د. خالد محمود الكومى، ١٩٨٩.
٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،
د. يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠.
٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٠.
٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢،
تأليف: هاملتون بووين، ترجمة: د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠.
٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن،
تأليف: د. سليمان صالح، ١٩٩٠.
٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى،
د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠.
٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)،
د. جميل عبيد، ١٩٩٠.
٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨،
د. عبدالمنعم الدسوقى الجميعى، ١٩٩٠.
٤١ - محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية،
د. رفعت السعيد، ١٩٩١.
٤٢ - تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غربال، ط ٢، ١٩٩٠.
٤٣ - رحلة فى عقول مصرية،
إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠.
٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر، فى العصر العثمانى،
د. محمد عفيفى، ١٩٩١.
٤٥ - الحروب الصليبية جـ ١،
تأليف: وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د. حسن حبشى، ١٩٩١.
٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧)،
ترجمة: د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١.

٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث،

د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .

٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى،

د . زبيدة عطا، ١٩٩١.

٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٧٩)،

د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.

٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦-١٩٥٤)،

د . سهير اسكندر، ١٩٩٣.

٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،

(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)، أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.

٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر،

د . إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢.

٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،

د . محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢.

٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،

د . محمد عفيفى، ١٩٩٢.

٥٥ - الحروب الصليبية جـ٢،

تأليف : وليم الصورى ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٢.

٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية،

د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢.

٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة،

د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢.

٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،

د . إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣.

٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١)،

د . عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣.

٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،

عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣.

٦١ - تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث،

د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر جـ٣،

لمعى المطيعى، ١٩٩٣.

٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،

تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر: د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٤ - مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،

د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣.

٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧-١٩١٧)،

د . سهام نصار، ١٩٩٣.

٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى،

د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣.

٦٧ - مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،

(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٨ - الحروب الصليبية جـ٣،

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣.

٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦-١٩٥١)،

د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤.

٧٠ - أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف: أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط ٢، ١٩٩٤.
٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة: د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤.
٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.
٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.
٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية، جـ١، فى العصر الفرعونى،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.
٧٥ - أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول،
د. سلام شافعى محمود، ١٩٩٥.
٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الإحتلال البريطانى)،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥.
٧٧ - الحروب الصليبية جـ٤،
تأليف: وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ١٩٩٤.
٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.
٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر،
تأليف: فريد دى يونج، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥.
٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢-١٩٠٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥.
٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزى ميخائيل، ١٩٩٥.
٨٢ - مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤
٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن جـ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ - القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.
٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥
٨٦ - تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)،
د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥.
٨٧ - مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ - ١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق د. عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥.
٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥.
٨٩ - تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.
٩٠ - معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.
٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦.
٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦.

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،

د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،

د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.

٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،

إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،

تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية،

د. محمد سيد محمد.

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢،

د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،

أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار، أ. د. محمد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى، أ. د. فاروق القاضى، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،

اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى، اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢

د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره

د. على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)

د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧.

د. أحمد فارس عبدالمنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).

د. سليمان صالح

١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.

تأليف: دليب هيرو: ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.

١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤.

سليم النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥.

سليم النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.

د. البيومى اسماعيل الشربينى.

١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.

د. البيومى إسماعيل الشربينى.

١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى

د. محمد محمد الجوادى.

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)

د. عز الدين إسماعيل.

١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى

تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٣.
أحمد شفيق باشا.
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية
(١٥١٧ ـ ١٧٩٨)
عبد الرزاق إبراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام
د. البيومى اسماعيل الشربينى
١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى
١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد أحمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم .
١٢٨ ـ معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوى.
١٢٩ ـ الدين العام (وأثره فى تطور الدين المصرى) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧-١٩٩٧).
سمير فريد.
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢م
ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمر.
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ١
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ٢
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى
بقلم/ عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية
(فى ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) د. محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والإرهاب فى مصر
السيد يوسف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥هـ ١٨١١ ـ ١٨٤٨م
طارق عبد العاطى غنيم بيومى
١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار
١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩.

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
١٤٧ ـ حسن البنا متى كيف .. ولماذا؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية
فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. مجاسن محمد الوقاد
١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)
د. عبد الحميد البطريق
١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الثالث
فى العصر الإسلامى
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الرابع
فى العصر الإسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
١٦٠ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش
١٦١ـ السيف والنار فى السودان
تأليف / سلاطين باشا
١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)
د. تمام همام تمام
١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
١٦٥ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر
(فى القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم
١٦٦ـ مذكرات معتقل سياسى (صفحة من تاريخ

مصر)
السيد يوسف
١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الأخشيدية
د. صفي علي محمد عبدالله
١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى
١٦٩ـ مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. صفي علي محمد عبد الله
١٧٠ـ القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
مجدى عبد الرشيد بحر
١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية في مصر القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت
١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) الجزء الأول
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) الجزء الثاني
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق م
د. أحمد عبد الحليم دراز
١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره في الحياة السياسية
عادل إبراهيم الطويل
١٧٦ ـ الملاحة النيلية في مصر العثمانية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م
د. عبدالحميد حامد سليمان
١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية اراء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم
١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر
د. سحر علي حنفي
١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)
د. عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د. عبدالعظيم رمضان

١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشي

١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشي
١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفي جمعة
١٨٤ ـ المنوفية في القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق
١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥م
د. أحمد أحمد سيد أحمد
١٨٦ ـ العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف
د. أحمد صبحي منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ١

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ٢

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ م

عرفه عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق (١٩٥١ ـ ١٩٦٣م)

د٠ عبد الحميد عبد الجليل احمد شلبى

١٩١ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر جـ ١

د٠ محسن على شومان ٠

١٩٢ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر جـ ٢

د٠ محسن على شومان ٠

١٩٣ ـ الامام محمد عبده بين المنهج الدينى الاجتماعى

د٠ عبد الله شحاته

١٩٤ ـ تاريخ الآلات الموسيقية الشعبية المصرية

د٠ فتحى الصنفاوى

١٩٥ ـ مجتمع افريقيا فى عصر الولاة

د٠ نريمان عبد الكريم أحمد

١٩٦ ـ تاريخ تطور الرى فى مصر (١٨٨٢ ـ ١٩١٤ م)

عبد العظيم محمد سعودى

١٩٧ ـ القدس الخالدة

د. عبد الحميد زايد

١٩٨ ـ العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية

د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٩٩ ـ المعبد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية

(تنظيمه الإدارى ودوره السياسى)

د. بهاء الدين ابراهيم محمود

٢٠٠ ـ تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور

(أعمال الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية فى يومى ٢٢، ٢٣ ابريل ١٩٩٨م)

اعداد/ د. عبدالعظيم رمضان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٥٥٢ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7141 - 7